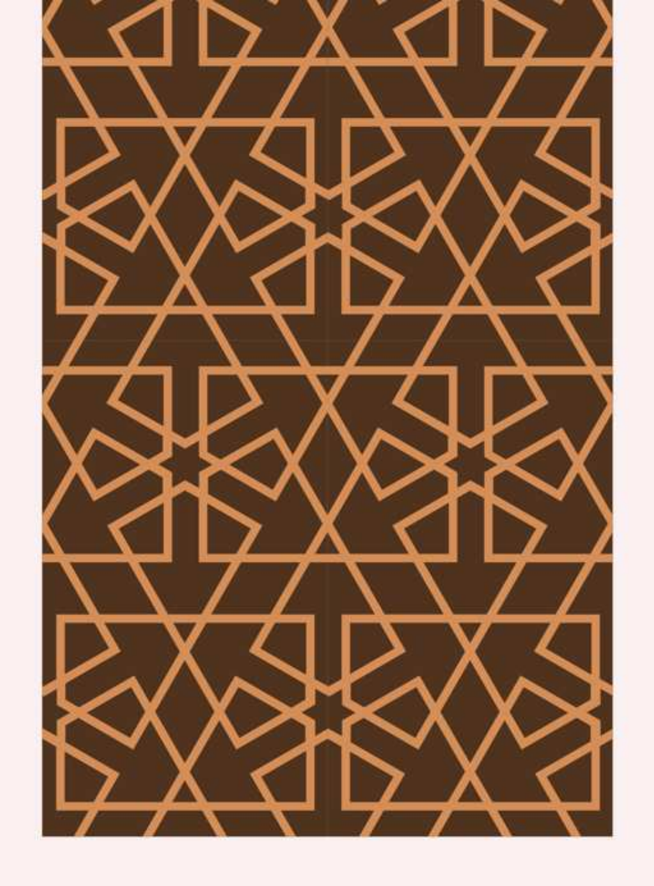


جواهر البلاغة

في المعاني والبيان والبديع

أحمد الهاشمي

جواهر البلاغة

في المعاني والبيان والبديع

تأليف
أحمد الهاشمي



جواهر البلاغة

أحمد الهاشمي

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: خالد المليجي.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٦٣٨ ٦

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدًا لمن خصَّ سيد الرسل بكمال الفصاحة بين البدو والحضر، وأنطقه بجوامع الكَلِم فأعجز بلغاء ربيعةَ ومُضَر، وأنزل عليه الكتاب المُفْحِم بتحديه مصاقع بلغاء الأعراب، وأتاه بحكمته أسرار البلاغة وفصل الخطاب، ومنحه الأسلوب الحكيم[1] في جوامع كلمه، وخصَّ «السعادة الأبدية» لمقتفي آثاره وحِكَمه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه «جواهر البلاغة» الذين نظَموا لآلئ البديع في عقود الإيجاز والإطناب، فَفُهنا بعد اللَّكَن «بجواهر الإعراب» ونطقنا «بميزان الذهب» وطرَّزنا سطور الطُّروس «بجواهر الأدب»، فصارت «المفرد العَلَم» في باب النسب.

«وبعدُ» فإن العلوم أرفع المطالب، وأنفع المآرب، وعلم البلاغة من بينها أجلها شأنًا وأبينها تبيانًا؛ إذ هو الكفيل بإيضاح حقائق التنزيل، وإفصاح دقائق التأويل، وإظهار «دلائل الإعجاز» ورفع معالم الإيجاز.

ولاشتغالي بتدريس البيان بالمدارس الثانوية كانت البواعث داعية إلى تأليف كتاب «جواهر البلاغة» جامعًا للمهمات من القواعد والتطبيقات، وأسأل المولى — جل شأنه — أن ينفع بهذا الكتاب، وهو الموفق للحق والصواب.

المؤلف

السيد أحمد الهاشمي

هوامش

(١) الأسلوب الحكيم، والسعادة الأبدية، وجواهر البلاغة، وجواهر الإعراب، وجواهر الأدب، وميزان الذهب. والمفرد العَلَم — الواردة في هذه الخطبة — أسماء بعض كتب مطبوعة لمؤلف هذا الكتاب. وغيرها من القواعد الأساسية للغة العربية، ومختار الأحاديث النبوية والحكم المحمدية، والسحر الحلال في الحكم والأمثال.

تمهيد

لَمَّا وُضِعَ «علم الصرف» للنظر في أبنية الألفاظ.

ووُضع علم النحو للنظر في إعراب ما تركَّب منها.

وُضِعَ «البيان»[1] للنظر في أمر هذا التركيب، وهو ثلاثة علوم:

العلم الأول: ما يُحترز به عن الخطأ في تأدية المعنى الذي يريده المتكلم لإيصاله إلى ذهن السامع، ويُسمَّى «علم المعاني».

العلم الثاني: ما يحترز به عن التعقيد المعنوي — أي عن أن يكون الكلام غير واضح الدلالة على المعنى المراد — ويُسمى «علم البيان».

العلم الثالث: ما يُراد به تحسين الكلام، ويسمَّى «علم البديع». فعلم البديع تابع لهما؛ إذ بهما يُعرف التحسين الذاتي، وبه يُعرف التحسين العرضي.

والكلام باعتباره «المعاني والبيان» يقال إنه: «فصيحٌ» من حيث اللفظ؛ لأن النظر في الفصاحة إلى مجرَّد اللفظ دون المعنى.

و«بليغ» من حيث اللفظ والمعنى جميعًا؛ لأن البلاغة يُنظر فيها إلى الجانبين.[2]

وأما باعتبار البديع فلا يقال: إنه فصيح ولا بليغ؛ لأن البديع أمر خارجي يُراد به تحسين الكلام لا غير.

إذا تقرر ذلك وجب على طالب البيان أن يعرف قبل الشروع فيه معرفة معنى «الفصاحة والبلاغة»؛ لأنهما محوره، وإليهما مرجع أبحاثه، فهما الغاية التي يقف عندها المتكلم والكاتب، والضالة التي ينشدانها.

وما عقد أئمةُ البيان الفصولَ، ولا بوَّبوا الأبواب إلا بُغية أن يوقفوا المسترشد على تحقيقات وملاحظات وضوابط إذا رُوعيت في خطابه أو كتابه بلغت الحد المطلوب من

سهولة الفهم، وإيجاد الأثر المقصود في نفس السامع؛ واتصفت مِن ثَمَّ بصفة الفصاحة[٣] والبلاغة.

هوامش

(١) علم البيان في اصطلاح المتقدمين من أئمة البلاغة يطلق على فنونها الثلاثة من باب تسمية الكل باسم البعض، وخصه المتأخرون بالعلم الباحث عن المجاز والاستعارة والتشبيه والكناية، والغرض منه صوغ الكلام بطريقة تبين ما في نفس المتكلم من المقاصد، وتوصل الأثر الذي يريده إلى نفس السامع.

(٢) وبيان ذلك أن الفصاحة تمام آلة البيان، فهي مقصورة على اللفظ؛ لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى؛ فإذن هي كمال لفظي توصف به الكلمة والكلام. والبلاغة إنما هي إنهاء المعنى في القلب، فكأنها مقصورة على المعنى. ومن الدليل على أن الفصاحة تتضمن اللفظ، والبلاغة تتناول المعنى، أن الببغاء يُسمى فصيحًا ولا يُسمى بليغًا؛ إذ هو مقيم الحروف وليس لها قصد إلى المعنى الذي يؤديه. وقد يجوز مع هذا أن يُسمى الكلام الواحد فصيحًا بليغًا إذا كان واضح المعنى، سهل اللفظ، جيد السبك، غير مستكره فج، ولا متكلَّف وخم، ولا يمنعه من أحد الاسمين شيء لما فيه من إيضاح المعنى وتقويم الحروف.

واعلم أن الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البيِّن، وإنما كان ظاهرًا بيِّنًا؛ لأنه مألوف الاستعمال، وإنما كان مألوف الاستعمال بين النابهين من الكُتاب والشعراء لمكان حسنه، وحسنه مدرَك بالسمع، والذي يُدرَك بالسمع إنما هو اللفظ؛ لأنه صوت يتألف من مخارج الحروف، فما استلذه السمع منه فهو الحسن، وما كرهه فهو القبيح، والحسن هو الموصوف بالفصاحة، والقبيح غير موصوف بالفصاحة؛ لأنه ضدها لمكان قبحه.

(٣) يرى الإمام عبد القاهر الجرجاني وجمع من المتقدمين أن الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة ألفاظ مترادفة لا تتصف بها المفردات، وإنما يُوصف بها الكلام بعد تحري معاني النحو فيما بين الكلم حسب الأغراض التي يُصاغ لها.

قال أبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين: الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنًى واحد، وإن اختلف أصلاهما؛ لأن كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له. وقال الرازي في نهاية الإيجاز: وأكثر البلغاء لا يكادون يُفرقون بين الفصاحة والبلاغة. وقال الجوهري في كتاب الصِّحَاح: الفصاحة هي البلاغة.

مقدمة

في معرفة الفصاحة والبلاغة[1]

(١) الفصاحة

الفصاحة: تُطلق في اللغة على معانٍ كثيرة؛ منها البيان والظهور، قال الله تعالى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾؛ أي أبين منِّي منطقًا، وأظهر مني قولًا.

ويقال: أفصح الصبي في منطقه إذا بان وظهر كلامه.

وقالت العرب: أفصح الصبح إذا أضاء، وفصح أيضًا.

وأفصح الأعجمي: إذا أبان بعد أن لم يكن يُفصح ويُبين.

وفصح اللسان: إذا عبَّر عمَّا في نفسه، وأظهره على وجه الصواب دون الخطأ.

والفصاحة — في اصطلاح أهل المعاني: عبارة عن الألفاظ البيِّنة الظاهرة، المتبادَرة إلى الفهم، والمأنوسة الاستعمال بين الكُتاب والشعراء لمكان حُسنها.

وهي تقع وصفًا للكلمة، والكلام، والمتكلِّم، حسبما يعتبر الكاتب اللفظة وحدها، أو مسبوكة مع أخواتها.

(١-١) فصاحة الكلمة

(١) خلوصها من تنافر الحروف؛ لتكون رقيقة عذبة، تخف على اللسان، ولا تَثْقُل على السمع؛ فلفظ «أسد» أخف من لفظ «فَدَوْكَسٍ»!

(٢) خلوصها من الغرابة، وتكون مألوفة الاستعمال.
(٣) خلوصها من مخالفة القياس الصرفي؛ حتى لا تكون شاذة.
(٤) خلوصها من الكراهة في السمع.[٢]

أما «تنافر الحروف» فهو وصف في الكلمة يوجب ثِقلها على السمع وصعوبة أدائها باللسان؛ بسبب كون حروف الكلمة متقاربة المخارج. وهو نوعان:

(١) شديد في الثقل؛ كالظَّش (للموضع الخشن)، ونحو: هُعْخُع (لنبت ترعاه الإبل) من قول أعرابي:

تركتُ نَاقتي ترْعَى الهُعْخُع

(٢) وخفيف في الثقل؛ كالنقنقة (لصوت الضفادع) والنُّقَاخ (للماء العذب الصافي)، ونحو: مستشزرات (بمعنى مرتفعات) من قول امرئ القيس يصف شَعر ابنة عمِّه:

غدائرهُ مُسْتشْزِراتٌ إلى العلا تَضِل العقاصَ في مُثنًّى ومُرْسَل[٣]

ولا ضابط لمعرفة الثقل والصعوبة سوى الذوق السليم، والحِس الصادق الناجمَيْن عن النظر في كلام البلغاء، وممارسة أساليبهم.[٤]

وأما غرابة الاستعمال فهي كون الكلمة غير ظاهرة المعنى، ولا مألوفة الاستعمال عند العرب الفصحاء؛ لأنَّ المعوَّل عليه في ذلك استعمالهم.

والغرابة قسمان:

القسم الأول: ما يُوجب حيرة السامع في فَهْم المعنى المقصود من الكلمة؛ لترددها بين معنيين أو أكثر بلا قرينة.

وذلك في الألفاظ المشتركة «كمُسرَّج» من قول رُؤبَة بن العَجاج:

ومُقْلةً وحَاجِبًا مُزَججَا وفاحمًا ومَرْسنًا مُسَرَّجا[٥]

فلا يُعلم ما أراد بقوله: «مُسرَّجا» حتى اختلف أئمة اللغة في تخريجه.

فقال «ابن دريد»: يريد أن أنفه في الاستواء والدِّقة كالسيف السُّريجي.

وقال «ابن سِيدَه»: يريد أنه في البريق واللمعان كالسراج.[٦]

فلهذا يحتار السامع في فهم المعنى المقصود لتردد الكلمة بين معنيين.

بدون «قرينة» تُعيِّن المقصود منهما.

فلأجل هذا التردد، ولأجل أن مادة «فعل» تدل على مجرد نسبة شيء لشيء، لا على النسبة التشبيهية؛ كانت الكلمة غير ظاهرة الدلالة على المعنى فصارت غريبة.

وأما مع القرينة فلا غرابة، كلفظة «عَزَّر» في قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ فإنها مشتركة بين التعظيم والإهانة، ولكن ذكر النصر قرينة على إرادة التعظيم.

القسم الثاني: ما يُعاب استعماله لاحتياج إلى تتبُّع اللغات، وكثرة البحث والتفتيش في «المعاجم وقواميس متن اللغة المطولة».

(أ) فمنه ما يُعثر فيها على تفسير بَعْدَ كَدٍّ وبحثٍ، نحو: تكأكأتُم «بمعنى اجتمعتم» من قول عيسى بن عمرو النحوي: ما لكم تَكأكَأْتُم[٧] عليَّ كَتكأكُئِكُم على ذي جنَّة[٨] افرنقعوا عني.[٩] ونحو «مُشمَخِرٍّ» في قول بشر بن عوانة يصف الأسد:

فخرَّ مُدَرَّجًا بِدمٍ كأني هَدَمْتُ به بِناءً مُشمَخِرا

(ب) ومنه ما لم يُعثر على تفسيره نحو «جَحْلَنْجَع» من قول أبي الْهَمَيْسَع:

مِنْ طَمحة صَبِيرها جَحلنَجَع[١٠] لم يحضها الجدول بالتنوُّع

وأما «مخالفة القياس» فهو كون الكلمة شاذة غير جارية على القانون الصرفي المستنبط من كلام العرب، بأن تكون على خلاف ما ثبت فيها عن العُرف العربي الصحيح،[١١] مثل «الأجْلَل» في قول أبي النَّجْم:

الحمدُ للهِ العَليِّ الأجْلَلِ الواحدِ الفَرْدِ القَدِيم الأوَّلِ

فإن القياس «الأجَلَّ» بالإدغام، ولا مسَوِّغ لفكهِ.
وكقطع همزة وصل «إثنين» في قول جميل:

ألا لا أرى إثـنـيـن أحـسـن شِـيـمـة على حدثان الدَّهر منِّي ومن جَمل[12]

ويُستثنى من ذلك ما ثبت استعماله لدى العرب مخالفًا للقياس ولكنه فصيح.
لهذا لم يخرُج عن الفصاحة لفظتا «المشرق والمغرب» بكسر الراء، والقياس فتحها فيهما. وكذا لفظتا «المُدهُن والمُنْخُل»، والقياس فيهما مِفْعَل بكسر الميم وفتح العين. وكذا نحو قولهم: «عَور» والقياس عار؛ لتحرُّك الواو وانفتاح ما قبلها.
وأما «الكراهة في السمع» فهو كون الكلمة وحشية، وتأنفها الطِّباع، وتمجها الأسماع، وتنبو عنها كما تنبو عن سماع الأصوات المنكرة «كالجِرِشَّى» للنفْس في قول أبي الطيب المُتنبيِّ يمدح سيف الدَّولة:

مُـبَـارَكُ الاسْـم أغـرُّ الـلـقـبْ كَريمُ الجِرِشَّى شريفُ النسَبْ

وملخص القول: إن فصاحة الكلمة تكون بسلامتها من تنافر الحروف، ومن الغرابة، ومن مخالفة القياس، ومن الابتذال والضعف. فإذا لصق بالكلمة عيب من هذه العيوب السابقة وجب نبذها واطِّراحها.

تطبيق «١»

ما الذي أخل بفصاحة الكلمات فيما يأتي:
(١) قال يحيى بن يعمر لرجل حاكمته امرأته إليه: «أَئِنْ سألَتْكَ ثَمنَ شكْرِها وشَبرِك، أخذْتَ تُطلها وتُضهِلها؟»
(٢) وقال بعض أمراء العرب، وقد اعتلَّتْ أمُّه، فكتب رِقاعًا وطرحها في المسجد الجامع بمدينة السلام: صِينَ امرؤٌ ورَعا، دعا لامرأةٍ أنقحُلة، مُقْسَئِنَّة، قد مُنيت بأكل الطرموق، فأصابها من أجله الاستِمْصَال بأن يَمُنَّ الله عليها بالاطرعشاش والابرغشاش.
(٣) أسمع جَعجَعة ولا أرى طِحنًا. الإسْفِنط حرام. وهذا الخَنشليل صَقيل. والفَدَوْكس مُفترس.

(٤) يوم عَصَبصب، وهِلَّوف، ملأ السَّجْسَج طَلَا.

(٥) أَمِنًّا أنْ تصَرَّعَ عن سَماحٍ ولـلآمـال فـي يـدكِ اصْـطِـرَاع

وقال الفرزدق:

(٦) وإذا الرِّجالُ رأَوْا يَزِيدَ رأيتَهُم خُضـعَ الـرِّقـاب نـواكس الأبـصـار

وقال أبو تمام:

(٧) قد قلت لمَّا اطلَخَمَّ الأمرُ وانبعثَتْ عـشْـوَاءُ تـالِـيـةً غُـيـسًـا دَهـاريـسـا

وقال شِمْر:

(٨) وأحمق مِمَّن يَكرَعُ الماءَ قال لي دَعِ الـخمرَ واشربْ مِن نقاخٍ مُبرَّدِ

(٩) يظل بِمَوْمَاةٍ ويُمسِي بغيرها جَحِيشا ويَعرورَى ظهور المسالك

(١٠) فلا يُبرَمُ الأمرُ الذي هو حالِل ولا يُـحـلـلُ الأمـرُ الـذي هـو يُـبـرِم

مـقـابلٌ فـي ذُرا الأذواء مـنـصـبـه عَيْصًا فعيصًا وقُدْمُوسًا فقُدْمُوسًا

وقال أبو تمام:

نِعْمَ متاعُ الدنيا حَبَاك به أَوْرَعُ لا جَيْدَرٌ ولا جِبْسُ

وقال امرؤ القيس:

(١١) رُبَّ جَفنةٍ مُثْعَنْجِرَة، وطعنةٍ مُسْحَنْفِرة، وخطبةٍ مُستحضَرة، وقصيدة مُحبرة، تبقى غدًا بأنقرة — أكلت العرين، وشربت الصُّمادح إني إذا أنشدت لأحبَنْطَى نزل بزيد

داهية خنْفيق، وحل به عنْقَفِير لم يجد منها مَخلصًا. رأيت ماء نُقاخًا ينباع من سفح جبل شامخ، إخال إنك مَصْوُون — البُعاق ملأ الجرْدَحْل.

(١٢) فإن يكُ بعض الناس سيفًا لدولة ففي الناس بُوقات لها وطبول

نقيٌّ تقيٌّ لم يكثِّر غنيمة بنكهة ذي القربى ولا بحَقَلَّد

(١٣) إن بَنِيَّ لَلِئامٌ زَهْدَه مالي في صدورهم من مَوْدَده

(١٤) رمتني مَيٌّ بالهوى رمي ممضغ من الوحش لَوْطٌ لم تعقْهُ الأوَالس
(١٥) بعينين نجلاوين لم يجر فيهما ضمان وجيد حلي الدُّرِّ شامس

(١٦) عِلمي إلى عِلمك كالقرارة في المُثْعَنْجَر.

(١٧) إن بعضًا من القريض هُرَاء ليس شيئًا، وبعضه إحكام
(١٨) فيه ما يجلب البراعة والفهم وفيه ما يجلب البرسام

(١٩) ومِن الناس مَن تجوز عليهم شعراء كأنها الخازَبَازُ

(١) الشكر: الرضاع. والشبر: النكاح. وتطلها: تسعى في بطلان حقها. وتضهلها: تعطيها الشيء القليل.

(٢) أنقحُلة: يابسة. ومُقْسَئِنَّة: مسنَّة عجوز. ومُنيت بأكل الطرموق: ابتُلِيَتْ بأكل الطين. والاستِمْصَال: الإسهال. وبالاطرعشاش: البرء، وكذا معنى ما بعده.

(٣) جعجعة: غير فصيحة لتنافر حروفها، وهو مثل يُضرب لمن يقول ولا يفعل. والإسْفِنط: الخمر. والخَنشليل: السيف. والفَدَوْكس: الأسد، فكل من هذه الألفاظ الثلاثة وحشية غير مألوفة.

(٤) شديد البرد فيهما، السجسج: الأرض التي ليست بسهلة ولا صلبة.

(٥) أراد: أنهم آمنوا أن يغلبه غالب يصرعه عن السماع ويمنعه منه، وأما قوله: «وللآمال في يدك اصطراع» فمعناه تنافس وتغالب وازدحام في يده، يريد كثرة نواله وكرمه، واستعماله للفظة الاصطراع بهذا المعنى بعيد.

(٦) فقد جمع «ناكس» على «فواعل» شدوذًا، وهذا لا يطَّرِد إلا في وصف لمؤنث عاقل لا لمذكر كما هنا إلا في موضعين «فوارس وهوالك». والناكس: مطأطئ الرأس.

(٧) قال صاحب المثل الثائر: إن لفظ «اطلخم» من الألفاظ المنكرة التي جمعت الوصفين القبيحين في أنها غريبة، وأنها غليظة في السمع، كريهة على الذوق، وكذلك لفظة «دهاريس». واطلخم: أي اشتد وعظم، والعشواء: الليلة المظلمة. والغبسة: جمع أغبس وغبسًا، وهي الشديد الظلام مثلها. والدهاريس: جمع دهريس وهي الدواهي.

(٨) نقاخٍ مُبرَّدِ: الماء العذب الصافي.

(٩) المَوْمَاة: المفازة الواسعة. ويقال للمستبد برأيه: جحيش. ويقال: اعرورى الفرس: ركبها عريانًا. وإن لفظة جحيش من الألفاظ المنكرة القبيحة — ويالله العجب — أليس أنها بمعنى فريد، وفريد لفظة حسنة رائقة، ولو وُضعت في هذا البيت موضع جحيش لما اختل شيء من وزنه، فتأبط شرًّا لأنه ملوم من وجهين في هذا الموضع: أحدهما أنه استعمل القبيح، والآخر أنه كانت له مندوحة عن استعماله فلم يعدل عنه.

(١٠) العيب في هذا البيت من حيث فك الإدغام في «حالل ويحلل» بلا مسوغ، وهو شاذ ومخالف للقياس الصرفي، ومخالف للكلام العربي الصحيح.

(١١) يريد بقوله «جَفنة»: صحفة كبيرة ملأى تُشبع عشرة. والمثعنجرة: السائلة. والمسحنفرة: الماضية بسرعة. وطعنة متسمة ببلد أنقرة. وهو كلام امرئ القيس لما قصد ملك الروم ليستنجده على قتلة أبيه، فهوته بنت الملك، وبلغ ذلك القيصر، فوعده أن يتبعه بالجنود إذا بلغ الشأم، أو يأمر من بالشام من جنوده بنجدته، فلما كان بأنقرة بعث إليه بثياب مسمومة، فلما لبسها تساقط لحمه؛ فعلم بالهلاك فقال: رب ... إلخ. وأكلت العرين، وشربت الصُّمادح: يريد اللحم والماء الخالص. واحبنطى: انتفخ بطنه. وخنْفيق: دهياء. ونُقاخًا: عذبًا. وينباع: ينبع ويسيل. ومصوون شاذة، وليست فصيحة لمخالفتها للقياس الصرفي. والبعاق: مطر السحاب، والجردحل: الوادي، وليستا فصيحتين لغرابتهما.

(١٢) بوقات: مزامير. والقياس في جمعه أبواق.

(١٣) مَوْدَده: القياس مودة بالإدغام.

(١٤) لوط: لازق. والأوالس: النياق.

(١٥) ضمان وجيد حلي الدُّرِّ شامس: ضرب من القلائد.

(١٦) المثعنجر لفظة متنافرة، والمعنى: إن علمي مقيس إلى علمك كالغدير الصغير موضوعًا في جانب البحر.

(١٧) القريض: الشِّعر. والهراء: الكلام الفاسد الذي لا نظام له. وأحكام: جمع حُكم، والمراد الحكمة.

(١٨) والبرسام — بفتح الباء وكسرها: التهاب الصدر.

(١٩) الخازَبَاز: صوت الذباب. وتجوز: تروح وتقبل.

تمرين «أ»

(١) فرِّق بين التنافر في الكلمة، وفي الكلام، واذكر السبب.

(٢) اذكر مثالًا للتعقيد اللفظي، وبين سبب هذا التعقيد، ثم أزله.

(٣) قد يلازم تنافر الحروف الغرابة، وقد تنفرد الغرابة عن التنافر، وضح ذلك بأمثلة مبتكرة.

(٤) كل كلام بليغ يكون فصيحًا ولا عكس. اشرح هذه العبارة، واستشهد عليها بما يحضرك.

تمرين «ب»

ميِّز الكلام الفصيح من غير الفصيح في كل ما يأتي، وبيِّن السبب:

(١) كلما قَرُبَتِ النفس من المال شبرًا بَعُدَت عن الفضيلة ميلًا.

(٢) شَكَتِ امرأةٌ صَمَعْمَعَةُ الرأس، مُتعثكلة الشعر، دَرْدَبيسًا حلت بها.

(٣) نَمْ وإن لم أنم كَرَايَ كراكا ... شاهدي الدمع، إنَّ ذاك كذاكا

(٤) فأصبحتْ بعد خطِّ بهجتها ... كأن قفرًا رسومها قلما

(٥) وازْوَرَّ من كان له زائرًا ... وعاف عافي العُرْف عرفانه

(٦) وأكرم من غمامٍ عند مُحْلٍ   فتًى يُحيي بمدْحته الكراما

(٧) أشكوك كوكك كي ينفك عن كنفي   ولا يُنيخ على الركاب كلكله

(٨) سأل كوفيٌّ خياطًا عن فرس ومُهر فَقَدهما فقال: «يا ذا النِّصاح، وذات السَّمِّ الطاعن بها في غير وغى لغير عِدًا: هل رأيت الخيفانة القبَّاء، يتبعها الحاسن المرْهف؟»

(٩) كتب أحدهم لصديقه يقول: «يا أحبَّ صواحبي وأعزَزهم عليَّ، يؤلمني أن أصبح مَقْصويًا عنك هذا الإقصاي، وأنت منِّي بمنزلة الروح من الجسد.»

(٢) الرأس الصمعمعة: الصغيرة.

(٤) الرسوم: آثار الديار.

(٥) ازْوَرَّ: أعرض. وعاف: كره. وعافي العُرْف: طالب المعروف.

(٦) للمغفور له أحمد شوقي، والمحل: الجدب.

(٧) أناخ بكلكله: هبط بمقدَّم صدره. وينسب البيت للمرحوم الشيخ حمزة فتح الله.

(٨) النِّصاح: الخيط. وذات السم: الإبرة. والخيفانة: الفرس الطويلة. والقباء: الدقيقة الخصر الضامرة. والحاسن: الجميل. والمرهف: المستريح.

تمرين

أيَّ أجزاء هذين البيتين غير فصيح:

(١) أصبحتُ كالثوب اللبيس قد أخلقت   جدَّاته منه فعاد مُذالا

(٢) رمتني ميٌّ رمي ممضغ   من الوحش لوط لم تعقه الأوالس

(١) لابن الرومي. واللبيس: الملبوس. والإخلاق: البلي. والجدة: صفة الثوب الجديد. والمذال: الممتهن.
(٢) اللوط: الخفيف السريع. والأوالس: النوق السريعة.

تطبيق

ما الذي أخلَّ بفصاحة الكلمات فيما يلي؟

يا نفسُ صبرًا كل حي لاقي وكل اثنين إلى افتراق

(١) أَبْعِدْ بَعِدْتَ بَياضًا لا بياضَ له لَأَنْتَ أسودُ في عيني من الظلم

(٢) لا نَشَب اليومَ ولا خُلَّة إتَّسعَ الفَتْقُ على الراقعِ

(٣) فأيقنتُ أني عند ذلك ثائر غداتَئِذ أو هالك في الهوالك

مهلًا أعاذلَ قد جرَّبتَ من خُلقي أني أجود لأقوام وإن ضنِنُوا

(٤) تشكو الوجى من أظْلَل وأظلل من طول إملال وظهر مُمْلِل

(٥) وقال ابن جحدر:

حلفتُ بما أَرْقَلَتْ حولَه هَمرجلةٌ خُلقُها شَيْظم
وما شَبْرَقَتْ من تَنُوفِيَّةٍ بها من وحي الجن زيزيزم

(٦) وقال ذو الرُّمة:

حتى إذا الهيْقُ أمسى شام أَفْرُخه وهُنَّ لا مُؤيس نـأيًا ولا كَشَبُ

وقال أبو نواس:

يا من جفاني وملَّا نسيتَ أهلًا وسهلَا

(١) الظلم: الليالي الثلاث آخر الشهر. ولا بياض له: لا حسن له. قاله المتنبي يخاطب الشيب، وخالف القياس في الأسود؛ لأنه لا يبنى اسم تفضيل من نحو سُود وحُمْر.

(٢) الخلة: الصداقة. والفتق: الشق. والراقع: مصلِح الفتق. وقد خالف القياس في اتسع؛ حيث قطع همزة الوصل.

(٣) هوالك: فواعل: لا يطرد في وصف العاقل كما هنا.

(٤) الوجى: الحفا. والأضلل: باطن خف البعير. وخالف القياس بفك الإدغام. تنبيهات: الأول من عيوب فصاحة اللفظة المفردة كونها مبتذلة؛ أي عامية ساقطة؛ كالفالق والشنطار ونحوهما. والابتذال ضَرْبان:

(أ) ما استعملته العامة ولم تغيره عن وضعه؛ فسخف وانحطت رتبته، وأصبح استعماله لدى الخاصة معيبًا؛ كلفظة البرسام في قول المتنبي:

إن بعضًا من القريض هراء ليس شيئًا وبعضه إحكام
فيه ما يجلب البراعة والفهم وفيه ما يجب البرسام

وكلفظة الخازَبَاز في قوله:

ومن الناس من تجوز عليهم شعراء كأنها الخازَبَار

(ب) ما استعملته العامة دالًّا على غير ما وُضع له، وليس بمستقبَح ولا مكروه؛ كقول المتلمس:

وقد أتناسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدَم

وكقول أبي نواس:

اختصم الجود والجمال	فيك فصارا إلى جدال
فقال هذا يمينه لي	للعرف والبذل والنوال
وقال هذاك وجهه لي	للظرف والحسن والكمال
فافترقا فيك عن تراضٍ	كلاهما صادق المقال

فوصف في الأول البعير بالصيعرية، وهي مختصة بالنوق، وفي الثاني الوجه بالظرف وهو في مختص بالنطق للفالق والشنطار، ونحوهما.

الثاني: لا تستعمل الألفاظ المبهمة إذا كان غرضك التعيين وإحضار صورة الشيء، أو المعنى المراد في الذهن.

الثالث: لا تستعمل اللفظ المشترك إلا مع قرينة تبين المراد من معانيه المشتركة.

(٥) الإرقام: الإسراع. الهمرجلة: الناقة السريعة. الشيظم: الطويل الجسيم من الإبل والخيل. شبرقت: قطعت. التنوفية والتنوفة: المفازة. الوحي: الصوت الخفي. زيزيزم: حكاية أصوات الجن.

(٦) الهيق: الظليم «ذكر النعام». شام البرق: نظر إليه أين يقصد وأين يمطر، واستعمل هنا للنظر إلى الأفرخ. النأي: البعد.

تدريب «١»

ما الذي أخلَّ بفصاحة الكلمات فيما يلي؟

(١) قال النابغة الذبياني:

أو دُميةٍ مرمرٍ مرفوعة	بُنيت بآجُرٍّ يُشاد بقَرْمَد

(٢) وقال أبو تمام:

لك هضبة الحلم التي لو وازنت	أجأ إذا ثقلت وكان خفيفا
وحلاوة الشيم التي لو مازجت	خلق الزمان الفدم عاد ظريفا

(٣) وقال المتنبي:

يُوسِّطه المفاوز كل يوم طِلاب الطالبين لا الانتظار

(١) الدمية: الصورة المنقوشة المزينة فيها حمرة كالدم، تُضرب مثلًا في الحسن. المرمر: الرخام. الآجُرُّ: مما يبنى به. القَرْمَد — بفتح القاف: ما يُطلى به للزينة، وقيل: حجارة لها خروق يوقد عليها فتنضج ويبنى بها، وقيل: الخزف المطبوخ.

(٢) الهضبة: الرابية. أجأ: جبل. الفدم: الغليظ الجافي. وصف الشيم بالحلاوة، وهي خاصة بالعينين. ووصف خلق الزمان بالظرف، وهو خاص بالنطق.

تدريب «٢»

ما الذي أخل بفصاحة الكلمات فيما يأتي؟

(١) لم يَلْقَها إلا بشكة باسلٍ يخشى الحوادث حازم مُستعدد

(٢) وأصبح مبيضَّ الضَّرِيب كأنه على سروات البيت قطن مُنْدِف

(٣) فأيقنت أني عند ذلك ثائر غداتئذ أو هالك في الهوالك

(٤) وملمومةٍ سيفيةٍ رَبَعِيَّة يصيح الحصا فيها صياحَ اللقائق

(٥) وألقى بصحراء الغَبيط بَعَاعَه نزول اليماني ذو العياب المُحمِّل

(٦) ليس التعلل بالآمال من أربي ولا القنوع بضنك العيش من شِيَمي

(١) الشكة: الخصلة. الباسل: الشجاع.

(٢) قائله الفرزدق، الضريب: الشبيه والمثيل. سروات البيت: أعاليه. مندف مندوف: من قولهم: ندف القطن ضربه بالمندف.

(٣) الثائر الذي لا يبقي على شيء حتى يدرك ثأره.

(٤) قائله المتنبي، ملمومة: كتيبة مجتمعة. سيفية: نسبة لسيف الدولة. ربعية: نسبة إلى ربيعة قبيلته. اللقالق: جمع لقلقة، وهي صوت اللقلاق «طائرًا»، أو هي كل صوت في اضطراب وحركة.

(٥) قائله امرؤ القيس. الغبيط: الأرض المطمئنة. وقيل: الواسعة المستوية برفع طرفاها. البعاع: ثقل السحاب من المطر، يقال: بع السحاب يبع بعًّا وبعاعًا إذا ألح بمكان، وألقى عليه باعه؛ أي ثقله. العياب: جمع عيبة، وهي ما يجعل فيه الثياب، يقال: جعل الرجل خير متاعه في عيبته. والمحل يروى بكسر الميم على جعل اليماني رجلًا، وبفتحها على جعله جملًا، والمعنى أن هذا المطر نزل بهذا المكان ولم يبرح كما نزل الرجل في ذلك الموضع. وضمير ألقى يرجع إلى السحاب فيما قبله.

(٦) القنوع: المسألة، يقال: قنع قنوعًا إذا سأل، والمراد القناعة.

(١-٢) فصاحة الكلام

فصاحة الكلام: سلامته بعد فصاحة مفرداته مما يُبْهِمُ معناه، ويحول دون المراد منه،[١٣] وتتحقق فصاحته بخلوه من ستة عيوب:

(١) تنافر الكلمات مجتمعة.
(٢) ضعف التأليف.
(٣) التعقيد اللفظي.
(٤) التعقيد المعنوي.
(٥) كثرة التكرار.[١٤]
(٦) تتابع الإضافات.

الأوَّل: تنافر الكلمات مجتمعة: أن تكون الكلمات ثقيلة على السمع من تركيبها مع بعضها، عسرة النطق بها مجتمعة على اللسان، «وإن كان كل جزء منه على انفراده فصيحًا».

والتنافر يحصل: إمَّا بتجاور كلمات متقاربة الحروف، وإما بتكرير كلمة واحدة.
(أ) ومنه شديد الثقل: كالشطر الثاني في قوله:

وقَبْر حرب بمكان قَفْر   وليس قُرْبَ قَبْرِ حَرْب قَبْرُ[15]

(ب) ومنه خفيف الثقل كالشطر الأول في قول أبي تمام:

كريم متى أمدحْه أمدحْه والورى   معي وإذا ما لُمْتُه لُمْتُه وحدي[16]

الثاني: ضعف التأليف: أن يكون الكلام جاريًا على خلاف ما اشتهر من قوانين النحو المعتبرة عند جمهور العلماء؛ كوصل الضميرين، وتقديم غير الأعرف منهما على الأعرف، مع أنه يجب الفصل في تلك الحالة؛ كقول المتنبي:

خَلَت البلادُ من الغزالة ليلَها   فأعاضَهاك الله كي لا تحزنا

وكالإضمار قبل ذكر مرجعه لفظًا ورتبة وحكمًا في غير أبوابه[17] نحو:

ولو أن مجدًا أخلد الدهر واحدًا   من الناس أبقى مجده الدهر «مُطعِما»[18]

الثالث: التعقيد اللفظي: هو كون الكلام خفي الدلالة على المعنى المراد به بحيث تكون الألفاظ غير مرتبة على وفق ترتيب المعاني.
«وينشأ ذلك التعقيد من تقديم أو تأخير أو فصل بأجنبي بين الكلمات التي يجب أن تتجاور ويتصل بعضها ببعض»[19] وهو مذموم؛ لأنه يوجب اختلال المعنى واضطرابه، من وضع ألفاظه في غير المواضع اللائقة بها؛ كقول المتنبي:

جفَخَتْ وهم لا يَجْفَخُون بهابهم   شِيَم على الحسَب الأغرِّ دلائل[20]

أصله: جفخت «افتخرت» بهم شيم دلائل على الحسب الأغر، وهم لا يجفخون بها.

الرابع: التعقيد المعنوي:[21] كون التركيب خفي الدلالة على المعنى المراد بحيث لا يُفهم معناه إلا بعد عناء وتفكير طويل.

وذلك لخلل في انتقال الذهن من المعنى الأصلي إلى المعنى المقصود بسبب إيراد اللوازم البعيدة، المفتقرة إلى وسائط كثيرة، مع عدم ظهور القرائن الدالة على المقصود «بأن يكون فهم المعنى الثاني من الأول بعيدًا عن الفهم عُرفًا»[٢٢] كما في قول عباس بن الأحنف:

سأطلب بُعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموع لِتَجمُدا[٢٣]

جعل سكب الدموع كناية عما يلزم في فراق الأحبة من الحزن والكمد؛ فأحسن وأصاب في ذلك، ولكنه أخطأ في جعل جمود العين كناية عما يوجبه التلاقي من الفرح والسرور بقرب أحبته، وهو خفي وبعيد؛[٢٤] إذ لم يُعرف في كلام العرب عند الدعاء لشخص بالسرور «أن يقال له: جَمُدت عينك» أو: لا زالت عينك جامدة، بل المعروف عندهم أن جمود العين إنما يُكنى به عن عدم البكاء حالة الحزن، كما في قول الخنساء:

أعينيَّ جودًا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى

وكما في قول أبي عطاء يرثي ابن هبيرة:

ألا إنَّ عينًا لم تَجُد يوم واسط عليك بجاري دمعها لجمود[٢٥]

وهكذا كل الكنايات التي تستعملها العرب لأغراض ويغيرها المتكلم ويريد بها أغراضًا أخرى تعتبر خروجًا عن سنن العرب في استعمالاتهم، ويُعد ذلك تعقيدًا في المعنى؛ حيث لا يكون المراد بها واضحًا.

الخامس: كثرة التكرار:[٢٦] كون اللفظ الواحد اسمًا كان أو فعلًا أو حرفًا.
وسواء أكان الاسم ظاهرًا أو ضميرًا تعدد مرَّة بعد أخرى بغير فائدة، كقوله:

إني وأسطارٍ سُطرنَ سطرًا لقائلٌ يا نصرُ نصرٌ نصرًا

وكقول المتنبي:

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِع احْمِلْ عَلِّ سَلِّ أعِد زِدْ هِشَّ بشَّ تفضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِل

وكقول أبي تمام في المديح:

كأنه في اجتماع الروح فيه له   في كل جارحة من جسمه روح

السادس: تتابع الإضافات: كون الاسم مضافًا إضافة متداخلة غالبًا، كقول ابن بابك:

حَمَامَةَ جَرْعَا حَوْمَةِ الْجَنْدَلِ اسْجَعِي   فأنتِ بمرأى مِن سُعاد ومَسْمَع[٢٧]

وملخص القول: إن فصاحة الكلام تكون بخلوِّه من تنافر كلماته، ومن ضعف تأليفه، وتعقيد معناه، ومن وضع ألفاظه في غير المواضع اللائقة بها.

تطبيق

بيِّن العيوب التي أخلَّت بفصاحة الكلام فيما يأتي:

لك الخير غيري رام من غيرك الغنى   وغـيـري بـغـيـر الـلاذقـيـة لاحـق

(١) وازْوَرَّ من كان له زائرًا   وعاف عافي العُرْف عرفانه

(٢) أنى يكون أبا البرايا آدم   وأبوك والثقلان أنت محمد؟

ومن جاهل بي وهو يجهل جهله   ويـجـهـل عـلـمـي أنـه بـي جـاهـل

وقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا   قـلاقـل هـم كـلـهـن قـلاقـل

(٣) وما مثله في الناس إلا مُمَلَّكًا   أبـو أمـه حَـيٌّ أبـوه يُـقـاربـه

(٤) إلى ملك ما أمه من محارب   أبوه ولا كانت كليب تصاهر

(٥) ليس إلاك يا علي همام   سيفه دون عِرضه مسلول

(٦) كسا حِلمُه ذا الحِلم أثواب سؤدد   ورقى نداه ذا الندَى في ذُرا المجد

(٧) من يهتدي في الفعل ما لا يهتدي   في القول حتى يفعل الشعراء

(٨) جزى بنوه أبا الغَيلان عن كبر   وحُسن فعل كما يُجزى سِنِمَّارُ

(٩) وما من فتًى كنَّا من الناس واحدًا   به نبتغي منهم عديلا نبادله

لما رأى طالبوه مصعبًا ذعروا   وكاد لو ساعد المقدور ينتصر

(١٠) نشر الملك ألسنته في المدينة ... مريدًا جواسيسه؛ أي: والصواب «نشر الملك عيونه».

لو كنت كنت كتمت السر كنت كما   كنا وكنت ولكن ذاك لم يكن

ألا ليت شِعري هل يلومن قومه   زهيرًا على ما جر من كل جانب

(١١) دانٍ بعيد محب مبغض بهج   أغر حلو ممر ليِّن شرس

(١٢) لأنت أسود في عيني من الظلم

(١٣) تسعدني في غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد

(١٤) وليست خراسان التي كان خالد بها أسد إذ كان سيفًا أميرها

(١٥) والشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

أرض لها شرف سواها مثلها لو كان مثلك في سواها يوجد

والمجد لا يرضى بأن ترضى بأن يرضى المعاشر منك إلا بالرضا

في رفع عرش الشر ع مثلك يشرع

(١٦) ومن لم يذُد عن حوضه بسلاحه يهدَّم ومَن لم يَظلمِ الناسَ يُظلَمِ

(١٧) متحيرين فباهت متعجب مما يرى أو ناظر متأمِّل

(١٨) فأصبحت بعد خط بهجتها كأنَّ قفرًا رسومها قلما

(١٩) وما أرضى لمقلته بحلم إذا انتهبت توهمه ابتشاكا

(١) العيب في تنافر الكلمات، والمعنى: انحرف عنه من كان يزوره، وكره طالب الإحسان معرفته.

(٢) يريد: كيف يكون آدم أبا البرايا وأبوك محمد وأنت الثقلان؛ أي الإنس والجن؟ يعني أنه قد جمع ما في الخليقة من الفضل والكمال. وقد فصل بين المبتدأ والخبر وهما أبوك ومحمد، وقُدم الخبر على المبتدأ تقديمًا قد يدعو إلى اللبس في قوله: «والثقلان وأنت» على أنه بعد هذا التعسف لم يسلم كلامه من سخف وهذر.

(٣) يريد الفرزدق مدح إبراهيم بن إسماعيل خال هشام بن عبد الملك، وما مثله في الناس حي «أحد» يقاربه «يشابهه» إلا مملكًا أبوه، فقدم المستثنى على المستثنى منه، وفصل بين مثل وحي وهما بدل ومبدل منه، وبين أبو أمه وأبوه وهما مبتدأ وخبر، وبين حي ويقاربه وهما نعت ومنعوت، ولا يُفصَل بين كل منهما بأجنبي. والمعنى: وليس مثل إبراهيم في الناس أحد يشبهه في الفضائل إلا ابن أخته هشام. فضمير أمه عائد على المُمَلَّك، وضمير أبوه عائد على إبراهيم الخال.

(٤) يريد: إلى ملك أبوه ليست أمه من محارب؛ أي ما أمه منهم.

(٥) فيه ضعف تأليف؛ حيث وضع الضمير المتصل بعد إلا، وحقه وضع المنفصل «إياك».

(٦) أي من كان ديدنه الحلم والكرم حاز السيادة والرفعة. فالضمير في حلمه لذا الحلم المذكور بعدُ، فهو المتأخر لفظًا ومعنى وحكمًا، وكذا الضمير في نداه لذا الندى.

(٧) أي يهتدي في الفعل ما لا يهتديه الشعراء في القول حتى يفعل.

(٨) العيب فيه من جهة أن ضمير بنوه عائد على أبا الغيلان، وهو متأخر لفظًا ورتبة؛ لأنه مفعول، ورتبته التأخر عن الفاعل، وسنمار رجل رومي بنى قصر الخورنق بظهر الكوفة للنعمان بن امرئ القيس ملك الحيرة، فلما فرغ منه ألقاه النعمان من أعلاه فخر ميتًا؛ لئلا يبني لغيره مثله.

(٩) أي: وما من فتى من الناس كنا نبتغي واحدًا منهم عديلًا نبادله به.

(١٠) لأن الذي يتوصل به إلى الأخبار عادة إنما هو العيون لا الألسنة.

(١١) فيه توالي الصفات، وذلك مما يُحدث في الكلام ثقلًا، وهذا مما يُؤخذ على «المتنبي».

(١٢) والقياس أشد سوادًا؛ لأنه لا يُبنى أفعل التفضيل من الأفعال الدالة على الألوان.

(١٣) معنى البيت: وتسعدني بالفوز بالغنائم والنجاة في شدة بعد شدة فرس سبوح؛ أي حسنة العدو لا تتعب راكبها، فكأنما تسبح على الماء.

(١٤) خالد وأسد: علَمان. والتعقيد فيه نشأ من تقديم أسد الذي هو جزء مما أضيف إليه إذ.

(١٥) أي: والشمس ليست بكاسفة نجوم الليل وهي تبكي عليك، والقمر يبكي عليك أيضًا، ففيه تعقيد نشأ من الفصل بين اللفظة التي هي كاسفة، ومفعولها الذي هو نجوم بجملة «تبكي عليك».

(١٦) فيه تعقيد معنوي؛ حيث كنى بالظلم عن المحافظة على الحقوق، وهو بعيد.

(١٧) باهت بمعنى مدهوش، لغة رديئة، واللفظ العربي المستعمل بُهت الرجل فهو مبهوت.

(١٨) أي: فأصبحت بعد بهجتها قفراء كأن قلمًا خط رسومها.

(١٩) المقلة: العين. والحلم: الرؤيا التي يراها النائم. والابتشاك: الكذب. قال الصاحب: لم يُسمع الابتشاك في شعر قديم ولا محدث.

(١-٣) فصاحة المتكلم

فصاحة المتكلم: عبارة عن الملكة[٢٨] التي يقتدر بها صاحبها على التعبير عن المقصود بكلام فصيح في أي غرض كان.

فيكون قادرًا بصفة الفصاحة الثابتة في نفسه على صياغة الكلام، متمكنًا من التصرف في ضروبه، بصيرًا بالخوض في جهاته ومناحيه.

أسئلة على الفصاحة يطلب أجوبتها

ما هي الفصاحة لغة واصطلاحًا؟ ما الذي يُوصف بالفصاحة؟

ما الذي يُخرج الكلمة عن كونها فصيحة؟

ما هي فصاحة المفرد؟ ما هو تنافر الحروف؟ وإلى كم ينقسم؟

ما هي الغرابة وما موجبها؟ ما هي مخالفة القياس؟ ما هي الكراهة في السمع؟ ما هي فصاحة الكلام؟ وبمَ تتحقق؟ ما هو تنافر الكلمات؟ وما موجبه؟ وإلى كم يتنوَّع؟

ما هو ضعف التأليف؟ ما هو التعقيد؟ وإلى كم ينقسم؟ ما هي كثرة التكرار؟ ما هو تتابع الإضافات؟ ما هي فصاحة المتكلم؟

(٢) البلاغة

البلاغة في اللغة «الوصول والانتهاء» يقال: بلغ فلان مراده إذا وصل إليه، وبلغ الركب المدينة إذا انتهى إليها،[٢٩] ومبلغ الشيء منتهاه.

وبلغ الرجل بلاغة فهو بليغ إذا أحسن التعبير عمَّا في نفسه.

وتقع البلاغة في الاصطلاح وصفًا للكلام والمتكلم فقط.

ولا توصف «الكلمة» بالبلاغة؛ لقصورها عن الوصول بالمتكلم إلى غرضه، ولعدم السماع بذلك.

(٢-١) بلاغة الكلام

البلاغة في الكلام: مطابقته لما يقتضيه حال الخطاب،[٣٠] مع فصاحة ألفاظه «مفردها ومركبها».

والكلام البليغ: هو الذي يصوِّره المتكلم بصورة تناسب أحوال المخاطبين.

وحال الخطاب (ويسمى بالمقام) هو الأمر الحامل للمتكلم على أن يورد عبارته على صورة مخصوصة دون أخرى.

والمُقْتَضَى (ويُسمَّى الاعتبار المناسب) هو الصورة المخصوصة التي تورد عليها العبارة.

مثلًا: المدح: حال يدعو لإيراد العبارة على صورة الإطناب.

وذكاء المخاطب: حال يدعو لإيرادها على صورة الإيجاز.

فكل من المدح والذكاء «حال ومقام»، وكل من الإطناب والإيجاز «مقتضى».

وإيراد الكلام على صورة الإطناب[٣١] أو الإيجاز «مطابقة للمقتضى» وليست البلاغة[٣٢] إذًا منحصرة في إيجاد معانٍ جليلة، ولا في اختيار ألفاظ واضحة جزيلة، بل هي تتناول مع هذين الأمرين أمرًا ثالثًا «هو إيجاد أساليب مناسبة للتأليف بين تلك المعاني والألفاظ» ما يكسبها قوة وجمالًا.

وملخص القول أن الأمر الذي يحمل المتكلم على إيراد كلامه في صورة دون أخرى يسمى «حالًا»، وإلقاء الكلام على هذه الصورة التي اقتضاها الحال يُسمى «مقتضى»، والبلاغة هي مطابقة الكلام الفصيح لما يقتضيه الحال.

(٢-٢) بلاغة المتكلم

بلاغة المتكلم: هي مَلَكة في النفس[٣٣] يقتدرُ بها صاحبها على تأليف كلام بليغ، مطابق لمقتضى الحال، مع فصاحته في أي معنًى قصده.

وتلك غاية لن يصل إليها إلا من أحاط بأساليب العرب خُبرًا، وعرف سنن تخاطبهم في منافراتهم، ومفاخراتهم، ومديحهم، وهجائهم، وشكرهم، واعتذارهم؛ ليلبس لكل حالة لبوسها «ولكل مقام مقال».

(٢-٣) أقوال ذوي النبوغ والعبقرية في البلاغة

(١) قال قدامة: البلاغة ثلاثة مذاهب:

المساواة: وهي مطابقة اللفظ المعنى، لا زائدًا ولا ناقصًا.

والإشارة: وهي أن يكون اللفظ كاللمحة الدالة.

والتذييل: وهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد؛ ليظهر لمن لم يفهمه، ويتأكد عند من فهمه.[٣٤]

(٢) وقيل لجعفر بن يحيى: ما البيان؟ فقال: أن يكون اللفظ محيطًا بمعناك، كاشفًا عن مغزاك، وتخرجه من الشركة، ولا تستعين عليه بطول الفكرة، ويكون سالمًا من التكلف، بعيدًا من سوء الصنعة، بريئًا من التعقيد، غنيًّا عن التأمل.[٣٥]

(٣) ومما قيل في وصف البلاغة: لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يُسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك.[٣٦]

(٤) وسأل معاوية صحارًا العبدي: ما البلاغة؟ قال: أن تجيب فلا تبطئ، وتصيب فلا تخطئ.[٣٧]

(٥) وقال الفضل: قلت لأعرابي ما البلاغة؟ قال: الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل.[٣٨]

(٦) وسئل ابن المقفع: ما البلاغة؟ فقال: البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة: فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابًا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرًا، ومنها ما تكون سجعًا وخطبًا، ومنها ما يكون رسائل، فعامَّة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها، والإشارة إلى المعنى، والإيجاز: هو البلاغة.

فأما الخُطَب بين السِّماطين وفي إصلاح ذات البين؛ فالإكثار في غير خطل، والإطالة في غير إملال، وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك. فقيل له: فإن مَلَّ المستمع الإطالة

التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف؟ قال: إذا أعطيت كل مقام حقه، وقُمْت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام — فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو؛ فإنه لا يرضيهما شيء، وأما الجاهل فلستَ منه وليس منك، وقد كان يقال: «رضاء الناس شيء لا يُنال».[٣٩]

(٧) ولابن المعتز: أبلغ الكلام: ما حسن إيجازه، وقل مجازه، وكثر إعجازه، وتناسبت صدوره وأعجازه.[٤٠]

(٨) وسمع خالد بن صفوان رجلًا يتكلم، ويكثر الكلام، فقال: اعلم «رحمك الله» أن البلاغة ليست بخفة اللسان، وكثرة الهذيان، ولكنها بإصابة المعنى، والقصد إلى الحجة.[٤١]

(٩) ولبشر بن المعتمر فيما يجب أن يكون عليه الخطيب والكاتب رسالة من أنفس الرسائل الأدبية البليغة، جمعت حدود البلاغة، وصورتها أحسن تصوير.

وسنذكر مع شيء من الإيجاز ما يتصل منها بموضوعنا، قال: خذ من نفسك ساعة نشاطك، وفراغ بالك، وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرًا، وأشرف حسبًا، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين، وغرَّة من لفظ شريف، ومعنًى بديع.

واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكدِّ، والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلف والمعاودة.

وإيَّاك والتوعُّر؛ فإن التوعر يُسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويَشين ألفاظك، ومن أراد معنى كريمًا فليلتمس له لفظًا كريمًا، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقِّهما أن تصونهما عما يفسدهما ويُهجِّنهما …

وكن في ثلاث منازل: فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقًا عذبًا، وفخمًا سهلًا، ويكون معناك ظاهرًا مكشوفًا، وقريبًا معروفًا.

إمَّا عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتَّضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال، وكذلك اللفظ العامي والخاصي.

فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك … على أن تُفْهِم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسعة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكْفاء — فأنت البليغ التام.

فإن كانت المنزلة الأولى لا تُواتيك ولا تعتريك، ولا تسنح لك عند أول نظرك، وفي أول تكلفك، وتجد اللفظة لم تقع موقعها، ولم تصل إلى قرارها وإلى حقِّها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحُلَّ في مركزها وفي نصابها، ولم تصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها، نافرة من موضعها — فلا تُكرهها على اغتصاب الأماكن، والنزول في غير أوطانها؛ فإنك إذا لم تتعاطَ قرض الشعر الموزون، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور، لم يعِبْك بترك ذلك أحد، وإن أنت تكلفته، ولم تكن حاذقًا مطبوعًا، ولا محكِمًا لسانك، بصيرًا بما عليك أو ما لك — عابك من أنت أقل عيبًا منه، ورأى من هو دونك أنه فوقك.

فإن ابتُليت بأن تتكلف القول، وتتعاطى الصنعة، ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة، وتعصى عليك بعد إحالة الفكرة — فلا تعجل، ولا تضجر، ودعه بياضَ يومِك، أو سوادَ ليلِك، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك؛ فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة، إن كانت هناك طبيعة، أو جريت من الصناعة على عرق.

فإن تمنَّع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض، ومن غير طول إهمال — فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك، وأخفها عليك؛ لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود به مع المحبة والشهوة، فهكذا هذا.

وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات؛ فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا، ولكل حالة من ذلك مقامًا؛ حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات.

وبعدُ؛ فأنت ترى فيما قالوه أن حد البلاغة هو أن تجعل لكل مقام مقالًا؛ فتوجز حيث يحسن الإيجاز، وتُطنِب حيث يجمُل الإطناب، وتؤكد في موضع التوكيد، وتقدم أو تؤخر إذا رأيت ذلك أنسب لقولك وأوفى بغرضك، وتخاطب الذكي بغير ما تخاطب به الغبي، وتجعل لكل حال ما يناسبها من القول، في عبارة فصيحة، ومعنًى مختار.

ومن هنا عَرَّفَ العلماء «البلاغة» بأنها: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحة عباراته.

واعلم أن الفرق بين الفصاحة والبلاغة أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفًا للألفاظ مع المعاني، وأن الفصاحة تكون وصفًا للكلمة والكلام، والبلاغة لا تكون وصفًا للكلمة، بل تكون للكلام، وأن فصاحة الكلام شرط في بلاغته، فكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغًا، كالذي يقع فيه الإسهاب حين يجب الإيجاز.

تمرين

بيِّن الحال ومقتضاه فيما يلي:

(١) هَناءٌ مَحَا ذاكَ العزاءَ المقدَّما   فما عَبَسَ المحزونُ حتى تَبَسَّما

(٢) تقول للراضي عن إثارة الحروب: «إن الحرب مَتْلَفة للعِباد، ذهَّابة بالطارِف والتِّلاد.»

(٣) يقول الناس إذا رأوا لصًّا أو حريقًا: «لصٌّ»، «حريقٌ».

(٤) قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

(٥) يقول راثي البرامكة:

أُصبتُ بسادة كانوا عيونًا   بهم نُسْقَى إذا انقطع الغَمام

(١) الحال هنا هو تعجيل المسرة، والمقتضى هو تقديم الكلمة الدالة على السرور، وهي كلمة «هناء».

(٢) الحال هنا هو إنكار الضرر من الحرب، والمقتضى هو توكيد الكلام.

(٣) الحال هنا هو ضيق المقام، والمقتضى هو الاختصار بحذف المسند إليه، والتقدير: هذا لص، هذا حريق.

(٤) الحال في ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾ هو عدم نسبة الشر إلى الله تعالى، والمقتضى هو حذف الفاعل؛ إذ الأصل: أشر أراده الله بمن في الأرض؟

والحال في ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ هو نسبة الخير إلى الله تعالى، والمقتضى بقاء الفاعل من غير حذف «أي فعل الإرادة جاء مع الشر على صورة المبني للمجهول، ومع الرشد على صورة المبني للمعلوم، والحال الداعية إلى بناء الأول للمجهول «التأدب» في جانب الله تعالى بعدم نسبة الشر إليه صراحة، وإن كان الخير والشر مما قدره الله تعالى وأراده».

(٥) الحال هنا هو الخوف من «الرشيد» ناكب البرامكة، والمقتضى حذف الفاعل من أُصبت.

ملاحظات

(١) التنافر: يُعرف «بالذوق» السليم، والحس الصادق.[٤٢]
(٢) مخالفة القياس: تُعرف «بعلم الصَّرف».
(٣) ضعف التأليف والتعقيد اللفظي: يُعرفان «بعلم النحو».
(٤) الغرابة: تُعرف بكثرة «الاطلاع» على كلام العرب، والإحاطة بالمفردات المأنوسة.
(٥) التَّعقيد المعنوي: يُعرف «بعلم البيان».
(٦) الأحوال ومقتضياتها: تُعرف «بعلم المعاني».
(٧) خُلوُّ الكلام من أوجه التَّحسين التي تكسوه رقة ولطافة بعد رعاية مطابقته: يعرف «بعلم البديع».

فإذًا وجب على طالب البلاغة: معرفة اللغة، والصَّرف، والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع، مع كونه سليم الذوق، كثير الاطلاع على كلام العرب، وصاحب خبرة وافرة بكتُب الأدب، ودراية تامة بعاداتهم وأحوالهم، واستظهار للجيد الفاخر من نثرهم ونظمهم، وعلم كامل بالنابغين من شعراء وخطباء وكُتَّاب ممَّن لهم الأثر البين في اللغة، والفضل الأكبر على اللسان العربي المبين.

(٢-٤) أسباب ونتائج

يحسُن أيضًا بطالب البلاغة أن يَعْرِف شيئًا عن «الأسلوب» الذي هو المعنى المصوغ في ألفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب لنيل الغرض المقصود من الكلام، وأفعل في نفوس سامعيه.

وأنواع الأساليب ثلاثة:

الأسلوب العلمي

وهو أهدأ الأساليب، وأكثرها احتياجًا إلى المنطق السليم، والفكر المستقيم، وأبعدُها على الخيال الشِّعري؛ لأنه يخاطب العقل، ويُناجي الفكر، ويشرح الحقائق العلمية التي لا تخلو من غموض وخفاء، وأظهر ميزات هذا الأسلوب «الوضوح»، ولا بدَّ أن يبدو فيه أثر القوة والجمال، وقوَّته في سطوع بيانه، ورصانة حججه، وجماله في سهولة عباراته، وسلامة الذوق في اختيار كلماته، وحسن تقريره المعنى في الأفهام من أقرب وجوه الكلام.

فيجب أن يُعنَى فيه باختيار الألفاظ الواضحة الصريحة في معناها، الخالية من الاشتراك، وأن تُؤَلَّف هذه الألفاظ في سهولة وجلاء؛ حتى تكون ثوبًا شفافًا للمعنى المقصود، وحتى لا تُصبح مثارًا للظنون، ومجالًا للتوجيه والتأويل.

ويحسن التَّنحي عن المجاز ومحسِّنات البديع في هذا الأسلوب، إلا ما يجيء من ذلك عفوًا، من غير أن يمسَّ أصلًا من أصوله، أو ميزة من ميزاته.

أمَّا التشبيه الذي يُقصد به تقريب الحقائق إلى الأفهام، وتوضيحها بذكر مماثلها — فهو في هذا الأسلوب مقبول.

الأسلوب الأدبي

والجمال أبرز صفاته، وأظهر مميزاته، ومنشأ جماله؛ لما فيه من خيال رائع، وتصوير دقيق، وتلمُّس لوجوه الشبه البعيدة بين الأشياء، وإلباس المعنوي ثوب المحسوس، وإظهار المحسوس في صورة المعنوي.

هذا؛ ومن السهل عليك أن تعرف أنَّ الشِّعر والنَّثر الفني هما موطنا هذا الأسلوب، ففيهما يزدهر، وفيهما قنَّة الفنِّ والجمال.

الأسلوب الخطابي

هنا تبرز قوَّة المعاني والألفاظ، وقوة الحجَّة والبرهان، وقوة العقل الخصيب، وهنا يتحدث الخطيب إلى إرادة سامعيه لإثارة عزائمهم، واستنهاض هممهم. ولجمال هذا الأسلوب ووضوحه شأن كبير في تأثيره، ووصوله إلى قرارة النفوس. ومما يزيد في تأثير هذا الأسلوب منزلة الخطيب في نفوس سامعيه، وقوة عارضته، وسطوع حجَّته، ونبرات صوته، وحسن إلقائه، ومُحْكَم إشاراته.

ومن أظهر مميزات هذا الأسلوب «التكرار»، واستعمال المترادفات، وضربُ الأمثال، واختيار الكلمات الجزلة ذات الرَّنين.

ويحسن فيه أن تتعاقب ضروب التعبير: من إخبار، إلى استفهام، إلى تعجُّب، إلى استنكار، وأن تكون مواطن الوقف كافية شافية، ثم واضحة قوية.

ويظن الناشئون في صناعة الأدب أنه كلما كثر المجاز وكثرت التشبيهات والأخيلة في هذا الأسلوب — زاد حسنه، وهذ خطأ بيِّن؛ فإنه لا يذهب بجمال هذا الأسلوب أكثر من التكلف، ولا يفسده شرٌّ مِن تعمُّد الصناعة.

هوامش

(١) مقدمة مشتقة من قدم اللازم، وهذه مقدمة كتاب؛ لأنها ألفاظ تقدمت أمام المقصود لارتباط له بها، وانتفاع بها فيه، بخلاف مقدمة العلم فهي معانٍ يتوقف المشروع عليها، كبيان حد العلم المشروع فيه، وموضوعه، وغايته.

واعلم أن علوم البلاغة أجلُّ العلوم الأدبية قدرًا، وأرسخها أصلًا، وأبسقها فرعًا، وأحلاها جنى، وأعذبها وِردًا؛ لأنها العلوم التي تستولي على استخراج درر البيان من معادنها، وتُريك محاسن النكت في مكامنها (ولولاها لم ترَ لسانًا يحوك الوشي، ويلفظ الدر، وينفث السحر، ويريك بدائع الزهر، وينثر بين يديك الحلو اليانع من الثمر)؛ فهي الغاية التي تنتهي إليها أفكار النظر، واللآلئ التي تتطلبها غاصة البحار؛ لهذا كانت منزلتها تلو العلم بتوحيد الله تعالى.

(٢) ففصاحة الكلمة تكونها من حروف متآلفة يسهل على اللسان نطقها من غير عناء، مع وضوح معناها، وكثرة تداولها بين المتكلمين، وموافقتها للقواعد الصرفية. ومرجع ذلك الذوق السليم، والإلمام بمتن اللغة، وقواعد الصرف؛ وبذلك تسلم مادتها، وصيغتها، ومعناها، من الخلل. واعلم أنه ليس تنافر الحروف يكون موجبه دائمًا قرب مخارج الحروف؛ إذ قربها لا يوجبه دائمًا، كما أن تباعدها لا يوجب خفتها.

فها هي كلمة «بفمي» حسنة، وحروفها من مخرج واحد وهو الشفة، وكلمة «ملع» متنافرة ثقيلة، وحروفها متباعدة المخارج، وأيضًا ليس موجب التنافر طول الكلمة وكثرة حروفها.

(٣) «الغدائر»: الضفائر، والضمير يرجع إلى «فرع» في البيت قبله. و«الاستشزار»: الارتفاع. و«العقاص»: جمع عقيصة وهي الخصلة من الشعر. و«المثنى»: الشعر المفتول. و«المرسل» ضده. أي: ابنة عمه لكثرة شعرها بعضه مرفوع، وبعضه مثنى، وبعضه مرسل، وبعضه معقوص، أي ملوي.

(٤) الألفاظ تنقسم إلى ثلاثة أقسام: قسمان حسنان، وقسم قبيح. فالقسمان الحسنان: أحدهما ما تداول استعماله السلف والخلف من الزمن القديم إلى زماننا هذا، ولا يُطلق عليه أنه وحشي. والآخر ما تداول استعماله السلف دون الخلف، ويختلف في استعماله بالنسبة إلى الزمن وأهله، وهذا هو الذي يُعاب استعماله عند العرب؛ لأنه لم يكن عندهم وحشيًّا وهو عندنا وحشي.

ولا يسبق وهمك إلى قول قصراء النظر بأن العرب كانت تستعمل من الألفاظ كذا وكذا فهذا دليل على أنه حسن، بل ينبغي أن تعلم أن الذي نستحسنه نحن في زماننا هذا هو الذي كان عند العرب مستحسنًا، والذي نستقبحه هو الذي كان عندهم مستقبحًا. والاستعمال ليس بدليل على الحسن، فإننا نحن نستعمل الآن من الكلام ما ليس بحسن، وإنما نستعمله لضرورة، فليس استعمال الحسن بممكن في كل الأحوال.

واعلم أن استحسان الألفاظ واستقباحها لا يُؤخذ بالتقليد من العرب؛ لأنه شيء ليس للتقليد فيه مجال، وإنما هو شيء له خصائص وهيئات وعلامات إذا وُجدت عُلم حسنه من قبحه، ألا ترى أن لفظة «المزنة» مثلًا حسنة عند الناس كافة من العرب وغيرهم، لا يختلف أحد في حسنها، وكذلك لفظ «البعاق» فإنها قبيحة عند الناس كافة من العرب وغيرهم؟ فإذا استعملتها العرب لا يكون استعمالهم إياها مخرجًا لها عن القبح، ولا يُلتفت إذن إلى استعمالهم إياها، بل يُعاب مستعملها، ويُغلظ له النكير حيث استعملها. فلا تظن أن الوحشي من الألفاظ ما يكرهه سمعك ويثقل عليك النطق به، وإنما هو الغريب الذي يقل استعماله، فتارةً يخفُّ على سمعك ولا تجد به كراهة، وتارة يثقل على سمعك وتجد منه الكراهة، وذلك في اللفظ عيبان: كونه غريب الاستعمال، وكونه ثقيلًا على السمع كريهًا على الذوق. وليس وراءه في القبح درجة أخرى، ولا يستعمله إلا أجهل الناس ممن لم يخطر بباله شيء من معرفة هذا الفن أصلًا.

انتهى عن المثل السائر، بتصرف.

(٥) «مزجَّجًا» مدققًا مطولًا. «فاحمًا» شعرًا أسود كالفحمة. «مرسنًا» بكسر الميم وفتح السين كمنبر، أو بفتح الميم وكسر السين كمجلس، ومعناه أنه ذا لمعان كالسراج، أو ذا صقالة واحْدِيدَاب كالسيف السُّرَيْجي؛ أي المنسوب إلى سُرَيْج، وهو قَيْن حَدَّاد تُنسب إليه السيوف في الدقة والاستواء.

(٦) أي ولفظة مسرج غير ظاهرة الدلالة على ما ذُكر؛ لأن فعل إنما يدل على مجرد النسبة، وهي لا تدل على التشبيه، فأخذه منها بعيد؛ لهذا أدخل الحيرة على السامع في فهم المعنى المقصود من الكلمة لترددها بين معنيين أو أكثر بلا قرينة. ومثله قول الشاعر:

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل

فلا يُعلم ماذا أراد الشاعر بقوله: «فعلت ما لم أفعل» أكان يبكي إذا رحلوا، أم كان يهيم على وجهه من الغم الذي لحقه، أم يتبعهم إذا ساروا، أم يمنعهم من المضي على عزمة الرحيل؟

(٧) اجتمعتم.

(٨) جنون.

(٩) انصرفوا، وقال ذلك حين سقط عن دابته فاجتمع الناس حوله.

(١٠) الطمحة: النظرة. والصبير: السحاب المتراكم. وقبله:

إن تمنعي صوبك صوب المدمع يجري على الخد كضئب الثعثع

الضئب: الحب. والثعثع: اللؤلؤ. قال صاحب القاموس: ذكروا جحلنجع ولم يفسروه. وقالوا: كان أبو الهميسع من أعراب مَدْيَن، وكنا لا نكاد نفهم كلامه. ا.هـ.

(١١) ما استثناه الصرفيون من قواعدهم المجمع عليها وإن خالف للقياس «فصيح» فمثل «آل وماء» أصلهما أهل وموه، أبدلت الهاء فيهما همزة، وإبدال الهمزة من الهاء وإن كان على خلاف القياس إلا أنه ثبت عن الواضع، ومثل «أبى يأبَى» بفتح الباء في المضارع، والقياس كسرها فيه؛ لأن فعل بفتح العين لا يأتي مضارعه على يفعل بالفتح إلا إذا كان عين ماضيه أو لامه حرف حلْق؛ كسَالَ ونَفَع، فمجيء المضارع بالفتح على خلاف القياس، إلا أن الفتح ثبت عن الواضع. ومثل «عور يعور» أي فالقياس فيهما عار يعار بقلب الواو ألفًا لتحركها وانفتاح ما قبلها، فتصحيح الواو خلاف القياس إلا أنه ثبت عن الواضع.

(١٢) الشيمة: الخُلق. والحدثان: نوائب الدهر. وجمل: فرسه.

(١٣) المراد بفصاحة الكلام تكونه من كلمات فصيحة يسهل على اللسان النطق بها لتآلفها، ويسهل على العقل فهمها لترتيب ألفاظها وفق ترتيب المعاني.

ومرجع ذلك الذوق السليم، والإلمام بقواعد النحو، بحيث يكون واضح المعنى، سهل اللفظ، حسن السبك؛ ولذلك يجب أن تكون كل لفظة من ألفاظه واضحة الدلالة على المقصود منها، جارية على القياس الصرفي، عذبة سلسلة، كما يكون تركيب الكلمات جاريًا على القواعد النحوية، خاليًا عن تنافر الكلمات مع بعضها، ومن التعقيد. فمرجع الفصاحة سواء في اللفظة المفردة أو في الجمل المركبة إلى أمرين: «مراعاة القواعد، والذوق السليم».

وتختلف فصاحة الكلام أحيانًا باختلاف التعبير عما يدور بالنفس من المعاني اختلافًا ظاهرًا.

فتجد في عبارات الأدباء من الحسن والجودة ما لا تجد في تعبير غيرهم، مع اتحاد المعنى الذي يعبر عنه، ويختلف الأدباء أنفسهم في أساليبهم، فقد يعلو بعضهم في أسلوبه، فتراه يسيل رقة وعذوبة، ويصل إلى القلوب فيبلغ منها ما يشاء أن يبلغ، وذلك نوع من البيان يكاد يكون سحرًا، وقد يكون دون هذه المنزلة قليلًا أو كثيرًا، وهو مع ذلك من فصيح القول وحسن البيان.

(١٤) «كثرة التكرار وتتابع الإضافات» أقول الحق: إن هذين العيبين قد احتُرز عنهما بالتنافر، على أن بعضهم أجازهما لوقوعهما في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ الآيات، وفي قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾.

(١٥) حرب بن أمية: قتله قائل هذا البيت، وهو هاتف من الجن صاح عليه. و«قفر» خالٍ من الماء والكلأ. وقبر اسم ليس مؤخر، وقرب خبرها مقدم. قيل: إن هذا البيت لا يمكن إنشاده ثلاث مرات متوالية إلا ويغلط المنشد فيه؛ لأن نفس اجتماع كلماته وقرب مخارج حروفها يُحدثان ثقلًا ظاهرًا، مع أن كل كلمة منه لو أُخذت وحدها ما كانت مستكرهة ولا ثقيلة.

(١٦) أي هو كريم، وإذا مدحته وافقني الناس على مدحه، ويمدحونه معي لإسداء إحسانه إليهم كإسدائه إليَّ، وإذا لمته لا يوافقني أحد على لومه؛ لعدم وجود المقتضى للوم فيه، وآثر لمته على هجوته مع أنه مقابل المدح إشارة إلى أنه لا يستحق الهجو، ولو فرط منه شيء فإنما يُلام عليه فقط. والثقل في قوله: «أمدحه» لما بين الحاء والهاء من التنافر، للجمع بينهما، وهما من حروف الحلق كما ذكره الصاحب إسماعيل بن عباد.

(١٧) المجموعة في قول بعضهم:

ومرجع الضمير قد تأخرا   لفظًا ورتبة وهذا حصرا

في باب نعم وتنازع العمل   ومضمر الشأن ورب والبدل

ومبتدأ مفسر بالخبر   وباب فاعل بخلف فأخبر

واعلم أن ضعف التأليف ناشئ من العدول عن المشهور إلى قول له صحة عند بعض أولي النظر، أما إذا خالف المجمع عليه كجر الفاعل ورفع المفعول ففاسد غير معتبر، والكلام في «تركيب له صحة واعتبار».

(١٨) فإن الضمير في «مجده» راجع إلى «مُطعِمًا» وهو متأخر في اللفظ كما يُرى وفي الرتبة لأنه مفعول به؛ فالبيت غير فصيح لمخالفته قواعد النحو. ومُطعِم: أحد رؤساء المشركين، وكان يدافع عن النبي ﷺ. ومعنى البيت أنه لو كان مجد الإنسان سببًا لخلوده في هذه الدنيا لكان «مطعِم بن عَدي» أولى الناس بالخلود؛ لأنه حاز من المجد ما لم يحُزْه غيره على يد صحاب الشريعة.

(١٩) وذلك كالفصل بأجنبي بين الموصوف والصفة، وبين البدل والمبدل منه، وبين المبتدأ والخبر، وبين المستثنى والمستثنى منه؛ ما يسبب ارتباكًا واضطرابًا شديدًا.

(٢٠) فلفظة جفخت مرة الطعم، وإذا مرت على السمع اقشعر منها، ولو استعمل «المتنبي» عوضًا عن جفخت «فخرت» لاستقام البيت، وحظي في استعماله بالأحسن.

(٢١) بحيث يعمد المتكلم إلى التعبير عن معنى فيستعمل فيه كلمات في غير معانيها الحقيقية؛ فيسيء اختيار الكلمات للمعنى الذي يريده؛ فيضطرب التعبير، ويلتبس الأمر على السامع، نحو: نشر الملك ألسنته في المدينة، يريد جواسيسه، والصواب: نشر عيونه.

(٢٢) فالمناط في الصعوبة عدم الجريان على ما يتعاطاه أهل الذوق السليم، لا كثرة الوسائط الحسية، فإنها قد تكثر من غير صعوبة، كما في قولهم: «فلان كثير الرماد» كناية عن المضياف، فإن الوسائط كثيرة فيه، ولكن لا تعقيد.

(٢٣) تسكب بالرفع عطف على أطلت، وبالنصب عطف على بعد، من قبيل عطف الفعل على اسم خالص من التأويل بالفعل، والمراد طلب استمرار السكب لا أصله؛ لئلا يلزم تحصيل الحاصل.

(٢٤) ووجه الخفاء والبعد أن أصل معنى جمود العين جفافها من الدموع عند إرادتها منها، والانتقال منه إلى حصول السرور بعيد؛ لأنه يحتاج إلى وسائط بأن ينتقل من جمود العين إلى انتفاء الدمع منها حال إرادة البكاء، ومنه إلى انتفاء الدمع مطلقًا، ومنه إلى انتفاء الحزن ونحوه «فإن ذلك هو السبب غالبًا في الدمع» ومن انتفاء الحزن ونحوه إلى السرور. ولا يخفى أن الشاعر قد طوى وحذف جميع هذه الوسائط؛ فأورث بطء الانتقال من المعنى الأصل الحقيقي إلى المعنى المراد، وخالف حينئذ أسلوب البلغاء؛ فنشأ من ذلك التعقيد المعنوي.

واعلم أن الشاعر أراد أن يرضى بالبعد والفراق، ويُعود نفسه على مقاساة الأحزان والأشواق، ويتحمل من أجلها حزنًا يفيض من عينيه الدموع؛ ليتوصل بذلك إلى وصل يدوم، ومسرة لا تزول، على حد قول الشاعر:

ولطالما اخترت الفراق مغالطًا   واحتلت في استثمار غرس ودادي
ورغبت عن ذكر الوصال لأنها   تبني الأمور على خلاف مرادي

(٢٥) أي: لبخيلة بالدموع.

(٢٦) المراد بالكثرة ها هنا ما فوق الواحدة، فذكر الشيء ثانيًا تكرار، وذكره ثالثًا كثرة، وإنما شُرطت الكثرة؛ لأن التكرار بلا كثرة لا يخل بالفصاحة، وإلا لقبح التوكيد اللفظي.

(٢٧) ففيه إضافة حمامة إلى «جَرْعا» وهو تأنيث الأجرع، وهو المكان ذو الحجارة السود، أو مكان الرمل الذي لا ينبت شيئًا. و«جرعا» مضاف إلى «حومة» وهي معظم الشيء. و«حومة» مضاف إلى «الجندل» بسكون النون وهو الحجر، والمراد به هنا مكان الحجارة، فهو بمعنى الجندل بفتح النون وكسر الدال، وقوله:

فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

أي أنت بحيث تراك سعاد وتسمع كلامك. يقول: اسجعي أرض قفرة سبخة؛ فإن سعاد تراك وتسمعك.

(٢٨) أي أن كيفية وصفه من العلم راسخة وثابتة في نفس صاحبها، يكون قادرًا بها على أن يعبر عن كل ما قصده من أي نوع من المعاني كالمدح والذم والرثاء وغير ذلك بكلام فصيح، فإذًا المدار على الاقتدار المذكور سواء وجد التعبير أو لم يوجد، وأن من قدر على تأليف كلام فصيح في نوع واحد من تلك المعاني لم يكن فصيحًا، وأنه لا يكون فصيحًا إلا إذا كان ذا صفة من العلم راسخة فيه وهي المسماة ب «الملكة» يقتدر بها على أن يعبر عن أي معنى قصده بكلام فصيح؛ أي خالٍ عن الخلل في مادته (وذلك بعدم تنافر كلماته)، وعن الخلل في تأليفه (وذلك بعدم ضعف تأليفه)، وعن الخلل في دلالته على المعنى التركيبي (وذلك بعدم التعقد اللفظي والمعنوي)، فإن كان شاعرًا اتسع أمامه ميدان القول في جميع فنون الشعر: من نسيب، وتشبيب، ومديح، وهجاء، ووصف، ورثاء،

وعتاب، واعتذار، وأشباه ذلك. وإن كان ناثرًا حاك الرسائل المحلاة، والخطب الممتعة الموشاة في الوعظ والإرشاد، والحفل والأعياد.

(٢٩) البلاغة هي تأدية المعنى الجليل واضحًا بعبارة صحيحة فصيحة، لها في النفس أثر خلاب، مع ملاءمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه، والأشخاص الذين يخاطبون. والبلاغة مأخوذة من قولهم: بلغت الغاية إذا انتهيت إليها، وبلغتها غيري، والمبالغة في الشيء الانتهاء إلى غايته. فسميت البلاغة بلاغة؛ لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه، وسميت البُلغة بُلغة؛ لأنك تَتَبَلَّغ بها، فتنتهي بك إلى ما فوقها. وهي البلاغ أيضًا، ويقال: الدنيا بلاغ؛ لأنها تؤديك إلى الآخرة. والبلاغ أيضًا التبليغ، ومنه هذا بلاغ للناس أي تبليغ، ويقال: بلغ الرجل بلاغة إذا صار بليغًا، كما يقال: نبل الرجل نبالة إذا صار نبيلًا.

قال أعرابي: البلاغة التقرب من البعيد، والتباعد من الكلفة، والدلالة بقليل على كثير. وقال عبد الحميد بن يحيى: البلاغة تقرير المعنى في الأفهام من أقرب وجوه الكلام. وقال ابن المعتز: البلاغة البلوغ إلى المعنى، ولم يطل سفر الكلام. وقال العتابي: البلاغة مد الكلام بمعانيه إذا قصر، وحسن التأليف إذا طال. وقال عبد الله بن المقفع: البلاغة لمعانٍ ترى في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون شعرًا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون جوابًا، ومنها ما يكون خطبًا، ومنها ما يكون رسائل. فعامة هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى أبلغ. والإيجاز هو البلاغة، فالسكوت يسمى بلاغة مجازًا، وهي في حالة لا ينجع فيها القول، ولا ينفع فيها إقامة الحجج إما عند جاهل لا يفهم الخطاب أو عند وضيع لا يرهب الجواب، أو ظالم سليط يحكم بالهوى، ولا يرتدع بكلمة التقوى، وإذا كان الكلام يعرى من الخير أو يجلب الشر فالسكوت أولى. وقال الرشيد: البلاغة التباعد من الإطالة، والتقرب من البغية، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى. قال أحد الأدباء: أبلغ الكلام ما حسن إيجازه، وقل مجازه، وكثر إعجازه، وتناسبت صدوره وأعجازه.

(٣٠) مقتضى الحال: هو ما يدعو إليه الأمر الواقع؛ أي ما يستلزمه مقام الكلام وأحوال المخاطب من التكلم على وجه مخصوص، ولن يطابق الحال إلا إذا كان وفق عقول المخاطبين، واعتبار طبقاتهم في البلاغة، وقوتهم في البيان والمنطق، فللسوقة كلام لا يصلح غيره في موضعه، والغرض الذي يبنى له، ولسراة القوم والأمراء فن آخر لا يسد مسده سواه. من أجل ذلك كانت مراتب البلاغة متفاوتة، بقدر تفاوت الاعتبارات والمقتضيات،

وبقدر رعايتها يرتفع شأن الكلام في الحسن والقبح، ويرتقي صعدًا إلى حيث تنقطع الأطماع، وتخور القوى، ويعجز الإنس والجن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، وتلك مرتبة الإعجاز التي تخرس عندها ألسن الفصحاء لو تاقت إلى العبارة. وقد عُرف بالخبر المتواتر أن القرآن الكريم نزل في أوفى العصور فصاحة، وأجملها بلاغة، ولكنه سد السبل أمام العرب عندما صاح عليهم صيحة الحق، فوجفت قلوبهم، وخرست شقاشقهم، مع طول التحدي وشد النكير «وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا».

(٣١) فإن اختلاف هذه الظروف يقتضي هيئة خصوصية من التعبير، ولكل مقام مقال، فعلى المتكلم ملاحظة المقام أو الحال، وهو الأمر الذي يدعوه إلى أن يورد كلامه على صورة خاصة تُشاكل غرضه، وتلك الصورة الخاصة التي يورد عليها تسمى المقتضى، أو الاعتبار المناسب، فمثلًا الوعيد والزجر والتهديد مقام يقتضي كون الكلام المورد فيه فخمًا جزلًا، والبشارة بالوعد، واستجلاب المودة — مقام يتطلب رقيق الكلام ولطيفه، والوعظ مقام يوجب البسط والإطناب، وكون المخاطب عاميًّا سوقيًّا أو أميرًا شريفًا يوجب الإتيان بما يناسب بيانه عقله.

(٣٢) لأن البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع، فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك، مع صورة مقبولة، ومعرض حسن، وإنما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطًا في البلاغة؛ لأن الكلام إذا كانت عبارته رثة، ومعرضه خلقًا — لم يُسَمَّ بليغًا، وإن كان مفهوم المعنى، مكشوف المغزى.

فعناصر البلاغة إذًا «لفظ ومعنًى وتأليف للألفاظ» يمنحها قوة وتأثيرًا وحُسنًا، ثم دقة في اختيار الكلمات والأساليب، على حسب مواطن الكلام ومواقعه، وموضوعاته، وحال السامعين، والنزعة النفسية التي تتملكهم وتسيطر على نفوسهم، فرب كلمة حسنت في موطن، ثم كانت مستكرهة في غيره، ورب كلام كان في نفسه حسنًا خلابًا، حتى إذا جاء في غير مكانه، وسقط في غير مسقطه — خرج عن حد البلاغة، وكان غرضًا لسهام الناقدين.

(٣٣) أي أن الهيئة والصفة الراسخة الثابتة في نفس المتكلم يمكنه بواسطتها أن يعبر عن المعاني التي يريد إفادتها لغيره بعبارات بليغة؛ أي مطابقة لحال الخطاب، فلو لم يكن ذا ملكة يقتدر بها على التصرف في أغراض الكلام وفنونه بقول رائع، وبيان بديع، بالغًا من مخاطبه كل ما يريد — لم يكن بليغًا.

وإذًا لا بد للبليغ: أولًا من التفكير في المعاني التي تجيش في نفسه، وهذه يجب أن تكون صادقة ذات قيمة وقوة، يظهر فيها أثر الابتكار، وسلامة النظر، وذوق تنسيق المعاني وحسن ترتيبها، فإذا تم له ذلك عمد إلى الألفاظ الواضحة المؤثرة الملائمة، فألَّف بينها تأليفًا يكسبها جمالًا وقوة.

فالبلاغة ليست في اللفظ وحده، وليست في المعنى وحده، ولكنها أثر لازم لسلامة تآلف هذين وحسن انسجامهما. وقد علم أن البلاغة أخص والفصاحة أعم؛ لأنها مأخوذة في تعريف البلاغة، وأن البلاغة يتوقف حصولها على أمرين: الأول: الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المقصود، والثاني: تمييز الكلام الفصيح من غيره؛ لهذا كان للبلاغة درجات متفاوتة تعلو وتسفل في الكلام بنسبة ما تراعي فيه مقتضيات الحال، وعلى مقدار جودة ما يستعمل فيه من الأساليب في التعبير والصور البيانية والمحسنات البديعية، وأعلى تلك الدرجات ما يقرب من حد الإعجاز، وأسفلها ما إذا غير الكلام عنه إلى ما هو دونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات العجم، وإن كان صحيح الإعراب، وبين هذين الطرفين مراتب عديدة.

(٣٤) نهاية الأرب جزء ٧ ص٨.

(٣٥) نهاية الأرب جزء ٧ ص٦.

(٣٦) من كتاب البيان والتبيين للجاحظ جزء ١، صحيفة ٩١.

(٣٧) نهاية الأرب جزء ٧ ص٨.

(٣٨) البيان والتبيين للجاحظ جزء ١ ص٩١.

(٣٩) البيان والتبيين جزء ١ ص٩١، ٩٢.

(٤٠) نهاية الأرب جزء ٧ ص١١.

(٤١) مختار العقد الفريد ص٩٨.

(٤٢) الذوق في اللغة: الحاسة يدرَك بها طعم المأكل. وفي الاصطلاح: قوة غريزية لها اختصاص بإدراك لطائف الكلام ومحاسنه الخفية، وتحصل بالمثابرة على الدرس، وممارسة كلام أئمة الكتاب، وتكراره على السمع، والتفطن لخواص معانيه وتراكيبه، وأيضًا تحصل بتنزيه العقل والقلب عما يفسد الآداب والأخلاق؛ فإن ذلك من أقوى أسباب سلامة الذوق.

واعلم أن «الذوق السليم» هو العمدة في معرفة حسن الكلمات وتمييز ما فيها من وجوه البشاعة ومظاهر الاستكراه؛ لأن الألفاظ أصوات، فالذي يطرب لصوت البلبل، وينفر

من صوت البوم والغربان — ينبو سمعه عن الكلمة إذا كانت غريبة متنافرة الحروف، ألا ترى أن كلمتي «المُزنة والدِّيمة (للسحابة الممطرة)» كلتاهما سهلة عذبة يسكن إليها السمع، بخلاف كلمة «البعاق» التي في معناهما؛ فإنها قبيحة، تصك الأذن؟! وأمثال ذلك كثير في مفردات اللغة تستطيع أن تُدركه بذوقك، وقد سبق شرح ذلك.

علم المعاني

إن الكلام البليغ: هو الذي يصوِّره المتكلم بصورة تناسب أحوال المخاطبين، وإذًا لا بد لطالب البلاغة أن يدرس هذه الأحوال، ويعرف ما يجب أن يصوِّر به كلامه في كل حالة، فيجعل لكل مقام مقالًا.

وقد اتفق رجال البيان على تسمية العلم الذي تُعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يُطابق اقتضاء الحال باسم: «علم المعاني».[١]

تعريف علم المعاني، وموضوعه، وواضعه

(١) علم المعاني: أصول وقواعد، يُعرف بها أحوال الكلام العربي التي يكون بها مطابقًا لمقتضى الحال،[١] بحيث يكون وفق الغرض الذي سِيق له.

فذكاء المخاطب حال تقتضي إيجاز القول، فإذا أوجزت في خطابه وكان كلامك مطابقًا لمقتضى الحال، وغباوته حال تقتضي الإطناب والإطالة — فإذا جاء كلامك في مخاطبته مطنبًا فهو مطابق لمقتضى الحال، ويكون كلامك في الحالين بليغًا، ولو أنك عكست لانتفت من كلامك صفة البلاغة.

(٢) وموضوعه: اللفظ العربي من حيث إفادة المعاني الثواني[٢] التي هي الأغراض المقصودة للمتكلم، من جعل الكلام مشتملًا على تلك اللطائف والخصوصيات التي بها يطابق مقتضى الحال.

(٣) وفائدته:

(أ) معرفة إعجاز القرآن الكريم، من جهة ما خصَّه الله به من جودة السبك، وحُسْن الوصف، وبراعة التراكيب، ولطف الإيجاز، وما اشتمل عليه من سهولة التركيب، وجزالة كلماته، وعذوبة ألفاظه وسلامتها؛ إلى غير ذلك من محاسنه التي أقعدت العرب عن مناهضته، وحارت عقولهم أمام فصاحته وبلاغته.

(ب) والوقوف على أسرار البلاغة والفصاحة في منثور كلام العرب ومنظومه؛ كي تحتذي حذوه، وتَنسج على منواله، وتفرق بين جيِّد الكلام ورديئه.

(٤) وواضعه: الشيخ عبد القاهر الجرجاني، المتوفَّى سنة ٤٧١هـ.[٣]

(٥) واستمداده: من الكتاب الشريف، والحديث النبوي، وكلام العرب.

واعلم أن المعاني جمعُ معنًى، وهو في اللغة: المقصود. وفي اصطلاح البيانيِّين: هو التعبير باللفظ عما يتصوَّره الذِّهن، أو هو الصورة الذِّهنيَّة من حيث تُقصد من اللفظ.

واعلم أنَّ لكل جملة ركنين:

مسندًا: ويُسمى محكومًا به، أو مُخبرًا به.

مسندًا إليه: ويُسمى محكومًا عليه، أو مُخبرًا عنه.

وأما النسبة التي بينهما فتُدْعَى «إسنادًا».

وما زاد على المسند والمسند إليه من مفعول، وحال، وتمييز، ونحوهم — فهو قيد زائد على تكوينها، إلا صلة الموصول، والمضاف إليه.[٤]

و«الإسناد» انضمام كلمة[٥] «المسند» إلى أخرى[٦] «المسند إليه» على وجه يقيد الحكم بإحداهما على الأخرى ثبوتًا أو نفيًا، نحو: الله واحد لا شريك له.

ومواضع المسند ثمانية:

(١) خبر المبتدأ، نحو: «قادر» من قولك: الله قادر.

(٢) والفعل التام، نحو: «حضر» من قولك: حضر الأمير.

(٣) واسم الفعل، نحو: «هيهات – وَوَيْ – وآمين».

(٤) والمبتدأ الوصف المستغني عن الخبر بمرفوعه، نحو: «عارف» من قولك: أعارف أخوك قدر الإنصاف.

(٥) وأخبار النَّواسخ «كان ونظائرها، وإن ونظائرها».

(٦) والمفعول الثاني لظن وأخواتها.

(٧) والمفعول الثالث لأرى وأخواتها.

(٨) والمصدر النائب عن فعل الأمر، نحو: «سعيًا في الخير».

ومواضع المسند إليه ستة:

(١) الفاعل «للفعل التام أو شبهه» نحو: «فؤاد، وأبوه» من قولك: حضر فؤادٌ العالم أبوه.

(٢) وأسماء النواسخ «كان وأخواتها، وإن وأخواتها» نحو: «المطر» من قولك: كان المطر غزيرًا، ونحو: إنَّ المطر غزير.

(٣) والمبتدأ الذي له خبر، نحو: «العلم» من قولك: العلم نافع.

(٤) والمفعول الأول لظن وأخواتها.

(٥) والمفعول الثاني لأرى وأخواتها.

(٦) ونائب الفاعل؛ كقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾.

ثم إن المسند والمسند إليه يتنوَّعان إلى أربعة أقسام:

(١) إما أن يكونا كلمتين حقيقة، كما ترى في الأمثلة السالفة.

(٢) وإما أن يكونا كلمتين حكمًا، نحو: «لا إله إلا الله ينجو قائلها من النار» أي: «توحيد الإله نجاةٌ من النار».

(٣) وإما أن يكون المسند إليه كلمة حكمًا، والمسند كلمة حقيقة، نحو: «تسمع بالمعيديِّ خير من أن تراه»؛ أي: «سماعك بالمُعَيْدِيِّ خير من رؤيته».

(٤) وإما بالعكس، نحو: «الأمير قَرُبَ قُدومُه»[٧] أي: الأمير «قريب قدومه» ويُسمى المسند والمسند إليه: ركني الجملة.

وكل ما عداهما يُعتبر قيدًا زائدًا عليها كما سبق الكلام عليه.

وينحصر «علم المعاني» في ثمانية أبواب وخاتمة.

هوامش

(١) قال بعض العلماء: المعاني المتصورة في عقول الناس المتصلة بخواطرهم خفية بعيدة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه، ولا مراد شريكه ولا المعاون على أمره — إلا بالتعابير التي تقربها من الفهم، وتجعل الخفي منها ظاهرًا والبعيد قريبًا، فهي تخلص الملتبس، وتحل المنعقد، وتجعل الخفي منها ظاهرًا مطلقًا، والمجهول معروفًا، والوحشي مألوفًا، وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة يكون ظهور المعنى.

والعاقل يكسو المعاني في قلبه، ثم يبديها بألفاظ عرائس في أحسن زينة؛ فينال المجد والفخار، ويلحظ بعين العظمة والاعتبار. والجاهل يستعجل في إظهار المعاني قبل العناية بتزيين معارضها، واستكمال محاسنها، فيكون بالذم موصوفًا، وبالنقض معروفًا، ويسقط من أعين السامعين، ولا يُدرج في سلك العارفين.

واعلم أن الأصل في اللفظ أن يُحمل على ظاهر معناه، ومن يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل كما جاء في القرآن: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فإن الظاهر من لفظ الثياب هو ما يُلبَس، ومن تأول ذهب إلى أن المراد هو القلب لا الملبوس، وهذا لا بد له من دليل؛ لأنه عدول عن ظاهر اللفظ.

واعلم أيضًا أنه يجب على صناعة معاني المعاني أن يرجع المعاني بحيث يرجع بين حقيقة ومجاز، أو بين حقيقتين، أو مجازين.

(١) الحال هو الأمر الداعي للمتكلم إلى إيراد خصوصية في الكلام، وتلك الخصوصية هي مقتضى الحال؛ مثلًا إن كان بينك وبين مخاطبك عهد بشيء، فالعهد حال يقتضي إيراد الكلام معرَّفًا، والتعريف هو مقتضى الحال، فالحال هو ما بعد لام التعليل المذكورة بعد كل خصوصية، كقولك في الذكر: لكون ذكره الأصل، وفي الحذف: حُذف للاستغناء عنه، وهَلُمَّ جرًّا.

(٢) أي المعاني الأُوَل ما يُفهم من اللفظ بحسب التركيب، وهو أصل المعنى مع زيادة الخصوصيات من التعريف والتنكير. قال بعض أهل المعاني: الكلام الذي يُوصف بالبلاغة هو الذي يدل بلفظه على معناه اللغوي، أو العرفي، أو الشرعي، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية على المعنى المقصود الذي يريد المتكلم إثباته أو نفيه، فهناك ألفاظ ومعانٍ أُوَل، ومعانٍ ثوانٍ؛ فالمعاني الأُوَل هي مدلولات التركيب، والألفاظ التي تسمى في علم النحو أصل المعنى، والمعاني الثواني الأغراض التي يُساق لها الكلام؛ لذا قيل: «مقتضى الحال» وهو المعنى الثاني كرد الإنكار ودفع الشك؛ مثلًا إذا قلنا: «إن زيدًا قائم» فالمعنى الأول هو القيام المؤكد، والمعنى الثاني هو رد الإنكار، ودفع الشك بالتوكيد، وهلم جرًّا. والذي يدل على المعاني خمسة أشياء: اللفظ، والإشارة، والكناية، والعقد، والحال.

(٣) اعلم أنه لما احتدم الجدل في صدر الدولة العباسية إبَّان زهو اللغة وعِزِّها في بيان وجوه إعجاز القرآن، وتعددت نزعات العلماء في ذلك، ولما قامت سوقٌ نافِقَةٌ للمناظرة بين أئمة اللغة والنحو؛ أنصار الشِّعر القديم الذين جَنَحوا إلى المحافظة على أساليب العرب، ورأَوْا الخير كله في الوقوف عند أوضاعهم، وبين الأدباء والشعراء، أنصار الشِّعر الحديث الذين لم يحفلوا بما درج عليه أسلافُهم، وآمنوا بأن للحضارة التي غذوا بلبانها آثارًا، غَدَوْا معها في حِلٍّ من كل قديم. ولما شجر الخلاف بين أساطين الأدب في بيان جيد الكلام ورديئه دعت هذه البواعث ولفتت أنظار العلماء إلى وضع قواعد وضوابط يتحاكم إليها الباحثون، وتكون دستورًا للناظرين في آداب العرب «المنثور منها والمنظوم».

لا نعلم أحدًا سبق أبا عبيدة بن المثنى — المتوفَّى سنة ٢١١هـ تلميذ الخليل بن أحمد — في تدوين كتاب في علم البيان يُسمى «مجاز القرآن»، كما لا نعرف بالضبط أول من ألَّف في علم المعاني، وإنما أثر فيه نبذ عن بعض البلغاء كالجاحظ في كتابه «إعجاز القرآن» وابن قتيبة في كتابه «الشعر والشعراء» والمبرد في كتابه «الكامل».

ولكن نعلم أن أول من ألف في البديع «الخليفة عبد الله بن المعتز بن المتوكل العباسي» المتوفَّى سنة ٢٩٦هـ.

وما زالت هذه العلوم تسير في طريق النمو، حتى نزل في الميدان الإمام «أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني» المتوفى سنة ٤٧١هـ فشمر عن ساعد الجد، فدون كتابيه «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز»، وقرن فيهما بين العلم والعمل. ثم جاء إثر عبد القاهر «جار الله الزمخشري» فكشف في تفسيره «الكشاف» عن وجوه إعجاز القرآن، وأسرار بلاغته، وأوضح ما فيه من الخصائص والمزايا، وقد أبان خلالها كثيرًا من قواعد هذه الفنون. ثم نهض بعده «أبو يعقوب يوسف السَّكَّاكي» المتوفَّى سنة ٦٢٦هـ، فجمع في القسم الثالث من كتاب «المِفتاح» ما لا مزيد عليه، وجاء بعده علماء القرن السابع فما بعده يختصرون ويضعون مؤلفاتهم حسب ما تسمح به مناهج التعليم للمتعلمين في كل قطر من الأقطار حتى غدت أشبه بالمُعَمَّيَات والألغاز.

(٤) اعلم أن الجمل ليست في مستوًى واحد عند أهل المعاني، بل منها جمل رئيسية وجمل غير رئيسية، والأولى هي المستقلة التي لم تكن قيدًا في غيرها، والثانية ما كانت قيدًا إعرابيًّا في غيرها، وليست مستقلة بنفسها.

والقيود هي: أدوات الشرط، والنفي، والتوابع، والمفاعيل، والحال، التمييز، وكان وأخواتها، وإن وأخواتها، وظن وأخواتها، كما سيأتي.

(٥) أي: وما يجري مجراها.

(٦) أي: وما يجري مجراها، كما سيأتي.

«تنبيه»: الإسناد مطلقًا قسمان: حقيقة عقلية، ومجاز عقلي. فالحقيقة العقلية هي إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ما وضع له عند المتكلم في الظاهر من حاله، نحو: تجري الأمور بما لا يشتهي البشر، وأنبت الله النبات. والمجاز العقلي (ويسمى إسنادًا مجازيًّا، ومجازًا حكميًّا، ومجازًا في الإسناد) هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما وُضع له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة الإسناد إلى ما هو له، نحو: تجري الرياح بما لا تَشتهي السفن.

وله علاقات شتى: فيلائم الفاعل لوقوعه منه، نحو: «سيل مفعم» بفتح العين؛ أي مملوء، فإسناد مفعم وهو مبني للمفعول إلى ضمير السيل وهو فاعل مجاز عقلي ملابسته الفاعلية. ويلائم المفعول به لوقوعه عليه، نحو: «عيشة راضية» فإسناد راضية، وهو مبني للفاعل إلى ضمير العيشة وهي مفعول به «مجاز عقلي» ملابسته المفعولية. ويلائم

الزمان والمكان لوقوعه فيهما، نحو: «صام نهارَه، وسال الميزاب، ونهار صائم، ونهر جارٍ». ويلائم المصدر، نحو: «جد جده». ويلائم السبب، نحو: «بنى الأمير المدينة». وكما يقع المجاز العقلي في الإسناد يقع في النسبة الإضافية: ك «مكر الليل، وجري الأنهار»، وشقاق بينهما.

وغراب البين «على زعم العرب» وفي النسبة الإيقاعية، نحو: «وأطيعوا أمري ولا تطيعوا أمر المسرفين» وأجريت النهر. وكما يكون في الإثبات يكون في النفي، نحو قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ «وما نام ليلي» على معنى: خسرت تجارتهم، وسهر ليلي. قصد إلى إثبات النفي، لا نفي الإثبات. ويكون أيضًا في الإنشاء، كما سبقت الإشارة إليه، نحو قوله تعالى: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ ونحو: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾ وليصم نهارك، وليجد جدك، وليت النهر جارٍ، وما أشبه ذلك.

وأقسامه باعتبار حقيقة طرفيه ومجازيتهما أربعة؛ لأنهما إما حقيقتان لغويتان، نحو: «أنبت الربيع البقل»، أو مجازان لغويان، نحو: «أحيا الأرض شباب الزمان»؛ إذ المراد بإحياء الأرض تهييج القوى النامية فيها، وإحداث نضارتها بأنواع الرياحين. والإحياء في الحقيقة إعطاء الحياة، وهي صفة تقتضي الحس والحركة. وكذا المراد بشباب الزمان زمان ازدياد قواها النامية، وهو في الحقيقة عبارة عن كون الحيوان في زمان تكون حرارته الغريزية مشبوبة؛ أي قوية مشتعلة. أو المسند حقيقة لغوية والمسند إليه مجازي لغوي، نحو: أنبت البقل شباب الزمان. أو المسند إليه حقيقة لغوية والمسند مجاز لغوي، نحو: أحيا الأرض الربيع. ووقوع المجاز العقلي في القرآن كثير، نحو ما تقدم، ونحو: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾، و﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾، ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾، ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾.

ولا بد له من قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي؛ لأن الفهم لولا القرينة يتبادر إلى الحقيقة. والقرينة إما لفظية وإما معنوية؛ فاللفظية كقولك: هزم الأمير الجند وهو في قصره، والمعنوية كاستحالة قيام المسند بالمسند إليه المذكور معه عقلًا؛ بمعنى أنه لو خلَّى العقل ونفسه عد ذلك القيام محالًا؛ كقولك: محبتك جاءت بي إليك. لاستحالة قيام المجيء بالمحبة عقلًا. وكاستحالة ما ذُكر عادة، نحو: هزم الأمير الجند. لاستحالة قيام هزيمة الجند بالأمير وحده عادة. وإن أمكن، وكان يصدر من الموحد، نحو:

أشاب الصغيرَ وأفنى الكبيـ ـــر كَرُّ الغَدَاةِ ومَرُّ العَشِي

فإن صدور ذلك من الموحد قرينة معنوية على أن إسناد أشاب وأفنى إلى كر الغداة ومر العشي مجاز. ثم هذا غير داخل في الاستحالة؛ إذ قد ذهب إليه كثير من المبطلين. ولا يجب أن يكون في المجاز العقلي للفعل فاعل يُعرف الإسناد إليه حقيقة، بل تارةً يكون له فاعل يُعرف إسناده إليه حقيقة كما تقدم، وتارةً لا، نحو قوله:

يزيدك وجهه حسنًا إذا ما زدته نظرًا

فإن إسناد الزيادة للوجه مجاز عقلي، وليس لها — أي الزيادة — فاعل يكون الإسناد إليه معروفًا حقيقة. ومثله: سرتني رؤيتك، وأقدمني بلدك حق لي عليك. فهذه الأمثلة ونحوها من المجاز العقلي الذي لا فعل له يعرف الإسناد إليه حقيقة، كما قال الشيخ «عبد القاهر». وقيل: لا بد له من فاعل يعرف الإسناد إليه حقيقة، ومعرفته إما ظاهرة نحو: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾؛ أي فما ربحوا في تجارتهم، وإما خفية كهذه الأمثلة، والفاعل الله تعالى.

هذا؛ وقد أنكر «السكاكي» المجاز العقلي، ذاهبًا إلى أن أمثلته السابقة ونحوها منتظمة في سلك الاستعارة بالكناية، فنحو: «أنبت الربيع البقل» يجعل الربيع استعارة عن الفاعل الحقيقي بواسطة المبالغة في التشبيه، ويجعل نسبة الإثبات إليه قرينة الاستعارة. وسيأتي مذهبه إن شاء الله تعالى في فن البيان عند الكلام على الاستعارة بالكناية.

«تنبيه»: ذكر بعض المؤلفين «مبحث المجاز العقلي والحقيقة الفعلية» في أحوال الإسناد من علم المعاني، وبعضهم ذكرهما في فن البيان عند تقسيم اللفظ إلى حقيقة ومجاز، ولكلٍّ وجهة.

(٧) ففي الأول يئول: سماعك بالْمُعَيْدِيِّ خير، وفي الثاني: الأمير قريب قدومه، وفي نحو: «لا إله إلا الله ينجو قائلها من النار» عدم شريك للمولى نجاة من النار.

الباب الأول

في تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء

وفي هذا الباب ثلاثة مباحث

(١) المبحث الأول: في حقيقة الخبر

الخبر: كلام يحتمل الصدق والكذب لذاته.[١]

وإن شئت فقل: «الخبر هو ما يتحقق مدلوله في الخارج بدون النطق به» نحو: العلم نافع؛ فقد أثبتنا صفة النفع للعلم، وتلك الصفة ثابتة له (سواء تلفظت بالجملة السابقة أم لم تتلفظ)؛ لأن نفع العلم أمر حاصل في الحقيقة والواقع، وإنما أنت تحكي ما اتفق عليه الناس قاطبة، وقضت به الشرائع، وهدت إليه العقول، بدون نظر إلى إثبات جديد.

والمراد بصدق الخبر مطابقته للواقع ونفس الأمر.

والمراد بكذبه عدم مطابقته له.

فجملة «العلم نافع» إن كانت نسبتها الكلامية (وهي ثبوت النفع للعلم) المفهومة من تلك الجملة مطابقة للنسبة الخارجية — أي موافقة لما في الخارج والواقع — «فصدق» وإلا «فكذب» نحو: «الجهل نافع» فنسبته الكلامية ليست مطابقة وموافقة للنسبة الخارجية.[٢]

(١-١) المقاصد والأغراض التي من أجلها يُلقى الخبر

الأصل في الخبر أن يُلقَى لأحد غرضين:

(أ) إما إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة، إذا كان جاهلًا له، ويسمى هذا النوع «فائدة الخبر» نحو: «الدين المعاملة».

(ب) وإما إفادة المخاطب أن المتكلم عالم أيضًا بأنه يعلم الخبر، كما تقول لتلميذ أخفى عليك نجاحه في الامتحان وعلمته من طريق آخر: أنت نجحت في الامتحان. ويُسمى هذا النوع: «لازم الفائدة»؛ لأنه يلزمُ في كل خبر أن يكون المخبر به عنده علم أو ظنٌّ به.

وقد يخرج الخبر عن الغرضين السابقين إلى أغراض أخرى تُستفاد بالقرائن ومن سياق الكلام، أهمُّها:

(١) الاسترحام والاستعطاف، نحو: إني فقير إلى عفو ربي.[٣]
(٢) وتحريك الهمة إلى ما يلزم تحصيله، نحو: ليس سواء عالم وجهول.
(٣) وإظهار الضَّعف والخشوع، نحو: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾.
(٤) وإظهار التحسُّر على شيء محبوب، نحو: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾.
(٥) وإظهار الفرح بمُقْبِل والشماتة بمُدبِر، نحو: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾.
(٦) والتوبيخ كقولك للعاثر: «الشمس طالعة».
(٧) والتذكير بما بين المراتب من التفاوت، نحو: «لا يستوي كسلان ونشيط».
(٨) والتحذير، نحو: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق».
(٩) والفخر، نحو: «إن الله اصطفاني من قريش».
(١٠) والمدح كقوله:

فإنك شمسٌ والملوك كواكب إذا طلعْتَ لم يَبْدُ منهن كوكبُ

وقد يجيء لأغراض أخرى، والمرجع في معرفة ذلك إلى الذوق والعقل السليم.

تمرين

عيِّن الأغراض المستفادة من الخبر في الأمثلة الآتية:

(١) قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.
(٢) وقال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾.

(٣) وقال ﷺ: «عدلُ ساعةٍ في حُكومةٍ خَيْرٌ من عبادةِ ستينَ سنة.»

(٤) وقال: «إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجل أشركه الله في حكمه، فأدخل عليه الجور في عدله.»

(٥) ومن خطبة له عليه الصلاة والسلام بمكة حين دعا قومه إلى الإسلام: «إنَّ الرائدَ لا يَكْذِبُ أهلَه، واللهِ لو كَذَبْتُ الناسَ ما كَذَبْتُكم، ولو غَرَرْتُ الناسَ ما غَرَرْتُكم، واللهِ الذي لا إلهَ إلا هو إني رسولُ اللهِ إليكم حقًّا، وإلى الناس كافَّةً.»

(٦) وقال الشريف الرَّضِيُّ:

جار الزمان فلا جواد يُرْتجى ... للنائبات ولا صديق يشفق
وإذا الحليم رمى بسرٍّ صديقه ... عمدًا فأولى بالوداد الأحمق

(٧) وقال المعري:

عرفت سجايا الدهر أما شروره ... فنقدٌ وأما خيره فوعود

(٨) وقال:

رأيت سكوتي متجرًا فلزمته ... إذا لم يُفد ربحًا فلست بخاسر

(٩) وقال أيضًا:

أرى ولد الفتى عبئًا عليه ... لقد سعد الذي أمسى عقيما
فإما أن يربِّيه عدوًّا ... وإما أن يُخلِّفَهُ يتيما

(١٠) قال ابن حيوس مادحًا:

بني صالح أقصدْتُمُ من رَمَيْتُمُ ... وأحييتم من أم معروفكم قصدا
وذَلَّلْتُمُ صعبَ الزمان لأهله ... فذلَّ وقد كان الجماح له وكدا
مناقب لو أن الليالي توشحت ... بأذيالها لابيضَّ منهن ما اسودَّا

(١١) وقال أبو فراس:

صبرت على اللأْواء صَبْرَ ابن حُرَّةٍ كثير العدا فيها قليل المُساعِدِ
منعتُ حِمى قومي وسُدْتُ عشيرتي وقلد أهلي غُر هذي القلائدِ

(٢) المبحث الثاني: في كيفية إلقاء المتكلم الخبر للمخاطب

حيث كان الغرض من الكلام الإفصاح والإظهار يجب أن يكون المتكلم مع المخاطب كالطبيب مع المريض، يشخِّص حالته، ويُعطيه ما يُناسبها.

فحق الكلام أن يكون بقدر الحاجة، لا زائدًا عنها؛ لئلا يكون عبثًا، ولا ناقصًا عنها؛ لئلا يُخلَّ بالغرض، وهو «الإفصاح والبيان». [٤]

لهذا تختلف صور الخبر في أساليب اللغة باختلاف أحوال المخاطب الذي يعتريه ثلاث أحوال:

أولًا: أن يكون المخاطب خالي الذهن من الخبر، غير متردد فيه، ولا منكر له، وفي هذه الحال لا يُؤكد له الكلام؛ لعدم الحاجة إلى التوكيد، نحو قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

ويُسمى هذا الضرب من الخبر «ابتدائيًّا» ويُستعمل هذا الضرب حين يكون المخاطب خالي الذهن من مدلول الخبر؛ فيتمكن فيه لمصادفته إيَّاه خاليًا. [٥]

ثانيًا: أن يكون المخاطب مترددًا في الخبر، طالبًا الوصول لمعرفته، والوقوف على حقيقته، فيُستحسن تأكيد[٦] الكلام المُلْقَى إليه؛ تقوية للحكم؛ ليتمكن من نفسه، ويطرح الخلاف وراء ظهره، نحو: إنَّ الأمير منتصر.

ويُسمَّى هذا الضرب من الخبر «طلبيًّا» ويؤتى بالخبر من هذا الضرب حين يكون المخاطب شاكًّا في مدلول الخبر، طالبًا التثبت من صدقه.

ثالثًا: أن يكون المخاطب منكرًا للخبر الذي يُراد إلقاؤه إليه، معتقدًا خلافه، تأكيد الكلام له بمؤكد أو مؤكدين أو أكثر، على حسب حاله من الإنكار قوةً وضعفًا، نحو: إنَّ أخاك قادم، أو: إنَّه لقادم، أو: والله إنَّه لقادم، أو: لعمري إنَّ الحق يعلو ولا يُعلى عليه.

ويُسمَّى هذا الضرب من الخبر «إنكاريًّا» ويُؤتى بالخبر من هذا الضرب حين يكون المخاطب منكرًا.

واعلم أنه كما يكون التأكيد في الإثبات يكون في النفي أيضًا، نحو: ما المقتصد بمفتقر، ونحو: والله ما المستشير بنادم.

تنبيهات

الأول: لتوكيد الخبر أدوات كثيرة، وأشهرها: إنَّ، وأنَّ، ولام الابتداء، وأحرف التنبيه، والقسم، ونونا التوكيد، والحروف الزائدة كـ «تفَعَّل واستفعل» والتكرار، وقد، وأمَّا الشرطيَّة، وإنَّما، واسمية الجملة، وضمير الفصل، وتقديم الفاعل المعنوي.

الثاني: يسمى إخراج الكلام على الأضرب الثلاثة السابقة إخراجًا على مقتضى ظاهر الحال.[7]

وقد تقتضي الأحوال العُدول عن مقتضى الظاهر، ويورد الكلام على خلافه لاعتبارات يلحظها المتكلم (وسلوك هذه الطريقة شعبة من البلاغة).

(١) منها: تنزيل العالم بفائدة الخبر، أو لازمها، أو بهما معًا — منزلة الجاهل بذلك؛ لعدم جريهِ على موجب عِلمه، فيُلقَى إليه الخبر كما يُلقى إلى الجاهل به، كقولك لمن يعلم وجوب الصلاة وهو لا يُصلي: «الصلاة واجبة.» توبيخًا على عدم عمله بمقتضى علمه، وكقولك لمن يُؤذي أباه: هذا أبوك.

(٢) ومنها تنزيل خالي الذهن منزلة السائل المتردد، إذا تقدَّم في الكلام ما يُشير إلى حُكم الخبر، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ فمدخول إنَّ مؤكد لمضمون ما تقدمه؛ لإشعاره بالتردد فيما تضمنه مدخولها، وكقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ لما أمر المولى «نوحًا» أولًا بصنع الفلك، ونهاه ثانيًا عن مخاطبته بالشفاعة فيهم، صار — مع كونه غير سائل — في مقام السائل المتردد.[8]

هل حكم الله عليهم بالإغراق؟ فأجيب بقوله: ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾.

(٣) ومنها: تنزيل غير المنكر منزلة المنكر إذا ظهر عليه شيء من أمارات الإنكار، كقول حَجَل بن نَضْلة القيسي (من أولاد عم شَقيق):

جاء شَقيق عارضًا رمحه   إن بني عمك فيهم رماح

«فشَقيق» رجل لا ينكر رماح بني عمه، ولكن مجيئه على صورة المعجب بشجاعته، واضعًا رمحه على فخذيه بالعرض وهو راكب أو حاملًا له عرضًا على كتفه في جهة

العدو بدون اكتراثه به — بمنزلة إنكاره أن لبني عمه رماحًا، ولن يجد منهم مقاومًا له كأنهم كلهم في نظره عُزْلٌ، ليس مع أحد منهم رمح.

فأكد له الكلام؛ استهزاءً به، خوطب خطاب التفات بعد غيبة؛ تهكمًا به، ورميًا له بالنزق وخرق الرأي.

(٤) ومنها تنزيل المتردد[٩] منزلة الخالي، كقولك للمتردد في قدوم مسافر مع شهرته: «قدم الأمير.»

(٥) ومنها تنزيل المتردد منزلة المنكر، كقولك للسائل المستبعد لحصول الفرج: «إنَّ الفرج لقريب.»

(٦) ومنها تنزيل المنكر منزلة الخالي، إذا كان لديه دلائل وشواهد لو تأملها لارتدع وزال إنكاره، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، وكقولك لمن يُنكر منفعة الطب: «الطب نافع.»

(٧) ومنها تنزيل المنكر منزلة المتردد، كقولك لمن يُنكر «شرف الأدب» إنكارًا ضعيفًا: «إنَّ الجاه بالمال إنَّما يصحبك ما صحبك المال، وأما الجاه بالأدب فإنه غير زائل عنك.»

الثالث: قد يؤكد الخبر لشرف الحكم وتقويته، مع أنه ليس فيه تردد ولا إنكار، كقولك في افتتاح كلام: «إنَّ أفضل ما نطق به اللسان كذا.»[١٠]

تدريب

بيِّن أغراض الخبر والمقاصد منه فيما يأتي:

(١) قومي هُمُو قتلوا أُمَيْمَ أخي   فإذا رَمَيْتُ يُصيبني سهمي

(٢) قد كنت عُدَّتي التي أسطو بها   ويدي إذا اشتد الزمان وساعدي

(٣) أبا المسك أرجو منك نصرًا على العدى
وآمل عزًّا يخضب البيض بالدم

(٤) كفى بجسمي نُحولًا أنني رجل　　لولا مخاطبتي إياك لم ترني

(٥) وأنت الذي ربيت ذا الملك مرضعًا　　وليس له أم سواك ولا أبُ

(٦) ذهب الذين يُعاش في أكنافهم　　وبقيتُ في خلف كجِلد الأجرب

(٧) إن كان لا يرجوك إلا محسن　　فبمن يلوذ ويستجير المجرم
أدعوكَ ربِّ كما أَمَرْتَ تضرعًا　　فإذا رددتَ يدي فمَن ذا يَرْحَمُ

(٨) ظمئتُ وفي فمي الأدبُ المصفَّى　　وضِعْتُ وفي يدي الكنز الشين

(١) إظهار الحسرة على موت أخيه بيد من قرابته.
(٢) إظهار الضعف لكونه أصبح بلا معين.
(٣) الاسترحام بطلب المساعدة وشد الأزر.
(٤) إظهار الضعف بأن نحوله صيره إلى ما وصف.
(٥) إفادة المخاطب أن المتكلم عالم بقصته وسابق أعماله، فالغرض لازم الفائدة.
(٦) الحسرة لفقد ذوي المروءة والمصير إلى لئام لا خير فيهم.

(٢-١) نموذج في بيان مقاصد وأغراض الأخبار

(١) كان معاوية — رضي الله عنه — حسن السياسة والتدبير، يحلم في مواضع الحلم، ويشتد في موضع الشدة.

(٢) لقد أدبتَ بَنِيك باللين والرفق، لا بالقسوة والعقاب.

ولما دعوت الصبر بعدك والأسى أجاب الأسى طوعًا ولم يجب الصبر
فإن ينقطع منك الرجاء فإنه سيبقى عليك الحزن ما بقي الدهر

(٣) توفي عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — سنة ثلاث وعشرين من الهجرة.
(٤) قال أبو فراس الحمداني:

ومكارمي عدد النجوم ومنزلي مأوى الكرام ومنزل الأضياف

(٥) وقال أبو الطيب:

وما كل هاوٍ للجميل بفاعل ولا كل فعَّال له بمتمِّم

(٦) وقال أيضًا يرثي أخت سيف الدولة:

غدرتَ يا موتُ كم أفنيتَ من عدد بمن أصبت وكم أسكتَّ من لجب

(٧) وقال أبو العتاهية يرثي ولده عليًّا:

بكيتُك يا عليُّ بدمع عيني فما أغنى البكاء عليك شَيًّا
وكانت في حياتك لي عظاتٌ وأنت اليوم أوعظُ منك حيًّا

(٨) إن الثمانين وبُلِّغْتُها قد أحوجَتْ سمعي إلى تَرْجمان

(٩) قال أبو العلاء المعري:

ولي منطقٌ لم يَرْضَ لي كُنْهَ مَنزلي على أنني بين السِّماكينِ نازلُ

(١٠) قال إبراهيم بن المهدي يخاطب المأمون:

أتيتُ جُرْمًا شنيعًا وأنتَ للعفو أهلُ
فإنْ عفوتَ فمَنٌّ وإنْ قتلْتَ فعَدْلُ

(١) الغرض إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنه الكلام.

(٢) الغرض إفادة المخاطب أن المتكلم عالم بحاله في تهذيب بنيه.

(٣) الغرض إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنه الكلام.

(٤) الغرض إظهار الفخر؛ فإن أبا فراس إنما يريد أن يفاخر بمكارمه وشمائله.

(٥) الغرض إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنه الكلام؛ فإن أبا الطيب يريد أن يبين لسامعيه ما يراه في بعض الناس من التقصير في أعمال الخير.

(٦) الغرض إظهار الأسى والحزن.

(٧) الغرض إظهار الحزن والتحسر على فقد ولده.

(٨) الغرض إظهار الضعف والعجز.

(٩) الغرض الافتخار بالعقل واللسان.

(١٠) الغرض الاسترحام والاستعطاف.

تطبيق

أحصِ المؤكدات في العبارات التالية، وبيِّن ضروب الخبر الثلاثة:

(١) ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل

(٢) وإنَّ امرأ قد سار خمسين حجة إلى منهل من وِرْده لقريبُ

(٣) ليس الصديق بمن يعيرك ظاهرًا متبسمًا عن باطن متجهِّم

(٤) قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

(٥) قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾.

(٦) أما الفراق فإنه ما أعهدُ ... هو تَوْءَمِي لو أن بينًا يولدُ

(٧) وإن الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمي لمختلف جدًّا

(٨) ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾.

(٩) وإني لصبَّارٌ على ما يَنُوبُني ... وحَسْبُك أن الله أَثْنَى على الصبر

(١٠) وإني لقوَّال لذي البثِّ مرحبًا ... وأهلًا إذا ما جاء من غير مرصد
وإني لحلْوٌ تعتريني مرارة ... وإني لترَّاك لما لم أعَوَّدِ

(١١) ولقد نصحتُكَ إن قبلْتَ نصيحتي ... والنصح أغلى ما يُباع ويوهَبُ

(١٢) إن الغنى من الرجال مكرَّم ... وتراه يُرجى ما لديه ويُرغَبُ

(١٣) فما الحداثة عن حِلم بمانعة ... قد يوجد الحِلم في الشبان والشِّيب

الرقم	المؤكدات	ضرب الخبر
(١)	ألا «أداة استفتاح وتنبيه»	طلبي
(٢)	إن – قد – اللام في «لقريب»	إنكاري لزيادة المؤكدات على واحد

(٣)	الباء الزائدة في «بمن»	طلبي
(٤)	لام القسم – لام التوكيد – نون التوكيد	إنكاري
(٥)	تكرار جعلنا	طلبي
(٦)	أما – إن – أن	طلبي لأن كل مؤكدة في جملة
(٧)	إن – لام الابتداء	إنكاري لزيادة المؤكدات على واحد

(٨) لما روى القرآن قصة رسل عيسى الذين أرسلهم إلى قومه فأنكروا رسالتهم قال لهم الرسل: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ فألقوا إليهم الكلام مؤكدًا بمؤكِّدين، فكذبوا فقالوا لهم: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ مؤكدين لهم القول بمؤكد ثالث، فجحدوا، فقالوا لهم: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ فزادوا مؤكدًا رابعًا وهو القسم.

الرقم	الجملة	المؤكدات	ضرب الخبر
(٩)	وإني لصبار	إن ولام الابتداء	إنكاري
(١٠)	وإني لقوال	إن ولام الابتداء	إنكاري
	وإني لحلو	إن ولام الابتداء	إنكاري
	وإني لتراك	إن ولام الابتداء	إنكاري
(١١)	ولقد نصحتك	القسم وقد	إنكاري
	والنصح أغلى	الجملة الاسمية	ابتدائي
(١٢)	إن الغنى	إن والجملة الاسمية	طلبي
	وتراه يرجى		ابتدائي
(١٣)	فما الحداثة ... إلخ	الباء الزائدة «بمانعة»	طلبي
	قد يوجد الحلم	قد	طلبي

تمرين

اذكر أضرب الخبر وأدوات التوكيد:

(١) قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾.

(٢) وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

(٣) وقال ﷺ: «شر الناس الذين يُكرَمون اتِّقاء ألسنتهم.»

(٤) وقال علي كرم الله وجهه: «مارسْتُ كل شيء فغلبْتُه، ومارسني الفقرُ فغلبني، إن سترتُه أهلكني، وإن أذعتُه فضحني.»

(٥) وقال النبي عليه الصلاة والسلام يصف الأنصار: «إنكم لتقلون عند الطمع، وتكثرون عند الفزع.»

(٦) وقال بشار بن بُرد:

خليليَّ إن المال ليس بدافع   إذا لم يَنَلْ منه أخٌ وصديق

(٧) وقال أبو العتاهية:

قد يُدرِك الراقد الهادي برقدته   وقد يخيب أخو الروحات والدُّلج[١١]

(٨) وقال:

إن البخيل وإن أفاد غنًى   لتُرى عليه مخايل الفقر
ما فاتني خير امرئ وضعَتْ   عني يداه مثوبة الشكر

(٩) وقال آخر:

وما لب اللبيب بغير حظ   بأغنى في المعيشة من فتيل

(١٠) وقال آخر:

وللحِلم خير فاعلَمَنَّ مَغَبَّةً　　من الجهل إلا أن تُشَمَّس من ظلم

(١١) وقال حسان بن ثابت:

أصون عِرضي بمالي لا أدِّنسه　　لا بارك الله بعد العرض في المال
أحتال للمال إن أودى فأكسبه　　ولست للعرض إن أودى بمحتال

(١٢) وقال الشاعر:

ولم أر كالمعروف: أما مذاقه　　فحلو، وأما وجهه فجميل

(١٣) وقال صرَّدُر:

تذل الرجال لأطماعها　　كذل العبيد لأربابها
وأعلم أن ثياب العفا　　ف أجمل زي لمجتابها[١٢]

(١٤) وقال آخر:

لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي　　إذا هو لم يجعل له الله واقيا

(١٥) وقال سعيد بن حميد في العتاب:

أقلل عتابك فالبقاء قليل　　والدهر يعدل تارة ويميل
ولعل أحداث المنية والرَّدَى　　يومًا ستَصْدَع بيننا وتحول
فلئن سبقت لتبكين بحسرة　　وليكثرن عليَّ منك عويل
ولئن سبقتَ — ولا سبقتَ — ليمضين　　من لا يشاكله لديَّ خليل
وليذهبن بهاء كل مروءة　　وليُفْقَدَّن جمالُها المأهول

(١٦) إنَّ الحياة لثوب سوف نخلعه   وكل ثوب إذا ما رثَّ ينخلع

(١٧) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾.

الرقم	الجملة	المؤكدات	ضرب الخبر
(١٦)	إن الحياة لثوب	إن ولام الابتداء	إنكاري
	وكل ثوب ... إلخ		ابتدائي
(١٧)	غفلتهم عن الموت تعد من	أمارات الإنكار	إنكاري

تطبيق

اذكر أضرب الخبر وبيِّن المؤكدات فيما يأتي:

(١) وعاد في طلب المتروك تاركه   إنَّا لنغفل والأيام في الطلب

(٢) ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾.

(٣) أمَا دون مصر للغنى متطلب   بلى إن أسباب الغنى لكثير

(٤) فيومٌ لنا ويوم علينا   ويوم نُساء ويوم نُسر

(٥) إنَّ من البيان لسحرًا وإنَّ من الشعر لحكمة.
(٦) قد يُدرك الشرفَ الفتى ورداؤه خلق.

الرقم	الجملة	المؤكدات	ضرب الخبر
(١)	وعاد في طلب المتروك		ابتدائي
	إنا لنغفل	إن ولام الابتداء	إنكاري
(٢)	وجعلنا نومكم ... إلخ	تكرير جعل	طلبي

الرقم	الجملة	المؤكدات	ضرب الخبر
(٣)	أمَا دون مصر	حرف التنبيه «أما»	طلبي
	إن أسباب الغنى لكثير	إن ولام الابتداء	إنكاري
(٤)	يوم لنا ويوم علينا	التكرير	طلبي
(٥)	إن من البيان لسحرًا	إن ولام الابتداء	إنكاري
	إن من الشعر لحكمة	إن ولام الابتداء	إنكاري
(٦)	قد يدرك		طلبي

(٣) المبحث الثالث: في تقسيم الخبر إلى جملة فعلية وجملة اسمية

(أ) الجملة الفعلية: ما تركبت من فعل وفاعل، أو من فعل ونائب فاعل؛ وهي: موضوعة لإفادة التجدد والحدوث في زمن معيَّن مع الاختصار،[١٣] نحو: يعيش البخيل عيشة الفقراء، ويُحاسب في الآخرة حساب الأغنياء. ونحو: أشرقت الشمس وقد ولى الظلام هاربًا.

فلا يستفاد من ذلك إلا ثبوت الإشراق للشمس، وذهاب الظلام في الزمان الماضي.

وقد تفيد الجملة الفعلية الاستمرار التجددي شيئًا فشيئًا بحسب المقام، وبمعونة القرائن، لا بحسب الوضع،[١٤] بشرط أن يكون الفعل مضارعًا نحو قول المتنبي:

تدبِّر شرقَ الأرض والغرب كفُّه   وليس لها يومًا عن المجد شاغل

فقرينة المدح تدل على أن تدبير الممالك ديدنه، وشأنه المستمر الذي لا يحيد عنه، ويتجدد آنًا فآنًا.

(ب) والجملة الاسمية: هي ما تركبت من مبتدأ وخبر، وهي تفيد بأصل وضعها ثبوت شيء لشيء[١٥] ليس غير — بدون نظر إلى تجدد ولا استمرار — نحو: الأرض متحركة، فلا يُستفاد منها سوى ثبوت الحركة للأرض، بدون نظر إلى تجدد ذلك ولا حدوثه.

وقد تخرج الجملة الاسمية عن هذا الأصل، وتفيد الدوام والاستمرار بحسب القرائن إذا لم يكن في خبرها فعل مضارع؛ وذلك بأن يكون الحديث في مقام المدح، أو معرض الذم كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

فسياق الكلام في معرض المدح دال على إرادة الاستمرار مع الثبوت، ومنه قول النضر بن جؤبة يتمدح بالغنى والكرم:

لا يألف الدرهم المضروب صرَّتنا   لكن يمر عليها «وهو منطلق»

يريد أن دراهمه لا ثبات لها في الصرة ولا بقاء، فهي دائمًا تنطلق منها، وتمرق مروق السهام من قِسيِّها؛ لتوزع على المعوزين، وأرباب الحاجات.

واعلم أن الجملة الاسمية لا تفيد الثبوت بأصل وضعها، ولا الاستمرار بالقرائن، إلا إذا كان خبرها مفردًا، نحو: الوطن عزيز؛ أو كان خبرها جملة اسمية، نحو: الوطن هو سعادتي.

أما إذا كان خبرها فعلًا فإنها تكون كالجملة الفعلية في إفادة التجدد والحدوث في زمن مخصوص، نحو: الوطن يسعد بأبنائه، ونحو:

تعيب الغانياتُ عليَّ شيبي   ومن لي أن أمتَّع بالمشيب

وكقول الآخر:

نروح ونغدو لحاجاتنا   وحاجة من عاش لا تنقضي

أسئلة يُطلب أجوبتها

ما هو علم المعاني؟ ما هو الإسناد؟ ما هي مواضع المسند والمسند إليه؟ ما المراد بصدق الخبر وكذبه؟ ما الفرق بين النسبة الكلامية والنسبة الخارجية؟ ما هو الأصل في إلقاء الخبر؟ ما هي الأغراض الأخرى التي يُلقى إليها الخبر؟ ما هي أضرب الخبر؟ ما هي أدوات التوكيد؟ لماذا يعدل عن مقتضى الظاهر؟ إلى كم ينقسم الخبر؟ لأي شيء وُضعت الجملة الاسمية والفعلية؟ هل تُفيد الجملة الفعلية والاسمية غير ما وُضعتا لأجله؟

تدريب

بيِّن فائدة التعبير بالجملة الاسمية أو الفعلية في التراكيب الآتية:

(١) قال تعالى: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

(٢) نروح ونغدو لحاجاتنا ... وحاجة من عاش لا تنقضي

(٣) وعلى إثرهم تساقط نفسي ... حسرات وذكرهم لي سقام

(٤) يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه، أمن الحلال أم من الحرام.

(٥) أَوَكلما وردت عكاظ قبيلة ... بعثوا إليَّ عَريفهم يتوسم

الرقم	الجملة	نوعها	ما تفيده	الإيضاح
(١)	يمحو الله	مضارعية	الاستمرار التجددي	محو بعض الخلائق وإفناؤها، وإثبات البعض الآخر مستمر على جهة التجدد.
	وعنده أم الكتاب	اسمية	الدوام	أم الكتاب: اللوح المحفوظ، والقرينة: الإسناد إلى الله.
(٢)	نروح ونغدو	مضارعية	الاستمرار التجددي	والقرينة قوله: وحاجة من عاش.
(٣)	تساقط	مضارعية	الاستمرار التجددي	
	وذكرهم لي سقام	اسمية	الاستمرار والدوام	القرينة: حالية، وهي الحزن والأسى.
(٤)	يأتي	مضارعية	التجدد	

(٥) يريد أن كل قبيلة ترد سوق عكاظ تبعث عريفها ورئيسها ليتفرس في وجوه القوم مرة بعد أخرى؛ لعله يهتدي إلى معرفتي؛ لتأخذ بثأرها مني، وتنكل بي؛ لأني طالما أوقعت بها، وأذقتها صنوف المذلة والهوان. وعكاظ: سوق للعرب كانت تجتمع فيها للتفاخر والتنافر ليلًا، ولتصريف المتاجر نهارًا.

هوامش

(١) أي بقطع النظر عن خصوص المخبر أو خصوص الخبر، وإنما يُنظَر في احتمال الصدق والكذب إلى الكلام نفسه لا إلى قائله؛ وذلك لتدخل الأخبار الواجبة الصدق كأخبار الله تعالى، وأخبار رسله، والبديهيات المألوفة، نحو: «السماء فوقنا» والنظريات المتعين صدقها ولا تحتمل شكًّا؛ كإثبات العلم والقدرة للمولى سبحانه وتعالى، ولتدخل الأخبار الواجبة الكذب كأخبار المتنبئين في دعوى النبوة.

(٢) فمطابقة النسبة الكلامية للنسبة الخارجية ثبوتًا ونفيًا صدق، وعدم المطابقة كذب، فالنسبة التي دل عليها الخبر وفُهمت منه تُسمى كلامية، والنسبة التي تُعرف من الخارج بقطع النظر عن الخبر تُسمى خارجية. فحينئذ هناك نسبتان: نسبة تُفهَم من الخبر، ويدل عليها الكلام، وتُسمى النسبة الكلامية، ونسبة أخرى تُعرَف من الخارج بقطع النظر عن الخبر، وتُسمى النسبة الخارجية. فما وافق الواقع فهو صدق، وما خالف الواقع فهو كذب.

(٣) فليس الغرض هنا إفادة الحكم ولا لازم الفائدة؛ لأن الله تعالى عليم، ولكنه طلب عفو ربه؛ ولهذا ترى في الكلام العربي أخبارًا كثيرة لا يُقصد بها إفادة المخاطب الحكم، ولا أن المتكلم عالم به، فتكون قد خرجت عن معناها الأصلي السالف ذكره إلى أغراض أخرى.

(٤) كتب معاوية إلى أحد عماله فقال: لا ينبغي لنا أن نسوس الناس سياسة واحدة، لا نلين جميعًا فيمرح الناس في المعصية، ولا نشتد جميعًا فنحمل الناس على المهالك، ولكن تكون أنت للشدة والغلظة، وأكون أنا للرأفة والرحمة.

وكتب أبو العباس السفاح فقال: لأعملن اللين حتى لا ينفع إلا الشدة، ولأكرمن الخاصة ما أمنتهم على العامة، ولأغمدن سيفي حتى يسله الحق، ولأعطين حتى لا أرى للعطية موضعًا.

(٥)

عَرَفْتُ هَواها قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى ... فَصادفَ قلبًا خاليًا فَتَمَكَّنَا

(٦) المراد بالتأكيد في هذا الباب تأكيد الحكم، لا تأكيد المسند إليه، ولا تأكيد المسند.

واعلم أن الخطاب بالجملة الاسمية وحدها آكد من الخطاب بالجملة الفعلية، فإذا أريد مجرد الإخبار أتي بالفعلية، وأما إن أريد التأكيد فبالاسمية وحدها، أو بها مع «إن»،

أو بهما وباللام، أو بالثلاثة والقسم، واعلم أن لام الابتداء هي الداخلة على المبتدأ واللاحقة للخبر، كما أن السين وسوف لا تفيدان التوكيد إلا إذا كانت للوعد أو الوعيد.

(٧) اعلم أن «الحال» هو الأمر الداعي إلى إيراد الكلام مكيفًا بكيفية ما، سواء أكان ذلك الأمر الداعي ثابتًا في الواقع أو كان ثبوته بالنظر لما عند المتكلم، كتنزيل المخاطب غير السائل منزلة السائل.

و«ظاهر الحال» هو الأمر الداعي إلى إيراد الكلام مكيفًا بكيفية مخصوصة بشرط أن يكون ذلك الأمر الداعي ثابتًا في الواقع، فكل كيفية اقتضاها ظاهر الحال اقتضاها الحال، وليس كل كيفية اقتضاها الحال اقتضاها ظاهره.

(٨) أي فصار الكلام مظنة للتردد والطلب وإن لم يتردد المخاطب ولم يطلب بالفعل؛ وذلك لأنه تكاد نفس الذكي إذا قدم لها ما يشير إلى جنس الخبر أن تتردد في شخص الخبر، وتطلبه من حيث إنها تعلم أن الجنس لا يوجد إلا في فرد من أفراده، فيكون ناظرًا إليه بخصوصه، كأنه متردد فيه، كنظر السائل، فقوله: «ولا تخاطبني» يشير إلى جنس الخبر، وأنه عذاب، وقوله: «إنهم مغرقون» يشير إلى خصوص الخبر الذي أشير إليه ضمنًا في قوله: «ولا تخاطبني»، كقول الشاعر:

ترفق أيها المولى عليهم فإن الرفق بالجاني عتاب

فالأصل أن يورد الخبر هنا خاليًا من التوكيد؛ لأن المخاطب خالي الذهن من الحكم، ولكن لما تقدم في الكلام ما يشعر بنوع الحكم أصبح المخاطب متشوقًا لمعرفته فنزل منزلة السائل المتردد الطالب، واستحسن إلقاء الكلام إليه مؤكدًا؛ جريًا على خلاف مقتضى الظاهر.

(٩) وفائدة التنزيل وجوب زيادة التأكيد قوة وضعفًا؛ لأنه نزل المتردد منزلة المنكر، فيُعطَى حكمه حينئذ، وهكذا نفهم في عكسه، وهو تنزيل المنكر منزلة المتردد في استحسان التوكيد له. واعلم أنه إذا التبس إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر بإخراجه على مقتضى الظاهر يحتاج إلى قرينة تعين المقصود أو ترجحه، فإن لم توجد قرينة صح حمل الكلام على كل من الأمرين، وذلك كجعل السائل كالخالي، وجعل المتردد كالمنكر، فإن وجدت قرينة عُمل بها، والأصح الحكم بأحدهما.

(١٠) من مزايا اللغة العربية: دقة التصرف في التعبير، واختلاف الأساليب باختلاف المقاصد والأغراض، فمن العيب الفاضح عند ذوي المعرفة بها «الإطناب» إذا لم تكن هناك

حاجة إليه و«الإيجاز والاختصار» حيث تطلب الزيادة. وقد تخفى دقائق تراكيبها على الخاصة بله العامة، فقد أشكل أمرها على بعض ذوي الفطنة من نابتة القرن الثالث إبان زهو اللغة ونضرة شبابها، يُرشدك إلى ذلك ما رواه الثقاة من أن المتفلسف الكندي ركب إلى أبي العباس المُبَرِّد، وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشوًا. فقال أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون «عبد الله قائم» ثم يقولون «إنَّ عبد الله قائم» ثم يقولون «إنَّ عبد الله لقائم» فالألفاظ متكررة والمعنى واحد! فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فالأول إخبار عن قيامه، والثاني جواب عن سؤال سائل، والثالث جواب عن إنكار منكر قيامه؛ فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني. فما أحار المتفلسف جوابًا.

ومن هذا نعلم أن العرب لاحظت أن يكون الكلام بمقدار الحاجة، لا أزيد وإلا كان عبثًا، ولا أنقص ولا أخل بالغرض، وهو الإفصاح والبيان.

(١١) الدلج: الظلام.

(١٢) لابسها.

(١٣) وذلك أن الفعل دال بصيغته على أحد الأزمنة الثلاثة بدون احتياج لقرينة، بخلاف الاسم فإنه يدل على الزمن بقرينة ذكر لفظه «الآن أو أمس أو غدًا»، ولما كان الزمان الذي هو أحد مدلولي الفعل غير قار بالذات؛ أي لا تجتمع أجزاؤه في الوجود — كان الفعل مع إفادته التقييد بأحد الأزمة الثلاثة مفيدًا للتجدد أيضًا.

(١٤) وذلك نظير الاستمرار الثبوتي في الجملة الاسمية نحو: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾؛ أي: لو استمر على إطاعتكم وقتًا فوقتًا لحصل لكم عنت ومشقة.

(١٥) فالجملة الاسمية موضوعة لمجرد ثبوت المسند للمسند إليه.

قال الشيخ عبد القاهر: موضوع الاسم على أن يثبت به الشيء للشيء من غير اقتضاء أنه يتجدد ويحدث شيئًا فشيئًا، فلا نعرض في نحو: «زيد منطلق» لأكثر من إثبات الانطلاق له فعلًا، كما في «زيد طويل وعمرو قصير»؛ أي أن ثبوت الطول والقصر هو بأصل الوضع، وأما استفادة الدوام فمن الملازمة في هذين الوصفين، وحينئذ فالتمثيل للمنفي.

الباب الثاني

في حقيقة الإنشاء وتقسيمه

الإنشاء لغة: الإيجاد، واصطلاحًا: كلام لا يحتمل صدقًا ولا كذبًا لذاته،[1] نحو: اغفر وارحم، فلا يُنسب إلى قائله صدق أو كذب.

وإن شئت فقل في تعريف الإنشاء: «هو ما لا يحصل مضمونه ولا يتحقق إلا إذا تلفظت به» فطلب الفعل في «افعَلْ»، وطلب الكف في «لا تفعل»، وطلب المحبوب في «التمنِّي»، وطلب الفهم في «الاستفهام»، وطلب الإقبال في «النداء»؛ كل ذلك ما حصل إلا بنفس الصيغ المتلفظ بها.

وينقسم الإنشاء إلى نوعين: إنشاء طلبي، وإنشاء غير طلبي.

«فالإنشاء غير الطلبي» ما لا يستدعي مطلوبًا غير حاصل وقت الطلب، ويكون بصيغ المدح، والذم، وصيغ العقود، والقسم، والتعجب والرجاء، ويكون بِرُبَّ ولعلَّ، وكم الخبرية.

(١) أما المدح والذم: فيكونان بنعم وبئس وما جرى مجراهما، نحو: حبذا ولا حبذا، والأفعال المحولة إلى فعل، نحو: طاب عليٌّ نفسًا، وخبث بكر أصلًا.

(٢) وأما العقود: فتكون بالماضي كثيرًا، نحو: بعتُ واشتريت ووهبتُ وأعتقتُ، وبغيره قليلًا نحو: أنا بائع، وعبدي حر لوجه الله تعالى.

(٣) وأما القسم: فيكون بالواو والباء والتاء وبغيرها، نحو: لعمرك ما فعلت كذا.

(٤) وأما التعجب: فيكون قياسًا بصيغتين، ما أفعله وأَفْعِلْ به، وسماعًا بغيرهما، نحو: لله دره عالمًا ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾.

(٥) وأما الرجاء: فيكون بعسى وحرى واخلولق، نحو: ﴿فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾.

واعلم أن الإنشاء غير الطلبي لا تبحث عنه علماء البلاغة؛ لأن أكثر صيغه في الأصل أخبار نقلت إلى الإنشاء، وإنما المبحوث عنه في علم المعاني هو «الإنشاء الطلبي» لما يمتاز به من لطائف بلاغية.

«إذن يتضح أن الإنشاء الطلبي» هو الذي يستدعي مطلوبًا[2] غير حاصل[3] في اعتقاد المتكلم وقت الطلب.

وأنواعه خمسة: الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني، والنداء.[4]

وفي هذا الباب خمسة مباحث.

(١) المبحث الأول: في الأمر

الأمر: هو طلب حصول الفعل من المُخاطب على وجه الاستعلاء[5] مع الإلزام، وله أربع صيغ:

(١) فعل الأمر، كقوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾.

(٢) والمضارع المجزوم بلام الأمر، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾.

(٣) واسم فعل الأمر، نحو: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾.

(٤) والمصدر النائب على فعل الأمر، نحو: سعيًا في سبيل الخير.

وقد تخرج صيغ الأمر عن معناها الأصلي وهو «الإيجاب والإلزام» إلى معانٍ أخرى تستفاد من سياق الكلام، وقرائن الأحوال.

(١) كالدعاء في قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾.

(٢) والالتماس، كقولك لمن يساويك: أعطني القلم أيها الأخ.

(٣) والإرشاد، كقوله تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾.

(٤) والتهديد، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(٥) والتعجيز، كقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾.

(٦) والإباحة، كقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾.

ونحو: اجلس كما تشاء.

(٧) والتسوية، نحو قوله تعالى: ﴿اصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾.

(٨) والإكرام، كقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾.

(٩) والامتنان، كقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾.

(١٠) والإهانة، كقوله تعالى: ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾.

(١١) والدوام، كقوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

(١٢) والتمني، كقول امرئ القيس:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

(١٣) والاعتبار، كقوله تعالى: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾.

(١٤) والإذن، كقولك لمن طرق الباب: «ادخلْ».

(١٥) والتكوين، كقوله تعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

(١٦) والتخيير، نحو: تزوَّجْ هندًا أو أختها.

(١٧) والتأديب، نحو: كُلْ مما يليك.

(١٨) والتعجب، كقوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾.

تمرين

بيِّن ما المراد من صيغ الأمر في التراكيب الآتية:

فصبرًا في مجال الموت صبرًا فما نيل الخلود بمستطاع

فغُضَّ الطَّرْفَ إنك مِن نُمَيْرٍ فلا كعبًا بَلَغْتَ ولا كلابًا

فيا موتُ زُرْ إن الحياة ذميمة ويا نفسُ جدِّي إنَّ دهرَكِ هازلُ

(١) ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

(٢) أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة لدينا ولا مَقْلِيَّة إن تقلت

(٣) يا ليلُ طُل يا نوم زُل يا صبح قف لا تطلعِ

(٤) عِشْ ما بدا لك سالمًا في ظل شاهقة القصور

(٥) ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

(٦) ترفق أيها المولى عليهم فإن الرفق بالجاني عتابُ

(٧) أرى العنقاء تكبر أن تُصادا فعاند من تطيق له عنادا

(٨) خليليَّ هُبَّا طالما قد رقدتما أجدكما لا تقضيان كراكما

(٩) أريني جوادًا مات هُزلًا لعلني أرى ما تَرَيْنَ أو بخيلًا مُخْلَدا

(١٠) قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

(١١) قد رشحوك لأمر إن فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

(١٢) ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾.

(١٣) ليس هذا بعشُّكِ فادرُجي.

(١٤) «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا.»

(١٥) فمن شاء فليبخل ومن شاء فليجُدْ   كفاني نداكم عن جميع المطالب

يا رب لا تسلبني حبها أبدًا   ويرحم الله عبدًا قال آمينا

(١٦) أولئك آبائي فجئني بمثلهم   إذا جمعتنا يا جرير المجامع

أروني بخيلًا طال عمرًا ببخله   وهاتوا كريمًا مات من كثرة البذل

وحسن ظنك بالأيام معجزة   فظن شرًّا وكن منها على حذر

الرقم	صيغة الأمر	الغرض منها
(١)	خذ العفو	الإرشاد
(٢)	أسيئي بنا	التسوية
(٣)	طل – زل	التمني
(٤)	عش سالمًا	الدعاء
(٥)	أسروا قولكم	التسوية
(٦)	ترفق	الدعاء
(٧)	عائد	الإهانة
(٨)	هبا	الالتماس
(٩)	أريني جوادًا	التعجيز
(١٠)	هاتوا برهانكم	التعجيز
(١١)	فاربأ بنفسك	الإرشاد
(١٢)	اشرح لي صدري	الدعاء
(١٣)	أدرجي	الإهانة

الرقم	صيغة الأمر	الغرض منها
(١٤)	اعمل لدنياك	الإرشاد
(١٥)	فليبخل	التخيير
(١٦)	جئني	التعجيز

نموذج

بيِّن نوع الإنشاء وصيغته في الأمثلة الآتية:

(١) يا أيها المتحلي غير شيمته ومن شمائله التبديل والمَلَق
ارجع إلى خُلقك المعروف ديدنه إن التخلق يأتي دونه الخلق

(٢) يا ابنتي إن ردت آية حُسن وجمالًا يزين جسمًا وعقلا
فانبذي عادة التبرج نبذًا فجمال النفوس أسمى وأعلى
يصنع الصانعون وردًا ولكن وردة الروض لا تُضارَع شكلا

(٣) يا ليت من يمنع المعروف يمنعه حتى يذوق رجال غبَّ ما صنعوا

(٤) لعمرك ما بالعقل يُكتسب الغنى ولا باكتساب المال يُكتسب العقل

رقم المثال	صيغة الإنشاء	نوعه	طريقته
(١)	يا أيها المتحلى غير شيمته ... إلخ	طلبي	النداء
	ارجع إلى خلقك المعروف	طلبي	الأمر
(٢)	يا ابنتي إن أردت آية حسن	طلبي	النداء

رقم المثال	صيغة الإنشاء	نوعه	طريقته
	فانبذي عادة التبرج	طلبي	الأمر
(٣)	يا ليت من يمنع المعروف	طلبي	التمني
(٤)	لعمرك ما بالعقل يكتسب الغنى	غير طلبي	القسم

أسئلة على الإنشاء يطلب أجوبتها

ما هو الإنشاء لغة واصطلاحًا؟ إلى كم ينقسم الإنشاء؟ ما هو الإنشاء غير الطلبي؟ كم أقسام الإنشاء الطلبي؟ ما هو الأمر؟ كم صيغة للأمر؟ ما هي المعاني التي تخرج إليها صيغ الأمر عن أصل معناها.

(٢) المبحث الثاني: في النهي

النهي: هو طلب الكفِّ عن الشيء على وجه الاستعلاء[٦] مع الإلزام، وله صفة واحدة، وهي المضارع المقرون بلا الناهية، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾، ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾.

وقد تخرج هذه الصيغة عن أصل معناها إلى معانٍ أُخَر، تُستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال:

(١) كالدعاء، نحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.
(٢) والالتماس، كقولك لمن يساويك: أيها الأخ لا تتوانَ.
(٣) والإرشاد، كقوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.
(٤) والدوام، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾.
(٥) وبيان العاقبة، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾.
(٦) والتيئيس، نحو قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.
(٧) والتمني، نحو: يا ليلة الأنس لا تنقضي.

وكقوله:

يا ليلُ طل يا نوم زُل   يا صبح قف لا تطلع

(٨) والتهديد، كقولك لخادمك: لا تطع أمري.
(٩) والكراهة، نحو: لا تلتفت وأنت في الصلاة.
(١٠) والتوبيخ، نحو: لا تنهَ عن خُلق وتأتيَ مثله.
(١١) والائتناس، نحو: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾.
(١٢) والتحقير، كقوله:

لا تطلب المجد إن المجد سُلمه   صعب وعش مستريحًا ناعم البال

وكقوله:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

تطبيق

اذكر ما يُراد من صيغ النهي الآتية:
(١) ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

(٢) فلا تلزمن الناس غير طباعهم   فتتعب من طول العتاب ويتعبوا
ولا تغترر منهم بحسن بشاشة   فأكثر إيماض البوارق خُلب

(٣) فلا تهج إن كنت ذا إربة   حَرْبَ أخي التجربة العاقل

(٤) ﴿لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾.

(٥) لا تحسبِ المجدَ تمرًا أنتَ آكلُه   لن تبلغَ المجد حتى تلعق الصبرا

(٦) لا تحتجب عن العيون أيها القمر.

(٧) لا تعرضن لجعفر متشبِّهًا بِنَدَى يديه فلست من أنداده

(٨) لا تيأسوا أن تستردوا مجدكم فلرب مغلوب هوى ثم ارتقى

ولا تجلس إلى أهل الدَّنايا فإن خلائق السفهاء تُعْدِي

الغرض
(١) التوبيخ على خلطهم الحق بالباطل
(٢) الإرشاد إلى حسن الخلق
(٣) الإرشاد والنصح
(٤) التوبيخ والتقريع
(٥) التوبيخ والتعنيف
(٦) التمني
(٧) التوبيخ والتأنيب
(٨) استنهاض الهمة بالنصح

(٣) المبحث الثالث: في الاستفهام

الاستفهام: هو طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل.

وذلك بأداة من إحدى أدواته الآتية؛ وهي: الهمزة، وهل، وما، ومتى، وأيَّان، وكيف، وأين، وأنَّى، وكم، وأي.

وتنقسم بحسب الطلب إلى ثلاثة أقسام:

(أ) ما يُطلب به التصور تارة، والتصديق تارة أخرى، وهو: الهمزة.
(ب) وما يُطلب به التصديق فقط، وهو: هل.
(ج) وما يُطلب به التصور فقط، وهو بقية ألفاظ الاستفهام.

(٣-١) الهمزة

يُطلب بالهمزة أحد أمرين: تصوُّر، أو تصديق.

(أ) فالتصور: هو إدراك المفرد،[٧] نحو: أعلي مسافر أم سعيد؟ تعتقد أن سفرًا حصل من أحدهما، ولكن تطلب تعيينه.

ولذا يجاب فيه بالتعيين، فيقال: «سعيد» مثلًا.

وحكم الهمزة التي لطلب التصور أن يليها المسئول عنه بها، سواء أكان:

(١) مسندًا إليه، نحو: أأنتَ فعلتَ هذا أم يوسف؟
(٢) أم مسندًا، نحو: أراغب أنت عن الأمر أم راغب فيه؟
(٣) أم مفعولًا، نحو: إياي تقصد أم سعيدًا؟
(٤) أم حالًا، نحو: أراكبًا حضرت أم ماشيًا؟
(٥) أم ظرفًا، نحو: أيوم الخميس قدمت أم يوم الجمعة؟

ويذكر المسئول عنه في التصور بعد الهمزة، ويكون له معادل يذكر بعد أم غالبًا، وتُسمى متصلة.

وقد يُستغنى عن ذكر المعادل نحو: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾؟

(ب) والتصديق «هو إدراك وقوع نسبة تامة بين المسند والمسند إليه أو عدم وقوعها»[٨] بحيث يكون المتكلم خالي الذهن مما استُفهم عنه في جملته، مصدِّقًا للجواب إثباتًا «بنعم» أو نفيًا «بلا».

وهمزة الاستفهام تدل على التصديق إذا أريد بها النسبة.

ويكثر التصديق في الجمل الفعلية، كقولك: أحضر الأمير؟[٩] تستفهم عن ثبوت النسبة ونفيها، وفي هذه الحالة يُجاب بلفظة: نعم أو لا.

ويقل التصديق في الجمل الاسمية، نحو: أعليٌّ مسافر؟

ويمتنع أن يذكر مع همزة التصديق معادل كما مثل، فإن جاءت «أم» بعدها قُدرت منقطعة[١٠] وتكون بمعنى «بل»:

ولست أبالي بعد فقدي مالكا　　　أموتي ناءٍ أم هو الآن واقع

ونحو:

هل يسمعن النضر إن ناديته أم كيف يسمع ميْت لا ينطق

(٣-٢) هل

يُطلب بها التصديق فقط؛ أي معرفة وقوع النسبة أو عدم وقوعها لا غير، نحو: هل حافظ المصريون على مجد أسلافهم؟

ولأجل اختصاصها بطلب التصديق لا يُذكر معها المعادل بعد أم المتصلة؛ فلذا:

(أ) امتنع «هل سعد قام أم سعيد؟» لأنَّ وقوع المفرد وهو سعيد بعد «أم» الواقعة في حيز الاستفهام دليل على أن أم متصلة.

وهي لطلب تعيين أحد الأمرين، ولا بد حينئذ أن يُعلَم بها أولًا أصل الحكم.

و«هل» لا يناسبها ذلك؛ لأنها لطلب الحكم فقط، فالحكم فيها غير معلوم، وإلا لم يُستفهم عنه بها، وحينئذ يؤدي الجمع بين «هل» و«أم» إلى التناقض؛ لأنَّ «هل» تفيد أن السائل جاهل بالحكم؛ لأنها لطلبه.

و«أم» المتصلة تفيد أنَّ السائل عالم به، وإنما يطلب تعيين أحد الأمرين، فإن جاءت أم كذلك كانت منقطعة بمعنى بل التي تفيد الإضراب، نحو: هل جاء صديقك أم عدوك؟

(ب) وقبح استعمال «هل» في تركيب هو مظنة للعلم بحصول أصل النسبة، وهو ما يتقدم فيه المعمول على الفعل، نحو: هل خليلًا أكرمت؟ فتقديم المعمول على الفعل يقتضي غالبًا حصول العلم للمتكلم، وتكون هل لطلب حصول الحاصل وهو عبث.

تنبيهات

الأول: هل كالسين وسَوْف؛ تُخلص المضارع للاستقبال، فلا يقال: هل تصدُق؟ جوابًا لمن قال: أحبك الآن، بل تقول له: أتصدُق؟ ولأجل اختصاصها بالتصديق، وتخليصها المضارع للاستقبال — قوي اتصالها بالفعل لفظًا أو تقديرًا، نحو: هل يجيء عليٌّ، أو: هل عليٌّ يجيء؟

فإن عُدِل عن الفعل إلى الاسم لإبراز ما يحصل في صورة الحاصل دلالة على كمال العناية بحصوله — كان هذا العدول أبلغ في إفادة المقصود كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾. فهذا التركيب أدل على طلب الشكر من قولك: هل تشكرون؛ وذلك لأنَّ الفعل لازم بعد هل، والعدول عنه يدل على قوة الداعي لذلك لما ذُكر.

الثاني: هل نوعان: بسيطة ومركبة:

(أ) فالبسيطة هي التي يُستفهم بها عن وجود شيء في نفسه، أو عدم وجوده، نحو: هل العنقاء[11] موجودة؟ ونحو: هل الخل الوفي موجود؟

(ب) والمركبة هي التي يُستفهم بها عن وجود شيء لشيء وعدم وجوده له، نحو: هل المريخ مسكون؟ هل النبات حسَّاس؟

الثالث: «هل» لا تدخل على:

(١) المنفي*	فلا يقال: هل يفهم علي
(٢) ولا على المضارع الذي هو للحال	فلا يقال: هل تحتقر عليًّا وهو شجاع
(٣) ولا على إنَّ	فلا يقال: هل إنَّ الأمير مسافر
(٤) ولا على الشرط	فلا يقال: هل إذا زرتك تكرمني
(٥) ولا على حرف العطف†	فلا يقال: هل فيتقدم أو: هل ثم يتقدم
(٦) ولا على اسم بعده	فلا يقال: هل بشرًا منَّا واحدًا تتَّبعه

* أي: لأن هل في الأصل بمعنى قد، وهي لا تدخل على المنفي، فلا يقال: «قد لا يقوم خليل» فحينئذ هي مخصوصة بدخولها على النسب المثبتة، سواء أكانت جملًا فعلية أو اسمية، واعلم أن عدم دخولها على المنفي لا ينافي أنها لطلب التصديق مطلقًا سواء في الإيجابي والسلبي.

† أي: لا تقع هل قبل الحرف العاطف بل تقع بعده دائمًا.

بخلاف الهمزة فإنها تدخل على جميع ما ذُكر.

واعلمْ أن الهمزة وهل يُسأل بهما عمَّا بعدهما؛ لأنهما حرفان ليس لهما معنًى مُستقل.

الرابع: بقية أدوات الاستفهام موضوعة «للتصور» فقط، فيُسأل بها عن معناها، وهي: ما، ومتى، وأيَّان، وكيف، وأين، وأنى، وكم، وأي.

ولهذا يكون الجواب معها بتعيين المسئول عنه.

(٣-٣) ما – ومن

ما: موضوعة للاستفهام عن أفراد غير العقلاء، ويُطلب بها:

(أ) إيضاح الاسم: نحو: ما العسجد؟ فيقال في الجواب: إنه ذهب.
(ب) أو يُطلب بها بيان حقيقة المسمَّى، نحو: ما الشمس؟ فيجاب بأنه كوكب نهاري.
(ج) أو يُطلب بها بيان الصفة، نحو: ما خليل؟ وجوابه: طويل أو قصير، مثلًا.

وتقع هل البسيطة في الترتيب العقلي[١٢] بين «ما» التي لشرح الاسم و«ما» التي للحقيقة، فمن يجهل معنى البشر مثلًا يسأل أولًا «بما» عن شرحه، فيجاب بإنسان، ثم «بهل» البسيطة عن وجوده، فيجاب بنعم، ثم «بما» عن حقيقته، فيجاب بحيوان ناطق.
ومَن موضوعة للاستفهام، ويُطلَب بها تعيين أفراد العقلاء، نحو: من فتح مصر؟ ونحو: من شيَّد الهرم الأكبر؟ ونحو: مَنْ شيَّد القناطر الخيرية؟

(٣-٤) متى – وأيان

متى: موضوعة للاستفهام، ويُطلب بها تعيين الزمان، سواء أكان ماضيًا أو مستقبلًا، نحو: متى تولى الخلافة عمر؟ ومتى نحظى بالحرية؟
وأيان: موضوعة للاستفهام، ويُطلب بها تعيين الزمان المستقبل خاصة، وتكون في موضع «التهويل والتفخيم» دون غيره كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾.[١٣]

(٣-٥) كيف – وأين – وأنى – وكم – وأي

كيف: موضوعة للاستفهام، ويُطلب بها تعيين الحال، كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾. وكقوله:

وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ... ورأي أمير المؤمنين جميل؟!

وأين: موضوعة للاستفهام، ويُطلب بها تعيين المكان، نحو: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾.
وأنى: موضوعة للاستفهام، وتأتي لمعانٍ كثيرة:

(١) فتكون بمعنى كيف، كقوله تعالى: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

(٢) وتكون بمعنى من أين، كقوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾.
(٣) وتكون بمعنى متى، كقولك: زرني أنى شئت.

وكم: موضوعة للاستفهام، ويُطلب بها تعيين عدد مبهم، كقوله تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾.

وأي: موضوعة للاستفهام، ويُطلب بها تمييز أحد المتشاركين في أمر يعمُّهما، كقوله تعالى: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا﴾. ويُسأل بها عن الزمان والمكان، والحال، والعدد، والعاقل وغيره، على حسب ما تُضاف إليه «أي».

ولذا تأخذ «أي» معناها مما تُضاف إليه؛ فإن أُضيفت إلى ما تفيده «ما» أخذت حكمها، وإن أضيفت إلى ما تفيده «متى أو كيف» أو غيرهما من الأدوات السابقة أخذت معناها.

وقد تخرج ألفاظ الاستفهام عن معناها الأصلي «وهو طلب العلم بمجهول» فيستفهم بها عن الشيء مع «العلم به» لأغراض أخرى تُفهم من سياق الكلام ودلالته، ومن أهم ذلك:

(١) الأمر، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ أي: انتهوا.
(٢) والنهي، كقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾.[١٤]
(٣) والتسوية، كقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.
(٤) والنفي، كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾.[١٥]
(٥) والإنكار،[١٦] كقوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾.
(٦) والتشويق، كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.
(٧) والاستئناس، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾.
(٨) والتقرير،[١٧] كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.
(٩) والتهويل، كقوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾.
(١٠) والاستبعاد، كقوله تعالى: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾.
ونحو قول الشاعر:

من لي بإنسان إذا أغضبته　　وجهلت كان الحلم ردَّ جوابه؟!

(١١) والتعظيم، كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.
(١٢) والتحقير، نحو: أهذا الذي مدحته كثيرًا؟!

(١٣) والتعجب، كقوله تعالى: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾. وكقول الشاعر:

خليليَّ فيما عشتما هل رأيتما   قتيلًا بكى من حب قاتله قبلي؟

(١٤) والتهكم، نحو: أعقلك يسوِّغ لك أن تفعل كذا؟!
(١٥) والوعيد: نحو: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾.
(١٦) والاستنباط، كقوله: ﴿مَتَى نَصْرُ اللهِ﴾. ونحو: كم دعوتك؟
(١٧) والتنبيه على الخطأ، كقوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾.
(١٨) والتنبيه على الباطل، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾.
(١٩) والتحسر، كقول شمس الدين الكوفي:

ما للمنازل أصبحتْ لا أهلُها   أهلي ولا جيرانُها جيراني؟!

(٢٠) والتنبيه على ضلال الطريق، كقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾.
(٢١) والتكثير، كقول أبي العلاء المعري:

صاحِ! هذه قبورنا تملأ الرحب   فأين القبور من عهد عاد؟

واعلمْ أن كل ما وُضع من الأخبار في صورة الاستفهام في الأمثلة السابقة والآتية تجددت له مزية بلاغية، زادت المعنى روعة وجمالًا.

إذا عرفت هذا؛ فاعرف أيضًا أنه يستعمل كل من «الأمر، والنهي، والاستفهام» في أغراض أخرى، يُرجع في إدركها إلى الذوق الأدبي، ولا يكون استعمالها في غير ما وُضعِت له إلا لطريقة أدبية، تجعل لهذا الاستعمال مزية، يترقى بها الكلام في درجات البلاغة.

تطبيق

ماذا يراد بالاستفهام فيما يلي:

(١) ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح؟

(٢) أنلهو وأيامنا تذهب ونلعب والموت لا يلعب؟

(٣) متى يبلغ البنيان يومًا تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟

(٤) فعلام يلتمس العدو مساءتي من بعد ما عرف الخلائق شاني؟

(٥) وكيف أخاف الفقر أو أُحرَم الغنى ورأي أمير المؤمنين جميل؟

(٦) وهل نافعي أن تُرفع الحجب بيننا ودون الذي أَمَّلْتُ منك حجاب؟

(٧) أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر؟

(٨) ومَن مثل كافور إذا الخيل أحجمت وكان قليلًا يقول لها اقدمي؟

(٩) أفي الحق أن يُعطى ثلاثون شاعرًا ويُحرم ما دون الرضا شاعر مثلي؟

(١٠) أعندي وقد مارست كل خفية يُصدَّق واشٍ أو يُخيَّب سائل؟

(١١) فدع الوعيد فما وعيدك ضائري أطنين أجنحة الذباب يضير؟

(١٢) ومن ذا الذي يُدلي بعذر وحجة وسيف المنايا بين عينيه مُصلت؟

(١٣) إذا محاسنيَ اللاتي أتيته بها عُدَّت ذنوبًا فقل لي كيف أعتذر؟

(١٤) إلامَ وفيمَ تنقلنا ركاب ونأمل أن يكون لنا أوان؟

فهل لي أن أراكِ قبيل موتي ولو في النوم يا بنت الكرام؟

(١) التقرير؛ لأن المقام للمدح، وذلك أبلغ فيه، ولو أن جريرًا قال في مدحه: «أنتم خير من ركب المطايا» لكان قوله «خبرًا» يحتمل الصدق والكذب، ولكنه إذ وضعه في صورة الاستفهام لم يجعله خبرًا يُشك فيه، بل جعله حقيقة لا يجهلها أحد، ولا ينكرها إذا سئل عنها.

(٢) النهي عن اللعب، ويصح أن يكون للتهكم.

(٣) الإنكار، وبيان أن ذلك لن يكون.

(٤) التعجب من عمل لا يجديه نفعًا.

(٥) النفي، وذلك أوقع في المدح.

(٦) بيان أن ذلك ليس بمفيد.

(٧) التعظيم، وإكبار شأنه.

(٨) النهي، والتنويه بشجاعته.

(٩) الإنكار، وبيان أن ذلك لا ينبغي أن يكون.

(١٠) الإنكار، وبيان أن ذلك لا ينبغي أن يكون.

(١١) التهكم والتحقير.

(١٢) التعظيم، وتهويل شأن ذلك الموقف.

(١٣) النفي.

(١٤) الاستبطاء.

أسئلة على الاستفهام يُطلب أجوبتها

ما هو الاستفهام؟ ما هي أدواته؟ ما الذي يُطلب بالهمزة؟ ما هو التصور؟ ما هو التصديق؟ ما الفرق بين همزة التصور وهمزة التصديق وهل؟ ماذا يُطلب بكم؟ ما الذي يُطلب بأيان؟ ما الذي يُطلب بمن؟ ما الذي يُطلب بما؟ ما الذي يُطلب بمتى؟ ما الذي يُطلب بكيف؟ ما الذي يُطلب بكم؟ ما الذي يُطلب بأنى؟ ما الذي يطلب بأي؟ ما هي المعاني التي تخرج إليها أدوات الاستفهام عن معانيها الأصلية؟

تمرين

ما هي المعاني التي استُعمل فيها الاستفهام في الأمثلة الآتية؟
قال تعالى:

(١) ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾.
(٢) ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ﴾.
(٣) ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.
(٤) ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.
(٥) ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.
(٦) ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.
(٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.
(٨) ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.
(٩) ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾.
(١٠) ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.
(١١) ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

(١٢) ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾.

(١٣) قال أبو نواس:

أنا في ذمة الخصيب مقيم حيث لا تهتدي صروف الزمان
كيف أخشى عليَّ غول الليالي ومكاني من الخصيب مكاني؟

(١٤) وقال أبو تمام يمدح عبد الله بن طاهر:

يقول في قَوْمَس قومي وقد أخذت منَّا السُّرى وخطى المهرية القود
أمطلعَ الشمس تبغي أن تؤمَّ بنا؟ فقلت: كلا، ولكن مطلع الجود

(١٥) وقال يفخر بقومه:

مضَوْا وكأنَّ المكرمات لديهمُ لكثرة ما أوصَوْا بهن شرائع
فأي يد في المَحْل مُدَّت فلم تكن لها راحة من جودهم وأصابع؟

(١٦) وقال رجل من الخوارج كان الحجاج قد عفا عنه:

أأُقاتل الحجاج عن سلطانه بيدٍ تقرُّ بأنها مولاته؟

(١٧) وقال أبو تمام:

أإلى بني عبد الكريم تشاوست عيناك، ويحك! خلف من تتفوَّق؟
ما أنشئتْ للمكرمات سحابةٌ إلا ومن أيديهم تتدفق

(١٨) وقال المرحوم أحمد شوقي:

إلامَ الخُلف بينكمُ إلاما وهذه الضجة الكبرى علاما؟
وفيمَ يكيد بعضكمُ لبعض وتُبدون العداوة والخصاما؟

(١٩) وقال ابن الرومي:

ما كان في فضلاء الناس لي أمل   فكيف أَمَّلْتُ خيرًا في المجانين؟

(٢٠) وقال العباس بن الأحنف:

قلبي إلى ما ضرني داعي   يُكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوي إذا   كان عدوي بين أضلاعي؟!

(٢١) وقال زُفر بن الحارث:

أيذهب يوم واحد إن أسأته   بصالح أيامي وحسن بلائيا؟

(٢٢) وقال زياد الأعجم:

فمَن أنتم إنا نسينا من أنتمُ   وريحكم من أي ريح الأعاصر؟

(٢٣) وقال إبراهيم الموصلي:

وآمرةٍ بالبخل قلت لها اقصري   فليس إلى ما تأمرين سبيل
وكيف أخاف الفقر أو أُحرم الغنى   ورأي أمير المؤمنين جميل؟!

(٢٤) وقال جميل بن مَعْمَر:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة   بوادي القُرَى إني إذًا لسعيد؟
وهل أَلْقَيَنَّ سُعدَى من الدهر مرة   وما رثَّ من حبل الصفاء جديد؟

(٢٥) وقال شمس الدين الكوفي:

ما لي وللأيام شَتَّتْ خَطْبُها   شملي وخَلَّاني بلا خِلَّانِ؟

تمرين

وضِّح الأغراض التي خرج إليها الأمر والنهي والاستفهام في الأمثلة الآتية:

(١) قال أبو الطيب يعاتب رجلًا ظن أنه هجاه، وكان غيره هو الذي هجاه:

أتنكر يا بن إسحق إخائي وتحسب ماء غيري من إنائي؟
أأنطق فيك هُجرًا بعد علمي بأنك خير من تحت السماء؟
وهبني قلت هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء؟!

(٢) وقال يخاطب سيف الدولة:

أجزني إذا أُنشدتَ شعرًا فإنما بشعري أتاك المادحون مردَّدا
ودع كل صوت غير صوتي فإنني أنا الصائح المحكي والآخر الصدى

(٣) وقال:

عش عزيزًا أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
واطلب العز في لظى وذر الذل ولو كان في جنان الخلود

(٤) وقال:

لمن تطلُب الدنيا إذا لم تُرد بها سرورَ محبٍّ أو إساءة مجرم؟

(٥) وقال أبو فراس:

بمن يثق الإنسان فيما ينوبه ومن أين للحر الكريم صحاب
وقد صار هذا الناس إلا أقلهم ذئابًا على أجسادهن ثياب؟

(٦) وقال أبو العتاهية في عبد الله بن معن بن زائدة:

فصُغْ ما كنت حَليت   به سيفك خلخالًا
وما تصنع بالسيف   إذا لم تكُ قتَّالًا؟

(٧) ولابن رشيق:

أيها الليل طُلْ بغير جناحِ   ليس للعين راحة في الصباحِ
كيف لا أبغض الصباح وفيه   بان عنِّي نور الوجوه المِلاحِ؟

(٨) وقال كثير:

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة   لدينا ولا مقليَّة إن تقلت
فلا يبعدن وصل لعزة أصبحت   بعاقبةٍ أسبابُه قد تولَّتِ

(٩) وقال البحتري:

اسلمْ أبا الصقر للمعروف تصنعه   والمجد تبنيه في ذهل بن شيبان

(١٠) وقال الفرزدق:

أترجو ربيعٌ أن يجيء صغارها   بخير وقد أعيا ربيعًا كبارُها؟

(١١) وقال جرير:

قل للجبان إذا تأخر سرجه   هل أنت من شَرَك المنية ناجي؟

(١٢) وقال المعرِّي:

افهم عن الأيام فهي نواطق   ما زال يضرب صرفُها الأمثالا
لم يمض في دنياك أمر معجب   إلا أرتك لما مضى تمثالا

(١٣) وقال:

ما افتخار الفتى بثوب جديد   وهو من تحته بعرض لبيس
والفتى ليس باللجين وبالتبر   ولكن بعزة في النفوس

(١٤) وقال المرحوم إسماعيل صبري باشا يرثي طفلًا صغيرًا:

يا مالئ العينِ نورًا والفؤادِ هوًى   والبيتِ أُنسًا تمهل أيها القمر
لا تُخل أفقك يخلفك الظلام به   والزم مكانك لا يحلل به الكدر

(٤) المبحث الرابع: في التَّمنِّي

التمني: هو طلب الشيء المحبوب الذي لا يُرجى، ولا يُتوقع حصوله.

(١) إمَّا لكونه مستحيلًا، كقوله:

ألا ليت الشباب يعود يومًا   فأخبرَه بما فعل المشيبُ

(٢) وإما لكونه ممكنًا غير مطموع في نيله، كقوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾.

وإذا كان الأمر المحبوب مما يُرجى حصوله كان طلبه ترجِّيًا.
ويُعبَّر فيه «بعسى ولعلَ» كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ و﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾.
وقد تُستعمل في الترجي «ليت» لغرض بلاغي.[١٨]
وللتمني أربع أدوات، واحدة أصلية، وهي «ليت».
وثلاث غير أصلية نائبة عنها، ويُتمنى بها لغرض بلاغي، وهي:

(١) هل،[١٩] كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾.[٢٠]
(٢) ولو،[٢١] كقوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(٣) ولعلَّ،[٢٢] كقوله:

أسرب القطا هل يُعير جناحه؟ لعلي إلى من قد هَوِيتُ أطير

ولأجل استعمال هذه الأدوات في التمني يُنصب المضارع الواقع في جوابها.

تمرين

بيِّن المعاني المستفادة من صيغ التمني فيما يأتي:
قال تعالى: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

علَّ الليالي التي أضنت بفرقتنا جسمي ستجمعني يومًا وتجمعه

لو يأتينا فيحدِّثنا – لعلي أحجُّ فأزورك – يا ليتني اتَّخذت مع الرسول سبيلًا – هل إلى مَرَدٍّ من سبيل – يا ليت لنا مثل ما أُوتِيَ قارون – لعلي أَبْلُغُ الأسباب – لو تتلو الآيات فتشقَّ سمعي.

كل من في الكون يشكو دهره ليت شعري هذه الدنيا لِمَن؟!

فليت الليل فيه كان شهرًا ومرَّ نهاره مر السحاب

فليت هوى الأحبة كان عدلًا فحمَّل كل قلب ما أطاقا

(٥) المبحث الخامس: في النِّداء

النداء: هو طلب المتكلم إقبال المخاطَب عليه بحرف نائب مناب «أنادي» المنقول من الخبر إلى الإنشاء. وأدواته ثمانية:
الهمزة، وأي، ويا، وآي، وأيا، وهيا، ووا.[٢٣] وهي في كيفية الاستعمال نوعان:

(١) الهمزة وأي لنداء القريب.
(٢) وباقي الأدوات لنداء البعيد.

وقد يُنزَّل البعيد منزلة القريب، فينادى بالهمزة وأي؛ إشارة إلى أنه لشدَّة استحضاره في ذهن المتكلم صار كالحاضر معه لا يغيب عن القلب، وكأنه ماثل أمام العين، كقول الشاعر:

أسكان نعمان الأراك تيقنوا بأنكم في ربع قلبي سكان

وقد يُنزَّل القريب منزلة البعيد، فينادى بغير «الهمزة وأي»:

(أ) إشارة إلى علوِّ مرتبته، فيُجعل بُعد المنزلة كأنه بُعْد في المكان كقوله: «أيا مولاي» وأنت معه للدلالة على أن المنادى عظيم القدر، رفيع الشأن.

(ب) أو إشارة إلى انحطاط منزلته ودرجته، كقولك: «أيا هذا» لمن هو معك.

(ج) أو إشارة إلى أن السامع لغفلته وشرود ذهنه كأنه غير حاضر كقولك للساهي: أيا فلان، وكقول البارودي:

يا أيها السَّادر المزور من صلف مهلًا! فإنك بالأيام منخدع[٢٤]

وقد تخرج ألفاظ النداء عن معناها الأصلي إلى معانٍ أخرى، تُفهم من السياق بمعونة القرائن، ومن أهم ذلك:

(١) الإغراء، نحو قولك لمن أقبل يتظلم: يا مظلوم.

(٢) والاستغاثة، نحو: يا لله للمؤمنين.

(٣) والنُّدبة، نحو قول الشاعر:

فوا عجبًا كم يدَّعى الفضل ناقص ووا أسفًا كم يظهر النقص فاضل

(٤) والتعجب، كقول الشاعر:

يا لكِ من قُبَّرة بمَعْمَرِ خلا لك الجو فبيضي واصفري

(٥) والزجر، كقول الشاعر:

أفؤادي متى المتاب ألمَّا تصح والشيب فوق رأسي ألمَّا

(٦) والتحسُّر والتوجُّع، كقوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾.
وكقول الشاعر:

أيا قبرَ مَعْن كيف واريتَ جوده وقد كان منه البر والبحر مَتْرَعَا؟

(٧) والتذكر كقوله:

أيا منزِلَيْ سلمَى سلامٌ عليكما هل الأزمن اللاتي مضين رواجع؟

(٨) والتحيُّر والتضجُّر، نحو قول الشاعر:

أيا منازلَ سلمَى أين سلماكِ مِنْ أَجْلِ هذا بكيناها بكيناكِ

ويكثر هذا في نداء الأطلال والمطايا، ونحوها.

والاختصاص:[٢٥] هو ذكر اسم ظاهر بعد ضمير لأجل بيانه، نحو قوله تعالى: ﴿رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ ونحو: «نحن العلماء ورثة الأنبياء.»

(أ) إمَّا للتفاخر، نحو: أنا أُكرم الضيف أيها الرجل.
(ب) وإمَّا للتواضع، نحو: أنا الفقير المسكين أيها الرجل.

ونحو: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة.[٢٦]

تمرين

بيِّن المعاني الحقيقية المستفادة من صيغ النداء، والمعاني المجازية المستفادة من القرائن:

صاحِ شَمِّر ولا تَزَلْ ذاكرَ المو تِ فنسيانُه ضلال مبين

يا لقومي ويا لأمثال قومي لأناس عتوهم في ازدياد

يا للرجال ذوي الألباب من نفر   لا يبرح السفه المردي لهم دينا

أيها القلب قد قضيت مرامًا   فإلام الولوع بالشهوات

أيا شجر الخابور ما لك مورقًا   كأنك لم تجزع على ابن طريف

يا أيها الظالم في فعله   الظلم مردود على من ظلم

أريحانة العينين والأنف والحشا   ألا ليت شعري هل تغيرتِ من بعدي

يا ناقُ سيري عَنَقًا فسيحًا   إلى سليمان فنستريحا

حجبوه عن الرياح لأني   قلت يا ريح بلِّغيه السلاما

يا ليتني كنت صبيًّا مرضعا   تحملني الذلفاء حولًا أكتعا

يا ليلة لست أنسى طيبها أبدًا   كأن كل سرور حاضر فيها

يا ليلة كالمسك مخبرها   وكذاك في التشبيه منظرها

أحييتها والبدر يخدمني   والشمس أنهاها وآمرها

يا من تذكِّرني شمائله ريح الشمال تنفست سَحَرا
وإذا امتطى قلم أنامله سحر العقول به وما سحرا

يا قلب ويحك ما سمعت لناصح لما ارتميت ولا اتقيت ملاما

يا أعدل الناس إلا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

يا رحمة الله حلِّي في منازلنا وجاورينا فدتك النفس من جار

تنبيهات

الأول: يوضع الخبر موضع الإنشاء لأغراض كثيرة، أهمها:

(١) التفاؤل، نحو: هداك الله لصالح الأعمال «كأنَّ الهداية حصلت بالفعل» فأخبر عنها، ونحو: وفقك الله.

(٢) والاحتراز عن صورة الأمر تأدبًا واحترامًا، نحو: رحم الله فلانًا. ونحو: ينظر مولاي في أمري ويقضي حاجتي.

(٣) والتنبيه على تيسير المطلوب لقوة الأسباب، كقول الأمير لجنده: «تأخذون بنواصيهم وتنزلونهم من صياصيهم.»

(٤) والمبالغة في الطلب للتنبيه على سرعة الامتثال، نحو: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾.

لم يقل: لا تسفكوا؛ قصدًا للمبالغة في النهي، حتى كأنهم نُهوا فامتثلوا ثم أخبر عنهم بالامتثال.

(٥) إظهار الرغبة، نحو قولك في غائب: رزقني الله لقاءه.

الثاني: يُوضع الإنشاء موضع الخبر لأغراض كثيرة:

(أ) منها: إظهار العناية بالشيء، والاهتمام بشأنه، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

لم يقل: وإقامة وجوهكم؛ إشعارًا بالعناية بأمر الصلاة لعظيم خطرها، وجليل قدرها في الدِّين.

(ب) ومنها: التحاشي والاحتراز عن مساواة اللاحق بالسابق، كقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ ...﴾ لم يقل: وأشهدكم؛ تحاشيًا وفرارًا من مساواة شهادتهم بشهادة الله تعالى.

الثالث: الإنشاء كالخبر في كثير مما ذُكر فيه، ومما سيُذكر في الأبواب التالية من الذكر والحذف وغيرهما إن شاء الله تعالى.

الرابع: يستعمل كل من «الأمر والنهي والاستفهام» في أغراض أخر يُرجع في إدراكها إلى الذوق الأدبي، ولا يكون استعمالها في غير ما وُضعت له إلا لطريقة أدبية تجعل لهذا الاستعمال مزية يترقى بها الكلام في درجات البلاغة، كما سبق القول.

تطبيق

بيِّن المعاني المستفادة من النداء، وسبب استعمال أداة دون غيرها فيما يلي:

(١) أيا منازل سلمى أين سلماكِ ... من أجل هذا بكيناها بكيناك[٢٧]

(٢) صادحَ الشرق قد سكتَّ طويلا ... وعـزيـز عـلـيـنـا ألا تـقـولا[٢٨]

(٣) أيا قبر معن كيف واريت جوده ... وقد كان منه البر والبحر مُترعا[٢٩]

(٤) يا درَّة نُزعت من تاج والدها ... فأصبحت حلية في تاج رضوان

(٥) فيا لائمي دعني أغالي بقيمتي ... فقيمة كل الناس ما يحسنونه

رقم	الأداة	المعنى المستفاد	سبب إيثار الأداة
(١)	أيا	التضجر والتحير معًا	تنزيل المنازل المخاطبة منزلة البعيد لعظم شأنها لديه
(٢)	يا	التضجر والتحير معًا	كون المنادى بعيد المرتبة حقيقة
(٣)	أيا	التحسر	تنزيل المخاطب منزلة البعيد إشعارًا برفعة شأنه
(٤)	يا	التحسر	تنزيل المنادى منزلة البعيد تنويهًا بعظم الأمر ورفعة القدر
(٥)	يا	الطلب	للإشارة إلى أن المخاطب منحط الدرجة

تطبيق آخر

وضح الاعتبار الدَّاعي لوضع كل من الخبر والإنشاء موضع الآخر:

(١) قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

(٢) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾.

وقال الشاعر:

(٣) أتاني أبيت اللعن أنك لمتني   وتلك التي أهتم منها وأنصب[٣٠]

(٤) إذًا فعاقبني ربي معاقبة   قرَّت بها عين من يأتيك بالحسد

الرقم	نوع الكلام	البيان	الاعتبار
(١)	الإنشاء	إذ التقدير أحسنوا بالوالدين والمقام للإخبار	الاهتمام وإظهار العناية

الرقم	نوع الكلام	البيان	الاعتبار
(٢)	الخبر	إذ المعنى ليأمن من دخله	إظهار الحرص على وقوعه
(٣)	الخبر	المقام للإنشاء إذ الغرض الدعاء له	التفاؤل بالدعاء
(٤)	الخبر	المقام للطلب	لإظهار الحرص على وقوعه

تدريب

بيِّن فيما يلي الغرض من وضع الإنشاء موضع الخبر وبالعكس:

(١) كل خليل كنت خاللته لا ترك الله له واضحه

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا﴾.
(٣) تقول لصديقك: «رزقني الله لقاءك.»
ويقول الشاعر:

(٤) ولائمة لامتك يا فضل في الندى فقلت لها هل أثر اللوم في البحر
أَتَنْهَيْنَ فضلًا عن عطاياه للورى ومن ذا الذي يَنْهَى الغمام عن القطر؟!

تمرين

عيِّن الجمل الخبرية والإنشائية فيما يأتي: قال الله تعالى:

(١) ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾.
(٢) ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾.
(٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.
(٤) قال الرسول ﷺ: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان؛ فإن كل ذي نعمة محسود.»

(٥) ومن وصية عبد الملك بن مروان لأولاده: «يا بَنِيَّ، كفوا أذاكم، وابذلوا معروفكم، واعفوا إذا قدرتم، ولا تبخلوا إذا سُئلتم، ولا تُلحفوا إذا سَألتم، فإن من ضيَّق ضيَّق الله عليه، ومن أعطى أخلف الله له.»

(٦) وقال أبو العلاء المعري:

لا تحلفنَّ على صدق ولا كذب   فما يفيدك إلا المأثم الحلف

(٧) وقال:

لا تفرحنَّ بما بلغت من العلا   وإذا سبقت فعن قليل تُسبَق
وليحذر الدعوى اللبيب فإنها   للفضل مهلكة وخَطْب موبق

(٨) وقال أبو العتاهية:

بكيت على الشباب بدمع عيني   فلم يُغنِ البكاء ولا النَّحيب
ألا ليت الشباب يعود يومًا   فأخبرَه بما فعل المشيب

(٩) وقال:

يا صاحب الدنيا المحبَّ لها   أنت الذي لا ينقضي تعبه

(١٠) وقال:

ما أحسن الدنيا وإقبالها   إذا أطاع الله من نالها!
من لم يؤاسِ الناس من فضلها   عرَّض للإدبار إقبالها

(١١) وقال الشاعر:

أراك تُؤمِّل حُسن الثناء   ولم يرزق الله ذاك البخيلا
وكيف يسود أخو فطنة   يمنُّ كثيرًا ويُعطي قليلًا؟!

(١٢) وقال سعيد بن حُمَيْد:

وأراك تَكْلَف بالعتاب وودُّنا   صافٍ عليه من الوفاء دليل
ولعل أيام الحياة قصيرة   فعلامَ يكثر عَتْبنا ويطول

أسئلة يُطلب أجوبتها

(١) عرِّف التمني، واذكر ألفاظه.
(٢) بيِّن الفرق بين التَّمنِّي والتَّرجي، واذكر ألفاظ ثانيهما.
(٣) بيِّن النداء، واذكر أدواته، وقسِّمها من حيث الاستعمال.
(٤) متى يُنَزَّل القريب منزلة البعيد، وبالعكس؟
(٥) بيِّن المعاني المجازية التي تستفاد من ألفاظ النداء.
(٦) بيِّن الأغراض الداعية لإيثار الخبر في مقام الإنشاء.
(٧) لِمَ يُوضع الإنشاء موضع الخبر؟

تطبيق عام على الباب الثاني

أنا الذائد الحامي الذمار وإنما   يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

الجملة الأولى: خبرية اسمية من الضرب الابتدائي، والمراد بها الفخر وإظهار الشجاعة. المسند إليه «أنا»، والمسند «الذائد»، والجملة الثانية خبرية فعلية من الضرب الثالث لما فيها من التوكيد بإنما، والمراد بها الفخر وإظهار الشجاعة أيضًا، المسند «يدافع» والمسند إليه «أنا».

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ جملة خبرية اسمية من الضرب الثالث، والمراد بها التوبيخ، المسند إليه «رب»، والمسند «ظلَّام».

«أنت خرجت عن حدك» جملة خبرية اسمية من الضرب الثالث، والمراد بها التوبيخ، المسند إليه «أنت»، والمسند جملة «خرجت».

﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ جملة «رب» إنشائية ندائية، والمراد بها الدعاء. المسند والمسند إليه محذوفان نابت عنهما ياء النداء المحذوفة، وجملة: «إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ» خبرية

اسمية من الضرب الثالث، والمراد إظهار التحسر. المسند إليه «قومي»، والمسند جملة «كذَّبون».

«زارنا الغيث» جملة خبرية فعلية من الضرب الابتدائي، والمراد بها إظهار الفرح. المسند إليه الغيث، والمسند زار، وأتى بها فعلية لإفادة الحدوث في الزمن الماضي مع الاختصار.

«ذهب عنا الحزن» جملة خبرية فعلية من الضرب الابتدائي، والمراد بها إظهار الشماتة بمدبر. المسند «ذهب»، والمسند إليه «الحزن» وأتى بها فعلية لإفادة الحدوث في الزمن الماضي مع الاختصار.

«قابلت الأمير» جملة خبرية فعلية من الضرب الابتدائي، والمراد بها إظهار السرور، المسند قابل، والمسند إليه التاء.

«أنا ممتثل لأمرك» جملة خبرية اسمية من الضرب الابتدائي، والمراد بها إظهار التواضع. المسند إليه أنا، والمسند ممتثل، وأتى بها اسمية لمجرد ثبوت المسند للمسند إليه.

﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ جملة خبرية اسمية من الضرب الثالث، والمراد بها التوبيخ للناس. المسند إليه لفظ الجلالة، والمسند جملة «لا يظلم»، وأتى بالمسند جملة لتقوية الحكم بتكرار الإسناد، والجملة الاسمية مفيدة للاستمرار الآن بقرينة الإسناد إلى الله تعالى.

«ما جاءنا من أحد» جملة خبرية فعلية من الضرب الثالث، والمراد بها فائدة الخبر، المسند جاء، والمسند إليه أحد، وأتى بها فعلية لما تقدم.

«أنت نجحت» جملة خبرية اسمية من الضرب الثالث؛ لما فيها من تقوية الحكم بتكرار الإسناد، والمراد بها لازم الفائدة. المسند إليه أنت، والمسند جملة نجحت.

«حضر الأمير» جملة خبرية فعلية من الضرب الابتدائي، والمراد بها أصل الفائدة، المسند إليه الأمير.

«سيُحرم المقصر» خبرية فعلية من الضرب الابتدائي، والمراد بها الذم. المسند سيُحرم، والمسند إليه المقصر، وهي تفيد الاستمرار التجددي بقرينة الذم.

«ما برح المقصر نادمًا» جملة خبرية اسمية من الضرب الابتدائي، والمراد بها الذم، المسند إليه المقصر، والمسند نادمًا، وهي مفيدة للاستمرار بقرينة «ما برح».

«كلما جئتني أكرمتك» جملة أكرمتك خبرية فعلية من الضرب الابتدائي، وهي الجملة، وما قبلها قيد لها؛ لأن الشرطية لا تعتبر إلا بجوابها. المسند أكرم، والمسند إليه التاء، وهي مفيدة للاستمرار التجددي بقرينة كلما.

«ما مجتهد صاحباك» جملة خبرية فعلية من الضرب الابتدائي، ولا يقال: اسمية؛ لأن الاسم حل محل الفعل؛ ولذلك رفع ما بعده على أنه فاعله، والمراد بها الاستمرار بقرينة الذم. المسند مجتهد، والمسند إليه صاحباك، وقس عليها.

نحو ما مبغوض أنت، وما حسن فعل أعدائك، وأقائم أخواك، وهل منصف أصحابك.

«كلما ذاكر المجتهد استفاد» جملة استفاد فعلية خبرية من الضرب الابتدائي. المسند استفاد، والمسند إليه هو، وهي مفيدة للاستمرار التجددي بقرينة كلما.

«الشمس طالعة» تقولها للعاثر، جملة خبرية اسمية من الضرب الابتدائي. المسند إليه الشمس، والمسند طالعة، والمراد بها التوبيخ.

«الكريم محبوب» جملة خبرية اسمية من الضرب الابتدائي. المسند إليه الكريم، والمسند محبوب، والمراد بها الاستمرار بقرينة المدح.

«من يسافر؟» جملة إنشائية استفهامية. المسند إليه من، والمسند جملة يسافر.

«التفتوا» جملة إنشائية أمرية. المسند التفت، والمسند إليه الواو.

«لا تتركوا المذاكرة» جملة إنشائية نهيية. المسند تترك، والمسند إليه الواو.

«ليت البخيل يجود» جملة إنشائية تمنية اسمية. المسند إليه البخيل، والمسند جملة يجود.

«هل فهمتم؟» جملة إنشائية استفهامية. المسند فهم، والمسند إليه التاء.

«يا تلاميذ» جملة إنشائية ندائية. المسند والمسند إليه محذوفان تقديرهما أدعو نابت عنهما «يا».

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الهمزة الداخلة على لفظ «أغير» ليست للاستفهام الحقيقي، بل هي للإنكار الذي لم يقع على أنه يبغي ربًّا، ولكنه وقع على أن يكون المبغي ربًّا غير الله.

هوامش

(١) أي: بقطع النظر عما يستلزمه الإنشاء، فإن «اغفر» يستلزم خبرًا، وهو «أنا طالب المغفرة منك»، وكذا «لا تكسل» يستلزم خبرًا، وهو «أنا طالب عدم كسلك» لكن كل هذا ليس لذاته.

(٢) اعلم أنه إذا كان المطلوب غير متوقع كان الطلب «تمنيًا»، وإن كان متوقعًا فإما حصوله صورة أمر في الذهن فهو «الاستفهام» وإما حصوله في الخارج، فإن كان ذلك

الأمر انتفاء فعل فهو «النهي»، وإن كان ثبوته فإما بأحد حروف «النداء» فهو النداء، وإما بغيرها فهو «الأمر».

وبهذا تعلم أن الطلب هنا منحصر في هذه الأنواع الخمسة؛ لاختصاصها بكثير من اللطائف البلاغية.

(٣) أي لأنه لا يليق طلب الحاصل، فلو استعمل صيغ الطلب لمطلوب حاصل امتنع إجراؤها على معانيها الحقيقية، ويتولد من تلك الصيغ ما يناسب المقام، كطلب دوام الإيمان والتقوى في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ﴾ وهلم جرًّا.

(٤) ويكون الإنشاء الطلبي أيضًا بالعرض والتحضيض، ولكن لم يتعرض لهما البيانيون؛ لأنهما مولدان — على الأصح — من الاستفهام والتمني، فالأول من الهمزة مع لا النافية في «ألا» والثاني من هل ولو للتمني مع لا وما الزائدتين في «هلا وألا» بقلب الهاء همزة.

وكذا: لولا ولوما واعلم أن الإنشاء الطلبي نوعان: الأول ما يدل على معنى الطلب بلفظه، ويكون بالخمسة المذكورة، والثاني ما يدل على الطلب بغير لفظه كالدعاء.

(٥) بأن يعد الأمر نفسه عاليًا لمن هو أقل منه شأنًا، وسواء أكان عاليًا في الواقع أو لا؛ ولهذا نسب إلى سوء الأدب إن لم يكن عاليًا. واشتراط الاستعلاء بهذا المعنى هو ما عليه الأكثر من الماتريدية، والإمام الرازي، والآمدي من الأشعرية، وأبو الحسن من المعتزلة. وذهب الأشعري إلى أنه لا يُشترط هذا، وبه قال كثير من الشافعية. والأشبه أن الصدور من المستتر يفيد إيجابًا في الأمر، وتحريمًا في النهي.

واعلم أن الأمر للطلب مطلقًا، والفور والتراخي من القرائن، ولا يوجب الاستمرار والتكرار في الأصح. وقيل: ظاهره الفور كالنداء والاستفهام إلا بقرينة، وهو ما اختاره السكاكي. واعلم أيضًا أن الأمر يكون استعلاء مع الأدنى، ودعاء مع الأعلى، والتماسًا مع النظير.

(٦) اعلم: أن النهي طلب الكف عن الشيء ممن هو أقل شأنًا من المتكلم، وهو حقيقة في التحريم، كما عليه الجمهور، فمتى وردت صيغة النهي أفادت الحظر والتحريم على الفور.

واعلم أن النهي كالأمر، فيكون استعلاء مع الأدنى، ودعاء مع الأعلى، والتماسًا مع النظير.

(٧) أي إدراك عدم وقوع النسبة، وذلك كإدراك الموضوع وحده، أو المحمول وحده، أو هما معًا، أو ذات النسبة التي هي مورد الإيجاب والسلب.

فالاستفهام عن التصور يكون عند التردد في تعيين أحد الشيئين؛ أي: يتردد المتكلم في تعيين أحد أمرين، تذكر بينهما أم المتصلة المعادلة، وقد تحذف هي وما بعدها؛ اكتفاء بما قبلها، ولا يلي الهمزة غير المستفهم عنه.

والمفرد كما يكون اسمًا يكون فعلًا، نحو: أتنتهي عند هذا الحد أم تتمادى؟ والاستفهام عن التصديق يكون عن نسبة تردد الذهن فيها بين ثبوتها ونفيها.

وحينئذ للهمزة استعمالان: فتارةً يُطلب بها معرفة مفرد، وتارةً يُطلب بها معرفة نسبة، وتُسمَّى معرفة المفرد تصورًا، ومعرفة النسبة تصديقًا. واعلم أن كل همزة استفهام تُستعمل في معناها أو في غيره إن وليها الفعل وكان هو المقصود بمعناها، وإن وليها الاسم كان هو المراد المقصود، فإن قلت: أسافر الأمير؟ كان الشك في السفر، وإذا قلت: أسعد سافر؟ كان السفر مفروضًا، والمستفهم عنه ذات المسافر.

(٨) أي إدراك موافقتها لما في الواقع أو عدم موافقتها له. واعلم أن إدراك وقوع النسبة أو عدم وقوعها كما يسمى تصديقًا يسمى: حكمًا، أو إسنادًا، أو إيقاعًا وانتزاعًا، أو إيجابًا وسلبًا.

(٩) أي فقد تصورت الحضور والأمير والنسبة بينهما، وسألت عن وقوع النسبة بينهما: هل هو محقق خارجًا أو لا؟ فإذا قيل: «حضر» حصل التصديق، وكذا يقال فيما بعده، فالمسئول عنه في التصديق نسبة يتردد الذهن في ثبوتها ونفيها، كما سبق توضيحه.

(١٠) أي: ولا بد من وقوع الجملة بعد أم المنقطعة، فإن وقع بعدها مفرد قُدر بجملة، نحو: «أحضر الأمير أم جيشه» أي: بل حضر جيشه.

واعلم أنه تلخص مما تقدم أن همزة التصور إن جاء بعدها «أم تكون متصلة»، وأن همزة التصديق أو هل إن جاء بعدهما «أم» قدرت منقطعة، وتكون بمعنى بل.

(١١) حكى الزمخشري في «ربيع الأبرار» أن العنقاء كانت طائرًا، وكان فيها من كل شيء من الألوان، وكانت في زمن أصحاب الرس تأتي إلى أطفالهم وصغارهم فتخطفهم وتغرب بهم نحو الجبل فتأكلهم، فشكوا ذلك إلى نبيهم «صالح» عليه السلام، فدعا الله عليها فأهلكها، وقطع عقبها ونسلها، فسُميت «عنقاء مُغْرِب» لذلك.

(١٢) الترتيب العقلي: هو أن يكون المتأخر متوقعًا على المتقدم، من غير أن يكون المتقدم علة له؛ وذلك كتقدم المفرد على المركب.

(١٣) أي: فقد استعملت أيان مع يوم القيامة للتهويل والتفخيم بشأنه، وجواب هذا السؤال: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾.

(١٤) أي: لا تخشوهم فالله أحق أن تخشوه.

(١٥) أي ما جزاء الإحسان إلا الإحسان.

(١٦) اعلم أن الإنكار إذا وقع في الإثبات يجعله نفيًا، كقوله تعالى: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ﴾ أي: لا شك فيه، وإذا وقع في النفي يجعله إثباتًا، نحو قوله تعالى:﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ أي: قد وجدناك، وبيان ذلك أن إنكار الإثبات والنفي نفي لهما، ونفي الإثبات نفي، ونفي النفي إثبات. ثم الإنكار قد يكون للتكذيب، نحو: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾، وقد يكون للتوبيخ واللوم على ما وقع، نحو: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ وهذه الآية من كلام إبراهيم عليه السلام لقومه، حينما رآهم يعبدون الأصنام من الحجارة.

(١٧) ويكون غالبًا بالهمزة يليها المقرر به، كقولك: «أفعلت هذا؟» إذا أردت أن تقرره بأن الفعل كان منه، وكقولك: «أأنت فعلت هذا؟» إذا أردت أن تقرره بأنه الفاعل، وكقولك: «أخليلًا ضربت» إذا أردت أن تقرره بأن مضروبه خليل.

ويكون التقرير أحيانًا بغير الهمزة نحو: «لمن هذا الكتاب؟» و«كم لي عليك؟»

(١٨) الغرض هو إبراز المرجو في صورة المستحيل؛ مبالغة في بُعد نيله، نحو:

فيا ليت ما بيني وبين أحبتي ... من البعد ما بيني وبين المصائب

وقد تستعمل أيضًا للتندم نحو: ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾.

(١٩) اعلم أن سبب العدول عن «ليت» إلى «هل» إبراز المتمنَّى لكمال العناية به في صورة الممكن الذي لا يُجزَم بانتفائه، وهو المستفهم عنه.

(٢٠) لما كان عدم الشفعاء معلومًا لهم امتنع حقيقة الاستفهام، وتولد منه التمني المناسب للمقام.

(٢١) وسبب العدول إلى «لو» الدلالة على عزة متمناه وندرته؛ حيث أبرزه في صورة الذي لا يُوجد؛ لأن «لو» بأصل وضعها على امتناع الجواب لامتناع الشرط.

(٢٢) وذلك لبعد المرجو، فكأنه مما لا يُرجى حصوله.

واعلم أن «هلا وألا ولوما ولولا» مأخوذة من «هل ولو» بزيادة «ما» و«لا» عليهما، وأصل «ألا» «هلا» قلبت الهاء همزة ليتعين معنى التمني، ويزول احتمال الاستفهام والشرط، فيتولد من التمني معنى التنديم في الماضي، نحو: «هلا قمت»؛ ومعنى التحضيض في المستقبل، نحو: «هلا نقف».

ولا يُتمنَّى بـ «هل – ولو – ولعل» إلا في المقطوع بعدم وقوعه؛ لئلا تُحمل على معانيها الأصلية.

(٢٣) اعلم أن لفظ الجلالة يختص نداؤه «بيا».

(٢٤) السادر الذاهب عن الشيء؛ ترفعًا عنه، والذي لا يبالي ولا يهتم بما صنع. المزور: المنحرف. والصلف: الكبر.

(٢٥) بيان ذلك أن النداء تخصيص المنادى بطلب إقباله عليك، فجرد عن طلب الإقبال، واستعمل في تخصيص مدلوله من بين أمثاله بما نسب إليه منها.

(٢٦) أي: اللهم اغفر لنا مخصوصين من بين العصائب، فصورته صورة النداء وليس به؛ إذ لم يرد به إلا ما دل عليه ضمير المتكلم السابق؛ ولذا لا يجوز إظهار حرف النداء فيه.

(٢٧) يريد لعدم وجود سلمى بكيناها وبكينا المنازل، فواو العطف محذوفة.

(٢٨) صدح الرجل: رفع صوته بالغناء.

(٢٩) المترع: أي المملوء.

(٣٠) أبيت اللعن: كانت تحية الملوك، ومعناها: أبيت أن تفعل شيئًا تُلعَن به. أهتم: أي أصير ذا هم. أنصب: أي أتعب.

الباب الثالث

في أحوال المسند إليه

المسند إليه: هو المبتدأ الذي له خبر، والفاعل، ونائبه، وأسماؤه، وأحواله هي النَّواسخ: الذكر، والحذف، والتعريف، والتنكير، والتقديم، والتأخير، وغيرها.

وفي هذا الباب عدة مباحث.

(١) المبحث الأول: في ذكر المُسند إليه

كل لفظ يدل على معنًى في الكلام خليق طبعًا بالذكر؛ لتأدية المعنى المراد به؛ فلهذا يُذكر المسند إليه وجوبًا؛ حيث إنَّ ذكره هو الأصل، ولا مُقتضيَ للحذف؛ لعدم قرينة تدل عليه عند حذفه، وإلا كان الكلام مُعمًّى مبهمًا، لا يستبين المراد منه.

وقد يترجَّح الذكر مع وجود قرينة تمكِّن من الحذف، حين لا يكون منه مانع؛ فمن مرجحات الذكر:[١]

(١) زيادة التقرير والإيضاح للسامع، كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.[٢] وكقول الشاعر:

هو الشمس في العَليا هو الدهر في السَّطا هو البدر في النَّادي هو البحر في النَّدى

(٢) قلة الثقة بالقرينة؛ لضعفها أو ضعف فهم السَّامع، نحو: سعد نعم الزعيم! تقول ذلك إذا سبق لك ذكر سعد، وطال عهد السامع به، أو ذُكر معه كلام في شأن غيره.

(٣) الرد على المخاطب، نحو: الله واحد؛ ردًّا على من قال: الله ثالث ثلاثة.

(٤) التَّلذُّذ، نحو: الله ربي، الله حسبي.

(٥) التعريض بغباوة السامع، نحو: «سعيد قال كذا» في جواب: ماذا قال سعيد؟

(٦) التسجيل على السامع؛[٣] حتى لا يتأتَّى له الإنكار، كما إذا قال الحاكم لشاهد: هل أقر زيد هذا بأنَّ عليه كذا؟ فيقول الشاهد: نعم زيد هذا أقرَّ بأن عليه كذا.[٤]

(٧) التَّعجُّب، إذا كان الحكم غريبًا، نحو: «عليٌّ يقاوم الأسد» في جواب من قال: هل عليٌّ يقاوم الأسد؟

(٨) التعظيم، نحو: «حضر سيف الدولة» في جواب من قال: هل حضر الأمير؟

(٩) الإهانة، نحو: «السارق قادم» في جواب من قال: هل حضر السارق؟

(٢) المبحث الثاني: في حذف المسند إليه

الحذف خلاف الأصل، ويكون لمجرد الاختصار والاحتراز عن العبث بناء على وجود قرينة تدلَّ على المحذوف، وهو قسمان:

(أ) قسم يظهر فيه المحذوف عند الإعراب: كقولهم: «أهلًا وسهلًا» فإنَّ نصبهما يدل على ناصب محذوف يُقدَّر بنحو: جئتَ أهلًا ونزلتَ مكانًا سهلًا، وليس هذا القسم من البلاغة في شيء.

(ب) وقسم لا يظهر فيه المحذوف عند الإعراب، وإنَّما تعلم مكانه إذا أنت تصفحت المعنى ووجدته لا يتم إلا بمراعاته، نحو: يُعطي ويمنع؛ أي: يُعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ولكن لا سبيل إلى إظهار ذلك المحذوف، ولو أنت أظهرته زالت البهجة، وضاع ذلك الرونق.[٥]

ومن دواعي الحذف إذا دلت عليه قرينة، وتعلق بتركه غرض من الأغراض الآتية:

(١) ظهوره بدلالة القرائن عليه، نحو: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾؛ أي أنا عجوز.

(٢) إخفاء الأمر عن غير المُخاطَب، نحو: «أقبلَ» تُريد عليًّا مثلًا.

(٣) تيسُّر الإنكار إن مسَّت إليه الحاجة، نحو «لئيم خسيس» بعد ذكر شخص لا تذكر اسمه؛ ليتأتَّى لك عند الحاجة أن تقول ما أردته ولا قصدته.

(٤) الحذر من فوات فرصة سانحة، كقول مُنَبِّه الصيَّاد: «غزال» أي: هذا غزال.

(٥) اختبار تنبُّه السامع له عند القرينة، أو مقدار تنبُّهه، نحو: نوره مستفاد من نور الشمس، أو هو واسطة عقد الكواكب «أي القمر» في كل من المثالين.

(٦) ضيق المقام عن إطالة الكلام بسبب تضجر وتوجع، كقوله:

قال لي: كيف أنت؟ قلت: عليل سهر دائم وحزن طويل[٦]

(٧) المحافظة على السَّجع، نحو: من طابت سريرته، حُمِدَت سيرته.[٧]
(٨) المحافظة على قافية، كقوله:

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بدَّ يومًا أن تُرَدَّ الودائع[٨]

(٩) المحافظة على وزن، كقوله:

على أنني راضٍ بأن أحمل الهوى وأخلص منه لا عليَّ ولا ليا[٩]

(١٠) كون المسند إليه معينًا معلومًا «حقيقة» نحو: «عالم الغيب والشهادة» أي الله أو معلومًا «ادِّعاءً» نحو: «وهَّاب الألوف» أي فلان.
(١١) اتباع الاستعمال الوارد على تركه،[١٠] نحو: «رمية من غير رامٍ» أي هذه رمية، ونحو: «نعم الزعيم سعد!» أي: هو سعد.
(١٢) إشعار أن في تركه تطهيرًا له عن لسانك، أو تطهيرًا للسانك عنه، مثال الأول: «مُقَرِّرٌ للشرائع مُوضحٌ للدلائل» تريد صاحب الشريعة، ومثال الثاني: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾.
(١٣) تكثير الفائدة، نحو: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فأمري صبر جميل.
(١٤) تعيُّنه بالعهدية، نحو: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾[١١] أي السفينة، ونحو: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ أي الشمس.
ومرجع ذلك إلى الذوق الأدبي، فهو الذي يُوحي إليك بما في القول من بلاغة وحسن بيان.

تدريب

بيِّن أسباب ذكر وحذف المسند إليه في الأمثلة الآتية:
﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.
الرئيس كلمني في أمرك.

(١) والرئيس أمرني بمقابلتك.
(٢) الأمير نشر المعارف، وأمَّن المخاوف.
(٣) محتال مراوغ.
(٤) مُنضِجة للزرع، مُصْلِحة للهواء.

فعباس يصُدُّ الخطب عنا   وعباس يجير من استجارا

﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾، مقرر للشرائع موضِّح للدلائل.
(٥) ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وإني من القوم الذين همُ همُ   إذ مات منهم سيد قام صاحبه

أنا مصدر الكلم البوادي   بين المحاضر والنوادي
أنا فارس أنا شاعر   في كلِّ ملحمة ونادي

إن حل في رُومٍ ففيها قيصر   أو حلَّ في عُرب ففيها تُبَّع

تسائلني: ما الحب؟ قلت: عواطف   منوعة الأجناس موطنها القلب

(١) تخاطب غبيًّا.
(٢) جوابًا لمن سأل: ما فعل الأمير؟
(٣) بعد ذكر إنسان.
(٤) تعني الشمس.
(٥) أي: لو شاء هدايتكم.

تطبيق

وضح دواعي الحذف في التراكيب الآتية:

ملوك وإخوان إذا ما مدحتُهم   أحكَّم في أموالهم وأقرَّب

أما والذي أبكى وأضحك والذي   أمات وأحيا والذي أمره أمرُ

(١) لَسِنٌ إذا صَعِدَ المنابر أو نضا   قلمًا شأَى الخطباءَ والكتَّابا[١٢]

(٢) عليل الجسم ممتنع القيام   شديد السُّكْر من غير المُدامِ

(٣) أحجاج لا يفلل سلاحك إنما الـ   ـمنايا بكف الله حيث تراها[١٣]

(٤) حريص على الدنيا مضيع لدينه   وليس لما في بيته بمضيع

(٥) وإني رأيت البخل يُزرِي بأهله   فأكرمت نفسي أن يقال بخيل

(٦) لو شئت لم تفسد سماحة حاتم   كرمًا ولم تهدم مآثر خالد

(٧) برِّد حشاي[١٤] إن استطعت بلفظة   فلقد تضر إذا تشاء وتنفع

(٨) نجوم[١٥] سماء كلما غار كوكب   بدا كوكب تأوي إليه الكواكب

وقد عَلِمَ القبائلُ مِن مَعَدٍّ　　إذا قُبَبٌ بأبطحها بُنِينا
بأنَّا المطعِمون إذا قدرنا　　وأنَّا المهلِكون إذا ابتُلينا
وأنَّا المانعون لما أردنا　　وأنا النازلون بحيث شِينا
وأنا التاركون إذا سَخِطنا　　وأنَّا الآخذون إذا رَضِينا

الرقم	المحذوف	السبب
(١)	المسند إليه	ادعاء العلم به في مقام
(٢)	المسند إليه	المدح
(٣)	المسند إليه	ضيق المقام من التوجع
	المسند إليه	العلم به
(٤)	المسند إليه	ادعاء العلم به في مقام الذم
(٥)	المسند إليه	العلم به
(٦)	المفعول	البيان بعد الإبهام
(٧)	المفعول	عدم تعلق الغرض به
		تنزيل المتعدي منزلة اللازم
(٨)	المسند إليه	ادعاء تعينه في مقام المدح

«أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب» – «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر» – خلاق لما يشاء – الحمد لله الحمد – لا تخاطب السفيه اللئيم، وأحسن إلى الفقير المسكين.

حيوا العروبة في عُليا مراتبها　　وخير فرسانها شيبًا وشُبَّانَا

(٣) المبحث الثالث: في تعريف المسند إليه

حق المسند إليه أن يكون معرفة؛ لأنه المحكوم عليه الذي ينبغي أن يكون معلومًا؛ ليكون الحكم مفيدًا.

وتعريفه:[١٦] إما بالإضمار، وإما بالعَلَمِية، وإما بالإشارة، وإما بالموصولية، وإما بأل، وإما بالإضافة، وإما بالنداء.

(٤) المبحث الرابع: في تعريف المسند إليه بالإضمار

يؤتى بالمسند إليه ضميرًا لأغراض:

(١) لكون الحديث في مقام «التكلم» كقوله عليه الصلاة والسلام: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب.»

(٢) أو لكون الحديث في مقام «الخطاب» كقول الشاعر:

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني   وأشمَتَّ بي من كان فيك يلوم

(٣) أو لكون الحديث في مقام «الغيبة» لكون المسند إليه مذكورًا، أو في حكم المذكور لقرينة، نحو: الله تبارك وتعالى.

ولابدَّ من تقدم ذكره:

(أ) إمَّا لفظًا، كقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

(ب) وإمَّا بمعنًى، نحو: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾؛ أي «الرجوع».

ونحو: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾؛ أي العدل.

(ج) أو دلت عليه قرينة حال كقوله تعالى: ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾؛ أي: الميت.

تنبيهات

الأول: الأصل في الخطاب أن يكون لمشاهد معين، نحو: أنت استرققتني بإحسانك. وقد يُخاطب:

(أ) غير المشاهد إذا كان مستحضرًا في القلب، نحو: «لا إله إلا أنت» ونحو:

جودي بقربك أبلُغ كلَّ أمنيتي   أنتِ الحياة وأنتِ الكون أجمعه

(ب) وغير المعين إذا قُصِدَ تعميم الخطاب لكلِّ من يُمكن خطابه على سبيل البدل، لا التناول دفعة واحدة، كقول المتنبي:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

الثاني: الأصل في وضع الضمير عدم ذكره إلا بعد تقدُّم ما يفسِّره. وقد يُعدل عن هذا الأصل: فيقدم الضمير على مرجعه لأغراض كثيرة.

(أ) منها تمكين ما بعد الضمير في نفس السامع لتشوقه إليه كقوله:

هي النفسُ ما حَمَّلْتَها تتحَمَّلُ

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ و«نِعْم رجلًا عليٌّ»: فالفاعل ضمير يفسِّره التمييز. ويطَّرِد ذلك في باب نعم وبئس، وفي باب ضمير الشأن، نحو قوله تعالى: ﴿هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾.

(ب) ومنها ادعاء أن مرجع الضمير دائم الحضور في الذهن، نحو: أقبل وعليه الهيبة والوقار، ونحو قول الشاعر:

أبت الوصال مخافة الرقباء   وأتتك تحت مدارع الظلماء

ويُسمى هذا العدول بالإضمار في مقام الإظهار.

الثالث: يُوضع الظاهر «سواء أكان علمًا، أو صفة، أو اسم إشارة» موضع الضمير؛ لأغراض كثيرة:

(١) منها إلقاء المهابة في نفس السامع، كقول الخليفة: أمير المؤمنين يأمر بكذا.
(٢) وتمكين المعنى في نفس المخاطب، نحو: ﴿اللهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.
(٣) ومنها التلذذ كقول الشاعر:

سقى الله نجدًا والسلام على نجد ويا حبذا نجد على القرب والبعد

(٤) ومنها الاستعطاف، نحو: اللهم عبدك يسألك المغفرة «أي أنا أسألك» ويُسمى هذا العدول بالإظهار في مقام الإضمار.

(٥) المبحث الخامس: في تعريف المسند إليه بالعلمية

يُؤتى بالمسند إليه علمًا؛ لإحضار معناه في ذهن السامع ابتداء باسمه الخاص؛ ليمتاز عمَّا عداه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾.
وقد يُقصد به مع هذا أغراض أخرى تناسب المقام:

(١) كالمدح في الألقاب التي تُشعر بذلك، نحو: جاء نصر، وحضر صلاح الدين.
(٢) والذم والإهانة، نحو: جاء صخر، وذهب تأبَّط شرًّا.
(٣) والتفاؤل، نحو: جاء سرور.
(٤) والتشاؤم، نحو: حرب في البلد.
(٥) والتبرُّك، نحو: «الله أكرمني» في جواب: هل أكرمك الله؟
(٦) والتلذذ، كقول الشاعر:

باللهِ يا ظَبْياتِ القاعِ قُلْنَ لنا لَيْلايَ مِنْكُنَّ أَمْ لَيْلَى مِنَ البَشَرِ

(٧) والكناية عن معنًى يصلح العلم لذلك المعنى بحسب معناه الأصلي قبل العلميَّة، نحو: أبو لهب فعل كذا؛ كناية عن كونه جَهنميًّا؛ لأن اللهب الحقيقي هو لهب جَهنم، فيصح أن يلاحَظ فيه ذلك.

(٦) المبحث السادس: في تعريف المسند إليه بالإشارة

يُؤتى بالمسند إليه اسم إشارة إذا تعيَّن طريقًا لإحضار المشار إليه في ذهن السامع، بأن يكون حاضرًا محسوسًا، ولا يعرف المتكلم والسَّامع اسمه الخاص، ولا مُعَيِّنًا آخر، كقولك: «أتبيع لي هذا» مشيرًا إلى شيء لا تعرف له اسمًا ولا وصفًا.

أمَّا إذا لم يتعيَّن طريقًا لذلك، فيكون لأغراض أخرى:

(أ) بيان حاله في القرب، نحو: هذه بضاعتنا.
(ب) بيان حاله في التوسط، نحو: ذاك ولدي.
(جـ) بيان حاله في البُعد، نحو: ذلك يوم الوعيد.

(١) تعظيم درجته بالقرب، نحو: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أو تعظيم درجته بالبعد، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

(٢) أو التحقير بالقرب، نحو: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أو التحقير بالبعد، كقوله تعالى: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾.

(٣) وإظهار الاستغراب، كقول الشاعر:

كم عاقلٍ عاقلٍ أعيَتْ مذاهبه وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأوهام حائرة وصيَّر العالم النِّحرير زنديقا

(٤) وكمال العناية وتمييزه أكمل تمييز، كقول الفرزدق:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحِلُّ والحَرَم

ونحو قوله: هذا أبو الصقر فردًا في محاسنه.

(٥) والتعريض بغباوة المخاطب، حتى كأنه لا يفهم غير المحسوس، نحو:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

(٦) والتنبيه على أن المشار إليه المُعَقبَ بأوصاف جدير لأجل تلك الأوصاف بما يُذكر بعد اسم الإشارة، كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.[١٧]

وكثيرًا ما يشار إلى القريب غير المُشاهد بإشارة البعيد؛ تنزيلًا للبُعد عن العيان منزلة البعد عن المكان، نحو: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

(٧) المبحث السابع: في تعريف المسند إليه بالموصوليَّة

يُؤتى بالمسند إليه اسمَ موصول إذا تعيَّن طريقًا لإحضار معناه، كقولك: الذي كان معنا أمس سافر، إذا لم تكن تعرف اسمه.

أما إذا لم يتعيَّن طريقًا لذلك فيكون لأغراض أخرى:

(١) منها: التشويق، وذلك فيما إذا كان مضمون الصلة حكمًا غريبًا، كقوله:

والذي حارت البريَّة فيه حيوان مستحدَث من جماد[١٨]

(٢) ومنها إخفاء الأمر عن غير المخاطب، كقول الشاعر:

وأخذت ما جاد الأمير به وقضيت حاجاتي كما أهوى

(٣) ومنها التنبيه على خطأ المخاطب، نحو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، وكقول الشاعر:

إن الذين تُرَوْنَهم إخوانَكم يشفي غليل صدورهم أن تُصرعوا[١٩]

(٤) ومنها التنبيه على خطأ غير المخاطب، كقوله:

إنَّ التي زَعَمَتْ فؤادَكَ مَلَّها خُلِقَتْ هَوَاكَ كما خُلِقْتَ هَوى لها

(٥) ومنها تعظيم شأن المحكوم به، كقول الشاعر:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتًا دعائمه أعزُّ وأطول[٢٠]

(٦) ومنها التهويل: تعظيمًا أو تحقيرًا، نحو: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[٢١] ونحو: مَنْ لم يدر حقيقة الحال قال ما قال.

(٧) ومنها استهجان التصريح بالاسم، نحو: الذي رباني أبي.[٢٢]

(٨) ومنها الإشارة إلى الوجه الذي يُبنى عليه الخبر من ثواب أو عقاب، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

(٩) ومنها التوبيخ، نحو: الذي أحسن إليك قد أسأت إليه.

(١٠) ومنها الاستغراق، نحو: الذين يأتونك أكْرِمْهم.

(١١) ومنها الإبهام، نحو: لكل نفس ما قدَّمت.

اعلم أنَّ التعريف بالموصوليَّة مبحث دقيق المسلك، غريب النزعة، يُوقِفك على دقائق من البلاغة، تؤنسك إذا أنت نظرت إليها بثاقب فكرك، وتُثلج صدرك إذا تأملتها بصادق رأيك، فأسرار ولطائف التعريف بالموصولية لا يمكن لها، واعتبر في كل مقام ما تراه مناسبًا.

(٨) المبحث الثامن: في تعريف المسند إليه بأل

يُؤتى بالمسند إليه مُعَرَّفًا «بأل العهديَّة» أو «أل الجنسية» لأغراض آتية:

(٨-١) أل العهدية

أل العهدية: تدخل على المسند إليه للإشارة إلى فرد معهود خارجًا بين المتخاطبين، وعهده يكون:

(أ) إما بتقدُّم ذكره «صريحًا» كقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ ويُسمَّى عهدًا صريحيًّا.

(ب) وإما بتقدُّم ذكره «تلويحًا» كقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ فالذكر وإن لم يكن مسبوقًا صريحًا إلا أنه إشارة إلى «ما» في الآية قبله: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾[٢٣] فإنهم كانوا لا يحررون لخدمة بيت المقدس إلا الذكور، وهو المعنيُّ «بما» ويسمَّى «كنائيًّا».

(ج) وإما بحضوره بذاته، نحو: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أو بمعرفة السامع له، نحو: هل انعقد المجلس، ويُسمى «عهدًا حضوريًّا».

(٨-٢) أل الجنسية

أل الجنسية: وتُسمَّى «لام الحقيقة» تدخل على المسند إليه لأغراض أربعة:

(١) للإشارة إلى الحقيقة من حيث هي بقطع النظر عن عمومها وخصوصها، نحو: الإنسان حيوان ناطق.

وتسمَّى «لام الجنس»؛ لأن الإشارة فيه إلى نفس الجنس، بقطع النظر عن الأفراد، نحو: الذهب أثمن من الفضَّة.

(٢) أو للإشارة إلى الحقيقة في ضمن فرد مبهم، إذا قامت القرينة على ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ ومدخولها في المعنى «كالنكرة» فيعامل معاملتها، وتُسمَّى «لام العهد الذِّهني».

(٣) أو للإشارة إلى كلِّ الأفراد التي يتناولها اللفظ بحسب اللغة:

(أ) بمعونة قرينة «حالية» نحو: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾؛ أي كل غائب وشاهد.

(ب) أو بمعونة قرينة «لفظية» نحو: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾؛ أي كل إنسان بدليل الاستثناء بعده، ويُسمَّى «استغراقًا حقيقيًّا».

(٤) أو للإشارة إلى كل الأفراد مقيَّدًا، نحو: جمع الأمير التجار، وألقى عليهم نصائحه؛ أي جمع الأمير «تجَّار مملكته» لا تجَّار العالم أجمع، ويُسمَّى «استغراقًا عرفيًّا».

تنبيهات

التنبيه الأول: علم مما تقدم أن أل التعريفية قسمان:

القسم الأول: لام العهد الخارجي، وتحته أنواع ثلاثة: صريحي – وكنائي – وحضوري.

والقسم الثاني: لام الجنس: وتحته أنواع أربعة: لام الحقيقة من حيث هي – ولام الحقيقة في ضمن فرد مبهم – ولام الاستغراق الحقيقي – ولام الاستغراق العرفي.

التنبيه الثاني: «استغراق المفرد أشمل» من استغراق المثنى، والجمع، واسم الجمع؛ لأن المفرد يتناول كل واحد واحد من الأفراد، والمثنى إنما يتناول كل اثنين اثنين، والجمع إنما يتناول كل جماعة جماعة؛ بدليل صحة «لا رجل في الدار» إذا كان فيها رجل أو رجلان، بخلاف قولك: «لا رجلَ» فإنه لا يصبح إذا كان فيها رجل أو رجلان.

وهذه القضية ليست بصحيحة على عمومها، وإنما تصح في النكرة المنفية، دون الجمع المعرف باللام؛ لأن المعرف بلام الاستغراق يتناول كل واحد من الأفراد نحو ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾، بل هو في المفرد أقوى، كما دل عليه الاستقراء، وصرح به أئمة اللغة وعلماء التفسير في كل ما وقع في القرآن العزيز، نحو: ﴿أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾؛ إلى غير ذلك من آي الذكر الحكيم، كما في المطولات.

التنبيه الثالث: قد يعرف الخبر بلام الجنس لتخصيص المسند إليه بالمسند المعرف وعكسه «حقيقة» نحو: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾، ونحو: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾، أو «ادعاء» للتنبيه على كمال ذلك الجنس في المسند إليه، نحو: محمد العالم «أي الكامل في العلم»، أو كماله في المسند، نحو: الكرم التقوى «أي لا كرم إلا هي».

(٩) المبحث التاسع: في تعريف المسند إليه بالإضافة

يُؤتى بالمسند إليه مُعرَّفًا بالإضافة إلى شيء من المعارف السَّابقة لأغراض كثيرة:

(١) منها أنها أخصر طريق إلى إحضاره في ذهن السامع، نحو: جاء غلامي؛ فإنه أخصر من قولك: جاء الغلام الذي لي.

(٢) ومنها تعذُّر التعدُّد أو تعسُّره، نحو: أجمع أهل الحق على كذا، وأهل مصر كرام.

(٣) ومنها الخروج من تبعة تقديم البعض على البعض، نحو: حضر أمراء الجند.

(٤) ومنها التعظيم للمضاف، نحو: «كتاب السلطان حضر»، أو التعظيم للمضاف إليه، نحو: «الأمير تلميذي»، أو غيرهما، نحو: أخو الوزير عندي.

(٥) ومنها التَّحقير للمضاف، نحو: «ولد اللص قادم»، أو التحقير للمضاف إليه، نحو: «رفيق زيد لص»، أو غيرهما، نحو: أخو اللص عند عمرو.

(٦) ومنها الاختصار لضيق المقام لفرط الضجر والسآمة، كقول جعفر بن عُلبة، وهو في السجن بمكة:

هواي مع الركب اليمانين مُصعِدٌ جنيب وجُثماني بمكة موثق[٢٤]

واعلمْ أنَّ هيئة التركيب الإضافي موضوعة للاختصاص المصحح لأن يقال: «المضاف للمضاف إليه» فإذا استعملت في غير ذلك كانت مجازًا كما في الإضافة لأدنى ملابسة، نحو: «مكر الليل» وكقوله:

إذا كوكب الخرقاء لاح بسحرةٍ «سُهيل» أذاعت غزلها في القرائب[٢٥]

(١٠) المبحث العاشر: في تعريف المسند إليه بالنداء[٢٦]

يُؤتى بالمسند إليه مُعرفًا بالنداء لأغراض كثيرة:

(١) منها إذا لم يُعرف للمخاطب عنوان خاص، نحو: يا رجل.
(٢) ومنها الإشارة إلى علة ما يُطلب منه، نحو: يا تلميذ اكتب الدَّرس.

(١١) المبحث الحادي عشر: في تنكير المسند إليه

يُؤتى بالمسند إليه نكرة لعدم عِلم المتكلم بجهة من جهات التعريف حقيقة أو ادعاء، كقولك: «جاء هنا رجل يسأل عنك» إذا لم تعرف ما يعينه من علم أو صلة أو نحوهما، وقد يكون لأغراض أخرى:

(١) كالتكثير[٢٧] نحو: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾؛ «أي رسل كثيرون».
(٢) والتقليل، نحو: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ونحو: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾.
(٣) والتعظيم والتحقير، كقول ابن أبي السمط:

له حاجب عن كل أمر يشينه وليس له عن طالب العرف حاجب

أي له مانع عظيم، وكثير عن كل عيب، وليس له مانع قليل أو حقير عن طالب الإحسان،[٢٨] فيحتمل التعظيم والتكثير والتقليل والتحقير.

(٤) وإخفاء الأمر، نحو: قال رجل: «إنك انحرفت عن الصواب» تخفي اسمه؛ حتى لا يلحقه أذى.

(٥) وقصد الإفراد، نحو: «ويل أهون من ويلين» (أي ويل واحد أهون من ويلين).

(٦) وقصد النوعية، نحو: «لكل داء دواء» (أي لكل نوع من الداء نوع من الدواء).

(١٢) المبحث الثاني عشر: في تقديم المسند إليه

مرتبة المسند إليه:[٢٩] «التقديم»؛ وذلك لأن مدلوله هو الذي يخطر أولًا في الذهن؛ لأنه المحكوم عليه، والمحكوم عليه سابق للحكم طبعًا؛ فاستحق التقديم وضعًا. ولتقديمه دواعٍ شتى:

(١) منها تعجيل المسرَّة، نحو: العفو عنك صدر به الأمر.

(٢) ومنها تعجيل المساءة، نحو: القصاص حكم به القاضي.

(٣) ومنها التشويق إلى المتأخر إذا كان المتقدِّم مشعرًا بغرابةٍ، كقول أبي العلاء المعرِّي:

والذي حارتِ البريةُ فيه حيوان مستحدَث من جماد[٣٠]

(٤) ومنها التلذذ، نحو: ليلى وصلت، وسلمى هجرت.

(٥) ومنها التبرك، نحو: اسم الله اهتديت به.

(٦) ومنها النص على عموم السلب، أو النص على سلب العموم.

«فعموم السلب» يكون بتقديم أداة العموم،[٣١] ككل وجميع على أدة النفي، نحو: «كل ظالم لا يفلح»، المعنى: لا يفلح أحد من الظلمة.

ونحو: «كل ذلك لم يكن»؛ أي لم يقع هذا ولا ذاك.

ونحو: كل تلميذ لم يقصر في واجبه. ويُسمى شمول النفي.

واعلم: أن «عموم السلب» يكون النفي فيه لكل فرد.

وتوضيح ذلك أنك إذا بدأت بلفظة «كل» كنت قد سلطت الكلية على النفي، وأعملتها فيه، وذلك يقضي ألا يشذ عنه شيء.

و«سلب العموم» يكون بتقديم أداة النفي على أداة العموم، نحو: لم يكن كل ذلك، لم يقع المجموع، فيحتمل ثبوت البعض، ويحتمل نفي كل فرد؛ لأن النفي يوجه إلى الشمول خاصة، دون أصل الفعل، ويُسمى «نفي الشمول».

واعلم أن «سلب العموم» يكون النفي فيه للمجموع غالبًا، كقول المتنبي:

ما كلُّ رأي الفتى يدعو إلى رَشَدِ

وقد جاء لعموم النفي قليلًا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ودليل ذلك الذوق والاستعمال.

(٧) ومنها إفادة التخصيص قطعًا[٣٢] إذا كان المسند إليه مسبوقًا بنفي، والمسند فعلًا، نحو: «ما أنا قلت هذا بل غيري»؛ أي: لم أقله، وهو مقول لغيري؛ ولذا لا يصح أن يقال: ما أنا قلت هذا ولا غيري؛ لأن مفهوم «ما أنا قلت» أنه مقول للغير ومنطوق «ولا غيري» كونه غير مقول للغير «فيحصل التناقض سلبًا وإيجابًا».

وإذا لم يسبق المسند إليه نفي كان تقديمه محتملًا[٣٣] لتخصيص الحكم به، أو تقويته إذا كان المسند فعلًا،[٣٤] نحو: «أنت لا تبخل» ونحو: «هو يهب الألوف» فإنَّ فيه الإسناد مرتين؛ إسناد الفعل إلى ضمير المخاطب في المثال الأول، وإسناد الجملة إلى ضمير الغائب في المثال الثاني.

(٨) ومنها كون المتقدِّم محط الإنكار والغرابة، كقوله:

أبعْدَ المشيبِ المُنْقضي في الذَّوائب   تحاول وصلَ الغانيات الكواعبِ

(٩) ومنها سلوك سبيل الرقي، نحو: هذا الكلام صحيح فصيح بليغ، فإذا قلت: «فصيح بليغ» لا يحتاج إلى ذكر صحيح، وإذا قلت: «بليغ» لا يحتاج إلى ذكر فصيح.

(١٠) ومنها مراعاة الترتيب الوجودي، نحو: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

تمرين

ما نوع المقدم وما فائدة التقديم في الأمثلة الآتية:

(١) قال الله تعالى: ﴿لِلهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾.

(٢) وقال تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾.

(٣) وقال أبو فراس:

إلى الله أشكو أننا بمنازل تحَكَّمُ في آسادهن كلاب

(٤) وقال ابن نُباتة يُخاطب الحسن بن المهلبي:

ولي همَّة لا تطلب المال للغنى ولكنها منك المودة تطلب

(٥) وقال أبو نواس:

إني انتجعت العباس ممتدحًا وسيلتي جودُه وأشعارِ
عن خبرة جئت لا مخاطرة وبالدلالات يهتدي الساري

(٦) وقال الأبيوردي:

ومن نكد الأيام أن يبلغ المنى أخو اللؤم فيها والكريم يَخِيب

(٧) وقال أبو الطيب المتنبي يهجو كافورًا:

من أيةِ الطرقِ مثلك الكرم أين المحاجم يا كافور والجَلَمُ؟

(٨) وقال المعري:

أعندي وقد مارستُ كلَّ خَفِيَّةٍ يصدَّقُ واشٍ أو يُخَيَّب سائلُ؟

(٩) وقال أيضًا:

إلى الله أشكو أنني كل ليلة إذا نمت لم أعدمْ خواطر أوهامِ
فإن كان شرًّا فهو لا شك واقع وإن كان خيرًا فهو أضغاث أحلامِ

(١٠) وقال أيضًا:

وكالنار الحياة فمن رماد   أواخرها وأولها دخان

(١١) وقال بعض الشعراء في الحث على المعروف:

يد المعروف غُنْمٌ حيث كانت   تحملها شكور أو كفور
ففي شكر الشكور لها جزاء   وعند الله ما جحد الكفور

(١٢) وقال الآخر:

أنلهو وأيامنا تذهب   ونلعب والدهر لا يلعب؟!

(١٣) وقال محمد بن وهيب يمدح الخليفة المعتصم (وكنيته أبو إسحق):

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها   شمس الضحى وأبو إسحق والقمر

(١٤) وقال آخر:

ثلاثة يُجهل مقدارها   الأمن والصحة والقوت
فلا تثق بالمال من غيرها   لو أنه دُرٌّ وياقوت

(١٥) وقال آخر يهجو بخيلًا:

أأنت تجود إن الجود طبع   وما لك منه يا هذا نصيب؟

(١٦) وقال آخر يستنكر أن يشرب الخمر حين دُعي لشربها:

أبعد ستين قد ناهزتها حججًا   أحكم الرَّاح في عقلي وجسماني؟

(١٧) وقال الآخر:

غافل أنت والليالي حُبالى   بصنوف الردى تروح وتغدو

(١٨) وقال ابن المعتز:

ومن عجب الأيام بغي معاشر   غضاب على سبقي إذا أنا جاريت
يغيظهم فضلي عليهم ونقصهم   كأني قسمت الحظوظ فحابيت

(١٣) المبحث الثالث عشر: في تأخير المسند إليه

يؤخر المسند إليه إن اقتضى المقام تقديم المسند كما سيجيء، ولا نلتمس دواعي التقديم والتأخير إلا إذا كان الاستعمال يبيح كليهما.

تطبيق عام على أحوال المسند إليه وما قبله

«أمير المؤمنين يأمرك بكذا» جملة خبرية اسمية من الضرب الثالث، المراد بالخبر بيان سبب داعي الامتثال. المسند إليه أمير المؤمنين، ذُكر للتعظيم، وقُدِّم لذلك، والمسند جملة يأمر، ذكر لأن الأصل فيه ذلك، وأُخِّر لاقتضاء المقام تقديم المسند إليه، وأُتِيَ به جملة لتقوية الحكم بتكرار الإسناد «والتعظيم وتقوية الحكم وكون ذكر المسند هو الأصل، ولا مقتضى للعدول عنه، واقتضاء المقام تقديم المسند إليه» «أحوال» والذكر والتقديم والتأخير «مقتضيات»، والإتيان بهذه الجملة على هذا الوجه «مطابقة لمقتضى الحال».

«أنت الذي أعانني، وأنت الذي سرني» ذكر «أنت» ثانيًا لزيادة التقرير والإيضاح، فزيادة التقرير والإيضاح «حال» والتقرير «مقتضى»، والإتيان بالجملة على هذا الوجه «مطابقة لمقتضى الحال».

«سعيد يقتحم الأخطار» (بعد مدحه) ذكر سعيد للتعظيم والتعجب، فالتعظيم والتعجب حال والذكر مقتضى، والإتيان بالجملة على هذا الوجه مطابقة لمقتضى الحال.

«حضر الكريم سعد» (بعد: أَحضَرَ سعد؟) ذكر الكريم لتعظيم سعد ومدحه، فالتعظيم حال، والذكر مقتضى، والإتيان بالجملة على هذا الوجه مطابقة لمقتضى الحال.

«علي كتب الدرس» (جواب: ما الذي عمل علي؟) ذكر علي للتعريض بغباوة السامع، وقُدِّم لتقوية الحكم لكون الخبر فعلًا، فالتعريض والتقوية حالان والذكر لتقديم مقتضيان، والإتيان بالجملة على هذا الوجه مطابقة لمقتضى الحالين.

«محمود نعم التلميذ» (بعد مدح كثير له) ذكر محمود لقلة الثقة بالقرينة، وقُدِّم لتقوية الحكم.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ حُذف المسند وهو «خلقنا» للعلم به.

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ حُذف المسند إليه وهو الله تعالى للعلم به.

«معطي الوسامات والرتب» حُذف المسند إليه؛ للتنبيه على تعيين المحذوف ادعاء «كالسلطان مثلًا».

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ حُذف مفعول آوَى للمحافظة على الفاصلة.

«صاحبك يدعو إلى وليمة العرس» حُذف مفعول يدعو للتعميم باختصار.

«لا يعطي ولا يمنع إلا الله تعالى» حُذف المفعولان؛ لعدم تعلق الغرض بهما.

«أهين الأمير» حذف الفاعل؛ للخوف عليه.

«لسان الفتى نصف، ونصف فؤاده» قدم نصف الثاني؛ للمحافظة على الوزن.

«ما كل ما يتمنى المرء يدركه» قدمت أداة النفي على أداة العموم؛ لإفادة سلب العموم ونفي الشمول.

«جميع العقلاء لا يسعَوْن في الشر» قدمت أداة العموم على أداة النفي لإفادة عموم السلب وشمول النفي.

﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قدم الجار والمجرور للتخصيص.

ونحن التاركون لما سخطنا ونحن الآخذون لما رضينا

الجملة الأولى خبرية اسمية، من الضرب الابتدائي، والمراد بالخبر إظهار الفخر والشجاعة. المسند إليه نحن، ذكر؛ لأن ذكره الأصل، وقدم للتعظيم، وعرف بالإضمار لكون المقام للتكلم مع الاختصار، والمسند التاركون، ذكر وأخر؛ لأن الأصل ذلك.

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني وأشمتَّ بي من كان فيك يلوم

جملة خبرية اسمية من الضرب الابتدائي، والمراد بالخبر التوبيخ. المسند إليه أنت، ذُكِر وقُدِّم؛ لأن الأصل فيه ذلك، وعرف بالإضمار لكون المقام للخطابي مع الاختصار

والمسند لفظة الذي، وقد ذُكِر وأُخِّر؛ لأن الأصل فيه ذلك، وعرف بالموصولية للتعليل؛ يعني أن إخلاف وعده كان سبب الشماتة واللوم.

وأما جملة «أشمت» فمعطوفة على جملة «أخلفت» ووصلت بها لما تقدم، وعرف المسند إليه وهو الفاعل في يلوم بالإضمار؛ لكون المقام للغيبة مع الاختصار.

«أبو لهب فعل كذا» جملة خبرية اسمية من الضرب الثالث؛ لما فيها من تقوية الحكم بتكرار الإسناد، والمراد بالخبر أصل الفائدة لمن يجهل ذلك. المسند إليه أبو لهب، ذكر وقدم؛ لأن الأصل فيه ذلك، وعرف بالعلمية عن كونه جهنميًّا.

أمثلة على أحوال المسند إليه يُطلب أجوبتها

ما هو المسند إليه؟ ما هي أحواله؟ متى يجب ذكره؟ ما هي الوجوه التي ترجح ذكره عند وجود القرينة؟ متى يحذف؟ ما الفرق بين المعرفة والنكرة؟ لِمَ يعرَّف المسند إليه بالإضمار؟ ما هو الأصل في الخطاب؟ ما الأصل في وضع الضمير؟ لِمَ يعرَّف المسند إليه بالعلمية؟ لِمَ يعرَّف بالإشارة؟ لِمَ يعرَّف بالموصولية؟ لِمَ يعرَّف بالنداء؟ لأي شيء ينكر المسند إليه؟ لِمَ يقدم المسند إليه؟ ما الفرق بين عموم السلب وسلب العموم؟ لِمَ يُؤخر المسند إليه؟

هوامش

(١) بيان ذلك أنه إذا لم يوجد في الكلام قرينة تدل على ما يراد حذفه، أو وُجِدت قرينة ضعيفة غير مصحوبة بغرض آخر يدعو إلى الحذف — فلا بد من الذكر جريًا على الأصل. وقد تدعو الظروف والمناسبات إلى ترجيح «الذكر» مع وجود قرينة تمكن من «الحذف» وذلك لأغراض مختلفة، ترجع إلى أساليب البلغاء؛ فنجدهم قد ذكروا أحيانًا ما يجوز أن يُستغنى عنه، وحذفوا ما لا يوجد مانع من ذكره، فرجحوا الذكر أحيانًا والحذف أحيانًا؛ لأسباب بلاغية اقتضت ذلك.

(٢) الشاهد في ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ حيث كرر اسم الإشارة المسند إليه للتقرير والإيضاح؛ تنبيهًا على أنهم كما ثبتت لهم الأثرة والميزة بالهدى فهي ثابتة لهم بالفلاح أيضًا.

(٣) أي: كتابة الحكم عليه بين يدي الحاكم.

(٤) فيذكر المسند إليه؛ لئلا يجد المشهود عليه سبيلًا للإنكار بأن يقول للحاكم عند التسجيل: إنما فهم الشاهد أنك أشرت إلى غيري فأجاب؛ ولذلك لم أنكر ولم أطلب الإعذار فيه.

(٥) وفي هذا القسم تظهر دقائق البلاغة ومكنون سرها ورائع أساليبها؛ ولهذا يقول الإمام «عبد القاهر الجرجاني» في باب الحذف: إنه باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانًا إذا لم تُبِنْ، وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر، وتدفعها حتى تنظر.

والأصل في جميع المحذوفات — على اختلاف ضروبها — أن يكون في الكلام ما يدل عليها، وإلا كان الحذف تعمية وإلغازًا لا يُصار إليه بحال. ومن شرط حسن الحذف أنه متى ظهر المحذوف زال ما كان في الكلام من البهجة والطلاوة، وصار إلى شيء غث لا تناسب بينه وبين ما كان عليه أولًا «والقرينة شرط في صحة الحذف» إذا اقترن بها غرض من الأغراض المذكورة.

(٦) أي: لم يقل: «أنا عليل» لضيق المقام بسبب الضجر الحاصل له من الضنى.

(٧) أي: لم يقل: «حمد الناس سيرته» للمحافظة على السجع المستلزم رفع الثانية.

(٨) فلو قيل: «أن يرد الناس الودائع» لاختلفت القافية لصيرورتها مرفوعة في الأول منصوبة في الثاني.

(٩) أي: لا عليَّ شيء، ولا لي شيء.

(١٠) وكذا أيضًا الوارد على ترك نظائره مثل الرفع على المدح، نحو: «مررت بزيد الهمام»، وعلى الذم، نحو: «رأيت بكرًا اللئيم»، وعلى الترحم مثل: «ترفق بخالد المسكين».

(١١) قيل: الجودي هو «الجبل» الذي وقفت عليه سفينة نوح، وهي معهودة في الكلام السابق في قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ إلخ.

(١٢) نضا بمعنى جرد. شأى: سبق.

(١٣) فلول السيف: كسور في حده.

(١٤) الحشا: ما انطوت عليه الضلوع.

(١٥) أي: هؤلاء نجوم.

(١٦) اعلمْ أن كلًّا من المعرفة والنكرة يدل على معين، وإلا امتنع الفهم، إلا أن الفرق بينهما أن «النكرة» يفهم منها ذات المعين فقط، ولا يفهم منها كونه معلومًا للسامع،

وأن «المعرفة» يفهم منها ذات المعين، ويفهم منها كونه معلومًا للسامع لدلالة اللفظ على التعيين، والتعيين فيها إما بنفس اللفظ من غير احتياج إلى قرينة خارجية كما في العلم، وإما بقرينة تكلم أو خطاب أو غيبة كما في الضمائر، وإما بقرينة إشارة حسية كما في الإشارة، وإما بنسبة معهودة كما في الأسماء الموصولة، وإما بحرف؛ وهو المعرف بأل والنداء، وإما بإضافة معنوية؛ وهو المضاف إلى واحد مما ذُكر، ما عدا المنادى.

واعلم أنه قدم ذكر «الإضمار» لأنه أعرف المعارف، وأصل الخطاب أن يكون لمعين، وقد يستعمل أحيانًا دون أن يقصد به مخاطب معين كقول المتنبي:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

أُخرج الكلام هنا في صورة الخطاب؛ ليفيد العموم.

(١٧) أي: فالمشار إليه بأولئك هم المتقون، وقد ذكر عقبه أوصاف هي الإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة وما بعدهما، ثم أتى بالمسند إليه اسم إشارة وهو أولئك؛ تنبيهًا على أن المشار إليهم جديرون وأحقاء من أجل تلك الخصال بأن يفوزوا بالهداية عاجلًا، والفوز بالفلاح آجلًا.

(١٨) يعني: تحيرت البرية في المعاد الجسماني.

(١٩) أي: من تظنون أخوتهم يحبون دماركم، فأنتم مخطئون في هذا الظن، ولا يفهم هذا المعنى لو قيل: «إن قوم كذا يشفي ... إلخ».

(٢٠) أي: إن من سمك السماء بنى لنا بيتًا من العز والشرف، هو أعز وأقوى من دعائم كل بيت.

(٢١) أي: غطاهم وسترهم من البحر موج عظيم، لا تحيط العبارة بوصفه.

(٢٢) أي: بأن كان اسمه قبيحًا كمن اسمه «برغوث، أو جحش، أو بطة، أو غيره».

(٢٣) التحرير: هو العتق لخدمة بيت المقدس؛ أي: وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لها، فطلبها الذكر كان بطريق الكناية في قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ فإن ذلك كان مقصورًا عندهم على المذكور، فأل في «الذكر» عائدة إلى مذكر بطريق الكناية، وأل في «الأنثى» عائدة إلى مذكور صريحًا في قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ فالعهد الخارجي ثلاثة أنواع: صريحي، وكنائي، وعلمي.

(٢٤) أي: من أهواه وأحبه ذاهب مع ركبان الإبل، القاصدين إلى اليمن، منضم إليهم، مقود معهم، وجسمي مقيد بمكة، محبوس وممنوع عن السير معهم، فلفظ «هواي» أخصر من الذي أهواه ونحوه.

(٢٥) أضاف الكوكب إلى «الخرقاء»؛ أي المرأة الحمقاء مع أنه ليس لها؛ لأنها لا تتذكر كسوتها إلا وقت طلوع «سهيل» سحرًا في الشتاء. وتفصيل ذلك أنه يقال: إن المرأة الحمقاء كانت تضيع وقتها في الصيف، فإذا طلع سهيل — وهو كوكب قريب من القطب الجنوبي في السحر، وذلك قرب الشتاء — أحست بالبرد، واحتاجت إلى الكسوة؛ ففرقت غزلها؛ أي قطنها أو كتانها الذي يصير غزلًا في أقاربها؛ ليغزلوا لها بسبب عجزها عن الغزل ما يكفيها لضيق الوقت، فإضافة كوكب الخرقاء لأدنى ملابسة، وقد جعل الشاعر هذه الملابسة بمنزلة الاختصاص.

(٢٦) اعلم أن أغلب البيانيين لم يثبت «التعريف بالنداء» في تعريف المسند إليه، وتحقيق ذلك يُطلب من المطولات في علوم البلاغة.

(٢٧) اعلم أن الفرق بين التعظيم والتكثير: أن التعظيم بحسب رفعة الشأن وعلو الطبقة، وأن التكثير باعتبار الكميات والمقادير؛ تحقيقًا كما في قولك: «إن له لإبلًا» و«إن له لغنمًا» أو تقديرًا نحو: ورضوان من الله أكبر؛ أي: قليل من الرضوان أكبر من كل شيء. ويلاحَظ ذلك الفرق في التحقير والتقليل أيضًا.

(٢٨) ومنه قوله:

ولله عندي جانب لا أضيعه ... وللهو عندي والخلاعة جانب

ويحتمل التكثير والتقليل قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾.

(٢٩) معلوم أن الألفاظ قوالب المعاني، فيجب أن يكون ترتيبها الوضعي حسب ترتيبها الطبيعي، ومن البيِّن أن «رتبة المسند إليه التقديم»؛ لأنه المحكوم عليه، ورتبة المسند التأخير؛ إذ هو المحكوم به، وما عداهما فهو متعلقات وتوابع تأتي تالية لهما في الرتبة، ولكن قد يعرض لبعض الكلم من المزايا والاعتبارات ما يدعو إلى تقديمها، وإن كان من حقها التأخير، فيكون من الحسن إذًا تغيير هذا الأصل، واتباع هذا النظام؛ ليكون المقدم مشيرًا إلى الغرض الذي يؤدي إليه، ومترجمًا عما يريد.

ولا يخلو «التقديم» من أحوال أربع:

الأول: ما يفيد زيادة في المعنى مع تحسين في اللفظ، وذلك هو الغاية القصوى، وإليه المرجع في فنون البلاغة، والكتاب الكريم هو العمدة في هذا، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ تجد أن تقديم الجار في هذا قد أفاد التخصيص، وأن النظر لا يكون إلا لله، مع جودة الصياغة وتناسق السجع.

الثاني: ما يفيد زيادة في المعنى فقط، نحو: ﴿بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فتقديم المفعول في هذا لتخصيصه بالعبادة، وأنه ينبغي ألا تكون لغيره، ولو أخر ما أفاد الكلام ذلك.

الثالث: ما يتكافأ فيه التقديم والتأخير، وليس لهذا الضرب شيء من الملاحة، كقوله:

وكانت يدي ملأى به ثم أصبحت «بحمد إلهي» وهي منه سليب

فتقديره: ثم أصبحت وهي منه سليب بحمد إلهي.

الرابع: ما يختل به المعنى ويضطرب، وذلك هو التعقيد اللفظي أو المعاظلة التي تقدمت، كتقديم الصفة على الموصوف، والصلة على الموصول، أو نحو ذلك من الأنواع التي خرجت عن الفصاحة، ومنها قول الفرزدق:

إلى ملك ما أمه من محارب أبوه ولا كانت كليب تصاهره

فتقديره: إلى ملك أبوه ما أمه من محارب؛ أي ما أم أبيه منهم، ولا شك أن هذا لا يُفهم من كلامه للنظرة الأولى، بل يحتاج إلى تأمل وتريث ورفق؛ حتى يُفهم المراد منه.

(٣٠) قيل: «الحيوان» هو الإنسان و«الجماد» الذي خلق منه هو النطفة، وحيرة البرية فيه هو الاختلاف في إعادته للحشر، وهو يريد أن الخلائق تحيرت في المعاد الجسماني، يدل لذلك قوله قبله:

بان أمر الإله واختلف النا س فداعٍ إلى ضلال وهادي

(٣١) بشرط أن تكون أداة العموم غير معمولة للفعل الواقع بعدها كما مُثل، فإن كانت معمولة للفعل بعدها سواء تقدمت لفظًا أو تأخرت، نحو: «كل ذنب لم أصنع» و«لم آخذ كل الدراهم» أفاد الكلام سلب العموم ونفي الشمول غالبًا.

(٣٢) وذلك يكون في ثلاثة مواضع:

الأول: أن يكون المسند إليه معرفة ظاهرة بعد نفي، نحو: ما فؤاد فعل هذا.

الثاني: أن يكون المسند إليه معرفة مضمرة بعد نفي، نحو: ما أنا قلت ذلك.

الثالث: أن يكون المسند إليه نكرة بعد نفي، نحو: ما تلميذ حفظ الدرس.

(٣٣) وذلك في ستة مواضع:

الأول: أن يكون المسند إليه معرفة ظاهرة قبل نفي، نحو: فؤاد ما قال هذا.

الثاني: أن يكون المسند إليه معرفة ظاهرة مثبتة، نحو: عباس أمر بهذا.

الثالث: أن يكون المسند إليه معرفة مضمرة قبل نفي، نحو: أنا ما كتبت الدرس.

الرابع: أن يكون المسند إليه معرفة مضمرة مثبتة، نحو: أنا حفظت درسي.

الخامس: أن يكون المسند إليه نكرة قبل نفي، نحو: رجل ما قال هذا.

السادس: أن يكون المسند إليه نكرة مثبتة، نحو: تلميذ حضر اليوم في المدرسة.

واعلم أن ما ذكرناه هو مذهب عبد القاهر الجرجاني، وهو الحق، وخالفه السكَّاكي.

(٣٤) فإن قيل: لماذا اشترط أن يكون المسند فعلًا، وهل إذا كان المسند وصفًا مشتملًا على ضمير، نحو: «أنت بخيل» لم يكن كالفعل في إفادة التقوية؟

أقول: لما كان ضمير الوصف لا يتغير «تكلمًا، وخطابًا، وغيبة» فهو شبيه بالجوامد، وكانت تقويته قريبة من الفعل، لا مثلها تمامًا.

الباب الرابع

في المسند وأحواله[1]

المسند: هو الخبر، والفعل التام، واسم الفعل، والمبتدأ، الوصف المستغني بمرفوعه عن الخبر، وأخبار النواسخ، والمصدر النائب عن الفعل.

وأحواله هي: الذكر، والحذف، والتعريف، والتنكير، والتقديم، والتأخير، وغيرها. وفي هذا الباب ثلاثة مباحث:

(١) المبحث الأول: في ذكر المسند أو حذفه

يُذكر المسند للأغراض التي سبقت في ذكر المسند إليه، وذلك:

(١) ككون ذكره هو الأصل، ولا مقتضى للعدول عنه، نحو: العلم خير من المال.

(٢) وكضعف التعويل على دلالة القرينة، نحو: حالي مستقيم ورزقي ميسور «إذ لو حُذف «ميسور» لا يدل عليه المذكور».

(٣) وكضعف تنبُّه السامع، نحو: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ «إذ لو حُذف «ثابت» رُبما لا يتنبَّه السامع لضعف فهمه».

(٤) وكالرد على المخاطب، نحو: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ جوابًا لقوله تعالى: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾.

(٥) وكإفادة أنه «فعل» فيفيد التجدد والحدوث، ومقيَّدًا بأحد الأزمنة الثلاثة بطريق الاختصار، أو كإفادة أنه «اسم» فيفيد الثبوت مطلقًا، نحو: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾؛ فإنَّ «يخادعون» تفيد التجدد مرة بعد أخرى، مقيَّدًا بالزمان من غير افتقار

إلى قرينة تدل عليه كذكر «الآن أو الغد» وقوله: ﴿ووَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ تفيد الثبوت مطلقًا من غير نظر إلى زمان.

ويُحذف المسند لأغراض كثيرة:

(١) منها: إذا دلت عليه «قرينة» وتعلَّق بتركه غرض ممَّا مرَّ في حذف المسند إليه.

والقرينة: (أ) إمَّا مذكورة، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ أي: خلقهن الله.

(ب) وإما مقدَّرة، كقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ ...﴾ أي: يسبِّحه رجال، كأنه قيل: من يسبِّحه؟

(٢) ومنها الاحتراز عن العبث، نحو ﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ أي: ورسوله بريء منهم أيضًا، فلو ذكرهذا المحذوف لكان ذكره عبثًا لعدم الحاجة إليه.

(٣) ومنها ضيق المقام عن إطالة الكلام، كقول الشاعر:

نحن بما عندنا وأنت بما ... عندك راضٍ والرأي مختلف

«أي: نحن بما عندنا راضون، فحذف لضيق المقام».

(٤) ومنها اتباع ومجاراة ما جاء في استعمالاتهم «الواردة عن العرب» نحو: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ «أي: لولا أنتم موجودون»، وقولهم في المثل: «رمية من غير رامٍ» (أي: هذه رمية).

تمرين

عيِّن أسباب الحذف ونوع المحذوف في الأمثلة الآتية:

(١) نحو: ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(٢) وقال عليه الصلاة والسلام: «علامة المؤمن ثلاث: إذا حدَّث صدق، وإذا وعد وفى، وإذا اؤتمن لم يخن.»

(٣) وقال: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وإنما لك من مالك ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدقتَ فأبقيتَ.»

(٤) وقال: «إنَّ أَحبَّكم إليَّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسِنُكم أخلاقًا، الموطئون أكنافًا، الذين يَألفون ويُؤلفون.»

(٥) وقال أبو العتاهية:

جزى الله عني صالحًا بوفائه ... وأضعف أضعافًا له في جزائه
صديقٌ إذا ما جئت أبغيه حاجة ... رجعت بما أبغي، ووجهي بمائه

(٦) وقال أبو نواس:

إذا لم تزُرْ أرض الخصيب ركابنا ... فأي فتًى بعد الخصيب تزور
فتًى يشتري حسن الثناء بماله ... ويعلم أن الدائرات تدور
فإن تولني منك الجميل فأهله ... وإلا فإني عاذر وشكور

(٧) وقال البحتري يمدح الفتح بن خاقان:

رزين إذا القوم خفت حلومهم ... وقور إذا ما حادث الدهر أجلبا
فتًى لم يضيع وجه حزم ولم يَبِتْ ... يلاحظ أعجاز الأمور تَعقُّبا

(٨) وقال الشاعر:

مَنْ قاسَ جدواك يومًا ... بالسُّحْب أخطأ مَدْحَك
السُّحْبُ تُعطي وتبكي ... وأنت تُعطي وتضحك

(٩) وقال المتنبي:

ولما صار ودُّ الناس خِبًّا ... جَزَيْتُ على ابتسامٍ بابتسامِ
وصرتُ أشك فيمن أصطفيه ... لعلمي أنه بعضُ الأنامِ

(١٠) وقال:

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجود يفقر والإقدام قتَّال

(١١) وقال أبو فراس:

لا تطلبن دنوَّ دار   من خليل أو معاشِرْ
أَبْقَى لأسباب المود   ةِ أن تزور ولا تعاشِرْ

تدريب

عيِّن أسباب الذكر في الأمثلة الآتية:

(١) قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾.
(٢) وقال مروان بن أبي حفصة يمدح معن بن زائدة:

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم   أسود لها في بطن خفان أشبُل
هم يمنعون الجار حتى كأنما   لجارهم بين السِّماكين منزل

(٣) وقال السَّمَوْءَل بنُ عادِيَاء:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عِرْضُه   فكلُّ رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يحمل على النفس ضَيْمَها   فليس إلى حسن الثناء سبيلُ

(٤) وقال أبو العتاهية:

إذا أنت لم تشرب مِرارًا على القَذَى   ظَمِئْتَ وأيُّ الناس تَصْفو مشاربُه

(٥) وقال الشاعر:

الجِدُّ يدني كلَّ أمر شاسع   والجد يفتح كل باب مغلق

تمرين

(١) قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.
(٢) وقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾.
(٣) وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾.
(٤) وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

(٢) المبحث الثاني: في تعريف المسند أو تنكيره

(٢-١) تعريف المسند

لإفادة السامع حكمًا على أمر معلوم عنده بأمر آخر مثله بإحدى طرق التعريف، نحو: هذا الخطيب، وذاك نقيب الأشراف.

ولإفادة قصره على المسند إليه «حقيقة» نحو: «سعد الزعيم» إذا لم يكن زعيم سواه، أو «ادعاء» مبالغة لكمال معناه في المسند إليه، نحو «سعد الوطني»؛ أي الكامل الوطنية، فيخرج الكلام في صورة توهم أن الوطنية لم توجد إلا فيه؛ لعدم الاعتداد بوطنية غيره.

وذلك: إذا كان المسند «معرَّفًا بلام الجنس».[٢]

ويُنكَّرُ المسند لعدم الموجب لتعريفه، وذلك:

(١) لقصد إرادة العهد أو الحصر، نحو: أنت أمير، وهو وزير.
(٢) ولاتباع المسند إليه في التنكير، نحو: تلميذ واقف بالباب.
(٣) ولإفادة التفخيم، نحو: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾.
(٤) ولقصد التحقير، نحو: ما خالد رجلًا يُذكر.

(٣) المبحث الثالث: في تقديم المسند أو تأخيره

يقدم المسند إذا وُجد باعث على تقديمه، كأن يكون عاملًا، نحو: قام علي.

أو مما له الصدارة في الكلام، نحو: أين الطريق؟

أو إذا أُريد به غرض من الأغراض الآتية:

(١) منها التخصيص بالمسند إليه، نحو: ﴿لِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
(٢) ومنها التنبيه من أول الأمر على أنه خبر لا نعت، كقوله:

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجلُّ من الدهر
له راحة لو أن مِعشار جودها على البر كان البر أندى من البحر

فلو قيل: «همم له» لتوهم ابتداء كون «له» صفة لما قبله.
(٣) ومنها التشويق للمتأخر إذا كان في المتقدم ما يشوق لذكره، كتقديم المسند في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وكقوله:

خير الصنائع في الأنام صنيعة تنبو بحاملها عن الإذلال

(٤) ومنها التفاؤل: كما تقول للمريض: «في عافية أنت»، وكقوله:

سَعِدَتْ بِغُرَّةِ وجهِكَ الأيامُ وتزَيَّنَتْ بِلقائكَ الأعوامُ

(٥) ومنها إفادة قصر المسند إليه على المسند، نحو: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ «أي دِينكم مقصور عليكم، ودِيني مقصور عليَّ».
(٦) ومنها المساءة نكاية بالمخاطب، كقول المتنبي:

ومِن نَكَدِ الدنيا على الحُرِّ أن يرى عدوًّا له ما من صداقته بدُّ

(٧) ومنها تعجيل المسرة للمخاطب، أو التعجب، أو التعظيم، أو المدح، أو الذم، أو الترحم، أو الدعاء، نحو: لله دَرُّك، وعظيم أنت يا أللهُ، ونعم الزعيم سعد، وهلم جرًّا.
وبئس الرجل خليل، وفقير أبوك، ومبارك وصولك بالسلامة.
ويؤخر المسند؛ لأنَّ تأخيره هو الأصل، وتقديم المسند إليه أهم، نحو: الوطن عزيز.

وينقسم المسند من حيث الإفراد وعدمه إلى قسمين: مفرد وجملة.

فالمسند «المفرد» قسمان: فعل، نحو: قدم سعد؛ واسم، نحو: سعد قادم.
والمسند «الجملة» ثلاثة أنواع:

(١) أن يكون سببيًّا، نحو: خليل أبوه منتصر، أو أبوه انتصر، أو انتصر أبوه.
(٢) وأن يقصد تخصيص الحكم بالمسند إليه، نحو: أنا سعيت في حاجتك (أي: الساعي فيها أنا لا غيري).
(٣) وأن يقصد تأكيد الحكم، نحو: سعد حضر؛ وذلك لما في الجملة من تكرار الإسناد مرتين.

ويؤتى بالمسند ظرفًا للاختصار، نحو: خليل عندك.
وجارًّا ومجرورًا، نحو: محمود في المدرسة.

تمرين

بيِّن أسباب التقديم والتأخير فيما يأتي:

(١) ما كل ما فوق البسطية كافيًا فإذا قنعت فبعض شيء كافي

(٢) وما أنا وحدي قلت ذا الشعر كله ولكن شعري فيه من نفسه شعر

(٣) إذا شئت يومًا أن تسود عشيرة فبالحلم سُدْ لا بالتسرع والشتم

(٤) ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

(٥) أفي الحق أن يعطى ثلاثون شاعرًا ويحرم ما دون الرضا شاعر مثلي

(٦) فكيف وكلٌّ ليس يعدو حمامه وما لامرئ عما قضى الله مرحل

(٧) وقال الله تعالى: ﴿بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

(٨) بك اقتدت الأيام في حسناتها   وشيمتها لولاك همٌّ وتكريب

(١) قُدِّم حرف النفي وهو «ما» على لفظ العموم وهو «كل» ليدل على عموم السلب، والمعنى: لا يكفيك جميع ما على الأرض إذا كنت طامعًا.

(٢) إذا كان المسند فعلًا منفيًّا، ووسط المسند إليه بين الفعل وحرف النفي كما في هذا المثال وهو: «ما أنا قلت» دل ذلك على التخصيص، والمعنى: لست القائل لذلك الشعر وحدي، بل شاركني فيه غيري. ولذلك يعد من الخطأ الذي لا يستقيم معه معنًى أن تقول: «ما أنا فعلت هذا ولا غيري»؛ لأن معنى: «ما أنا فعلت» يفيد من نفسه نفي الفعل عنك وثبوته لغيرك. فقولك: «ولا غيري» يكون تناقضًا كما سبق بيانه.

(٣) قُدِّم الجار والمجرور في قوله: «بالحلم سد» ليدل على التخصيص؛ أي: إنك تسود بالحلم لا بغيره، وكذا إذا تقدم الظرف، وما أشبههما، مما رتبته التأخير كما سلف.

(٤) قُدِّم العدد؛ وهو ثلاثة، وأُخِّر المعدود؛ ليشوق إليه؛ لأن الإنسان إذا سمع العدد مجموعًا يشتاق إلى تفصيل آحاده.

(٥) قُدِّم الجار والمجرور بعد الاستفهام في قوله: «أفي الحق أن يعطى» ليدل على أن ذلك المقدم هو محط الإنكار، فتحليل المعنى أنه لا ينكر الإعطاء، ولكنه ينكر أن يعد ذلك حقًّا وصوابًا مع حرمانه هو.

(٦) قُدِّم أداة العموم على أداة السلب في قوله: «كلٌّ ليس يعدو» ليدل على عموم السلب؛ أي أن الناس واحدًا واحدًا يشملهم حكم الموت ولا مفر منه.

(٧) قُدِّم المفعول على الفعل في قوله: ﴿اللهَ فَاعْبُدْ﴾ ليدل على التخصيص؛ أي: اعبد الله ولا تعبد غيره.

(٨) قُدِّم الجار والمجرور على الفعل في قوله: «بك اقتدت» ليدل على التخصيص؛ أي أن الاقتداء كان بك لا بغيرك.

تطبيق عام على أحوال المسند

«لما صدِئَت مرآةُ الجنان قصدت لجلائها بعض الجنان» الجملة الشرطية لا تعتبر إلا بجوابها وهو «قصدت» وهي خبرية فعلية من الضرب الابتدائي، والمراد بها أصل الفائدة، المسند قصد، ذُكر؛ لأن ذكره الأصل، وقُدم لإفادة الحدوث في الزمن الماضي مع الاختصار،

والمسند إليه التاء، ذُكر؛ لأن الأصل فيه ذلك، وأُخِّر لاقتضاء المقام تقديم المسند، وعرف بالإضمار لكون المقام للتكلم مع الاختصار.

«كأنه الكوثر الفياض» جملة خبرية اسمية من الضرب الابتدائي، والمراد بها المدح، فهي تفيد الاستمرار بقرينة المدح. المسند إليه الهاء، ذُكِّر وقُدِّم؛ لأن الأصل فيه ذلك، وعُرِّف بالإضمار لكون المقام للغيبة مع الاختصار، والمسند الكوثر ذكر وأخر؛ لأن الأصل فيه ذلك، وعُرِّف بأل للعهد الذهني.

«كتاب في صحائفه حكم» التنكير في هذه الجملة للتعظيم.

«ما هذا الرجل إنسانًا» نكر المسند «إنسانًا» للتحقير.

«له همم لا منتهى لكبارها» المسند له قُدم لإفادة أنه خبر من أول الأمر، فإنه لو تأخر لتُوُهِّم أنه صفة المسند إليه؛ لأنه نكرة.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ قدم المسند «كفوًا» على المسند إليه «أحد» للمحافظة على الفاصلة على رأي بعضهم، والمنصوص عليه في كتب التفسير المعتبرة أن التقديم للمبادرة إلى نفي المثل.

«زهرة العلم أنضر من زهرة الروضة» جملة خبرية اسمية من الضرب الابتدائي، يُراد بها الاستمرار بقرينة المدح. المسند إليه زهرة العلم، ذكر عدم لأن الأصل فيه ذلك، وعُرف بالإضافة إلى العلم لتعظيمه، والمسند أنضر، ذُكر وأُخر؛ لأن الأصل فيه ذلك، ونكر لتعظيمه.

«غلامي سافر – أخي ذهبت جاريته – أنا أحب المطالعة – الحق ظهر – الغضب آخره ندم.» أُتي بالمسند في هذه المثل جملة لتقوية الحكم لما فيها من تكرار الإسناد.

أسئلة على أحوال المسند يُطلب أجوبتها

ما هو المسند؟ ما هي أحواله؟ لأي شيء يُذكر المسند؟ لأي شيء يُحذف؟ لِمَ يُقدم؟ لِمَ يُؤخر؟ لِمَ يُعرَّف؟ لم يُنكَّر؟ لِمَ يُؤتى به جملة؟

هوامش

(١) وإنما ذكر المسند بعد المسند إليه؛ لأن المسند محكوم به والمسند إليه محكوم عليه، والمحكوم به مؤخر عن المحكوم عليه طبعًا؛ فاستحق ذلك الترتيب وضعًا.

ومبحث الذكر لم يتعرض له كثير كأبي هلال العسكري، والإمام عبد القاهر، ولعله يتعلق كثيرًا بالنحو لا بالبلاغة.

(٢) على أن التعريف بلام الجنس لا يفيد أحيانًا القصر، كقول الخنساء:

إذا قبح البكاء على قتيل   وجدت بكاءك الحسن الجميل

فالخنساء: لا تقصد قصر الجنس على بكاء قتيلها، ولكنها تريد أن تثبت له، وتخرجه من جنس بكاء غيره من القتلى، فهو ليس من القصر في شيء.

الباب الخامس

في الإطلاق والتقييد[1]

إذا اقتصر في الجملة على ذكر جزأيها «المسند إليه والمسند» فالحكم «مطلق» وذلك حين لا يتعلق الغرض بتقييد الحكم بوجه من الوجوه؛ ليذهب السامع فيه كل مذهب ممكن.

وإذا زيد عليهما شيء مما يتعلق بهما أو بأحدهما فالحكم «مقيد» وذلك حيث يراد زيادة الفائدة وتقويتها عند السامع؛ لما هو معروف من أن الحكم كلما كثرت قيوده ازداد إيضاحًا وتخصيصًا، فتكون فائدته أتم وأكمل، ولو حُذف القيد لكان الكلام كذبًا أو غير مقصود، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾، فلو حُذف الحال وهو «لاعبين» لكان الكلام كذبًا، بدليل المشاهدة والواقع.

ونحو قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾؛ إذ لو حُذف «يكاد» لفات الغرض المقصود، وهو إفادة المقاربة.

واعلم أن معرفة خواص التراكب وأسرار الأساليب وما فيها من دقيق الوضع، وباهر الصنع، ولطائف المزايا — يسترعي لُبك إلى أن التقييد بأحد الأنواع الآتية يكون لزيادة الفائدة وتقويتها عند السامع؛ لما هو معروف من أن الحكم كلما ازدادت قيوده ازداد إيضاحًا وتخصيصًا.

والتقييد يكون بالتوابع، وضمير الفصل، والنواسخ، وأدوات الشرط والنفي، والمفاعيل الخمسة، والحال، والتمييز، وفي هذا الباب جملة مباحث.[2]

(١) المبحث الأول: في التقييد بالنعت

أما النعت فيؤتى به للمقاصد والأغراض التي يدل عليها:

(أ) منها: تخصيص المنعوت بصفة تميزه إن كان نكرة، نحو: جاءني رجل تاجر.
(ب) ومنها: توضيح المنعوت إذا كان معرفة لغرض:

(١) الكشف عن حقيقته، نحو: الجسم الطويل العريض يشغل حيِّزًا من الفراغ.
(٢) أو التأكيد، نحو: تلك عشرة كاملة، وأمسِ الدَّابرُ كان يومًا عظيمًا.
(٣) أو المدح، نحو: حضر سعد المنصور.
(٤) أو الذم، نحو: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾.
(٥) أو الترحم، نحو: قَدِم زيد المسكين.

(٢) المبحث الثاني: في التقييد بالتوكيد

أما التوكيد فيؤتى به للأغراض التي يدل عليها، فيكون:

(١) لمجرد التقرير، وتحقيق المفهوم عند الإحساس بغفلة السامع، نحو: جاء الأميرُ الأميرُ.
(٢) وللتقرير مع دفع توهم خلاف الظاهر، نحو: جاءني الأمير نفسه.
(٣) وللتقرير مع دفع توهم عدم الشمول، نحو: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.
(٤) ولإرادة انتقاش معناه في ذهن السامع، نحو: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾.

(٣) المبحث الثالث: في التقييد بعطف البيان

أما عطف البيان: فيؤتى به للمقاصد والأغراض التي يدل عليها، فيكون:

(أ) لمجرد التوضيح للمتبوع باسم مختص به،[٣] نحو: أقسم بالله أبو حفص عمر.
(ب) وللمدح: كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ فالبيت الحرام عطف بيان؛ للمدح.

(٤) المبحث الرابع: في التقييد بعطف النسق

أما عطف النسق، فيؤتى به للأغراض الآتية:

(١) لتفصيل المسند إليه باختصار، نحو: «جاء سعد وسعيد» فإنه أخصر من: «جاء سعد وجاء سعيد»، ولا يعلم منه تفصيل المسند؛ لأن الواو لمطلق الجمع.

(٢) ولتفصيل المسند مع الاختصار أيضًا، نحو: «جاء نصر فمنصور»[٤] أو «ثم منصور» أو «جاء الأمير حتى الجند»؛ لأن هذه الأحرف الثلاثة مشتركة في تفصيل المسند، إلا أن الأول: يفيد الترتيب مع التعقيب، والثاني: يفيد الترتيب مع التراخي، والثالث: يفيد ترتيب أجزاء ما قبله، ذاهبًا من الأقوى إلى الأضعف، أو بالعكس، نحو: «مات الناس حتى الأنبياء».

(٣) ولرد السامع إلى الصواب مع الاختصار، نحو: «جاء نصر لا منصور» أو: «لكن منصور».

(٤) ولصرف الحكم إلى آخر، نحو: «ما جاء منصور بل نصر».

(٥) وللشك من المتكلم أو التشكيك للسامع، أو للإبهام، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

(٦) وللإباحة أو التخيير.

مثال الأول: تعلَّمْ نحوًا أو صرفًا، أو نحو: تعلَّمْ إما صرفًا وإما نحوًا.

ومثال الثاني: تزوج هندًا أو أختها، أو نحو: تزوج إما هندًا وإما أختها.

(٥) المبحث الخامس: في التقييد بالبدل

أما البدل: فيؤتى به للمقاصد والأغراض التي يدل عليها، ويكون لزيادة التقرير والإيضاح؛ لأن البدل مقصود بالحكم بعد إبهام.

نحو: «حضر ابني علي» في «بدل الكل».

ونحو: «سافر الجند أغلبه» في «بدل البعض».

ونحو: «نفعني الأستاذ علمه» في «بدل الاشتمال».

ونحو: «وجهك بدر شمس» في «بدل الغلط».[٥]

وذلك لإفادة المبالغة التي يقتضيها الحال.

(٦) المبحث السادس: في التقييد بضمير الفصل

يُؤتى بضمير الفصل لأغراض كثيرة:

(١) منها التخصيص، نحو ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾.

(٢) ومنها تأكيد التخصيص إذا كان في التركيب مخصص آخر، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

(٣) ومنها تمييز الخبر عن الصفة، نحو: «العالم هو العامل بعلمه».

(٧) المبحث السابع: في التقييد بالنواسخ

التقييد بها يكون للأغراض التي تؤديها معاني ألفاظ النواسخ كالاستمرار لحكاية الحال الماضية في «كان».[٦]

وكالتوقيت بزمن معين في «ظل، وبات، وأصبح، وأمسى، وأضحى».

وكالتوقيت بحالة معينة في «ما دام».

وكالمقاربة في «كاد، وكرب، وأوشك».

وكالتأكيد في «إنَّ وأنَّ».

وكالتشبيه في «كأنَّ».

وكالاستدراك في «لكنَّ».

وكالرجاء في «لعلَّ».

وكالتمني في «ليت».

وكاليقين في «وجد، وألفَى، ودرَى، وعلم».

وكالظن في «خال، وزعم، وحسب».

وكالتحول في «اتخذ، وجعل، وصير».

(٨) المبحث الثامن: في التقييد بالشرط

التقييد به يكون للأغراض التي تؤديها معاني أدوات الشرط؛ كالزمان في «متى وأيان»، والمكان في «أين، وأنى، وحيثما»، والحال في «كيفما». واستيفاء ذلك وتحقيق الفرق بين تلك الأدوات يُذكر في علم النحو.

وإنما يُفرق هنا بين «إنْ، وإذا، ولو» لاختصاصها بمزايا تُعد من وجوه البلاغة.

(٨-١) الفرق بين «إنْ، وإذا، ولو»

الأصل عدم جزم وقطع المتكلم بوقوع الشرط في المستقبل مع «إنْ».

ومن ثمَّ كثُرَ أن تُستعمل «إنْ» في الأحوال التي يندر وقوعها، ووجب أن يتلوها لفظ «المضارع» لاحتمال الشك في وقوعه،[٧] بخلاف «إذا» فتُستعمل بحسب أصلها في كل ما يقطع المتكلم بوقوعه في المستقبل، ومن أجل هذا لا تُستعمل «إذا» إلا في الأحوال الكثيرة الوقوع، ويتلوها «الماضي» لدلالته على الوقوع والحصول قطعًا.

كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ فلكون مجيء الحسنة منه تعالى محققًا ذُكر هو والماضي مع «إذا»، وإنما كان ما ذُكر محققًا؛ لأن المراد بها مطلق الحسنة الشامل لأنواع كثيرة: من خِصب، ورخاء، وكثرة أولاد، كما يفهم من التعريف بأل الجنسية في لفظة «الحسنة» ولكون مجيء السيئة نادرًا ذُكر هو والمضارع مع «أن».

وإنما كان ما ذكر نادرًا؛ لأن المراد بها نوع قليل، وهو جدب وبلاء كما يُفهم من التنكير في «سيئة» على التقليل.

ولو: للشرط في الماضي مع الجزم والقطع بانتفائه، فيلزم انتفاء الجزاء. على أن الجزاء كان يمكن أن يقع لو وُجد الشرط، ويجب كون جملتيها فعليتين ماضويتين، نحو: لو أتقنت عملك لبلغت أملك.

وتسمى «لو» حرف امتناع لامتناع، كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ ونحو: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي انتفت هدايته إياكم بسبب انتفاء مشيئته لها.

تنبيهات

الأول: عُلم مما تقدم أن المقصود بالذات من الجملة الشرطية هو الجواب، فإذا قلت: «إن اجتهد فريد كافأته» كنت مخبرًا بأنك ستكافئه، ولكن في حال حصول الاجتهاد، لا في عموم الأحوال.[٨]

ويتفرع على هذا أنها تعد خبرية أو إنشائية باعتبار جوابها.

الثاني: ما تقدم من الفرق بين «إن» و«إذا» هو مقتضى الظاهر، وقد يخرج الكلام على خلافه، فتستعمل «إن» في الشرط المقطوع بثبوته أو نفيه؛ لأغراض كثيرة:

(أ) كالتجاهل، نحو قول المعتذر: «إن كنت فعلت هذا فعن خطأ.»

(ب) وكتنزيل المخاطب العالم منزلة الجاهل لمخالفته مقتضى علمه، كقولك للمتكبر توبيخًا له: «إن كنت من تراب فلا تفتخر.»

(ج) وكتغليب غير المتصف بالشرط على المتصف به، كما إذا كان السفر قطعيَّ الحصول لسعيد، غير قطعي لخليل، فتقول: «إن سافرتما كان كذا.»[٩]

وقد تستعمل «إذا» في الشرط المشكوك في ثبوته أو نفيه؛ لأغراض:

(أ) منها: الإشعار بأن الشك في ذلك الشرط لا ينبغي أن يكون مشكوكًا فيه، بل ينبغي أن يكون مجزومًا به، نحو: «إذا كثر المطر في هذا العام أخصب الناس.»

(ب) ومنها: تغليب المتصف بالشرط على غير المتصف به، نحو: «إذا لم تسافر كان كذا»؛ وهلم جرًّا من عكس الأغراض التي سبقت.

الثالث: لما كانت «إنْ» و«إذا» لتعليق الجزاء على حصول الشرط في المستقبل وجب أن يكون شرط وجزاء كل منهما جملة فعلية استقبالية لفظًا ومعنًى، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾.

ونحو:

والنفس راغبة إذا رغَّبتَها   وإذا تُرَدُّ إلى قليل تَقْنَعُ

ولا يُعدل عن استقبالية الجملة لفظًا ومعنًى إلى استقباليتها معنًى فقط إلا لدواعٍ غالبًا.

(أ) منها: التفاؤل، نحو: «إنْ عشت فعلت الخير».[١٠]

(ب) ومنها: تخيُّل إظهار غير الحاصل «وهو الاستقبال» في صورة الحاصل «وهو الماضي»، نحو: «إنْ مت كان ميراثي للفقراء».

الرابع: عُلم مما تقدم من كون «لو» للشرط في الماضي لزوم كون جملتي شرطها وجزائها فعليتين ماضويتين، وعدم ثبوتهما، وهذا هو مقتضى الظاهر، وقد يخرج الكلام على خلافه فتستعمل «لو» في المضارع لدواعٍ اقتضاها المقام، وذلك:

(أ) كالإشارة إلى أن المضارع الذي دخلت عليه يُقصَد استمراره فيما مضى، وقتًا بعد وقت، وحصوله مرة بعد أخرى، كقوله تعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾.[11]

(ب) وكتنزيل المضارع منزلة الماضي؛ لصدوره عمن المستقبل عنده كالماضي في تحقق الوقوع، ولا تخلف في أخباره، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.[12]

(٩) المبحث التاسع: في التقييد بالنفي

التقييد بالنفي: يكون لسلب النسبة على وجه مخصوص مما تفيده أحرف النفي السبعة، وهي: لا، وما، ولات، وإن، ولن، ولم، ولمَّا.

«فلا» للنفي مطلقًا. و«ما، وإن، ولات» لنفي الحال إن دخلت على المضارع. و«لن» لنفي الاستقبال. و«لم، ولما» لنفي المضي، إلا أنه «بلمَّا» ينسحب إلى ما بعد زمن التكلم، ويختص بالمتوقع، وعلى هذا فلا يقال: «لمَّا يقُمْ خليل ثم قام» ولا: «لمَّا يجتمع النقيضان» كما يقال: «لم يقم عليٌّ ثم قام، ولم يجتمع الضدان»، فلمَّا في النفي تقابل «قد» في الإثبات، وحينئذ يكون منفيُّها قريبًا من الحال، فلا يصح: «لمَّا يجئْ خليل في العام الماضي».

(١٠) المبحث العاشر: في التقييد بالمفاعيل الخمسة ونحوها

التقييد بها يكون لبيان نوع الفعل، أو ما وقع عليه، أو فيه، أو لأجله، أو بمقارنته، ويُقيد بالحال لبيان هيئة صاحبها وتقييد عاملها، ويقيَّد بالتمييز لبيان ما خفي من ذات أو نسبة، فتكون القيود هي محط الفائدة.

والكلام بدونها كاذب، أو غير مقصود بالذات، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾.

وقد سبق القول في أول الباب مفصلًا، فارجع إليه إن شئت.

تنبيهات

الأول: عُلم مما تقدم أن التقييد بالمفاعيل الخمسة ونحوها للأغراض التي سبقت، وتقييدها إذا كانت «مذكورة».

أما إذا كانت محذوفة فتفيد أغراضًا أخرى:

(١) منها: التعميم باختصار، كقوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾؛ «أي جميع عباده» لأن حذف المعمول يؤذن بالعموم[١٣] «ولو ذُكر لفات غرض الاختصار المناسب لمقتضى الحال».

(٢) ومنها: الاعتماد على ما تقدم ذكره، كقوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾؛ أي ويثبت ما يشاء.

(٣) ومنها: طلب الاختصار، نحو: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي يغفر الذنوب.

(٤) ومنها: استهجان التصريح به، نحو: «ما رأيت منه ولا رأى منِّي»؛ أي العورة.

(٥) ومنها: البيان بعد الإبهام، كما في حذف مفعول فعل المشيئة،[١٤] ونحوها[١٥] إذا وقع ذلك الفعل شرطًا فإنَّ الجواب يدل عليه، ويبيِّنه بعد إبهامه، فيكون أوقع في النفس، ويُقدر المفعول مصدرًا من فعل الجواب، نحو: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ﴾؛ أي: فمن شاء الإيمان.

(٦) ومنها: المحافظة على سجع، أو وزن.

فالأول كقوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ إذ لو قيل: يخشى الله لم يكن على سنن رءوس الآي السابقة.

والثاني كقول المتنبي:

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا ... وموج المنايا حولها متلاطم

أي: فأعلاها.

(٧) ومنها: تعين المفعول، نحو: رعت الماشية «أي نباتًا».

ومنها: تنزيل المتعدي منزلة اللازم لعدم تعلق الغرض بالمعمول، بل يجعل المفعول منسيًّا، بحيث لا يكون ملحوظًا مقدرًا، كما لا يلاحظ تعلق الفعل به أصلًا، كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.[١٦]

الثاني: الأصل في العامل أن يُقدَّم على المعمول، وقد يُعكَس فيُقدَّم المعمول على العامل لأغراض شتى:

(١) منها: التخصيص، نحو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.[١٧]

(٢) ومنها: رد المخاطب إلى الصواب عند خطئه في تعين المفعول، نحو: «نصرًا رأيت» ردًّا لمن اعتقد أنك رأيت غيره.

(٣) ومنها: كون المتقدم[١٨] محط الإنكار مع متعجب، نحو: «أبعد طول التجربة تنخدع بهذه الزخارف».

(٤) ومنها: رعاية موازاة رءوس الآي نحو: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ وهلم جرًّا من بقية الأغراض التي سبقت.

تطبيق عام على الإطلاق والتقييد

إذا كنتَ في نعمةٍ فارْعَها   فإن المعاصي تُزِيلُ النِّعَم

جملة «فارعها» إنشائية أمرية، والأمر مستعمل في أصل معناه. المسند إليه أنت، وهي مقيدة بالمفعول به لبيان ما وقع عليه الفعل، ومقيدة بالشروط للتعليق، وكانت أداة الشرط «إذا» لتحقق الحصول.

«فإن المعاصي تزيل النعم» جملة خبرية اسمية من الضرب الثالث، والمرور بالخبر للتحذير من المعاصي. المسند إليه «المعاصي»، والمسند جملة «تزيل»، وأُتي به جملة؛ لتقوية الحكم بتكرار الإسناد، وقُيد بالمفعول به «النعم» لبيان ما وقع عليه الفعل، والحكم مقيد بإن للتوكيد.

«إن اجتهد خليل أكرمته» الجملة «أكرمته»، وهي جملة خبرية فعلية من الضرب الابتدائي. المسند أكرم، والمسند إليه التاء، وهي مقيدة بالمفعول به لبيان ما وقع عليه الفعل، وبالشرط للتعليق، وكانت أداة الشرط «إن» لعدم الجزم بوقوع الفعل.

وأصابت تلك الربى عين شمس   أورثتها من لونها اصفرارًا
كلما جال طرفها تترك النا   س سكارى وما هم بسكارى

«وأصابت تلك الربى» جملة خبرية فعلية من الضرب الابتدائي، والمراد بالخبر أصل الفائدة.

المسند أصاب، ذُكر؛ لأن الأصل فيه ذلك، وقُدم لإفادة الحدوث في الزمن الماضي مع الاختصار.

والمسند إليه عين شمس، وذُكر؛ لأن الأصل فيه ذلك، وأُخر لاقتضاء المقام تقديم المسند، وخصص بالإضافة لتعينها طريقًا لإحضار معناه في ذهن السامع.

والمضاف إليه «شمس» قيد بالصفة «أورثتها من لونها»؛ لأنها في محل جر صفة شمس للتخصيص، وقيد الحكم بالمفعول به «تلك» لبيان ما وقع عليه الفعل، وعرف المفعول به بالإشارة لبيان حاله في البعد، وقيد المفعول بالبدل «الربى» لتقدير حاله في نفس السامع. «تترك الناس سكارى» هي الجملة الرئيسية؛ لأن الشرطية لا تعتبر إلا بجوابها، وهي جملة خبرية اسمية من الضرب الابتدائي، والمراد بالخبر التفخيم.

المسند إليه الناس، ذُكر وقُدم؛ لأن الأصل فيه ذلك، وعُرِّف بأل للعهد الذهني؛ لأن المراد بالناس، الذين نظروا إليها.

والمسند سكارى، ذُكر وأُخر؛ لأن الأصل فيه ذلك، ونكر للتهويل، والحكم مقيد «بتترك» لإفادة التحويل، وبالشرط للتعلق. كانت أداة الشرط «كلما» لإفادة التكرار.

«وما هم بسكارى» جملة خبرية اسمية من الضرب الثالث، والمراد بالخبر أصل الفائدة، والمسند إليه هم، والمسند سكارى، والحكم مقيد بما لنفي الحال.

لا تيأسن وكن بالصبر معتصمًا   لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

«لا تيأسن» جملة إنشائية نهيية، والمراد بالنهي الإرشاد. المسند لا تيأس، والمسند إليه أنت.

و«كن بالصبر معتصمًا» أصلها: «أنت معتصم بالصبر» وهي جملة إنشائية أمرية، والمراد بالأمر الإرشاد أيضًا. المسند إليه الضمير المستتر في كن، والمسند معتصمًا، والحكم مقيد «بالصبر» لبيان ما وقع عليه الفعل، وبالأمر «كن» لإفادة التوقيت بالاستقبال.

«لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا» أصلها «لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبر» وهي جملة خبرية فعلية من الضرب الابتدائي، والمراد بالخبر الحث على الصبر. المسند تبلغ والمسند إليه أنت، الحكم مقيد بلن للنفي في المستقبل، وبالجار والمجرور لبيان غاية الفعل.

عسى الكرب الذي أمسيت فيه   يكون وراءه فرج قريب

في البيت جملة إنشائية، غير طلبية، وهي اسمية من الضرب الثالث لما فيها من تقوية الحكم بتكرار الإسناد.

المسند إليه «الكرب» ذُكر وقُدم؛ لأن الأصل فيه ذلك، وعُرف بأل للعهد الذهني، وقُيد بالنعت «الذي أمسيت فيه» لتوضيحه، والمسند يكون ... إلخ، والحكم مقيد بعسى لإفادة الرجاء.

وأما جملة النعت «الذي أمسيت» فيه فهي جملة خبرية اسمية من الضرب الابتدائي، المسند إليه فيها التاء، والمسند الجار والمجرور، والحكم مقيد بأمسى لإفادة المساء.

وجملة الخبر «يكون وراءه فرج قريب» جملة خبرية اسمية من الضرب الابتدائي. المسند إليه فيها «فرج» ذُكر؛ لأن الأصل فيه ذلك، وأخر لضرورة النظم، وقُيد بالنعت «قريب» لإفادة القرب، والمسند وراءه، ذكر؛ لأن الأصل فيه ذلك، وقُدم للضرورة، والحكم مقيد بالناسخ «يكون» لإفادة الاستقبال.

يوشك من فر من منيته　　　في بعض غراته يوافقها

أصل الجملة «يوشك من فر من منيته يوافقها في بعض غراته» وهي جملة خبرية اسمية من الضرب الثالث، والمراد بها التيئيس من الخلود في هذه الدنيا.

المسند إليه «من» ذُكر وقُدم؛ لأن الأصل فيه ذلك، وعُرف بالموصولية لعدم العلم بما يخصه غير الصلة، والمسند جملة يوافقها، ذُكر وأُخر؛ لأن الأصل فيه ذلك، وأُتي به جملة لتقوية الحكم، وقُيد بالجار والمجرور لبيان زمنه، والحكم مقيد بالناسخ «يوشك» لإفادة المقاربة.

إن الـثـمـانـيـن وبُـلِّـغْـتُـهـا　　　قد أحوجَتْ سَمعي إلى تَرْجُمان

«إن الثمانين قد أحوجت» جملة خبرية اسمية من الضرب الثالث، والمراد بها إظهار الضعف.

المسند إليه «الثمانين» ذُكر وقُدم؛ لأن الأصل فيه ذلك، وعُرف بأل للعهد الذهني، والمسند «قد أحوجت» ذُكر وأُخر؛ لأن الأصل فيه ذلك، وأُتي به جملة لتقوية الحكم، والحكم مقيد بإن وقد للتوكيد.

وأما قوله: «وبلغتها» فهي جملة معترضة للدعاء، وهي جملة خبرية فعلية من الضرب الابتدائي. المسند إليه التاء، والمسند بلغ، والحكم مقيد بالمفعول به لبيان ما وقع عليه الفعل.

أسئلة على الإطلاق والتقييد يطلب أجوبتها

ما هو الإطلاق؟ ما هو التقييد؟ متى يكون الإطلاق؟ متى يكون التقييد؟ لماذا يقيد بالنعت؟ لماذا يقيد بالتوكيد؟ لماذا يقيد بعطف النسق؟ لماذا يقيد بالبدل؟ لماذا يقيد بالمفاعيل الخمسة؟ لماذا يقيد بالحال؟ لماذا يقيد بالتمييز؟ لماذا يقيد بالنواسخ؟ لماذا يقيد بضمير الفصل؟ ما الفرق بين «إن، وإذا، ولو»؟ ما المقصود من الجملة الشرطية؟ هل يمكن أن تُستعمل «إن» في مقام الجزم بوقوع الشرط؟ هل يمكن أن تُستعمل «إذا» في مقام الشك؟ هل يمكن أن تُستعمل «لو» مع المضارع؟ لماذا يقيد بالنفي؟

هوامش

(١) الإطلاق والتقييد: وصفان للحكم.

فالإطلاق أن يقتصر في الجملة على ذكر «المسند والمسند إليه» حيث لا غرض يدعو إلى حصر الحكم ضمن نطاق معين بوجه من الوجوه، نحو: «الوطن عزيز».

والتقييد أن يزاد على المسند والمسند إليه شيء يتعلق بهما، أو بأحدهما، مما لو أُغفِل لفاتت الفائدة المقصودة، أو كان الحكم كاذبًا، نحو: «الولد النجيب يسر أهله».

(٢) اعلم أن التقييد يكون لتمام الفائدة؛ لما تقرر من أن الحكم كلما زاد قيده زاد خصوصية، وكلما زاد خصوصية زادت فائدته، لا فرق بين مسند إليه أو مسند أو غيرهما، كما لا فرق بين تقييده بالتوابع أو غيرها.

(٣) يكفي في التوضيح أن يوضح الثاني الأول عند الاجتماع، وإن لم يكن أوضح منه عند الانفراد، نحو: «علي زين العابدين» ونحو: «عسجد ذهب».

(٤) قد تجيء الفاء للتعقيب في الذكر دون الزمان، إما مع ترتيب ذكر الثاني على الأول، كما في تفصيل الإجمال في قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ ونحو قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

وإما بدون ترتيب؛ وذلك عند تكرير اللفظ الأول، نحو: «بالله – فبالله».

وقد تجيء ثم للتراخي في الذكر دون الزمان، إما مع الترتيب المذكور، نحو:

إن من ساد ثم ساد أبوه ثم ساد قبل ذلك جده

ونحو:

هو الكلب وابن الكلب جده ولا خير في كلب تناسل من كلب

فإن الغرض ترتيب درجات حال الممدوح في البيت الأول، فابتدأ بسيادته، ثم بسيادة أبيه، ثم بسيادة جده.

وإما بدون ترتيب، نحو: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ولاستبعاد مضمون جملة عن مضمون جملة أخرى، نحو: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ فنزلوا الترتيب في هذه الأمور منزلة الترتيب الزماني المستفاد منها بأصل الوضع؛ ولذا يكون استعمالها في هذه الأمور مجازًا.

(٥) لكن الحق الذي عليه الجمهور أن بدل الغلط لا يقع في كلام البلغاء.

(٦) فالجملة تنعقد من الاسم والخبر، أو من المفعولين اللذين أصلهما مبتدأ وخبر، ويكون الناسخ قيدًا، فإذا قلت: «رأيت الله أكبر كل شيء» فمنعاه: «الله أكبر كل شيء» على وجه العلم واليقين؛ وهكذا.

(٧) ولذا لا يقال: «إن طلعت الشمس أزرك» لأن طلوع الشمس مقطوع بوقوعه، وإنما يقال: «إذا طلعت الشمس أزورك» قال أبو تمام:

إن يكن في الأرض شيء حسن فهو في دور بني عبد الملك

(٨) قال السكاكي: قد يقيَّد الفعل بالشرط لاعتبارات تستدعي التقييد به، ولا يخرج الكلام بتقييده عما كان عليه من الخبرية والإنشائية؛ فالجزاء إن كان خبرًا فالجملة خبرية، نحو: «إن جئتني أكرمك»؛ أي: أكرمك لمجيئك، وإن كان إنشاء فالجملة إنشائية، نحو: «إن جاءك خليل فأكرمه»؛ أي: أكرمه وقت مجيئه، فالحكم عنده في الجمل المصدرة بإن وأمثالها في الجزاء، وأما نفس الشرط فهو قيد للمسند فيه، وقد أخرجته الأداة عن الخبرية واحتمال الصدق والكذب.

(٩) أي: ففيه تغليب لمن لم يقطع له بالسفر على من قطع له به؛ فاستعملت «إن» في المجزوم، وهو من قُطع له به بسبب تغليبه على من لم يُقطع له به، وهذا السبب مساغ لذكر «إن». واعلم أن التغليب (الذي هو أن يُعطَى أحد المصطحبَيْن أو المتشاكلَيْن حكم الآخر) باب واسع يجري في أساليب كثيرة لنكات عديدة، سمحت بها المطولات في هذا المقام.

واعلم أيضًا: أن المقصود بالذات من جملتي الشرط والجواب هو جملة الجواب فقط، وأما جملة الشرط فهي قيد لها، فإذا قلت: «إن زارني سليم أكرمته» فالمقصود أنك ستكرم سليمًا، ولكن في حال زيارته لك، فتعد الجملة اسمية أو فعلية أو خبرية أو إنشائية باعتبار الجواب كما سبق توضيحه مفصلًا، فارجع إليه إن شئت.

(١٠) وقد تستعمل «إنْ» في غير الاستقبال لفظًا ومعنى؛ وذلك فيما إذا قُصد بها تعليق الجزاء على حصول الشرط الماضي حقيقة، كقول أبي العلاء المعري:

فيا وطني إن فاتني بك سابق ... من الدهر فلينعم بساكنك البال

وقد تستعمل «إذا» أيضًا في الماضي حقيقة نحو: ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾، وللاستمرار نحو: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾.

(١١) أي: امتنع عنتكم؛ أي: وقوعكم في جهد وهلاك بسبب امتناع استمراره فيما مضى على إطاعتكم.

(١٢) نزَّل «وقوفهم على النار في يوم القيامة» منزلة الماضي، فاستعمل فيه «إذ» ولفظ الماضي، وحينئذ فكان الظاهر أن يقال: «ولو رأيت» بلفظ الماضي، لكن عدل عنه إلى المضارع؛ تنزيلًا للمستقبل الصادر عمن لا خلاف في خبره منزلة الماضي الذي عُلم. وتحقيق معناه كأنه قيل: قد انقضى هذا الأمر وما رأيته، ولو رأيته لرأيت أمرًا فظيعًا.

(١٣) أي: ما لم يكن تعلق فعل المشيئة بالمفعول غريبًا كقوله:

فلو شئت أن أبكي دمًا لبكيته ... عليه ولكن ساحة الصبر أوسع
وأعددته ذخرًا لكل ملة ... وسهم المنايا بالذخائر أولع

فإن تعلق فعل المشيئة ببكاء الدم غريب؛ فلذا لم يحذف المفعول؛ ليتقرر في نفس السامع.

(١٤) هذا التعميم وإن أمكن بذكر المفعول على صيغة العام، لكن يفوت الاختصار المطلوب.

(١٥) أي: ما يرادفها في المعنى كالإرادة والمحبة.

(١٦) أي: فالغرض مجرد إثبات العلم ونفيه، بدون ملاحظة تعلقه بمعلوم عام أو خاص ... والمعنى: لا يستوي من ثبتت له حقيقة العلم ومن لم تثبت له، فلو قُدر له مفعول، وقيل: «هل يستوي الذين يعلمون الدين والذين لا يعلمونه» — لفات هذا الغرض.

(١٧) وذلك لأن المناسب لمقام عرض العبادة له تعالى تخصيصها به، لا مجرد الإخبار بأن العبادة له، فاستفادة التخصيص من التقديم إنما هي بحسب المقام، لا بأصل الوضع.

(١٨) أي: فيكون التقديم للتبرك، والتلذذ، وموافقة كلام السامع، والاهتمام، وضرورة الشعر؛ وغير ذلك.

واعلم أن اختلاف الترتيب بين المعمولات: إما لأمر معنوي، نحو ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ فلو أخر المجرور لتوهم أنه من صلة الفاعل، والمراد كونه من صلة فعله.

وإما لأمر لفظي، نحو: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ فلو قدم الفاعل لاختلفت الفواعل؛ لأنها مبنية على الألف. وقد يتقدم بعض المفاعيل على بعض إما لأصالته في التقدم لفظًا، نحو: «حسبت زيدًا كريمًا» فإن زيدًا وإن كان مفعولًا في الحال، لكنه مبتدأ في الأصل. أو معنًى، نحو: «أعطى زيد عمرًا درهمًا» فإن عمرًا وإن كان مفعولًا بالنسبة إلى زيد، لكنه لا يخلو من معنى الفاعلية بالنسبة إلى الدرهم؛ لأنه آخذه، والدرهم مأخوذ.

الباب السادس

في أحوال متعلقات الفعل

متعلقات الفعل كثيرة، منها:

المفعول، والحال، والظرف، والجار والمجرور، وهذه «المتعلقات» أقل في الأهمية من «ركني الجملة» ومع ذلك فقد تتقدم عليهما أو على أحدهما.

فيقدَّم المفعول لأغراض، أهمها:

(١) تخصيصه بالفعل.
(٢) موافقة المخاطب أو تخطئته.
(٣) الاهتمام بالفعل.
(٤) التبرك به.
(٥) التلذذ به.

ويتقدَّم كل من الحال، والظرف، والجار والمجرور، لأغراض كثيرة:

(١) منها: تخصيصها بالفعل.
(٢) ومنها: كونها موضع الإنكار.
(٣) ومنها: مراعاة الفاصلة أو الوزن.

والأصل في المفعول أن يُؤخَّر عن الفعل، ولا يُقدم عليه إلا لأغراض كثيرة:

(١) منها: التخصيص، نحو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ردًّا على من قال: أعتقد غير ذلك.
(٢) ومنها: رعاية الفاصلة، نحو: ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾.

(٣) ومنها: التبرُّك، نحو: قرآنًا كريمًا تلوتُ.
(٤) ومنها: التلذذ، نحو: الحبيبَ قابلتُ.

والأصل في العامل أن يُقدم على المعمول، كما أن الأصل في المعمول أن يقدَّم عُمدته على فضلَتِهِ، فيحفظ هذا الأصل بين الفعل والفاعل.

أما بين الفعل والمفعول ونحوه، كالظرف والجار والمجرور، فيختلف الترتيب للأسباب الآتية:

(أ) إمَّا لأمر معنوي، نحو: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ (فلو أُخِّر المجرور لتُوهِّم أنه من صلة الفاعل، وهو خلاف الواقع؛ لأنه صلة لفعله).

(ب) وإما لأمر لفظي، نحو: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ (فلو قدم الفاعل لاختلفت الفواصل؛ لأنها مبنية على الألف).

(ج) وإما للأهمية، نحو: قتل الخارجيَّ فلانٌ.

وأما تقديم الفضلات على بعض فقد يكون:

(١) للأصالة في التقدم لفظًا، نحو: حسبت الهلال طالعًا، فإن الهلال ولو كان مفعولًا في الحال، لكنه مبتدأ في الأصل.

أو للأصالة في التقدم معنى، وذلك كالمفعول الأول في نحو: «أعطى الأمير الوزير جائزة»، فإن الوزير، وإن كان مفعولًا بالنسبة إلى الأمير، لكنه فاعل في المعنى بالنسبة إلى الجائزة.[1]

(٢) أو لإخلال في تأخيره، نحو: مررت راكبًا بفلان، فلو أخرت الحال لتُوُهِّم أنها حال من المجرور، وهو خلاف الواقع، فإنها حال من الفاعل، والأصل في المفعول ذكره، ولا يُحذف إلا لأغراض يقدم ذكرها.

تمرين

لبيان المتقدم من ركني الجملة، ومتعلقات الفعل، وسبب تقدمه.

(١) قال الله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾.

(٢) وكتب ابن المعتز لأحد خلانه: قلبي نَجِيُّ ذِكْرك، ولساني خادم شكرك.

(٣) وقال الله تعالى: ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾.

(٤) كل حي وإن أقام كنوح   في أمان من الردى سوف يفنى

(٥) أنشأ يمزق أثوابي يؤدبني   أبعد شيبي يبغي عندي الأدبا

(٦) منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب مال.

(٧) عباس مولاي أهداني مظلته   يظلل الله عباسًا ويرعاه

(٨) أنا أكرمتك، وفي منزلي آويتك.

(٩) لك عندي وعند صحبي أيادٍ   سوف تبقى وكل شيء سيفنى

(١٠) ما كل ما يتمنى المرء يدركه   تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن

وقال المرحوم حافظ إبراهيم بك في وصف الشمس:

(١١) إنما الشمس وما في آيها   من معانٍ لمعت للعارفين
حكمة بالغة قد مثلت   قدرة الله لقوم غافلين

(١٢) فمثل عُلاك لم أرَ في المعالي   ولا تاجًا كتاجك في الجلال

الجملة	نوع المتقدم	سبب تقدمه
(١) ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾	خبر	تخصيص الخبر بالمبتدأ
(٢) قلبي، ولساني	مبتدأ	أنه الأصل
(٣) ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾	مبتدأ	تخصيصه الخبر

الجملة	نوع المتقدم	سبب تقدمه
(٤) كل حي وإن أقام	مبتدأ	إفادة التعميم
(٥) أبعد شيبي يبغي	ظرف	موضع الإنكار
(٦) منهومان لا يشبعان	مبتدأ	التشويق إلى المبتدأ
(٧) عباس مولاي	مبتدأ	التعظيم
(٨) أنا أكرمتك	مبتدأ	تخصيصه بالخبر الفعلي
وفي منزلي آويتك	جار ومجرور	تخصيصه بالفعل
ومطمئنًّا قلت لك	حال	موضع العناية والاهتمام
نجاتك تحققت	مبتدأ	تعجيل المسرة
لك جرائم	الخبر	التنبيه على أنه خبر لا صفة
(٩) لك عندي	خبر	للتنبيه على أنه خبر لا صفة
كل شيء سيفنى	مبتدأ	إفادة التعميم
(١٠) ما كل ما يتمنى المرء يدركه	مبتدأ	نفي العموم
(١١) الشمس وما في آيها ... حكمة	مبتدأ	التشويق للخبر
(١٢) مثل عُلاك لم أرَ	مفعول	تخصيص المفعول بالفعل

تمرين آخر

(١) اشرح معنى التخصيص، واذكر مواضعه في باب التقديم.

(٢) أي أجزاء الجملة يفيد تقديمه، أو التلذذ، أو التعظيم؟ ومتى يفيد ذلك؟

(٣) ما هي متعلقات الفعل؟ وما أسباب تقديمها عليه؟

(٤) كيف تشوق لكل من المبتدأ والخبر؟ ومتى يفيد المبتدأ التعميم إذا قدمته؟ ومتى يدل على التخصيص بالخبر؟

(٥) ميز المبتدأ الذي جرى في التقديم على أصله من الذي تقدم زائدًا؟

تدريب

العبارات الآتية تقدم فيها بعض أجزاء الكلام على بعض، اذكر المتقدم، وبيِّن نوعه في كل عبارة:

(١) اثنان لا يستغني عنهما إنسان: العلم والمال.
(٢) قال عليه الصلاة والسلام: «إخوانكم خولُكم، جعلهم الله تحت أيديكم.»

(٣) إليك على بعد المزار وصعبه   نوازع شوق ما تُرَدُّ عوازبه

(٤) قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾.
(٥) قبيح أن يحتاج الحارس إلى من يحرسه.
(٦) وقال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

(٧) إلى الله كل الأمر في الخلق كلهم   وليس إلى المخلوق شيء من الأمر

تمرين

عيِّن المتقدم من ركني الجملة أو من متعلقات الفعل، واذكر سبب تقدمه:

(١) قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.
(٢) الدنيا دار عناء، ليس لأحد فيها البقاء، وغدًا تسر أو تُساء.

(٣) ألقت مقاليدها الدنيا إلى رجل   ما زال وقفًا عليه الجود والكرم

(٤) وقال الله تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾.
(٥) وقال الله تعالى: ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾.

(٦) بأي لفظ تقول الشعر زعنفة   تجوز عندك لا عُرْب ولا عجم

(٧) ولأحمد بن يوسف: «بالأقلام تُساس الأقاليم.»
(٨) «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله بقلبه خالصًا.»

(٩) قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾.
(١٠) رأى الرسول رجلًا نذر أن يمشي فقال: «إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني.»

(١١) يساورني طول الدجى وأساوره ملال وطرفي ساهد الليل ساهره

اختبار للذاكرة

كوِّن أربع جمل تقدَّم في أولاها «الخبر»؛ ليفيد التشويق إلى المبتدأ.
وتقدم في الثانية «المبتدأ»؛ لتعجيل المسرة.
وتقدم في الثالثة «الحال»؛ لأنه موضع الإنكار.
وتقدم في الرابعة «الظرف»؛ لأنه موضع العناية.

هوامش

(١) لأن الجائزة مأخوذة، والآخذ لها الوزير الذي فيه معنى الفاعلية التي تستدعي حق التقدم.

الباب السابع

في تعريف القصر

القصر لغة: الحبس، قال الله تعالى: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ واصطلاحًا: هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص.

والشيء الأول: هو المقصور.

والشيء الثاني: هو المقصور عليه.

والطريق المخصوص لذلك التخصيص يكون بالطرق والأدوات الآتية:

نحو: «ما شوقي إلا شاعر» فمعناه تخصيص «شوقي بالشعر» وقصره عليه، ونفي صفة «الكتابة» عنه «ردًّا على مَنْ ظنَّ أنه شاعر وكاتب».

والذي دلَّ على هذا التخصيص هو النفي بكلمة «ما» المتقدمة، والاستثناء بكلمة «إلا» التي قبل الخبر.

فما قبل «إلا» وهو «شوقي» يُسمَّى مقصورًا عليه، وما بعدها وهو «شاعر» يُسمَّى مقصورًا و«ما» و«إلا» طريق القصر وأدواته.

ولو قلت: «شوقي شاعر» بدون «نفي واستثناء» ما فُهم هذا التخصيص؛ ولهذا يكون لكل قصر طرفان «مقصور ومقصور عليه»، ويُعْرَف «المقصور» بأنَّه هو الذي يُؤلِّف مع «المقصور عليه» الجملة الأصلية في الكلام.

ومن هذا تعلم أن القصر: هو تخصيص الحكم بالمذكور في الكلام ونفيه عن سواه بطريق من الطرق الآتية.

وفي هذا الباب أربعة مباحث.

(١) المبحث الأول: في طرق القصر

للقصر طرُق كثيرة، وأشهرها في الاستعمال أربعة،[١] وهي:

أولًا: يكون القصر «بالنفي والاستثناء»[٢] نحو: «ما شوقي إلا شاعر» أو «ما شاعر إلا شوقي».

ثانيًا: يكون القصر «بإنما» نحو: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. وكقول:

إنما يشتري المحامد حر طاب نفسًا لهن بالأثمان

ثالثًا: يكون القصر بالعطف بـ «لا» و«بل» و«لكن» نحو: الأرض متحركة لا ثابتة، وكقول الشاعر:

عمر الفتى ذكره لا طول مدته وموته خزيه لا يومه الداني

وكقوله:

ما نال في دنياه وإنْ بغية لكن أخو حزم يجدُّ ويعمل

رابعًا: يكون القصر «بتقديم ما حقه التأخير» نحو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي «نخصك بالعبادة والاستعانة».

(١) فالمقصور عليه «في النفي والاستثناء» هو المذكور بعد أداة الاستثناء، نحو: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ﴾.

(٢) والمقصور عليه مع «إنما» هو المذكور بعدها، ويكون مؤخرًا في الجملة وجوبًا، نحو: إنما الدنيا غرور.

(٣) والمقصور عليه مع «لا» العاطفة هو المذكور قبلها.

والمقابل لما بعدها، نحو: الفخر بالعلم لا بالمال.

(٤) والمقصور عليه مع «بل» و«لكن» العاطفتين هو المذكور بعدهما، نحو: «ما الفخر بالمال بل بالعلم» ونحو: «ما الفخر بالنَّسب لكن بالتقوى».

(٥) والمقصور عليه في «تقديم ما حقه التأخير» هو المذكور المتقدِّم، نحو: ﴿عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا﴾. وكقول المتنبي:

ومن البليَّة عَذْلُ من لا يَرْعَوِي   عن غيِّه وخطابُ من لا يَفهم

ملاحظات

أولًا: يشترط في كل من «بل» و«لكن» أن تُسبق بنفي، أو نهي، وأن يكون المعطوف بهما مفردًا، وألا تقترن «لكن» بالواو.

ثانيًا: يشترط في «لا» إفراد معطوفها، وأن تُسبق بإثبات، وألا يكون ما بعدها داخلًا في عموم ما قبلها.

ثالثًا: يكون للقصر «بإنما» مزية على العطف؛ لأنها تفيد الإثبات للشيء، والنفي عن غيره دفعة واحدة، بخلاف العطف، فإنه يفهم منه الإثبات أولًا، ثم النفي ثانيًا، أو عكسه.

رابعًا: التقديم يدل على القصر بطريق الذوق السليم، والفكر الصائب، بخلاف الثلاثة الباقية فتدل على القصر بالوضع اللغوي «الأدوات».

خامسًا: الأصل أن يتأخر المعمول على عامله إلا لضرورة.

ومن يتتبع أساليب البلغاء في تقديم ما حقه التأخير يجد أنهم يريدون بذلك التخصيص.

(٢) المبحث الثاني: في تقسيم القصر باعتبار الحقيقة والواقع إلى قسمين

(أ) قصر حقيقي:[٣] وهو أن يختص المقصور عليه بحسب الحقيقة والواقع، بألا يتعداه إلى غيره أصلًا، نحو: لا إله إلا الله.

(ب) وقصر إضافي: وهو أن يختص المقصور عليه بحسب الإضافة والنسبة إلى شيء آخر مُعَين، لا لجميع ما عداه، نحو: ما خليل إلا مسافر، فإنك تقصد قصر السفر عليه بالنسبة لشخص غيره، كمحمود مثلًا، وليس قصدك أنه لا يوجد مسافر سواه؛ إذ الواقع يشهد ببطلانه.

تنبيهات

الأول: الأصل في العطف أن يُنص فيه على المثبت له الحكم، والمنفي عنه إلا إذا خيف التطويل، وفي الثلاثة الباقية يُنص على المثبت فقط.

الثاني: النفي بلا العاطفة لا يجتمع مع «النفي والاستثناء» فلا تقول: «ما محمد إلا ذكي لا غبي»؛ لأن شرط جواز النفي «بلا» ألا يكون ما قبلها منفيًّا بغيرها.

ويجتمع النفي بلا العاطفة مع كل من «إنما» و«التقديم» فتقول: إنما محمد ذكي لا غبي، وبالذكاء يتقدم محمد لا بالغباوة.

والأصل في العطف «بلا» أن يتقدم عليه مثبت، ويتأخر منفي بعده، وقد يترك إيضاحه اختصارًا، مثل: «علي يجيد السباحة لا غير»؛ أي لا المصارعة، ولا الملاكمة، ولا غير ذلك من الصفات.

الثالث: الأصل في «النفي والاستثناء» أن يجيء لأمر ينكره المخاطب، أو يشك فيه، أو لما هو منزل هذه المنزلة، ومن الأخير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ * إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾.

الرابع: الأصل في «إنما» أن تجيء لأمر من شأنه ألا يجهله المخاطب، ولا يُنكره، وإنما يراد تنبيهه فقط، أو لما هو منزل هذه المنزلة، فمن الأول قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾. ومن الثاني قوله تعالى حكاية عن اليهود: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾؛ فهم قد ادعَوْا أن إصلاحهم أمر جليٌّ لا شك فيه. وقال الشاعر:

أنا الذائد الحامي الذِّمار وإنما   يُدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

(٢-١) أسباب ونتائج

الغاية من القصر تمكين الكلام وتقريره في الذهن، كقول الشاعر:

وما المرء إلا كالهلال وضوئه   يوافي تمام الشهر ثم يغيب

ونحو:

وما لامرئ طول الخلود وإنما　　يخلده طول الثناء فيخلد

وقد يراد بالقصر المبالغة في المعنى كقول الشاعر:

وما المرء إلا الأصغران لسانه　　ومعقوله والجسم خلق مصور

وكقوله:

لا سيف إلا ذو الفقار　　ولا فتى إلا علي

و«ذو الفقار» لقب سيف الإمام علي كرم الله وجهه، وسيف العاص بن منبه. والقصر قد ينحو فيه الأديب مناحي شتى، كأن يتجه إلى القصر الإضافي؛ رغبة في المبالغة، كقوله:

وما الدنيا سوى حلم لذيذ　　تنبهه تباشير الصباح

وقد يكون من مرامي القصر التعريض، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؛ إذ ليس الغرض من الآية الكريمة أن يعلم السامعون ظاهر معناها، ولكنها تعريض بالمشركين الذين في حكم من لا عقل له.

(٣) المبحث الثالث: في تقسيم القصر باعتباره طَرَفيه

ينقسم القصر باعتبار طرفيه «المقصور والمقصور عليه» سواء أكان القصر حقيقيًّا أم إضافيًّا إلى نوعين:

(أ) قصر صفة على موصوف: هو أن تُحبس الصفة على موصوفها، وتُخْتَص به، فلا يتَّصف بها غيره، وقد يتصف هذا الموصوف بغيرها من الصفات.

مثاله من الحقيقي: «لا رازق إلا الله».

ومثاله من الإضافي، نحو: «لا زعيم إلا سعد».

(ب) قصر موصوف على صفة، هو أن يُحبَس الموصوف على الصفة ويختص بها دون غيرها، وقد يُشاركه غيره فيها.

مثاله من الحقيقي، نحو: «ما الله إلا خالق كل شيء».[٤]

ومثاله من الإضافي قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ۚ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا﴾.

(٤) المبحث الرابع: في تقسيم القصر الإضافي

ينقسم القصر الإضافي بنوعيه السابقين[٦] على حسب حال المخاطب إلى:

(أ) قصر إفراد: إذا اعتقد المخاطب الشركة، نحو: ﴿إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ ردًّا على من اعتقد أن الله ثالث ثلاثة.

(ب) قصر قلب: إذا اعتقد المخاطب عكس الحكم الذي تثبته نحو: «ما سافر إلا علي» «ردًّا على من اعتقد أن المسافر خليل لا عليٌّ» فقد قلبت وعكست عليه اعتقاده.

(جـ) قصر تعيين: إذا كان المخاطب يتردَّد في الحكم، كما إذا كان متردِّدًا في كون الأرض متحركة أو ثابتة، فتقول له: الأرض متحركة لا ثابتة «ردًّا على من شكَّ وتردد في ذلك الحكم».

واعلم أن القصر بنوعيه يقع بين المبتدأ والخبر، وبين الفعل والفاعل، وبين الفاعل والمفعول، وبين الحال وصاحبها؛ وغير ذلك من المتعلقات، ولا يقع القصر مع المفعول معه.

والقصر من ضروب الإيجاز الذي هو أعظم ركن من أركان البلاغة؛ إذ إن جملة القصر في مقام جملتين، فقولك: «ما كامل إلا الله» تُعادل قولك: الكمال لله، وليس كاملًا غيره.

وأيضًا: القصر يحدد المعاني تحديدًا كاملًا، ويكثر ذلك في المسائل العلمية، وما يماثلها.

تطبيق «١»

وضِّح فيما يلي نوع المقصور وطريقه:

(١) ما الدهر عندك إلا روضةٌ أنُفُ[٧] يا من شمائله في دهره زهرُ

(٢) ليس عارٌ بأن يقال فقيرُ إنما العار أن يقال بخيلُ

(٣) وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

(٤) فلما أبى إلا البكاء رفدته بعينين كانا الدموع على قَدْر[٨]

(٥) ما لنا في مديحه غيرُ نظم للمساعي التي سعاها ووصفُ

(٦) بك اجتمع المُلك المبدَّد شمله وضمت قواصٍ منه بعد قواصي[٩]

(٧) سيذكرني قومي إذا جدَّ جدهم وفي الليلة الظلماء يُفتقَد البدر[١٠]

(٨) ما افترقنا في مديحه بل وصفنا بعض أخلاقه وذلك يكفي

وقال عليه الصلاة والسلام: «ليس لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لَبِسْتَ فأَبْلَيْتَ، أو تصدقتَ فأَبْقَيْتَ.»

الرقم	الجملة	نوعه باعتبار المقصور	نوعه باعتبار الواقع	طريقه
(١)	ما الدهر	موصوف على صفة	إضافي	النفي والاستثناء
(٢)	إنما العار	موصوف على صفة	إضافي	إنما
(٣)	إنما الأمم	موصوف على صفة	حقيقي – ادعائي	إنما
(٤)	فلما أبى	صفة على موصوف	إضافي	النفي والاستثناء
(٥)	ما لنا	صفة على موصوف	إضافي	النفي والاستثناء
(٦)	بك اجتمع	صفة على موصوف	إضافي	تقديم الجار والمجرور
(٧)	وفي الليلة	موصوف على صفة	إضافي	تقديم الجار والمجرور
(٨)	ما افترقنا	موصوف على صفة	إضافي	بل

تطبيق «٢»

(١) قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

(٢) قال تعالى: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾.

(٣) قال تعالى: ﴿لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

(٤) قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾.

(٥) فإن كان في لُبْسِ الفتى شرفٌ له ... فما السيف إلا غِمْدُه والحمائلُ[١١]

(٦) ليس اليتيم الذي قد مات والده ... بل اليتيم يتيم العلم والأدب

(٧) وما شاب رأسي من سنين تتابعت ... علي ولكن شيبتني الوقائع

(٨) إن الجديدين في طول اختلافهما ... لا يفسدان ولكن يفسد الناس

(٩) لا يألف العلم إلا ذكي، ولا يجفوه إلا غبي.

(١٠) قد علمت سلمى وجاراتها ما قطر الفارس إلا أنا

(١١) إنما الدنيا هِبَاتٌ وعوارٍ مستردَّة
شدةٌ بعد رخاءٍ ورخاءٌ بعد شدَّة

(١٢) على الله توكلنا، إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى.

(١٣) محاسن أوصاف المغنين جمة وما قصبات السبق إلا لمعبد
(١٤) إلى الله أشكو أن النفس حاجة تمر بها لأيام وهي كما هيا

(١٥) عند الامتحان يُكرَم المرء أو يُهان.

الرقم	الجملة	نوعه باعتبار الواقع	باعتبار المقصور	باعتبار المخاطب	طريقه
(١)	إنما الله	إضافي	موصوف على صفة	إفراد	إنما
(٢)	إن حسابهم	إضافي	موصوف على صفة	إفراد	النفي والاستثناء
(٣)	لله ما في السماوات	حقيقي	صفة على موصوف		التقديم
(٤)	إن أنتم	إضافي	موصوف على صفة	إفراد	النفي والاستثناء
(٥)	فما السيف	إضافي	موصوف على صفة	محتمل	النفي والاستثناء
(٦)	ليس اليتيم	إضافي	صفة على موصوف	محتمل	العطف ببل
(٧)	وما شاب	إضافي	صفة على موصوف	محتمل	العطف بلكن
(٨)	لا يفسدان	إضافي	صفة على موصوف	محتمل	العطف بلكن

الرقم	الجملة	نوعه باعتبار المقصور	باعتبار الواقع	طريقه
(٩)	لا يألف العلم إلا ذكي	قصر صفة على موصوف	حقيقي	النفي والاستثناء
(١٠)	ما قطر الفارس إلا أنا	قصر صفة على موصوف	حقيقي	النفي والاستثناء
(١١)	إنما الدنيا هبات	قصر موصوف على صفة	إضافي	إنما
(١٢)	على الله توكلنا	قصر صفة على موصوف	إضافي	التقديم
(١٣)	ما قصبات السبق ... إلخ	قصر صفة على موصوف	إضافي	النفي والاستثناء
(١٤)	إلى الله أشكو	قصر صفة على موصوف	حقيقي	التقديم
(١٥)	عند الامتحان يكرم ... إلخ	قصر صفة على موصوف	إضافي	التقديم

اختبار للذاكرة

(١) هاتِ جملة تفيد نجاح سعد وعدم نجاح سعيد بواسطة إنما.
(٢) رُدَّ بطريق القصر بإنما على مَنْ ظنَّ أن المطر يكثر شتاء في السودان.
(٣-أ) مَن تخاطب بالجملة الآتية فيكون القصر «قصر قلب»؟
(٣-ب) مَن تخاطب بالجملة الآتية فيكون القصر «قصر إفراد»؟
(٣-ج) مَن تخاطب بالجملة الآتية فيكون القصر «قصر تعيين»؟
وهي: «ما أديتُ إلا الواجب علي.»
(٤) غيِّر الجملة الآتية بحيث تُفيد القصر بالعطف:
«بالاختراعات الحديثة ارتقت الأمم الغربية.»

(١) إنما نجح سعد لا سعيد.
(٢) إنما يكثر المطر في السودان ربيعًا لا شتاء.
(٣-أ) إذا كان المخاطب يعتقد أنك أديت غير الواجب عليك.
(٣-ب) إذا كان المخاطب يعتقد أنك أديت الواجب وغيره.
(٣-ج) إذا كان المخاطب مترددًا في تأدية الواجب وغيره.
(٤) ارتفعت الأمم الغربية بالاختراعات الحديثة لا بغيرها.

تطبيق عملي

(١) لم يبقَ سواك نلوذ به   مما نخشاه من المحن

(٢) إنما يشتري المحامدَ حرٌّ   طاب نفسًا لهنَّ بالأثمان

(٣) إنما الدنيا متاعٌ زائل   فاقتصد فيه وخذ منه ودع

(٤) عمر الفتى ذِكْره لا طولُ مدته   وموته خزيه لا يومه الداني

(٥) ما نال في دنياه وانٍ بُغيةً   لكنْ أخو حزم يجد ويعمل

(٦) ومن البلية عذل من لا يَرعوي   عن غيِّه وخطاب مَن لا يَفهم

(٧) بالعلم والمال يبني الناس ملكهم   لم يُبْنَ مُلك على جهل وإقلال

(١) في هذا البيت استثناء بغير إلا.

(٢) يقول: إن شراء المحامد مقصور على الأحرار، فهم الذين تطيب نفسهم ببذل المال في سبيل الحمد، والذي دل على هذا القصر هو لفظ «إنما»، وهذا «قصر صفة» وهي الشراء على «موصوف» وهو الحر.

(٣) فقد قصر الدنيا على صفة من صفتها وهي كونها متعبة لا تدوم لحي، وهو كما ترى «قصر موصوف على صفة».

(٤) أي إن حياة الإنسان لا تُقاس بطول المدة، ولكن بالذكر الخالد، وإن الموت لا يكون بمفارقة الحياة، بل بما يرضى به بعض الأحياء من خزي وهوان، وقد جاء في كل شطر بقصر؛ إذ قصر

العمر على الذكر في الشطر الأول، وقصر الموت على الخزي في الشطر الثاني، والذي دل على القصر فيهما هو العطف «بلا» في قوله: «لا طول مدته» و«لا يومه الداني».

(٥) يقول: إن المهمل لا ينال أمانيه، إنما الذي ينال ما يرجوه هو الحازم الذي يجد ويعمل، فقصر نيل البغية على أخي الحزم، وطريق القصر هنا هو العطف «بلكن».

(٦) يقول: إن لوم من لا يرجع عن باطله، وإن التحدث إلى من لا يعي عنك ولا يفهم — مقصور على صفة لا يفارقها، وهي كونه بلاء ونكدًا، والذي دل على هذا القصر تقديم الخبر على المبتدأ.

(٧) قصر بناء الملك على العلم والمال بتقديم الجار والمجرور على الفعل.

تمرين آخر

عيِّن المقصور، والمقصور عليه، ونوع القصر وطريقته، فيما يأتي:

(١) قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾.

(٢) وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

(٣) وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

(٤) قال ابن الرومي:

غَلِطَ الطبيبُ عليَّ غلطة مورد عجزت موارده عن الإصدار
والناس يَلْحَوْنَ الطبيبَ وإنما غَلَطُ الطبيب إصابة الأقدار

(٥) قال المتنبي:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلةٍ لا يَظلمُ

(٦) قال الطِّرِمَّاح بن حكيم:

وما مُنعْتَ دار ولا عزَّ أهلها من الناس إلا بالقَنا والقنابل

(٧) قال حَطَّان بن المُعَلَّى:

وإنـمـا أولادنـا بـيـنـنـا أكبادنا تمشي على الأرض

(٨) وقال رجل من بني أسد:

ألا إنَّ خير الودِّ ودٌّ تطوعتْ به النفس لا ودٌّ أتى وهو مُتعبَ

(٩) قال أبو تمام:

شاب رأسي وما رأيت مشيب الرأس إلا مـن فـضـل شـيـب الـفـؤاد
وكذلك القلوب في كل بؤس ونـعـيـم طـلائـع الأجـسـاد

(١٠) قال المتنبي:

وما أنا إلا سَمْهَرِيٌّ حَمَلْتُهُ فزَيَّنَ معروضًا وراعَ مُسَدَّدا
وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلتُ شعرًا أصبح الدهر مُنْشِدا

(١١) وقال أيضًا:

وما الخوف إلا ما تخوفه الفتى ولا الأمن إلا ما رآه الفتى أمنا

(١٢) وقال أبو فراس الحمداني:

إذا الخل لم يهجرك إلا ملالة فليس له إلا الفراق عتاب

(١٣) وقال أبو العتاهية:

عَلِّلِ النفسَ بالكفاف وإلا طَلبتْ منك فوق ما يكفيها
إنـمـا أنـت طـول عـمـرك مـا عمرت في الساعة التي أنت فيها

(١٤) قال مهيار:

وما الحرص إلا فضلة لو نبذتها لما فاتك الرزق الذي أنت آكله

(١٥) قال الطغرائي:

وإنما رجل الدنيا وواحدها من لا يُعَوِّل في الدنيا على رجل

(١٦) قال الغَزِّيُّ:

ليس التغرب أن تشكو نوى سفر وإنما ذاك فقد العز في الوطن

(١٧) وقال أيضًا:

إنما هذه الحياة متاع والسفيه الغبي من يصطفيها
ما مضى فات، والمؤمَّل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

(١٨) وقال الأرجاني:

تطلعت في يومي رخاء وشدة وناديت في الأحياء هل من مساعد
فلم أرَ فيما ساءني غير شامِت ولم أرَ فيما سرني غير حاسد

(١٩) وقال الأبيوردي:

ومن نكد الأيام أن يبلغ المنى أخو اللؤم فيها والكريم يخيب

(٢٠) وقال أيضًا:

ولا تصطنع إلا الكرام فإنهم يجازون بالنعماء من كان منعما

تطبيق عام على القصر وأنواعه والأبواب السابقة

«لا حول ولا قوة إلا بالله» جملتان خبريتان اسميتان من الضرب الثالث لما فيهما من التوكيد بالقصر، الذي هو أقوى طرق التوكيد. المسند إليه «حول وقوة» والمسند الجار والمجرور، ولا نظر لتقديم الخبر؛ لأن ذلك مراعاة لقاعدة نحوية لا يعتبرها أهل المعاني، ولا يعدون حذفه إيجازًا، والحكمان مقيدان بالنفي والاستثناء لإفادة القصر.

ففيهما «قصر صفة» وهو التحول عن المعاصي، والقوة على الطاعة على «موصوف» وهو الذات الأقدس، وهو قصر إضافي، طريقه النفي والاستثناء، ثم إن كان للرد على من يعتقد أن التحول عن المعاصي والقوة على الطاعة بغير الله تعالى فهو قصر قلب، أو على من يعتقد الشركة فهو إفراد، أو على من يتردد فهو تعيين.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ جملتان خبريتان فعليتان من الضرب الثالث. المسند نعبد ونستعين، والمسند إليه الضمير المستتر فيهما، وهما مقيدتان بالمفعولين «إياك» وقدم المفعولين لإفادة القصر، ففيهما قصر «صفة» وهو العبادة والاستعانة، على «موصوف» وهو الذات الأقدس، طريقه تقديم ما حقه التأخير، وهو إضافي، ثم إن كان للرد على من يعتقد أن المعبود غير الله تعالى فهو قلب، أو على من يعتقد الشركة فهو إفراد، أو على من يتردد فهو تعيين.

«إنما شوقي شاعر» فيه قصر موصوف؛ وهو شوقي، على صفة؛ وهو الشعر، وطريقه إنما، وهو «قلب أو إفراد أو تعيين» على حسب حال المخاطب.

«الله الغفور الرحيم» فيه قصر الصفة وهو المغفرة والرحمة على موصوف وهو الله تعالى، طريقه تعريف المسند بأل، وهو «قلب أو إفراد أو تعيين» على حسب حال المردود عليه.

«إنما الشجاع علي» فيه قصر صفة؛ وهو الشجاعة، على موصوف؛ وهو علي، وطريقه إنما.

«المرء بآدابه لا بثيابه» فيه قصر الموصوف على الصفة، قصر قلب بين المسند إليه والمسند، طريقه العطف بلا.

«إنما الإله واحد» فيه قصر الموصوف على الصفة، قصرًا حقيقيًّا، طريقه إنما، وهو واقع بين المسند إليه والمسند.

أسئلة على القصر وأنواعه تطلب أجوبتها

ما هو القصر لغة واصطلاحًا؟ كم قسمًا للقصر؟ ما هو القصر الحقيقي؟ ما هو القصر الإضافي؟ كم قسمًا للقصر الحقيقي؟ كم قسمًا للقصر الإضافي؟ ما مثال قصر الصفة على الموصوف من الحقيقي؟ ما مثال قصر الصفة على الموصوف من الإضافي؟ ما مثال قصر الموصوف على الصفة من الحقيقي؟ ما مثال قصر الموصوف على الصفة من الإضافي؟ كم قسمًا للإضافي بقسميه؟ على من يردُّ بقصر الإفراد؟ على من يرد بقصر القلب؟ على من يرد بقصر التعيين؟ ما هي طرق القصر المصطلح عليها في هذا الباب؟ ما أقواها؟ أيمكن وقوع القصر بين الفعل والفاعل؟ أيمكن وقوع القصر بين الفاعل والمفعول؟ أيمكن وقوع القصر بين الفعل ومعمولاته؟ أيمكن وقوع القصر بين المفعولين؟ متى يجب تأخير المقصور عليه؟ ويكثر تأخير المقصور عليه؟ لماذا يجب تأخير المقصور مع إنما؟ ويكثر مع النفي والاستثناء؟

هوامش

(١) ومن طرق القصر التي ليست مشهورة الاستعمال لفظ: وحده، أو: فقط، أو: لا غير، أو: ليس غير، أو: مادة الاختصاص، أو: مادة القصر، أو: توسط ضمير الفصل، أو: تعريف المسند إليه، أو: تقديم المسند إليه على خبره الفعلي أحيانًا؛ وغير ذلك. وهذه الطرق خالية من اللطائف البلاغية، وقد أوصلها «جلال الدين السيوطي» في كتابه «الإتقان في علوم القرآن» إلى أربعة عشر طريقًا، أهمها الطرق الأربعة المشهورة الاستعمال، وهي تختلف مع بعضها من أوجه كثيرة.

منها: أن «لا» العاطفة لا تجتمع مع النفي والاستثناء؛ لأن شرط المنفي بها ألا يكون منفيًّا صريحًا قبلها بغيرها، فلا تقول: «ما علي إلا مجتهد لا متكاسل»؛ ولذا عيب على الحريري قوله:

لعمرك ما الإنسان إلا ابن يومه　　　على ما تحلى يومه لا ابن أمسه

وتحتمل «لا» مع «إنما» أو «التقديم» نحو: «إنما أنا مصري لا سوري» ونحو: «المجتهد أكرمت لا المتكاسل» لأن النفي فيهما غير مصرح به.

ومنها: أن الأصل في الحكم من النفي والاستثناء أن يكون مجهولًا منكرًا للمخاطب «أي شأنه أن يجهله المخاطب وينكره» بخلاف «إنما»؛ لأن النفي مع الاستثناء لصراحته أقوى في التأكيد من «إنما» فينبغي أن يكون لشديد الإنكار، نحو قولك: «وقد رأيت شبحًا من بعد ما هو إلا زيد» لمن اعتقد أنه غيره، ونحو: «إن أنتم إلا بشر مثلنا» لما كانوا مصرين على دعوى الرسالة مع زعم المكذبين امتناع الرسالة في البشر — رد المكذبون إصرارهم عليهم بقولهم ذلك.

وقد ينزل المعلوم منزلة المجهول لغرض بلاغي، فيستعمل فيه النفي والاستثناء، نحو: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ فقد قصر الله محمدًا على صفة الرسالة، ونفى عنه أن يُظن في أمره الخلود، فلا يموت أو يُقتل.

وهذا معلوم للصحابة، لكن لاستعظامهم موته؛ لشدة حرصهم على بقائه ﷺ، نزلوا منزلة من لا يعلمه.

وقد يُنزَّل المجهول منزلة المعلوم، نحو: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ لادعائهم أن كونهم مصلحين أمر ظاهر؛ ولهذا رد عليهم بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ مؤكد بما ترى بالجملة، فالاستثناء لقوته يكون لرد شديد الإنكار حقيقة أو ادعاء، و«إنما» لضعفها تكون لرد الإنكار في الجملة حقيقة أو ادعاء، ويكون للقصر بـ «إنما» مزية على العطف؛ لأنه يفهم منه أولًا الإثبات للمذكور، والنفي عما عداه معًا، بخلاف العطف؛ لأنه يفهم منه أولًا الإثبات، ثم النفي، أو عكسه، نحو: إنما خليل فاهم، خليل فاهم لا حافظ، وأحسن موقعها التعريض، نحو: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

واعلم أن «غير» كـ «إلا» في إفادة القصرين، وفي امتناع اجتماعه مع لا العاطفة، فلا يقال: «ما علي غير شاعر لا منجم» و«ما شاعر غير علي لا نصر».

(٢) يكون النفي بغير «ما» كقوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. كما يكون الاستثناء بغير «إلا» نحو:

لم يبقَ سواك نلوذ به   بما نخشاه من المِحَن

(٣) ومنه نوع يُسمى بالقصر الحقيقي «الادعائي» ويكون على سبيل المبالغة بفرض أن ما عدا المقصور عليه لا يُعتد به.

(٤) قصر الموصوف على الصفة في القصر الحقيقي لا يكاد يوجد لتعذر الإحاطة بصفات الشيء، حتى يمكن إثبات شيء منها ونفي ما عداها. ويكثر القصر الحقيقي

في قصر الصفة على الموصوف، بخلاف القصر الإضافي الذي يأتي كثيرًا في كل من قصر الصفة على الموصوف، وقصر الموصوف على الصفة.

واعلم أن المراد بالصفة هنا الصفة المعنوية التي تدل على معنًى قائم بشيء، سواء أكان اللفظ الدال عليه جامدًا أو مشتقًّا، فعلًا أو غير فعل، فالمراد بالصفة ما يحتاج إلى غيره ليقوم به؛ كالفعل ونحوه، وليس المراد بها «الصلة النحوية المسماة بالنعت».

(٥) فقد قصر الله محمدًا على صفة الرسالة، ونفى عنه أن يظن في أمره الخلود فلا يموت أو يُقتل.

(٦) بخلاف القصر الحقيقي بنوعيه؛ إذ العاقل لا يعتقد اتصاف أمر بجميع الصفات أو اتصافه بجميعها إلا واحدة، أو يتردد في ذلك، كيف وفي الصفات ما هي متقابلة؟! فلا يصح أن يُقصر الحكم على بعضها ويُنفى عن الباقي «إفرادًا أو قلبًا أو تعيينًا».

وعلى هذا المنوال قصر الصفة على الموصوف، كما في المطول وشراح التجريد.

(٧) روضة أنف: لم يرعها أحد.

(٨) رَفَدَهُ: أعانَهُ. قَدْر: مصدر قَدر على الشيء؛ بمعنى اقتدر.

(٩) المبدَّد: المفرق. القواصي: جمع قاصية، وهي الناحية البعيدة.

(١٠) جَدَّ في أمره: اجتهد. والجِدُّ «بكسر الجيم»: الاجتهاد، وضده الهزْل. يُفتقد: يُطلب.

(١١) جفن السيف: غمده. والحمائل: جمع حمالة؛ علاقة السيف.

الباب الثامن

في الوصل والفصل

تمهيد

العلم بمواقع الجمل، والوقوف على ما ينبغي أن يصنع فيها من العطف والاستئناف، والتهدي إلى كيفية إيقاع حروف العطف في مواقعها، أو تركها عند عدم الحاجة إليها — صعب المسلك، لا يوفق للصواب فيه إلا من أوتي قسطًا موفورًا من البلاغة، وطبع على إدراك محاسنها، ورزق حظًّا من المعرفة في ذوق الكلام؛ وذلك لغموض هذا الباب، ودقة مسلكه، وعظيم خطره، وكثير فائدته، يدل لهذا أنهم جعلوه حدًّا للبلاغة.

فقد سُئل عنها بعض البلغاء، فقال: «هي معرفة الفصل والوصل.»

تعريف الوصل والفصل في حدود البلاغة

الوصل عطف جملة على أخرى بالواو، والفصل ترك هذا العطف[1] بين الجملتين، والمجيء بها منثورة، تستأنف واحدة منها بعد الأخرى.

فالجملة الثانية تأتي في الأساليب البليغة مفصولة أحيانًا، وموصولة أحيانًا.

فمن الفصل، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، فجملة «ادفع» مفصولة عمَّا قبلها، ولو قيل: «وادفع بالتي هي أحسن» لما كان بليغًا.

ومن الوصل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ عطف جملة «وكونوا» على ما قبلها.

ولو قلت: «اتقوا الله كونوا مع الصادقين» لما كان بليغًا.

فكل من الفصل والوصل يجيء لأسباب بلاغية.

ومن هذا يُعلم أن الوصل جمع وربط بين جملتين «بالواو خاصة» لصلة بينهما في الصورة والمعنى، أو لدفع اللَّبس.

والفصل: ترك الربط بين الجملتين؛ إما لأنهما متحدتان صورة ومعنى، أو بمنزلة المتحدتين، وإما لأنه لا صلة بينهما في الصورة أو في المعنى.

بلاغة الوصل

وبلاغة الوصل: لا تتحقق إلا «بالواو» العاطفة فقط دون بقية حروف العطف؛ لأن «الواو» هي الأداة التي تخفَى الحاجة إليها، ويحتاج العطف بها إلى لطف في الفهم، ودقة في الإدراك؛ إذ لا تفيد إلا مجرد الربط، وتشريك ما بعدها لما قبلها في الحكم، نحو: «مضى وقت الكسل، وجاء زمن العمل، وقم واسْعَ في الخير».

بخلاف العطف بغير «الواو» فيفيد مع التشريك معاني أخرى، كالترتيب مع التعقيب في «الفاء» وكالترتيب مع التراخي في «ثمَّ»؛ وهكذا باقي حروف العطف التي إذا عُطف بواحد منها ظهرت الفائدة، ولا يقع اشتباه في استعماله.

وشرط العطف «بالواو» أن يكون بين الجملتين «جامع»؛ كالموافقة في نحو: «يقرأ ويكتبُ»، وكالمضادة في نحو: «يضحك ويبكي»، وإنما كانت المضادة في حكم الموافقة؛ لأن الذهن يتصور أحد الضدين عند تصور الآخر «فالعلم» يخطر على البال عند ذكر «الجهل» كما تخطر «الكتابة» عند ذكر «القراءة».

و«الجامع» يجب أن يكون باعتبار المسند إليه والمسند جميعًا، فلا يقال: «خليل قادم، والبعير ذاهب» لعدم الجامع بين المسند إليها، كما لا يقال: «سعيد عالم، وخليل قصير» لعدم الجامع بين المسندين، وفي هذا الباب مبحثان.

(١) المبحث الأول: في إجمال مواضع الوصل

الوصل: عطف جملة على أخرى «بالواو» ويقع في ثلاثة مواضع:[٢]

الأول: إذا اتحدت الجملتان في الخبرية والإنشائية لفظًا ومعنًى، أو معنًى فقط،[٣] ولم يكن هناك سبب يقتضي الفصل بينهما، وكانت بينهما مناسبة تامة في المعنى.

فمثال الخبريتين قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ[٤] * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ ومثال الإنشائيتين قوله تعالى: ﴿فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.

وصل جملة «ولا تشركوا» بجملة «واعبدوا» لاتحادهما في الإنشاء، ولأن المطلوب بهما مما يجب على الإنسان أن يؤديه لخالقه، ويختصه به.

ومن هذا النوع قول المرحوم شوقي بك:

عالجوا الحكمة واستشفوا بها وانشُدوا ما حلَّ منها في السِّيَرْ

فقد وصل بين ثلاث جمل، تتناسب في أنها مما يتعلق بأمر «الحكمة» وبواجب «الشباب» في طلبها والانتفاع بها.

ومثال المختلفتين قوله سبحانه: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي: إني أشهد الله وأشهدكم،[٥] فتكون الجملة الثانية في هذه الآية إنشائية لفظًا، ولكنها خبرية في المعنى.[٦]

ونحو: «اذهب إلى فلان، وتقول له كذا» فتكون الجملة الثانية من هذا المثال خبرية لفظًا، ولكنها إنشائية معنًى «أي: وقُلْ له»، فالاختلاف في اللفظ لا في المعنى المعول عليه؛ ولهذا «وجب الوصل».

وعطف الجملة الثانية على الأولى لوجود الجامع بينهما، ولم يكن هناك سبب يقتضي الفصل بينهما، وكل من الجملتين لا موضع له من الإعراب.

الثاني: دفع توهُّم غير المراد؛ وذلك إذا اختلفت الجملتان في الخبرية والإنشائية، وكان الفصل يُوهِم خلاف المقصود[٧] كما تقول مجيبًا لشخص بالنفي: «لا، شفاه الله»[٨] لمن يسألك: هل برئ عليٌّ من المرض؟ «فترك الواو يُوهم السامع الدعاء عليه، وهو خلاف المقصود؛ لأن الغرض الدعاء له».[٩] ولهذا «وجب أيضًا الوصل».

وعطف «الجملة الثانية» الدعائية الإنشائية على «الجملة الأولى» الخبرية المصدَّرة بلفظ «لا» لدفع الإيهام، وكلٌّ من الجملتين لا محل له من الإعراب.

الثالث: إذا كان «للجملة الأولى» محل من الإعراب، وقُصِدَ تشريك «الجملة الثانية» لها في الإعراب حيث لا مانع، نحو: «عليٌّ يقول ويفعل».[١٠]

تمرين

وضح أسباب الوصل في الجمل الآتية:

(١) قال عز وجل: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾.

(٢) وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾.

(٣) وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

(٤) وقال عليه الصلاة والسلام: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن.»

(٥) قال أبو العتاهية:

تأتي المكاره حين تأتي جملة   وأرى السرور يجيء في الفلتات

(٦) وقال المتنبي:

وكل امرئ يولي الجميل محبَّب   وكل مكان يُنبِت العزَّ طيب

(٧) وقال المعري:

اضربْ وليدَك وادْلُلْهُ على رَشَدٍ   ولا تقل هو طفل غير محتَلِمِ
فرُبَّ شقٍّ برأسٍ جَرَّ منفعةً   قِسْ على نَفْعِ شقِّ الرأسِ في القلمِ

(٨) وقال:

يصون الكريمُ العِرضَ بالمال جاهدًا   وذو اللؤم للأموال بالعِرض صائن

(٩) وقال مسلم بن الوليد:

يجود بالنفس إن ضنَّ الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

(١٠) وقال أبو نواس:

نسيبك من ناسبتَ بالود قلبه وجارك من صافيتَ لا من تُصاقِب

(١١) وقال الغزي:

إنما هذه الحياة متاع والسفيه الغبي من يصطفيها
ما مضى فات والمؤمَّل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

تمرين آخر

بيِّن أسباب الفصل في الأمثلة الآتية:

قال الله تعالى:

(١) ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

(٢) وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

(٣) وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

(٤) وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾.

(٥) وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾.

(٦) وقال عز وجل: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾.

(٧) قال أبو العتاهية:

الصمت أجمل بالفتى	من منطق في غير حينه
لا خير في حشو الكلا	م إذا اهتديت إلى عيونه
كل امرئ في نفسه	أعلى وأشرف من قرينه

(٨) وقال أبو تمام:

ليس الكريم الذي يُعطي عطيته	عن الثناء وإن أغلى به الثمنا
إن الكريم الذي يُعطي عَطِيَّته	لغير شيء سوى استحسانه الحَسَنا
لا يستثيب ببذل العُرف مَحْمَدة	ولا يَمُنُّ إذا ما قلَّد المننا

(٩) وقال المتنبي:

لولا المشقة ساد الناس كلهم	الجود يُفقر والإقدام قَتَّال

(١٠) وقال الشريف الرَّضِيُّ:

لا تأمننَّ عدوًّا لانَ جانبُه	خشونةُ الصِّل عُقْبَى ذلك اللين

(١١) وقال المعري:

لا يُعجبنَّك إقبالٌ يريك سَنًا	إن الخمود لعمري غاية الضرم

(١٢) وقال الخفاجي:

الناس شتَّى وإن عمَّتهم صورٌ	هي التناسب بين الماء والآل

(١٣) وقال أبو فراس:

لا تـطـلـبـن دنـوَّ دا   رٍ من خليل أو مُعَاشِرْ
أبقى لأسباب المودَّة   أن تـزور ولا تـجـاور

(١٤) وقال الحُطَيْئة:

من يفعل الخير لا يعدم جَوازِيَهُ   لا يذهب العُرف بين اللهِ والناسِ

(١٥) وقال أعرابي قَتل أخوه ابنًا له:

أقول للنفس تَأْساءً وتعزيةً   إحدى يديَّ أصابتني ولم تُرِدِ
كلاهما خلف من فقد صاحبه   هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

(١٦) وقال الغزي:

من أغفل الشِّعر لم تعرف مناقبه   لا يُجتنى ثمر من غير أغصان

(١٧) وقال ابن شرف:

لا تسألِ الناسَ والأيامَ عن خبر   هما يَبُثَّانِكَ الأخبارَ تفصيلا

(١٨) ولكل حُسْنٍ آفة موجودة   إن السراج على سناه يُدَخِّن

(١٩) بالعلم والمال يبني الناس ملكهم   لـم يُبْنَ مُـلْكٌ عـلـى جـهـل وإقـلال

(٢) المبحث الثاني: في مُجمل مواضع الفصل[١١]

من حقِّ الجُمَل إذا ترادفت ووقع بعضها إثر بعضٍ أن تُربط بالواو؛ لتكون على نسق واحد، ولكن قد يَعرض لها ما يوجب ترك الواو فيها، ويُسمى هذا فصلًا، ويقع في خمسة مواضع:

الموضع الأول: أن يكون بين الجملتين اتحاد تام، وامتزاج معنوي، حتى كأنهما أُفْرِغَا في قالب واحد، ويُسمى ذلك «كمال الاتصال».

الموضع الثاني: أن يكون بين الجملتين تباين تام، بدون إيهام خلاف المراد، ويُسمى ذلك «كمال الانقطاع».

الموضع الثالث: أن يكون بين الجملتين رابطة قوية، ويُسمى ذلك «شبه كمال الاتصال».

الموضع الرابع: أن يكون بين الجملة الأولى والثانية «جملة أخرى ثالثة متوسطة» حائلة بينهما، فلو عُطفت الثالثة على «الأولى المناسبة لها» لتُوهِّم أنها معطوفة على «المتوسطة» فيُترك العطف، ويُسمى ذلك «شبه كمال الانقطاع».

الموضع الخامس: أن يكون بين الجملتين تناسب وارتباط، لكن يمنع من عطفهما مانع، وهو عدم قصد اشتراكهما في الحكم، ويُسمى ذلك «التوسط بين الكمالين».

(٣) المبحث الثالث: في تفصيل مواضع الفصل الخمسة السابقة

أحيانًا تتقارب الجمل في معناها تقاربًا تامًّا، حتى تكون الجملة الثانية كأنها الجملة الأولى، وقد تنقطع الصِّلة بينهما.

إمَّا لاختلافهما في الصورة، كأن تكون إحدى الجملتين إنشائية والأخرى خبرية.

وإمَّا لتباعد معناهما، بحيث لا يكون بين المعنيين مناسبة، وفي هذه الأحوال يجب الفصل في كل موضع من المواضع الخمسة الآتية، وهي:

الموضع الأول: «كمال الاتصال» وهو اتحاد الجملتين اتحادًا تامًّا، وامتزاجًا معنويًّا، بحيث تنزل الثانية من الأولى منزلة نفسها:

(أ) بأن تكون الجملة الثانية بمنزلة البدل من الجملة الأولى، نحو: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾.[١٢]

(ب) أو: بأن تكون الجملة الثانية بيانًا لإبهام في الجملة الأولى، كقوله سبحانه: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ فجملة «قال يا آدم» بيان لما وسوس به الشيطان إليه.

(ج) أو: بأن تكون الجملة الثانية مؤكدة للجملة الأولى، بما يشبه أن يكون توكيدًا لفظيًّا أو معنويًّا، كقوله عز وجل: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ وكقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ فالمانع من العطف في هذا الموضع اتحاد الجملتين اتحادًا تامًّا يمنع عطف الشيء على نفسه «ويوجب الفصل».

الموضع الثاني: «كمال الانقطاع» وهو اختلاف الجملتين اختلافًا تامًّا.

(أ) بأن يختلفا خبرًا وإنشاءً، لفظًا ومعنًى، أو معنًى فقط، نحو: «حضر الأمير حفظه الله» ونحو: «تكلمْ إني مُصْغٍ إليك» وكقول الشاعر:

وقال رائدهم أُرْسُوا نُزاوِلُها فحَتْفُ كلِّ امرئٍ يَجْرِي بمقدار[١٣]

(ب) أو: بألا تكون بين الجملتين مناسبة في المعنى ولا ارتباط، بل كل منهما مستقل بنفسه، كقولك: «عليٌّ كاتب – الحمام طائر»؛ فإنه لا مناسبة بين كتابة علي وطيران الحمام.

وكقوله:

إنما المرء بأصغريه كل امرئ رهن بما لديه

فالمانع من العطف في هذا الموضع «أمر ذاتي» لا يمكن دفعه أصلًا وهو التباين بين الجملتين؛ ولهذا وجب الفصل، وترك العطف؛ لأن العطف يكون للربط، ولا ربط بين جملتين في شدة التباعد وكمال الانقطاع.

الموضع الثالث: «شبه كمال الاتصال» وهو كون الجملة الثانية قوية الارتباط بالأولى؛ لوقوعها جوابًا عن سؤال يُفهم من الجملة الأولى، فتُفصل عنها كما يُفصل الجواب عن

السؤال، كقوله سبحانه: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [١٤] ونحو قول الشاعر:

زعم العوازل أنني في غمرة ... صدقوا، ولكنَّ غمرتي لا تنجلي

كأنه سئل: أصدقوا في زعمهم أم كذبوا؟ فأجاب: صدقوا، [١٥] ونحو:

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الحد واللعب

فكأنه استفهم وقال: لِمَ كان السيف أصدق؟ فأجاب بقوله: في حدِّه ... إلخ.

فالمانع من العطف في هذ الموضع وجود الرابطة القوية بين الجملتين، فأشبهت حالة اتحاد الجملتين؛ ولهذا «وجب أيضًا الفصل».

الموضع الرابع: «شبه كمال الانقطاع» وهو أن تُسبق جملة بجملتين يصح عطفها على الأولى لوجود المناسبة، ولكن في عطفها على الثانية فساد في المعنى، فيُترك العطف بالمرة؛ دفعًا لتوهم أنه معطوف على الثانية، نحو:

وتظن سلمى أنني أبغي بها ... بدلًا أراها في الضلال تهيم

فجملة «أراها» يصح عطفها على جملة «تظن»، لكن يمنع من هذا توهم العطف على جملة «أبغي بها» فتكون الجملة الثالثة من مظنونات سلمى، مع أنه غير المقصود؛ ولهذا امتنع العطف بتاتًا «ووجب أيضًا الفصل».

والمانع من العطف في هذا الموضع «أمر خارجي احتمالي» يمكن دفعه بمعونة قرينة، ومن هذا ومما سبق يُفهم الفرق بين كل من «كمال الانقطاع» و«شبه كمال الانقطاع».

الموضع الخامس: «التوسط بين الكمالين مع قيام المانع» وهو كون الجملتين متناسبتين، وبينهما رابطة قوية، لكن يمنع من العطف مانع، وهو عدم التشريك في الحكم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾.

فجملة «يستهزئ بهم» لا يصح عطفها على جملة «إنَّا معكم» لاقتضائه أنه من مقول المنافقين، والحال أنه من مقوله تعالى «دعاء عليهم» ولا على جملة «قالوا»؛ لئلا يتوهم مشاركته له في التقييد بالظرف، وأنَّ استهزاء الله بهم مقيد بحال خلوهم إلى شياطينهم، والواقع أن استهزاء الله بالمنافقين غير مقيد بحال من الأحوال؛ ولهذا «وجب أيضًا الفصل».

تنبيهان

الأول: لما كانت الحال تجيء جملة، وقد تقترن بالواو وقد لا تقترن؛ فأشبهت الوصل والفصل؛ ولهذا يجب وصل الجملة الحالية بما قبلها بالواو إذا خلت من ضمير صاحبها، نحو: جاء فؤاد والشمس طالعة.[١٦]

ويجب فصلها في ثلاثة مواضع:

(١) إذا كان فعلها ماضيًا تاليًا «إلا» أو وقع ذلك الماضي قبل «أو» التي للتسوية، نحو: «ما تكلم فؤاد إلا قال خيرًا»، وكقول الشاعر:

كن للخليل نصيرًا جار أو عدلًا   ولا تشحَّ عليه جاد أو بخلا

(٢) إذا كان فعلها مضارعًا مثبتًا أو منفيًّا «بما أو لا» نحو: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ ونحو: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ﴾ ونحو:

عَهِدْتُكَ ما تصبو وفيك شبيبة   فما لك بعد الشيب صبا متيَّما

(٣) إذا كانت جملة اسمية واقعة بعد حرف عطف، أو كانت اسمية مؤكدة لمضمون ما قبلها، كقوله تعالى: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ وكقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾.[١٧]

الثاني: عُلم مما تقدم أن من مواضع الوصل اتفاق الجملتين في الخبرية والإنشائية، ولا بد مع اتفاقهما من «جهة» بها يتجاذبان، وأمر «جامع» به يتآخذان، وذلك «الجامع»: إما عقلي،[١٨] أو وهمي،[١٩] أو خيالي.[٢٠]

تمرين آخر

عيِّن أسباب الوصل والفصل في الأمثال الآتية:

قال الله تعالى:

(١) ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

(٢) وقال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

(٣) وقال: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

(٤) وقال جل شأنه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ❁ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ❁ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ❁ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

(٥) وقال أبو العتاهية:

وإذا ابتُلِيتَ ببذل وجهك سائلًا   فابذله للمتكرِّم المِفضال
ما اعتاض باذلٌ وجهَه بسؤاله   عوضًا ولو نال الغنى بسؤالِ

(٦) وقال:

من عرف الناسَ في تصرفهم   لم يتَّبع من صاحبٍ زَللا
إن أنت كافأت من أساء فقد   صرت إلى مثل سوء ما فعلا

(٧) قال أبو تمام:

أولى البرية حقًّا أن تراعيه   عند السرور الذي آساك في الحزن
إن الكرام إذا ما أَيْسَروا ذكروا   من كان يألفهم في المنزل الخشن

(٨) وقال المتنبي:

ذلَّ من يَغبط الذليل بعيش   رُبَّ عيش أخف منه الحِمام
من يهُن يسهل الهوان عليه   مـا لـجـرح بـمـيـت إيـلام

(٩) وقال:

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن   يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

(١٠) وقال أيضًا:

إذا نحن شبهناك بالبدر طالعًا   بخسناك حقًّا أنت أبهى وأجمل

(١١) وقال بشار:

الشـيب كره وكره أن يفـارقـنـي   اعجب لشيء على البغضاء مودود

(١٢) وقال أبو نواس:

عليك باليأس من الناس   إن غِنى نفسك في اليأس

وقال المعري:

إن الشبيبة نار إن أردت بها   أمرًا فبادر إن الدهر مُطْفِيها

وقال الطغرائي:

جامل عدوك ما استطعت فإنه   بالرِّفق يُطمع في صلاح الفاسد
واحذر حسودك ما استطعت فإنه   إن نمت عنه فليس عنك براقد

أسئلة على الوصل والفصل يطلب أجوبتها

ما هو الوصل؟ ما هو الفصل؟ كم موضعًا للوصل؟ كم موضعًا للفصل؟ ما هو الجامع العقلي؟ ما هو الجامع الوهمي؟ ما هو الجامع الخيالي؟ متى يجب وصل الجملة الحالية بما قبلها؟ في كم موضع يجب فصل الجملة الحالية؟

تطبيق عام على الوصل والفصل

جرَّبت دهري وأهليه فما تركتْ   لي التجارِب في ودِّ امرئ غرضا

فصلت الثانية؛ لشبه كمال الاتصال، فإنها جواب سؤال.

﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾.

فصلت الثانية؛ لشبه كمال الاتصال، فإنها جواب سؤال ناشئ مما قبلها.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ عطف الجملة الثانية على الأولى؛ لاتفاقهما في الإنشاء، مع المناسبة التامة بين المفردات، فإن المسند إليه فيهما متحد، والمسند وقيدهما متقابلان.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ عطف الجملة الثانية على الأولى؛ لاتفاقهما خبرًا — لفظًا ومعنًى — مع المناسبة التامة بين مفرداتهما، فإن المسندين المقدرين فيهما متحدان، والمسندان إليهما متقابلان، وقيدهما الأول متحد، والثاني متقابل.

«اشكرِ الله على السراء يُنْجِك من الضراء» لم تعطف الثانية على الأولى؛ لكمال الانقطاع، فإن الأولى إنشائية لفظًا ومعنًى، والثانية عكسها.

«اصبر على كيد الحسود، لا تضجر من مكائده» لم تعطف الثانية على الأولى؛ لكمال الاتصال، فإنها مؤكدة لها.

«أنت حميد الخصال، تصنع المعروف، وتغيث الملهوف» فصلت الثانية من الأولى؛ لكمال الاتصال فإنها بيان لها، ووصلت الثالثة للتوسط بين الكمالين، مع وجود مانع من الوصل.

تمرين

بيِّن سر الفصل والوصل فيما يلي:

(١) أخط مع الدهر إذا ما خطا ... واجر مع الدهر كما يجري

(٢) حكم المنية في البرية جاري ... ما هذه الدنيا بدار قرار

(٣) لا تدعه إن كنت تنصف نائبًا ... هو في الحقيقة نائم لا نائب

(٤) قال لي كيف أنت؟ قلتُ: عليل ... سهر دائم وحزن طويل

(٥) قالت بليت فما نراك كعهدنا ... ليت العهود تجددت بعد البلى

(٦) ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾.

وإنما المرء بأصغريه ... كل امرئ رهن بما لديه

لا تطلبن بآلة لك حاجة ... قلم البليغ بغير حظ مغزل

(٧) يرى البخيل سبيل المال واحدة ... إن الكريم يرى في ماله سبلا

(٨) نفسي له نفسي الفداء لنفسه ... لكن بعض المالكين عفيف

(٩) ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.
(١٠) ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.
(١١) ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾.
(١٢) ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾.

(١٣) يهوَى الثناء مبرَّز ومقصر   حب الثناء طبيعة الإنسان

(١٤) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللهَ﴾.
(١٥) ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾.

(١٦) ألا من يشتري سهرًا بنوم؟   سعيد من يبيت قرير عين

(١٧) فآبوا بالرماح مكسرات   وأُبنا بالسيوف قد انحنينا

(١٨) فما الحداثة عن حلم بمانعة   قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

(١٩) يقولون إني أحمل الضيم عندهم   أعوذ بربي أن يُضام نظيري

(٢٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

(٢١) فيا موتُ زُرْ إن الحياة ذميمة   ويا نفسُ جِدِّي إن دهرك هازلُ

(٢٢) ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾.
(٢٣) ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾.
(٢٤) ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾.
(٢٥) ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ﴾.

(١) وصل بين الجملتين لاتفاقهما إنشاء، مع وجود المناسبة وعدم المانع.

(٢) فصل الشطر الثاني عن الأول؛ لأنه توكيد معنوي له؛ إذ يفهم من جريان حكم الموت على الخلق أن الدنيا ليست دار بقاء، فأكد ذلك بالشطر الثاني، فبينهما كمال الاتصال.

(٣) فصل الشطر الثاني عن الأول لاختلافهما خبرًا وإنشاءً؛ إذ الثاني خبر، والأول إنشاء، فبينهما كمال الانقطاع.

(٤) فصل بين قال وقلت؛ لأن الثاني جواب سؤال؛ إذ جرت العادة أنه إذ قيل للرجل: كيف أنت؟ أن يجيب: «أنا عليل» وكذا بين جملتي سهر دائم وحزن طويل، فكأنه قيل: فما سبب علتك؟ فأجاب: سهر دائم … إلخ، ففي كل منهما شبه كمال الاتصال.

(٥) بين الشطر الثاني والأول كمال الانقطاع؛ لأن أولهما خبر والثاني إنشاء.

(٦) بين جملتي ترى وتحسب كمال الاتصال؛ لأن الثانية بدل اشتمال من الأولى.

(٧) بين الشطر الثاني والأول شبه كمال الاتصال؛ لأن الثانية جواب عن سؤال مقدر من الأولى، كأنه قيل: فما حال الكريم في ماله؟ فقال: إن الكريم … إلخ.

(٨) بين «نفسي له» و«نفسي الفداء» كمال الاتصال؛ لأن الثانية توكيد لفظي للأولى.

(٩) «إن هذا إلا ملك» توكيد معنوي لقوله: «ما هذا بشرًا»؛ إذ مجرى العادة والعرف أنه إذا قيل في معرض المدح: ما هذا بشرًا، وما هذا بآدمي — أن يكون الغرض أنه ملك، فيكنى به عن ذلك، فبينهما كمال الاتصال.

(١٠) بين «يدبر» و«يفصل» كمال الاتصال؛ لأن الثانية بدل بعض من كل.

(١١) بين قوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ كمال الاتصال؛ لأن الثانية توكيد معنوي؛ لأن تقرير كونه وحيًا نفي لأَنْ يكون عن هوًى.

(١٢) بين «قالوا» و«قال» شبه كمال الاتصال؛ لأن الثانية جواب عن سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال لهم حينئذ؟ أجيب بأنه قال: سلام. وهكذا الحال في حكاية القصص في كل ما جاء في القرآن الكريم، والحديث النبوي، وكلام العرب.

(١٣) فُصل بين الشطر الثاني والأول؛ لأن بينهما كمال الاتصال؛ إذ الشطر الثاني مؤكِّد للأول.

(١٤) فصل جملة «يخادعون» عما قبلها؛ لأن بينهما كمال الاتصال؛ لأن هذه المخادعة ليست شيئًا غير قولهم: «آمنا» دون أن يكونوا مؤمنين، فهي إذًا توكيد معنوي للأولى.

(١٥) فُصلت جملتا «كأن لم يسمعها» و«كأن في أذنيه وقرًا» عما قبلهما؛ لأنهما كالتوكيد له؛ إذ المقصد من التشبيهين واحد، وهو أن ينفي الفائدة في تلاوة ما تُلي عليه من الآيات، فهما من كمال الاتصال.

(١٦) فُصل الشطر الثاني عن الأول لاختلافهما خبرًا وإنشاء، فبينهما كمال الانقطاع.

(١٧) بين جملتي «آبوا» و«أبنا» توسط بين الكمالين؛ لاتفاقهما في الخبرية في وجود المناسبة.

(١٨) بين الشطر الثاني والأول شبه كمال الاتصال؛ إذ الثاني جواب سؤال مقدر.

(١٩) هذا البيت من حيث عدم عطف «أعوذ» على ما قبله، على حد قوله: تظن سلمى ... إلخ.

(٢٠) لم تُعطف على ما قبلها مع أن بينهما مناسبة في المعنى بالتضاد؛ لأنها مبينة لحال الكفار، وما قبلها مبيِّن لحال المؤمنين، وأن بيان حال المؤمنين غير مقصود لذاته، بل ذكر استتباعًا لبيان حال الكفار، وليس بين بيان حال المؤمنين وحال الكفار مناسبة تقتضي الوصل.

(٢١) لم يعطف قوله: «إن الحياة» على ما قبله؛ لأنه جواب لسؤال مقدر كأنه قيل: لماذا تطلب زيارة الموت؟ فأجاب: إن الحياة ذميمة.

(٢٢) لم يعطف قوله: «يذبحون» على «يسومون»؛ لكونه بيانًا له.

(٢٣) فجملة «تحسبها جامدة» بدل اشتمال.

(٢٤) فجملة «يفصل الآيات» بدل بعض.

(٢٥) فجملة «يَلْقَ أثامًا» بدل كل، وقد أنكر بدل الكل علماء البيان خلافًا للنحاة.

هوامش

(١) إذا توالت الجملتان: لا يخلو الحال من أن يكون للأولى محل من الإعراب أو لا، وإن كان لها محل من الإعراب فلا بد من أن يُقصد تشريك الثانية لها في حكم الإعراب أو لا، فإن قُصد التشريك عُطفت الثانية عليها نحو: «الله يحيي ويميت» وإلا فُصلت عنها نحو: ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ لم يُعطف قوله: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ على ما قبله؛ لئلا يشاركه في حكم المفعولية للقول، وهو ليس مما قالوه كما سيأتي.

وإن لم يكن لها محل من الإعراب فإن كان لها حكم لم يُقصد إعطاؤه للثانية وجب الفصل؛ دفعًا للتشريك بينهما، نحو: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ * اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ لم يُعطف قوله: «الله يعلم» على ما قبله؛ لئلا يشاركه في حكم القصر، فيكون تعالى مقصورًا على هذا العلم، وإن لم يكن لها ذلك الحكم نحو: «زيد خطيب وعمرو متشرع» أو قصد إعطاء حكمها للثانية، نحو: «إنما زيد كاتب وعمرو شاعر»

— وجب الوصل كما رأيت، ما لم تكن إحدى الجملتين مطلقًا منقطعة عن الأخرى انقطاعًا كاملًا، بحيث لا يصلح ارتباطهما، أو متصلة بها اتصالًا كاملًا بحيث لا تصح المغايرة بينهما، فيجب الفصل لتعذر ارتباط المنقطعتين بالعطف وعدم افتقار المتصلتين إلى ارتباط به، ويُحمل شبه كل واحد من الكمالين عليه فيُعطى حكمه.

واعلم أنه لا يُقبَل في العطف إلا عطف المتناسبات مفردة أو جملًا بالواو أو غيرها، فالشرط وجود جهة جامعة بين المتعاطفات، فنحو: «الشمس والقمر والسماء والأرض» محدثة «مقبول»، ونحو: «الشمس والأرنب والحمار» محدثة «غير مقبول»، لكن إصلاحهم اختصاص الوصل والفصل «بالجملة وبالواو» فلا يحسن الوصل إلا بين الجمل المتناسبة، لا المتحدة ولا المتباينة، وإلا فصل.

واعلم أنه إن وُجدت الواو بدون معطوف عليه قُدر مناسب للمقام، نحو: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا﴾ فنقدر «أكفروا وكلما عاهدوا» لأن الهمزة تستدعي فعلًا.

(٢) الوصل يقع وجوبًا بين جملتين متناسبتين، لا متحدتين، ولا مختلفتين، كما سيأتي تفصيل ذلك.

(٣) المعول عليه اتحادهما في المعنى؛ لأن العبرة به، ولا قيمة لاختلاف الصورة اللفظية.

(٤) في هذا الكلام جملتان خبريتان وُصلت الثانية بالأولى؛ لأن بين الجملتين تناسبًا في الفكر، فإذا جرى في الذهن حال أحد الفريقين تصور حال الفريق الآخر.

(٥) والداعي لذكر الجملة الثانية إنشائية، ولم تذكر كالأولى خبرية؛ لأجل التحاشي عن مساواة شهادتهم بشهادته عز وجل، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

(٦) اعلم أن صور الجملتين ثمانية؛ لأنهما:

«إما خبريتان» لفظًا ومعنًى، أو معنًى لا لفظًا، أو الأول جملة خبرية معنًى لا لفظًا، أو بالعكس.

«وإما إنشائيتان» لفظًا ومعنًى، ومعنًى لا لفظًا، أو الأولى جملة خبرية صورة والثانية إنشائية، أو بالعكس؛ كما مثلنا.

(٧) أما إذا لم يحصل إيهام خلاف المقصود فيجب الفصل، نحو: «سافر فلان سلمه الله».

(٨) فجملة «شفاه الله» خبرية لفظًا إنشائية معنًى، والعبرة بالمعنى. واعلم أن الجملة الأولى المدلول عليها بكلمة «لا» جملة خبرية؛ إذ التقدير «لا برء حاصل له»؛ وهكذا يُقدَّر المحذوف بحسب كل مثال يليق به.

(٩) كما حُكي: أن «أبا بكر» مر برجل في يده ثوب، فقال له: أتبيع هذا؟ فقال الرجل «لا، يرحمك الله.» فقال أبو بكر «لا تقل هكذا، بل قل: لا، ويرحمك الله.» وهكذا إذا سئلت عن مريض: هل أَبَلَّ؟ فقل: «لا، وشفاه الله» حتى لا يتوهم السامع أنك تدعو عليه، وأنت تريد الدعاء له، فالجملة الأولى المدلول عليها بكلمة «لا» خبرية، والثانية إنشائية في المعنى؛ لأنها لطلب الرحمة والشفاء، وكان الواجب الفصل بينهما، لولا ما يُسببه الفصل من الوهم.

(١٠) فجملة «يقول» في محل رفع خبر المبتدأ، وكذلك جملة «ويفعل» معطوفة على جملة يقول، وتشاركها بأنها في محل رفع خبر ثانٍ للمبتدأ، فاشتراك الجملتين في الحكم الإعرابي يُوجب الوصل، وحكم هذه الجملة حكمُ المفرد المقتضي مشاركة الثاني للأول في إعرابه، والأحسن أن تتفق الجملتان في الاسمية والفعلية، والفعليتان في الماضوية والمضارعية؛ أي أن تُعطف الاسمية على مثلها، وكل من الماضوية والمضارعية على مثلها، وكذا الاسميتان في نوع المسند من حيث «الإفراد – والجملة – والظرفية»، ولا يحسن العدول عن ذلك إلا لأغراض:

(أ) كحكاية الحال الماضية، واستحضار الصور الغريبة في الذهن، نحو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾، ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

(ب) وكإفادة التجدد في إحداهما، والثبوت في الأخرى، نحو: ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ فقد لوحظ في الأولى إحداث تعاطي الحق، وفي الثانية الاستمرار على اللعب والثبات على حالة الصبا. ونحو: الصديق يكاتبني وأنا مقيم على وده؛ وذلك لأن الدلالة على التجدد تكون بالجملة الفعلية، وعلى الثبات في الجملة الاسمية، ومثل هذا يحصل عند إرادة المضي في إحداهما والمضارعية في الأخرى.

(١١) الفصل: ترك الربط بين الجملتين؛ إما لأنهما متحدتان صورة ومعنًى أو بمنزلة المتحدتين، وإما لأنه لا صلة بينهما في الصورة أو في المعنى.

(١٢) هذا في بدل البعض، وأما في بدل الكل فنحو قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ فجملة: ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ قالوا: كالبدل المطابق، وأما بدل الاشتمال فنحو قوله:

أقول له ارحل لا تقيمن عندنا وإلا فكن في السر والجهر مسلما

فجملة: «لا تقيمن» بمنزلة البدل من جملة «ارحل» بدل اشتمال؛ لأن بينهما مناسبة بغير الكلية والجزئية.

(١٣) أي: أوقفوا السفينة كي نباشر الحرب، ولا تخافوا من الموت، فإن لكل أجل كتابًا؛ أي: فالمانع من العطف في هذا الموضع أمر ذاتي لا يمكن دفعه أصلًا، وهو كون أحدهما جملة خبرية، والأخرى إنشائية، ولا جامع بينهما.

(١٤) الجملة الثانية شديدة الارتباط بالجملة الأولى؛ لأنها جواب عن سؤال نشأ من الأولى «لِمَ لا تبرئ نفسك؟» فقال: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾، فهذه الرابطة القوية بين الجملتين مانعة من العطف، فأشبهت حالة اتحاد الجملتين؛ وبذلك ظهر الفرق بين كمال الاتصال.

(١٥) وبيان ذلك بعبارة أخرى أنه إذا اجتمعت جملتان فذلك على خمسة أحوال:

أولًا: أن تكون الثانية بمعنى الأولى، أو جزء منها، فيجب ترك العطف؛ لأن الشيء لا يُعطف على نفسه، وكذا الجزء لا يعطف على كله.

فيقال حينئذ: إن بين الجملتين كمال الاتصال، ومواضعه:

(أ) أن تكون الثانية توكيدًا للأولى، مثل قوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

(ب) أن تكون الثانية بدلًا من الأولى، مثل: «أطعت الله – أديت الصلاة».

(جـ) أن تكون الثانية بيانًا للأولى، مثل: «بثني شكواه» قال: إني لا أجد قوت يومي.

ثانيًا: أن تكون الثانية مباينة للأولى تمام المباينة، فيجب ترك العطف؛ لأن العطف يكون للربط، ولا ربط بين المتباينين، فيقال: بين الجملتين كمال الانقطاع، ومواضع ذلك:

(أ) أن تختلفا خبرًا وإنشاء، مثل: مات فلان رحمه الله.

إلا إذا أوهم ترك العطف خلاف المقصود فيجب العطف، نحو: «لا وشفاك الله».

(ب) أن تتحدا خبرًا وإنشاءً، ولكن لا يوجد بينهما رابط، مثل: «القمر طالع – أكلت كثيرًا».

ثالثًا: أن تكون الجملتان متناسبتين وبينهما رابطة، ويسمى ذلك التوسط بين الكمالين، وذلك على نوعين:

(أ) ألا يمنع من العطف مانع فيعطف، مثل: «اجتهدوا وتأدبوا».

(ب) أن يمنع من العطف مانع وهو عدم قصد التشريك في الحكم؛ ليمتنع العطف مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾.

رابعًا: أن تكون الثانية قوية الرابطة بالأولى؛ لأنها جواب عن سؤال يُفهم من الأولى، فهذه الرابطة القوية تمنع العطف؛ لأنها أشبهت حالة اتحاد الجملتين، ويُسمى ذلك «شبه كمال الاتصال» مثل: «رأيته مبتسمًا – أظنه نجح».

خامسًا: أن تكون الأخيرة مناسبة للأولى، ولا مانع من عطفها عليها، ولكن يعرض حائل بينهما، وهو جملة أخرى ثالثة متوسطة، فلو عطفت الثالثة على الأولى المناسبة لها لتوهم أنها معطوفة على المتوسطة، فامتنع العطف بتاتًا، وأصبحت الجملتان كأنهما منقطعتان بهذا الحائل، ويُسمى ذلك «شبه كمال الانقطاع» نحو قول الشاعر:

وتظن سلمى أنني أبغي بها　　　بدلًا أراها في الضلال تهيم

واعلم أن التركيب الذي تجاذبت فيه أسباب الوصل وتعاضدت دواعيه قد يُفصل إما لمانع من تشريك الجملة الثانية مع الأولى، ويُسمى قطعًا كما سبق، وإما لجعله جواب سؤال مقدر لإغناء السامع عنه «أو لكراهة سماعه له لو سأل، أو لكراهة انقطاع كلامه بكلام السائل، أو للاختصار ويُسمى الفصل لذلك استئنافًا، كقوله:

في المهد ينطق عن سعادة جده　　　أثر النجابة ساطع البرهان

على تقدير أنه جواب: كيف ينطق وهو رضيع لم يبلغ أوان النطق»!

(١٦) بيان ذلك أن الحال: إما مؤكدة، فلا واو للاتحاد بين الجملتين؛ لأنها مقررة لمضمونها، نحو: «سعد أبوك كريم».

وإما منتقلة لحصول معنى حال النسبة «أي نسبة العامل إلى صاحب الحال» يلزم فيها أمران: الحصول والمقاربة، فالحال المفردة صفة في المعنى، فلا تحتاج لواو للاتحاد.

وأما الحال الجملة فالمضارع المثبت لا يؤتى له بواو للارتباط معنًى لوجود الحصول والمقارنة معًا، فلا حاجة للربط بها، نحو: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ ونحو: «قدم الأمير تتسابق الفرسان أمامه»، ولا يجوز: «وجاءوا أباهم عشاء ويبكون» ولا «قدم الأمير وتتسابق» وهذه إحدى المسائل السبع المذكورة في النحو التي تمتنع فيها الواو.

الثانية: الحال الواقعة بعد عاطف، نحو: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾.
الثالثة: المؤكدة لمضمون الجملة، نحو: «هو الحق لا شك فيه، ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.
الرابعة: الماضي التالي «ما تكلم زيد إلا قال خيرًا».
وقيل: يجوز اقترانه بالواو كما ورد في قوله:

نعم امرؤ هرم لم تَعْرُ نائبةٌ   إلا وكان لَمُرتاعٌ بها وِزْرا

الخامسة: الماضي المتلو بأو، نحو: «لأضربنه ذهب أو مكث» ومنه قول الشاعر:

كن للخليل نصيرًا جارَ أَوْ عَدَلًا   ولا تشحَّ عليه جادَ أو بَخِلا

السادسة: المضارع المنفي بلا، نحو: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ﴾، ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾، وقوله:

لـو أن قـومًا لارتـفـاع قـبـيـلـة   دخلوا السماء دخلتها لا أحجب

السابعة: المضارع المنفي بما، كقوله:

عهدتك ما تصبو وفيك شبيبة   فما لك بعد الشيب صبًّا مُتَيَّما

وأبعد الجمل في الصلاح للحالية الجملة الاسمية لدلالتها على الثبوت، لا على الحصول والمقارنة، فيجب فيها الواو، نحو: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.
وقد يُكتفى فيها بالضمير ندورًا، نحو: «كلَّمتُه فوه إلى في» أي مشافهة، ثم الماضي مثبتًا لعدم المقارنة فيحسن معها الواو؛ لأن الماضي يدل على الحصول المتقدم، لا الحصول حال النسبة.
وتجب «قد» تحقيقًا أو تقديرًا؛ لتقربه من الحال؛ أي: لتجعل «قد» الفعل الماضي الدال على حصول متقدم — لا حصول حال النسبة — قريبًا من حال النسبة، لا من حال التكلم؛ إذ اللازم في الحال مقارنتها لزمان النسبة لا لزمان التكلم، وإنما اكتُفي

بهذا التقريب في صحة الحال وإن كان اللازم الاقتران؛ إما لأنه ينزل قرب الحال إلى زمان النسبة منزلة المقارنة مجازًا، وإما لأنه يعتبر قربها في الفعل هيئة للفعل.

فإذا قلت: «جاءني زيد وقد ركب» فكأنك نزلت قرب ركوبه من مجيئه منزلة مقارنته له، أو جعلت كون مجيئه بحيث يقرب ركوبه هيئة لمجيئه، وحالًا له.

قالوا: وتمتنع «قد» مع الماضي الممتنع ربطه بالواو، وهو التالي إلا والمتلو بأو، لكن في «شرح الرضي» أنهما قد يجمعان بعد إلا، نحو: «ما لقيته إلا وقد أكرمني» ويلي الماضي المثبت، الماضي المنفي؛ لأنه هيئة للفعل بالتأول؛ لأن قولك: «جاء زيد ليس راكبًا» في قوة: «جاء زيد ماشيًا» فيتحقق الحصول أو يستمر غالبًا، فيقارن كذلك، فيحسن ترك الواو؛ نظرًا إلى تحقق الحصول والمقارنة، ويجوز ذكرها أيضًا؛ نظرًا إلى كونه ما كان هيئة للفعل إلا بعد تأويل، ونظرًا إلى كون استمراره أغلبيًّا لا دائميًّا.

والأحسن في الظرف إذا وقع حالًا ترك الواو؛ نظرًا للتقدير بمفرد، تقول: «نظرت الهلال بين السحاب»، ومثله الجار والمجرور، نحو: «فخرج على قومه في زينته» ونحو: «أبصرت البدر في السماء» وإن جوزوا الواو بتقدير فعل ماض.

وما يُخشَى فيه التباسُ الحالِ بالصفة أُتِيَ فيه بالواو وجوبًا؛ ليتميز الحال، فيقال: «جاء رجل ويسعى»؛ إذ لو قيل: «يسعى» لالتبس الحال بالصفة في مثله.

(١٧) لما كان قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ فيه مظنة مجازفة بسبب إيراد المسند إليه اسم إشارة والمسند معرفًا بأل — أكده بقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ تأكيدًا معنويًّا.

ولما كانت الدعوى المذكورة مع ادعاء عدم المجازفة مظنة استبعاد، أكده بقوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ تأكيدًا لفظيًّا حتى كأنه نفس الهداية.

(١٨) فالجامع العقلي: أمر بسببه يقتضي العقل اجتماع الجملتين في القوة المفكرة كالاتحاد في المسند أو المسند إليه أو في قيد من قيودهما، نحو: «زيد يصلي ويصوم» و«يصلي زيد وعمرو» ... و«زيد الكاتب شاعر» و«عمرو الكاتب منجم» ... و«زيد ماهر» و«عمرو طبيب ماهر» وكالتماثل والاشتراك فيهما، أو في قيد من قيودهما أيضًا، بحيث يكون التماثل له نوع اختصاص بهما أو بالقيد لا مطلق تماثل.

فنحو: «زيد شاعر وعمرو كاتب» لا يحسن إلا إذا كان بينهما مناسبة لها نوع اختصاص بهما، كصداقة أو أخوة أو شركة أو نحو ذلك، وكالتضايف بينهما؛ بحيث لا يتعقل أحدهما إلا بالقياس إلى الآخر، كالأبوة مع البنوة، وللعلة مع المعلول، والعُلْو والسُّفْل، والأقل والأكثر؛ إلى غير ذلك.

(١٩) والجامع الوهمي: أمر بسببه يقتضي الوهم اجتماع الجملتين في المفكرة كشبه التماثل الذي بين نحو لوني البياض والصفرة؛ فإن الوهم يبرزهما في معرض المثلين من جهة أنه يسبق إليه أنهما نوع واحد، زائد في أحدهما عارض في الآخر، بخلاف العقل فإنه يدرك أنهما نوعان متباينان داخلان تحت جنس واحد هو اللون.

وكالتضاد بالذات وهو التقابل بين أمرين موجودين بينهما غاية الخلاف، يتعاقبان على محل واحد، وكالسواد والبياض، أو التضاد بالعرض كالأسود والأبيض؛ لأنهما ليسا ضدين لذاتهما لعدم تعاقبهما على محل واحد، بل بواسطة ما يشتملان عليه من سواد وبياض، وكشبه التضاد كالسماء والأرض، فإن بينهما غاية الخلاف ارتفاعًا وانخفاضًا، لكن لا يتعاقبان على محل واحد كالتضاد بالذات، ولا على ما يشمله كالتضاد بالعرض.

(٢٠) والجامع الخيالي: أمر بسببه يقتضي الخيال اجتماع الجملتين في المفكرة، بأن يكون بينهما تقارن في الخيال سابق على العطف لتلازمهما في صناعة خاصة أو عرف عام؛ كالقَدُّوم والمِنشار والمِنقاب في خيال النجار، والقلم والدواة والقِرطاس في خيال الكاتب، وكالسيف والرمح والدرع في خيال المحارب … وهلم جرًّا.

وللقرآن الكريم اليد البيضاء في هذا الباب، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ فالمناسبة بين الإبل والسماء وبينها وبين الجبال والأرض — غير موجودة بحسب الظاهر، ولكنه «أسلوب حكيم» في غاية البلاغة؛ لأنه لما كان الخطاب مع العرب، وليس في تخيلاتهم إلا الإبل، لأنها رأس المنافع عندهم، والأرض لرعيها والسماء لسقيها، وهي التي توصلهم إلى الجبال التي هي حصنهم عندما تفاجئهم حادثة — أورد الكلام على طبق ما في تخيلاتهم.

الباب التاسع

في الإيجاز والإطناب والمساواة

كل ما يجول في الصدر من المعاني، ويخطر ببالك معنًى منها — لا يعدو التعبير[1] عنه طريقًا من طرق ثلاث:

أولًا: إذا جاء التعبير على قدر المعنى، بحيث يكون اللفظ مساويًا لأصل ذلك المعنى، فهذا هو «المساواة»، وهي الأصل الذي يكون أكثر الكلام على صورته، والدستور الذي يُقاس عليه.

ثانيًا: إذا زاد التعبير على قدر المعنى لفائدة، فذاك هو «الإطناب»، فإن لم تكن الزيادة لفائدة فهي حشو أو تطويل.

ثالثًا: إذا نقص التعبير على قدر المعنى الكثير، فذلك هو «الإيجاز».[2]

فكل ما يخطر ببال المتكلم من المعاني فله في التعبير عنه بإحدى هذه الطرق الثلاث.

فتارة «يُوجز» وتارة «يُسهب» وتارة يأتي بالعبارة «بين بين».

ولا يعد الكلام في صورة من هذه الصور بليغًا، إلا إذا كان مطابقًا لمقتضى حال المخاطب، ويدعو إليه موطن الخطاب.

فإذا كان المقام للإطناب مثلًا، وعدلت عنه إلى الإيجاز أو المساواة، لم يكن كلامك بليغًا، وفي هذا الباب ثلاثة مباحث.

(١) المبحث الأول: في الإيجاز وأقسامه

الإيجاز: هو وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ أقل[٣] منها، وافية بالغرض المقصود، مع الإبانة والإفصاح، كقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، فهذه الآية القصيرة جمعت مكارم الأخلاق بأسرها.

وكقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، وكقوله عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات.»

فإذا لم تفِ العبارة بالغرض سُمي «إخلالًا وحذفًا رديئًا» كقول اليشكري:

والعيش خير في ظلا ل النَّوْك ممن عاش كدًّا

مراده: أن العيش الناعم الرَّغد في حال الحمق والجهل خير من العيش الشاق في حال العقل، لكن كلامه لا يعد صحيحًا مقبولًا.

وينقسم الإيجاز إلى قسمين: إيجاز قصر[٤] وإيجاز حذف.

فـ «إيجاز القصر» (ويُسمى إيجاز البلاغة) يكون بتضمين المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة من غير حذف، كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾.

فإن معناه كثير، ولفظه يسير؛ إذ المراد أن الإنسان إذا علم أنه متى قَتَلَ قُتِلَ امتنع عن القتل، وفي ذلك حياته وحياة غيره؛ لأن القتل أنفى للقتل،[٥] وبذلك تطول الأعمار، وتكثر الذرية، ويقبل كل واحد على ما يعود عليه بالنفع، ويتم النظام، ويكثر العمران.

فالقصاص: هو سبب ابتعاد الناس عن القتل، فهو الحافظ للحياة.

وهذا القسم مطمح نظر البلغاء، وبه تتفاوت أقدارهم، حتى إن بعضهم سُئل عن «البلاغة» فقال: هي «إيجاز القصر».

وقال أكثم بن صيفي خطيب العرب: «البلاغة الإيجاز.»

و«إيجار الحذف» يكون بحذف شيء من العبارة لا يخِلُّ بالفهم، عند وجود ما يدل على المحذوف من قرينة لفظية أو معنوية.

وذلك المحذوف إما أن يكون:

(١) حرفًا، كقوله تعالى: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أصله: ولم أكن.[٦]

(٢) أو اسمًا مضافًا، نحو: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أي: في سبيل الله.

(٣) أو اسمًا مضافًا إليه، نحو: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ أي: بعشر ليالٍ.

(٤) أو اسمًا موصوفًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾؛ أي: عملًا صالحًا.

(٥) أو اسمًا صفة، نحو: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾؛ أي: مضافًا إلى رجسهم.

(٦) أو شرطًا، نحو: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾؛ أي: فإن تتبعوني.

(٧) أو جواب شرط، نحو: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾؛ أي: لرأيت أمرًا فظيعًا.

(٨) أو مسندًا، نحو: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾؛ أي: خلقهن الله.

(٩) أو مسندًا إليه، كما في قول حاتم:

أماويُّ ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

أي: إذا حشرجت النفس يومًا.

(١٠) أو متعلقًا، نحو: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾؛ أي: عما يفعلون.

(١١) أو جملة، نحو: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ﴾؛ أي: فاختلفوا فبعث.

(١٢) أو جملًا، كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾[٧] أي: فأرسلوني إلى يوسف لأستعبره الرؤيا، فأرسلوه فأتاه، وقال له: يوسف أيها الصديق.

واعلم أن دواعي الإيجاز كثيرة: منها الاختصار، وتسهيل الحفظ، وتقريب الفهم، وضيق المقام، وإخفاء الأمر على غير السامع، والضجر والسآمة، وتحصيل المعنى الكثير باللفظ اليسير ... إلخ.

ويستحسن «الإيجاز» في الاستعطاف، وشكوى الحال، والاعتذارات والتعزية، والعتاب، والوعد، والوعيد، والتوبيخ، ورسائل طلب الخراج، وجباية الأموال، ورسائل الملوك في أوقات الحرب إلى الولاة، والأوامر والنواهي الملكية، والشكر على النعم.

ومرجعك في إدراك أسرار البلاغة إلى الذوق الأدبي، والإحساس الروحي.

(٢) المبحث الثاني: في الإطناب وأقسامه

الإطناب: زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، أو هو تأدية المعنى بعبارة زائدة عن متعارف أوساط البلغاء لفائدة تقويته وتوكيده، نحو: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾؛ أي: كبرتُ.

فإذا لم تكن في الزيادة فائدة يُسمى «تطويلًا» إن كانت الزيادة في الكلام غير متعينة.

ويُسمى «حشوًا» إن كانت الزيادة في الكلام متعينة لا يفسد بها المعنى.

فالتطويل كقول عدي العبادي في جذيمة الأبرش:

وقدَّدت الأديم لراهشَيْهِ   وأَلْفَى قولَها كذبًا ومَيْنا[٨]

فالمَيْن والكذب بمعنًى واحد، ولم يتعين الزائد منهما؛ لأنَّ العطف بالواو لا يفيد ترتيبًا ولا تعقيبًا ولا معية، فلا يتغير المعنى بإسقاط أيهما شئت.

والحشو كقول زهير بن أبي سلمى:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله   ولكنني عن علم ما في غد عمي[٩]

وكل من الحشو والتطويل معيب في البيان، وكلاهما بمعزل عن مراتب البلاغة.

واعلم أن دواعي الإطناب كثيرة: منها تثبيت المعنى، وتوضيح المراد والتوكيد، ودفع الإيهام، وإثارة الحمية؛ وغير ذلك.

وأنواع الإطناب كثيرة:[١٠]

(١) منها: ذكر الخاص بعد العام، كقوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾، وفائدته التنبيه على مزية وفضل في الخاص، حتى كأنه لفضله ورفعته جزء آخر مغاير لما قبله؛ ولهذا خص الصلاة الوسطى «وهي العصر» بالذكر لزيادة فضلها.

(٢) ومنها: ذكر العام بعد الخاص، كقوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.[١١]

وفائدته شمول بقية الأفراد، والاهتمام بالخاص لذكره ثانيًا في عنوان عام، بعد ذكره أولًا في عنوان خاص.

(٣) ومنها: الإيضاح بعد الإيهام؛ لتقرير المعنى في ذهن السامع بذكره مرتين، مرة على سبيل الإيهام والإجمال، ومرة على سبيل التفصيل والإيضاح، فيزيده ذلك نبلًا وشرفًا، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾.

فقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ﴾ تفسير وتوضيح لـ «ذلك الأمر» المبهم، وفائدته توجيه الذهن إلى معرفته، وتفخيم شأن المبين، وتمكينه في النفس، فأبهمَ في كلمة «الأمر» ثم وضحه بعد ذلك؛ تهويلًا لأمر العذاب.

(٤) ومنها: التوشيع، وهو أن يؤتى في آخر الكلام بمثنًّى مفسر بمفردين؛ ليرى المعنى في صورتين، تخرج فيهما من الخفاء المستوحش إلى الظهور المأنوس، نحو: «العلم علمان: علم الأبدان، وعلم الأديان».

(٥) ومنها: التكرير، وهو ذكر الشيء مرتين أو أكثر لأغراض:

الأول: التأكيد وتقرير المعنى في النفس، كقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾،[١٢] وكقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

الثاني: طول الفصل؛ لئلا يجيء مبتورًا ليس له طلاوة، كقوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ فكرر «رأيت» لطول الفصل. ومن هذا قول الشاعر:

وإن امرأ دامت مواثيق عهده على مثل هذا إنه لكريم[١٣]

الثالث: قصد الاستيعاب، نحو: قرأت الكتاب بابًا بابًا، وفهمته كلمة كلمة.

الرابع: زيادة الترغيب في العفو، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

الخامس: الترغيب في قبول النصح باستمالة المخاطب لقبول الخطاب، كقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾.

تكرير «يا قوم» تعطيف لقلوبهم؛ حتى لا يشكُّوا في إخلاصه لهم في نصحه.

السادس: التنويه بشأن المخاطب، نحو: إن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إبراهيم.

السابع: الترديد، وهو تكرار اللفظ متعلقًا بغير ما تعلق به أولًا، نحو:

السخيُّ قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة.

البخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة.

الثامن: التلذذ بذكره، نحو قول مروان بن أبي حفصة:

سقى الله نجدًا والسلام على نجد ويا حبذا نجد على القرب والبعد

التاسع: الإرشاد إلى الطريقة المثلى، كقوله تعالى: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾.

(٦) ومنها: الاعتراض لغرض يقصده المتكلم، وهو أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين في المعنى — بجملة معترضة أو أكثر لا محل لها من الإعراب.[١٤]

وذلك لأغراض يرمي إليها البليغ غير دفع الإيهام:

(أ) كالدعاء، نحو: إني «حفظك الله» مريض.

وكقول عوف بن محلم الشيباني:

إن الثمانين وبُلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان[١٥]

(ب) والتنبيه على فضيلة العلم، كقول الآخر:

واعلم فعلم المرء ينفعه أن سوف يأتي كل ما قُدِّرا

(ج) والتنزيه، كقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾.

(د) وزيادة التأكيد، كقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

(هـ) والاستعطاف، كقول الشاعر:

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه يا جنتي لرأيت فيه جهنما

(و) والتهويل، نحو: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

(٧) ومنها: الإيغال، وهو ختم الكلام بما يفيد نكتة، يتم المعنى بدونها، كالمبالغة في قول الخنساء:

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

فقولها: «كأنه علم» وافٍ بالمقصود، لكنها أعقبته بقولها «في رأسه نار» لزيادة المبالغة، ونحو: قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

(٨) ومنها: التذييل، وهو تعقيب جملة بجملة أخرى مستقلة، تشتمل على معناها؛ تأكيدًا لمنطوق الأولى، أو لمفهومها،[١٦] نحو قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

ونحو قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾.

والتذييل «قسمان»: قسم يستقل بمعناه؛ لجريانه مجرى المثل، وقسم لا يستقل بمعناه؛ لعدم جريانه مجرى المثل.

فالأول: الجاري مجرى الأمثال؛ لاستقلال معناه، واستغنائه عما قبله، كقول طَرَفة:

كل خليل قد كنت خاللته لا ترك الله له واضحَهْ
كلكم أروغ من ثعلب ما أشبه الليلة بالبارحَةْ

والثاني: غير الجاري مجرى الأمثال؛ لعدم استغنائه عما قبله، ولعدم استقلاله بإفادة المعنى، كقول النابغة:

لم يُبْقِ جودُك لي شيئًا أؤمِّله تركتني أصحب الدنيا بلا أمل

فالشطر الثاني مؤكد للأول، وليس مستقلًّا عنه، فلم يجرِ مجرى المثل.

(٩) ومنها: الاحتراس، ويقال له: التكميل، وهو أن يُؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الوهم.

فالاحتراس يوجد حيثما يأتي المتكلم بمعنًى يمكن أن يدخل عليه فيه لوم، فيفطن لذلك، ويأتي بما يخلصه، سواء أوقع الاحتراس في وسط الكلام، كقول طرفة بن العبد:

فسقى ديارَك غير مفسدها   صوبُ الربيع وديمةٌ تهمي[١٧]

فقوله: «غير مفسدها» للاحتراس.

أو وقع الاحتراس في آخره، نحو: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾؛ أي: مع حب الطعام، واشتهائهم له، وذلك أبلغ في الكرم، فلفظ «علي حُبِّه» فضلة للاحتراس ولزيادة التحسين في المعنى.

وكقول أعرابية لرجل: «أذل الله كل عدو لك إلا نفسك.»

(١٠) ومنها: التتميم، وهو زيادة فضلة، كمفعول أو حال أو تمييز أو جار ومجرور، توجد في المعنى حُسنًا بحيث لو حذفت صار الكلام مبتذلًا، كقول ابن المعتز يصف فرسًا:

صببنا عليها «ظالمين» سياطنا   فطارت بها أيدٍ سراعٌ وأرجلُ

إذ لو حذف «ظالمين» لكان الكلام مبتذلًا، لا رقة فيه ولا طلاوة، وتوهم أنها بليدة تستحق الضرب.

ويستحسن الإطناب في الصلح بين العشائر، والمدح، والثناء، والذم، والهجاء، والوعظ، والإرشاد، والخطابة في أمر من الأمور العامة، والتهنئة، ومنشورات الحكومة إلى الأمة، وكتب الولاة إلى الملوك لإخبارهم بما يحدث لديهم من مهام الأمور.

وهناك أنواع أخرى من الإطناب، كما تقول في الشيء المستبعد: «رأيته بعيني وسمعته بأذني وذقته بفمي» تقول ذلك لتأكيد المعنى وتقريره.

وكقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ السقف لا يخر طبعًا إلا من فوق، ولكنه دل بقولهم: «من فوقهم» على الإحاطة والشمول.

واعلم أن الإطناب أرجح عند بعضهم من الإيجاز، وحجته في ذلك أن المنطق إنما هو البيان، والبيان لا يكون إلا بالإشباع، والإشباع لا يقع إلا بالإقناع، وأفضل الكلام أبينه، وأبينه أشده إحاطة بالمعاني، ولا يُحاط بالمعاني إحاطة تامة إلا بالاستقصاء والإطناب.

والمختار أن الحاجة إلى كل من الإطناب والإيجاز ماسة، وكل موضع لا يسد أحدهما مكان الآخر فيه، وللذوق السليم القول الفصل في موطن كل منهما.

(٣) المبحث الثالث: في المساواة

المساواة: هي تأدية المعنى المراد بعبارة مساوية له،[١٨] بأن تكون الألفاظ على قدر المعاني، لا يزيد بعضها على بعض.

ولسنا بحاجة إلى الكلام على المساواة؛ فإنها هي الأصل المقيس عليه، والدستور الذي يُعتمد عليه.

كقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾.

وكقوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

وكقوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾.

وكقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى.»

فإن اللفظ فيه على قدر المعنى، لا ينقص عنه، ولا يزيد عليه.

وكقول طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلًا ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّد

هذه أمثلة للمساواة، لا يستغني الكلام فيها عن لفظ منه، ولو حُذف منه شيء لأخلَّ بمعناه.

أسئلة على الإيجاز والإطناب والمساواة تُطلب أجوبتها

ما هي المساواة؟ ما هو الإيجاز؟ ما هو الإطناب؟ كم قسمًا للإيجاز؟ ما هو إيجاز القصر؟ ما هو إيجاز الحذف؟ بأي شيء يكون إيجاز الحذف؟ كم قسمًا للإطناب؟ ما هو ذكر الخاص بعد العام؟ ما هو ذكر العام بعد الخاص؟ ما هو الإيضاح بعد الإبهام؟

ما هو التكرار؟ ما هو الاعتراض؟ ما هو الإيغال؟ ما هو التوشيع؟ ما هو التذييل؟ ما هو التكميل؟ ما هو الاحتراس؟ ما هو التتميم؟ ما هو الفرق بين التطويل والحشو؟ ما هي دواعي الإيجاز؟ ما هي دواعي الإطناب؟ كم قسمًا للتذييل؟ أيكون الإطناب بغير هذه الأنواع؟

تطبيق عام على الإيجاز والإطناب والمساواة

«درست الصرف» فيه مساواة؛ لأن اللفظ على قدر المعنى.

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ فيه إطناب بالتتميم؛ فإن «على حبه» فضلة لزيادة التحسين في المعنى.

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ فيه مساواة.

«المرء بأدبه» فيه إيجاز قصر؛ لتضمن العبارة القصيرة معاني كثيرة.

﴿تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ فيه إيجاز حذف وهو «لا».

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ فيه إيجاز حذف جملة. أي: فضرب فانفلق.

«ألا كل شيء ما خلا الله باطل» فيه إطناب بالاحتراس.

إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

فيه الإطناب بالتذييل، والجملة الثانية جارية مجرى المثل.

«جوزي المذنب بذنبه، وهل يجازى إلا المذنب؟!» فيه إطناب بالتذييل، وليس جاريًا مجرى المثل.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ فيه إطناب بالاحتراس.

«البخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة» فيه إطناب بالترديد.

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ فيه إيجاز حذف مضاف؛ أي: ذا البر.

واهتم للسفر القريب فإنه أنأى من السفر البعيد وأشنع

فيه إطناب بالإيغال؛ فإن «أشنع» مزيدة للترتيب في الاهتمام.

﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ فيه إيجاز حذف؛ أي: خلطوا عملًا صالحًا بسيئ.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ فيه إيجاز بحذف الياء، وسبب حذفها أن الليل لما كان غير سارٍ وإنما يسري من فيه نقص منه حرف؛ إشارة إلى ذلك؛ جريًا على عادة العرب في مثل ذلك.

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ فيه إيجاز بحذف جملة؛ أي: فعل ذلك.

تمرين

بيِّن الإيجاز، والإطناب، والمساواة، وأقسام كل منها فيما يأتي:

(١) قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

(٢) وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

(٣) وقال تعالى: ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

(٤) أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفوني

(٥) ﴿فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾.

(٦) ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

(٧) فقلت يمين الله أبرح قاعدًا   ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

(٨) شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة   ويستحل دم الحجاج في الحرم

(٩) وقال تعالى: ﴿تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

(١٠) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾.
وقال الشاعر:

(١١) لله لذة عيش بالحبيب مضت ولم تدم لي وغير الله لم يدم

(١٢) وقال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾.
وقال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.
(١٣) وقل تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

(١٤) حليم إذا ما الحلم زين لأهله مع الحلم في عين العدو مهيب

(١٥) أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرَّهم وأتيناه على هرم

(١٦) وألفيته بحرًا كثيرًا فضوله جوادًا متى يذكر له الخير يزدد

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فذرني أبادرها بما ملكت يدي

ما أحسن الأيام إلا أنها يا صاحبي إذا مضت لم ترجع

ولست بمستبقٍ أخًا لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب

تأمل من خلال السجف وانظر بعينك ما شربت ومن سقاني
تجد شمس الضحى تدنو بشمس إليَّ من الرحيق الخسرواني

(١) في هذه الآية الإطناب بتكثير الجمل، وهذا خلاف الأنواع السابقة؛ وذلك لأنه لما كان الخطاب مع العموم وفيهم الذكي والغبي صرح بخلق أمهات الممكنات الظاهرة؛ ليكون دليلًا على القدرة الباهرة، وذلك بدل أن يقال: «إن في وقوع كل ممكن تساوي طرفاه لآيات للعقلاء».

(٢) فيه إيجاز القصر؛ لأنه قد جمع مكارم الأخلاق.

(٣) أي: سفينة سالمة.

(٤) أي: أنا ابن رجل جلا المشكلات.

(٥) الشرط محذوف؛ أي: إن أرادوا وليًّا فالله هو الولي.

(٦) أي: فاقتدر اصبر.

(٧) أي: لا أبرح.

(٨) «في الحرم» إيغال للزيادة في المبالغة.

(٩) فيه التذييل.

(١٠) احترس بقوله: «وهو مؤمن» عن توهم الإطلاق.

(١١) فيه تذييل جار مجرى الأمثال.

(١٢) في قوله: «من غير سوء» احتراس عن توهم بياض البرص ونحوه.

(١٣) فيه الاعتراض بقوله: «لو تعلمن».

(١٤) في البيت إيجاز احتراس بلفظ «مهيب».

(١٥) في البيت إيجاز؛ أي: وأتيناه على هرم «فساءنا».

(١٦) في البيت إطناب؛ فإن قوله: «متى يذكر له الخير يزدد» تكميل.

هوامش

(١) أي: إذا أردت أن تتحدث إلى الناس في معنًى من المعاني فأنت تعبر عنه تعبيرًا صحيحًا مقبولًا في إحدى صور ثلاث، وهي: المساواة، والإيجاز، والإطناب.

(٢) قال الإمام علي: ما رأيت بليغًا قطُّ إلا وله في القول إيجاز، وفي المعاني إطالة. وقالت بنت الحُطيئة لأبيها: ما بال قصارك أكثر من طوالك؟! قال: لأنها بالآذان أولج،

وبالأفواه أعلق. وقيل لشاعر: لِمَ لا تُطيل شِعرك؟ فقال: حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق.

(٣) بأن يكون اللفظ أقل من المعهود عادة مع وفائه بالمراد، فإن لم يفِ كان الإيجاز إخلالًا وحذفًا رديئًا، فلا يُعد الكلام صحيحًا مقبولًا، كقول عروة بن الورد:

عجبت لهم إذ يقتلون نفوسهم ومقتلهم عند الوغى كان أعذرا

يريد: إذ يقتلون نفوسهم في السلم، لكن صوغ كلامه لا يدل عليه، ومثل قول بعضهم نثرًا: «فإن المعروف إذا زجا كان أفضل منه إذا وفر وأبطأ.» ولأجل تمام ما يريد كان عليه أن يقول: إذا قل وزجا، ولا يعد مثل هذا الكلام صحيحًا مقبولًا.

واعلم أن متعارف أوساط البلغاء هم الذين لم يرتقوا إلى درجة البلغاء، ولم ينحطُّوا إلى درجة البسطاء، فالمساواة: هي الدستور الذي يُقاس عليه كل من الإيجاز والإطناب.

(٤) وإيجاز القصر: هو ما تزيد فيه المعاني على الألفاظ، ولا يُقدَّر فيه محذوف ويُسمى: «إيجاز البلاغة»؛ لأن الأقدار تتفاوت فيه، وللقرآن الكريم فيه المنزلة التي لا تُسامى، والغاية التي لا تُدرَك.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، فهذه الآية قد جمعت مكارم الأخلاق، وانطوى تحتها كل دقيق وجليل؛ إذ في العفو والصفح عمن أساء، وفي الأمر بالمعروف — صلة الأرحام، ومنع اللسان عن الكذب، وغض الطرف عن كل المحارم.

وقوله عز اسمه: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ استوعبت تلك الآية الكريمة أنواع المتاجر، وصنوف المرافق التي لا يبلغها العد، وقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ هاتان كلمتان أحاطتا بجميع الأشياء على غاية الاستقصاء، وقوله عليه الصلاة والسلام: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء، وعوِّدوا كل جسم ما اعتاد.» فقد تضمن ذلك من المعاني الطيبة شيئًا كثيرًا.

وقول الإمام علي كرم الله وجهه: «من استقبل وجوه الآراء عرف وجوه الخطأ.»

وقول بعض الأعراب: اللهم هَبْ لي حقك وأَرْضِ عني خلقك. فسمعه الإمام علي كرم الله وجهه فقال: هذا هو البلاغة.

ومنه قول السموءل:

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل

فقد اشتمل على حميد الصفات من: سماحة، وشجاعة، وتواضع، وحلم، وصبر، واحتمال مكاره في سبيل طلب الحمد؛ إذ كل هذه مما تضيم النفس لما يحصل في تحملها من المشقة والعناء.

والسبب فيما له من الحسن والروعة دلالة قليل الألفاظ على كثير المعاني إلى ما فيه من الدلالة على التمكن في الفصاحة والبراعة.

ولذا قال محمد الأمين: «عليكم بالإيجاز؛ فإن له إفهامًا، وللإطالة استبهامًا.» وقال آخر: «القليل الكافي خير من كثير غير شافٍ.»

(٥) لقد أُثر ونُقل عن العرب قولهم: «القتل أنفى للقتل.» وأين هذا المثل من بلاغة هذه الآية الشريفة التي بلغت حد الإعجاز، وتمتاز بوجوه: منها أنها كلمتان، وما نقل عنهم أربع، ومنها أنه لا تكرار فيها وفيما قالوه تكرار، ومنها أنه ليس كل قتل يكون نافيًا للقتل، وإنما يكون كذلك إذا كان على جهة القصاص، ومنها حسن التأليف وشدة التلاؤم المدركان بالحس في الآية الكريمة التي أعجزتهم أن يأتوا بمثلها، لا فيما قالوه في مثلهم البسيط الذي لا يزيد عن متعارف الأوساط.

(٦) وكحذف لا في قول عاصم المنقري:

رأيت الخمر جامدة وفيها خصال تفسد الرجل الحليما
فلا والله أشربها حياتي ولا أسقي بها أبدًا نديما

يريد: لا أشربها.

ويقع إيجاز الحذف كثيرًا في أساليب البلغاء بشرط أن يوجد ما يدل على المحذوف، وإلا كان الحذف رديئًا، والكلام غير مقبول.

(٧) فأرسلون: حكاية عن أحد الفتيين الذي أرسله العزيز إلى يوسف ليستعبره ما رآه. واعلم أنه لا بد من دليل يدل على المحذوف وهو:

إما العقل وحده، نحو: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾، وإما العقل مع غيره، نحو: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾؛ أي: تناولها. وإما العادة، نحو: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾؛ أي: في مراودته.

وإما الشروع فيه، نحو: «بسم الله الرحمن الرحيم أؤلف» مثلًا. وإما مقارنة الكلام للفعل، كما تقول لمن تزوج: «بالرفاء والبنين»؛ أي: أعرست متلبسًا بالألفة والبنين.

«تنبيه»: حذف الجمل أكثر ما يرد في كلام الله عز وجل؛ إذ هو الغاية في الفصاحة، والنهاية في مراتب البلاغة. واعلم أن كلًّا من الحشو والتطويل يخل ببلاغة الكلام، بل لا يُعد الكلام معها إلا ساقطًا عن مراتب البلاغة كلها.

(٨) وقددت: أي قطعت، والضمير فيه يعود على الزباء، وهي امرأة ورثت الملك عن أبيها. والأديم: الجِلد. ولراهشَيْه؛ أي: إلى أن وصل القطع للراهشين، وهما عرقان في باطن الذراع، يتدفق الدم منهما عند القطع. والضمير في «ألفى» يعود على المقطوع راهشاه، وهو جذيمة الأبرش. والمراد الإخبار بأن جذيمة غدرت به الزباء وقطعت راهشيه، وسال منه الدم حتى مات، وأنه وجد ما وعدته من تزوجه بها كذبًا ومَيْنًا، وهما بمعنًى واحد، وإحدى الكلمتين زائدة فلا يتغير المعنى بإسقاط أيهما شئت. وكقول الشاعر:

ألا حبذا هند وأرض بها هند ... وهند أتى من دونها النأي والبعد

فالنأي والبعد بمعنًى واحد، ولا يتعين أحدهما للزيادة.

(٩) الشاهد في قوله: «قبله» لأنه معلوم من قوله أمس. وكقول الآخر:

ذكرت أخي فعاودني ... صداع الرأس والوصب

فإن الصداع لا يكون إلا في الرأس، فذكر الرأس لا فائدة فيه.

(١٠) ومنها الحروف الزائدة، وتكثير الجمل، نحو: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾.

(١١) من دعاء سيدنا نوح لنفسه ولوالديه وللمؤمنين.

(١٢) أي: سوف تعلمون ما أنتم عليه من الخطأ إذا شاهدتم هول المحشر، فقد أكد الإنذار بتكريره؛ ليكون أبلغ تأثيرًا، وأشد تخويفًا.

(١٣) الشاهد في تكرير «إن» التي في أول البيت، وتكريرها في آخره، وفي الآية الكريمة كرر «رأيت» لطول الفصل.

(١٤) لم يشترط بعضهم وقوعه بين جزئي جملة ولا بين كلامين، بل جوز وقوعه بين الكلام مطلقًا، سواء وليه ارتباط بما قبله أولًا، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ فجملة: «وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» معترضة، وليست معطوفة على ما قبلها حتى يلزم عطف الإنشاء على الخبر.

(١٥) بلغتها بفتح التاء؛ أي: «بلغك الله إياها» وتَرْجمان كزعفران، ويجوز ضم التاء مع الجيم. واعلم أن الدعاء من الشاعر موجه إلى المخاطب بطول عمره، وأن يعيش مثله ثمانين سنة. واعلم أنه قد يقع الاعتراض في الاعتراض كقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾.

(١٦) التأكيد ضربان: تأكيد المنطوق كما في هذه الآية، وتأكيد المفهوم كقوله:

ولست بمستبقٍ أخًا لا تلمه   على شعث أي الرجال المهذب

فقد دل بمفهومه على نفي الكمال من الرجال، فأكده بقوله: «أي الرجال المهذب».

(١٧) لما كان المطر مما يسبب الخراب دفع هذا الوهم بقوله: «غير مفسدها».

(١٨) المساواة هي ما ساوى لفظه معناه، بحيث لا يزيد أحدهما على الآخر. وهي نوعان:

الأول: مساواة مع الاختصار، وهي أن يتحرى البليغ في تأدية المعنى أوجز ما يكون من الألفاظ القليلة الأحرف الكثيرة المعاني، كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

والثاني: مساواة بدون اختصار «ويسمى متعارف الأوساط» وهو تأدية المقصود من غير طلب للاختصار، كقوله تعالى: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾.

والوجهان في المركز الأسمى من البلاغة، غير أن الأول أدخل فيها وأدل عليها.

والمساواة فن من القول عزيز المثال، تشرأب إليه أعناق البلغاء، لكن لا يرتقي إلى ذراه إلا الأفذاذ؛ لصعوبة المرتقى، وجلال المقصد. والمساواة يعتبرها بعضهم وسطًا بين الإيجاز والإطناب، وبعضهم يدمجها، ولا يعدها قسمًا ثالثًا للإيجاز والإطناب.

خاتمة

علمت أن البلاغة متوقفة على مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ورأيت في ما تقدم من الأحكام أن مقتضى الحال يجري على مقتضى الظاهر، وهذا بالطبع هو الأصل، ولكن قد يعدل عما يقتضيه الظاهر إلى خلافه مما تقتضيه الحال في بعض مقدمات الكلام؛ لاعتبارات يراها المتكلم.

وقد تقدم كثير من ذلك العدول «المسمى بإخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر» في الأبواب السابقة.

وبقي من هذا القبيل أنواع أخرى كثيرة:

الأول: الالتفات، وهو الانتقال من كل من: «التكلم أو الخطاب أو الغيبة» إلى صاحبه؛ لمقتضيات ومناسبات تظهر بالتأمل في مواقع الالتفات؛ تفننًا في الحديث، وتلوينًا للخطاب؛ حتى لا يمل السامع من التزام حالة واحدة، وتنشيطًا وحملًا له على زيادة الإصغاء، فإن لكل جديد لذة، ولبعض مواقعه لطائف، ملاك إدراكها الذوق السليم.

واعلم أن صور العدول إلى الالتفات ستة:

(١) عدول من التكلم إلى خطاب، كقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ والقياس: «وإليه أرجع».

(٢) عدول من التكلم إلى الغيبة، كقوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾.

(٣) عدول من الخطاب إلى التكلم، كقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

(٤) عدول من الخطاب إلى الغيبة، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

(٥) عدول من الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ والقياس: «وأنزل».

(٦) عدول من الغيبة إلى الخطاب، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ﴾.

الثاني: تجاهل العارف، وهو سوق المعلوم مساق المجهول، بأن يجعل العارف بالشيء نفسه جاهلًا به، وذلك لأغراض:

(١) كالتعجب، نحو قوله تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾.

(٢) والمبالغة في المدح، نحو: وجهك بدر أم شمس؟

(٣) والمبالغة في الذم، كقول الشاعر:

وما أدري وسوف إخال أدري ... أقوم آل حصن أم نساء؟!

(٤) والتوبيخ وشدة الجزع، كقول الشاعر:

أيا شجر الخابور ما لك مورقًا ... كأنك لم تجزع على ابن طريف[1]

(٥) وشدة الوله، كقول الشاعر:

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ... ليلاي منكنَّ أم ليلى من البشر

(٦) والفخر، كقوله:

أينا تعرف المواقف منه ... وثبات على العدا وثباتا

الثالث: القلب،[2] وهو جعل كل من الجزأين في الكلام مكان صاحبه؛ لغرض المبالغة، نحو قول رؤبة بن العجاج:

ومَهْمَهٍ مُغْبَرَّةٍ أرجاؤه   كأن لونَ أرضه سماؤه[3]

أي: كأن لون سمائه لغبرتها لون أرضه؛ مبالغة في وصف لون السماء بالغبرة، حتى صار بحيث يشبه به لون الأرض.

ونحو: أدخلت الخاتم في أصبعي، والقياس: «أدخلت أصبعي في الخاتم» وعرضت الناقة على الحوض.

الرابع: التعبير عن المضارع بلفظ الماضي، وعكسه.

فمن أغراض التعبير عن المضارع بلفظ الماضي:

(أ) التنبيه على تحقق وقوعه، نحو: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ﴾؛ أي: يأتي.

(ب) أو قرب الوقوع، نحو: «قد قامت الصلاة»؛ أي: قرب القيام لها.

(جـ) والتفاؤل، نحو: إن شفاك الله تذهب معي.

(د) والتعريض، نحو قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ فيه تعريض للمشركين بأنهم قد حبطت أعمالهم.

ومن أغراض التعبير عن الماضي بلفظ المضارع:

(أ) حكاية الحالة الماضية باستحضار الصورة الغريبة في الخيال،[4] كقوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ بدل فأثارت.

(ب) وإفادة الاستمرار فيما مضى، كقوله تعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾؛ أي: لو استمر على إطاعتكم لهلكتم.

الخامس: التعبير عن المستقبل بلفظ اسم «الفاعل» نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾.

أو بلفظ اسم «المفعول» نحو قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾؛ وذلك لأن الوصفين المذكورين حقيقة في الحال، مجاز فيما سواه.

السادس: يوضع المضمر موضع المظهر؛ خلافًا لمقتضى الظاهر؛ ليتمكن ما بعده في ذهن السامع، نحو: هو الله عادل.

ويوضع المظهر موضع المضمر؛ لزيادة التمكين، نحو: خير الناس من نفع الناس.

أو لإلقاء المهابة في نفس السامع، كقول الخليفة: «أمير المؤمنين يأمر بكذا» (أي: أنا آمر).

أو للاستعطاف، نحو: «أيأذن لي مولاي أن أتكلم» (أي: أتأذن).

السابع: التغليب، وهو ترجيح أحد الشيئين على الآخر في إطلاق لفظه عليه،[٥] وذلك:

(١) كتغليب المذكر على المؤنث، في قوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ وقياسه «القانتات»، ونحو: الأبوين «للأب والأم»، والقمرين «للشمس والقمر».

(٢) وكتغليب الأخف على غيره، نحو: «الحَسَنين» في «الحسن والحسين».

(٣) وكتغليب الأكثر على الأقل، كقوله تعالى: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.

أُدخل «شعيب» في العَوْد إلى مِلتهم، مع أنه لم يكن فيها قط، ثم خرج منها وعاد؛ تغليبًا للأكثر.

(٤) وكتغليب العاقل على غيره، كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

تم علم المعاني، ويليه علم البيان، والله المستعان أولًا وآخرًا.

هوامش

(١) تجاهلت أخت طريف عن سبب انتفاء الجزع عن الشجر؛ لشدة التحير والتضجر.

(٢) ويستدل عليه بالتأمل في المعنى، فنحو: «عرضت الناقة على الحوض» و«أدخلت الخاتم في أصبعي»، أصله: «عرضت الحوض على الناقة» لأن العرض يكون على ما له «إدراك». وأصله: أدخلت أصبعي في الخاتم «لأن الظرف هو الخاتم»، والنكتة أن الظاهر الإتيان بالمعروض إلى المعروض عليه، وتحريك المظروف نحو الظرف، ولما كان ما هنا بالعكس قلبوا الكلام؛ رعاية لهذا الاعتبار، وإنما يقبل حيث يتضمن اعتبارًا لطيفًا.

(٣) والمَهْمَه: المفازة البعيدة. وأرجاؤه: نواحيه.

(٤) يوضع المضارع موضع الماضي لإيهام المشاهدة بإحضار صورة الشيء في ذهن السامع بصيغة الحاضر.

(٥) التغلب: هو إطلاق لفظ أحد الصاحبين على الآمر؛ ترجيحًا له عليه، والتغلب كثير في كلام العرب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

علم البيان

(أ) البيان[١] لغة: الكشف، والإيضاح، والظهور.[٢]

واصطلاحًا: أصول وقواعد يُعرف[٣] بها إيراد المعنى الواحد بطرق يختلف بعضها عن بعض في وضوح الدلالة العقلية على نفس ذلك المعنى.

فالمعنى الواحد يستطاع أداؤه بأساليب مختلفة في وضوح الدلالة عليه.

فإنك تقرأ في بيان فضل «العلم» — مثلًا — قول الشاعر:

(١) العلم ينهض بالخسيس إلى العلا   والجهل يقعد بالفتى المنسوب

ثم تقرأ في المعنى نفسه كلام الإمام «علي» كرم الله وجهه:

(٢) العلم نهر، والحكمة بحر.

(٣) والعلماء حول النهر يطوفون.

(٤) والحكماء وسط البحر يغوصون.

(٥) والعارفون في سفن النجاة يسيرون.

فتجد أن بعض هذه التراكيب أوضح من بعض، كما تراه يضع أمام عينيك مشهدًا حسيًّا، يقرِّب إلى فهمك ما يُريد الكلام عنه من فضل «العلم».

فهو يشبِّهه بنهر، ويشبِّه الحكمة ببحر، ويصور لك أشخاصًا طائفين حول ذلك النهر «هم العلماء»، ويصور لك أشخاصًا غائصين وسط ذلك البحر «هم الحكماء»، ويصوِّر لك أشخاصًا راكبين سفنًا ماخرة في ذلك البحر للنجاة من مخاطر هذا العالم «هم أرباب المعرفة».

ولا شك أن هذا المشهد البديع يستوقف نظرك، ويستثير إعجابك من شدَّة الروعة والجمال، المستمدَّة من التشبيه، بفضل «البيان» الذي هو سر البلاغة.

(ب) وموضوع هذا العلم: الألفاظ العربية، من حيث: التشبيه، والمجاز، والكناية.

(جـ) وواضعه «أبو عبيدة» الذي دَوَّنَ مسائل هذا العلم في كتابه المسمَّى «مجاز القرآن» وما زال ينمو شيئًا فشيئًا، حتى وصل إلى الإمام «عبد القاهر» فأحكم أساسه، وشيد بناءه، ورتب قواعده، وتبعه «الجاحظ، وابن المعتز، وقُدامة، وأبو هلال العسكري».

(د) وثمرته الوقوف على أسرار كلام العرب «منثوره ومنظومه» ومعرفة ما فيه من تفاوت في فنون الفصاحة، وتباين في درجات البلاغة التي يصل بها إلى مرتبة إعجاز «القرآن الكريم» الذي حار الجن والإنس في محاكاته، وعجزوا عن الإتيان بمثله.

وفي هذا الفن أبواب ومباحث.

الباب الأول

في التشبيه

تمهيد

للتشبيه روعة وجمال، وموقع حسن في البلاغة؛ وذلك لإخراجه الخفي إلى الجلي، وإدنائه البعيد من القريب، يزيد المعاني رفعة ووضوحًا، ويكسبها جمالًا وفضلًا، ويكسوها شرفًا ونُبلًا؛ فهو فن واسع النطاق، فسيح الخطو، ممتد الحواشي، متشعَّب الأطراف، متوعِّر المسلك، غامض المدرك، دقيق المجرى، غزير الجدوى.

ومن أساليب البيان أنك إذا أردت إثبات صفة لموصوف مع التوضيح، أو وجه من المبالغة — عمدت إلى شيء آخر، تكون هذه الصفة واضحة فيه، وعقدت بين الاثنين مماثلة، تجعلها وسيلة لتوضيح الصفة، أو المبالغة في إثباتها؛ لهذا كان التشبيه أوَّل طريقة تدل عليه الطبيعة لبيان المعنى.

تعريف التشبيه وبيان أركانه الأربعة

التشبيه لغة: التمثيل، يقال: هذا شِبه هذا ومثيله.

والتشبيه اصطلاحًا: عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر، قُصِد اشتراكهما في صفة أو أكثر، بأداة؛ لغرض يقصده المتكلم.

وأركان التشبيه أربعة:

(١) المشبه: هو الأمر الذي يُراد إلحاقه بغيره.
(٢) المشبه به: هو الأمر الذي يلحق به المشبه.
(هذان الركنان يُسميان طرفي التشبيه.)

(٣) وجه الشبه: هو الوصف المشترك بين الطرفين، ويكون في المشبه به أقوى منه في المشبه، وقد يُذكر وجه الشبه في الكلام، وقد يُحذف كما سيأتي توضيحه.

(٤) أداة التشبيه: هي اللفظ الذي يدل على التشبيه، ويربط المشبه بالمشبه به، وقد تُذكر الأداة في التشبيه وقد تُحذف، نحو: كان عمر في رعيته كالميزان في العدل، وكان فيهم كالوالد في الرحمة والعطف.

تمرين على التشبيه وبيان أركانه الأربعة

أنت كالوردة لمسًا وشذًا ... جادها الغيث على غصن نضر

إنما الناس كالسوائم في الرز ... ق سواء جهولهم والعليمُ

أنت مثل الغصن لينًا ... وشبيه البدر حُسنا

لك شعر مثل حظي ... في سواد قد تثنى

أنت عندي كليلة القدر في القد ... ر لكن لا تستجيب دعائي

العشق كالموت يأتي لا مرد له ... ما فيه للعاشق المسكين تدبير

وكن كالشمس تظهر كل يوم ... ولا تك في التغيب كالهلال

بعض الرجال كقبر الميت تمنحه ... أعز شيء ولا يعطيك تعويضًا

وخيل تحاكي البرق لونًا وسرعة   وكالصخر إذ تهوي وكالماء في الجري

أعوام إقباله كاليوم في قصرٍ   ويوم إعراضه في الطول كالحجج

أورد قلبي الردى   غصن عذار بدا
أسود كالكفر في   أبيض مثل الهدى

لا جزى الله دمع عيني خيرًا   وجزى الله كل خير لساني

ثم دمعي فليس يكتم شيئًا   ووجدت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طي   فاستدلوا عليه بالعنوان

للورد عندي محل   لأنه لا يُمَل
كل الرياحين جند   وهو الأمير الأجل
إن غاب عزوا وباهوا   حتى إذا عاد ذلوا

(١) المبحث الأول: في تقسيم طرق التشبيه إلى حسي وعقلي

طرفا التشبيه «المشبه والمشبه به».

(١) إما حسيان[١] «أي مدركان بإحدى الحواس الخمس الظاهرة» نحو: «أنت كالشمس في الضياء» وكما في تشبيه «الخد بالورد».

وإما عقليان؛ أي: مدركان بالعقل، نحو «العلم كالحياة»، ونحو: «الضلال عن الحق كالعمى» ونحو: «الجهل كالموت».

(٢) وإما المشبه حسي والمشبه به عقلي، نحو: طبيب السوء كالموت.

(٣) وإما المشبه عقلي والمشبه به حسي، نحو: العلم كالنور.

واعلم أن العقلي هو ما عدا الحسي، فيشمل المحقق ذهنًا: كالرأي، والخلق، والحظ، والأمل، والعلم، والذكاء، والشجاعة.

ويشمل أيضًا الوهمي، وهو ما لا وجود له، ولا لأجزائه كلها، أو بعضها في الخارج، ولو وجد لكان مدركًا بإحدى الحواس.

ويشمل الوجداني، وهو ما يُدرك بالقوى الباطنة: كالغم، والفرح، والشبع، والجوع، والعطش، والرِّي.

(٢) المبحث الثاني: في تقسيم طرفي التشبيه باعتبار الإفراد والتركيب

طرفا التشبيه «المشبه والمشبه به».

(١) إما مفردان «مطلقان»، نحو: «ضوءه كالشمس» و«خده كالورد».

أو «مقيدان»،[٢] نحو: الساعي بغير طائل كالرَّاقم على الماء.

أو «مختلفان»، نحو: «ثغره كاللؤلؤ المنظوم» ونحو: «العين الزرقاء كالسنان»، والمشبه هو المقيد.

وإما مركبان تركيبًا لم يمكن إفراد أجزائهما، بحيث يكون المركب هيئة حاصلة من شيئين، أو من أشياء، تلاصقت حتى اعتبرها المتكلم شيئًا واحدًا، وإذا انتُزع الوجه من بعضها دون بعض اختل قصد المتكلم من التشبيه، كقوله:[٣]

كأن سهيلًا والنجوم وراءه صفوف صلاة قام فيها إمامها

(٢) إذ لو قيل: «كأن سهيلًا إمام» و«كأن النجوم صفوف صلاة» — لذهبت فائدة التشبيه.

أو مركبان تركيبًا إذا أُفردت أجزاؤه زال المقصود من هيئة «المشبه به» كما ترى في قول الشاعر الآتي: حيث شبه النجوم اللامعة في كبد السماء بِدُرٍّ منتثر على بساط أزرق:

وكأنَّ أجرام النجوم لوامعًا دررٌ نُثرن على بِساط أزرق

إذ لو قيل: «كأن النجوم درر» و«كأن السماء بساط أزرق» — كان التشبيه مقبولًا، لكنه قد زال منه المقصود بهيئة المشبه به.

(٣) وإما مفرد بمركب، كقول الخنساء:[٤]

أغر أ بلجُ تأتم الهداة به　　كأنه عَلَم في رأسه نار

(٤) وإما مركب بمفرد، نحو: الماء المالح كالسم.[٥]

واعلم أنه متى رُكب أحد الطرفين لا يكاد يكون الآخر مفردًا مطلقًا، بل يكون مركبًا، أو مفردًا مقيدًا، ومتى كان هناك تقييد أو تركيب كان الوجه مركبًا ضرورة انتزاعه من المركب، أو من القيد والمقيد.

(٣) المبحث الثالث: في تقسيم طرفي التشبيه باعتبار تعددهما[٦]

ينقسم طرفا التشبيه «المشبه والمشبه به» باعتبار تعددهما أو تعدد أحدهما إلى أربعة أقسام: ملفوف، ومفروق، وتسوية، وجمع.

(١) فالتشبيه الملفوف: هو جمع كل طرف منهما مع مثله، كجمع المشبه مع المشبه، والمشبه به مع المشبه به، بحيث يُؤتى بالمشبهات معًا على طريق العطف، أو غيره، ثم يُؤتى بالمشبهات بها كذلك، كقوله:

ليل وبدر وغصن　　شعر ووجه وقد
خمر ودر وورد　　ريق وثغر وخد

وكقوله:

تبسم وقطوب في ندًى ووغًى　　كالغيث والبرق تحت العارض البرد

وكقوله:

وضوء الشهب فوق الليل بادٍ　　كأطراف الأسنة في الدروع[٧]

(٢) والتشبيه المفروق: هو جمع كل مشبه مع ما شُبه به، كقوله:[٨]

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عَنَم

(٣) و«تشبيه التسوية» هو أن يتعدد المشبه دون المشبه به كقوله:

صدغ الحبيب وحالي كلاهما كالليالي
وثغره في صفاء وأدمعي كاللآلي

سُمي بذلك للتسوية فيه بين المشبهات.
(٤) وتشبيه الجمع: هو أن يتعدد المشبه به دون المشبه، كقوله:

كأنما يبسم عن لؤلؤ منضد أو برد أو أقاح[٩]

سُمي بتشبيه الجمع؛ للجمع فيه بين ثلاث مشبهات بها كقوله:

مرت بنا رأد الضحى تحكي الغزالة والغزالا

وكقوله:

ذات حسن لو استزدت من الحسـ ـن إليه لما أصابت مزيدا
فهي الشمس بهجة والقضيب اللد ن قدًّا والريم طرفًا وجيدا

تمرين

اذكر أحوال طرفي التشبيه فيما يأتي:
علم لا ينفع كدواء لا ينجع. الصديق المنافق والابن الجاهل كلاهما كجمر الغضا. الحق سيف على أهل الباطل. الحمية من الأنام كالحمية من الطعام.

قال محمد بن لنكك البصري:

قضى الأمراء وانقرضوا وبادوا وخلفني الزمان على علوج
وقالوا قد لزمت البيت جدًّا فقلت لفقد فائدة الخروج
فمن ألقى إذا أبصرت فيهم ودار البين في أعلى السروج
زمان عز فيه الجود حتى كأن الجود في أعلى البروج

يا شبيه البدر حسنًا وضـيـاء ومـنـالا
وشبيه الغصن لينًا وقـوامًـا واعـتـدالا
أنت مثل الورد لونًا ونـسـيـمًـا ومـلالا
زارنا حتى إذا ما سرنا بالقرب زالا

يا صاحبيَّ تقَصَّيَا نظرَيْكما تَريا وجوه الأرض كيف تصور
تريا نهارًا مشمسًا قد شابه زهر الرُّبَى فكأنما هو مقمر[10]

فكم معنًى بديع تحت لفظ هـنـاك تـزاوج كـل ازدواج
كراحٍ في زجاج أو كروح سرت في جسم معتدل المزاج

الخد وردٌ والعذار رياض والطرف ليل والبياض نهار
العمر والإنسان والدنيا همو كالظل في الإقبال والإدبار

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه[11]

خـود كـأن بـنـانـهـا في خضرة النقش المزرَّد[12]

سمك من البلور في شبك تكون من زبرجد

كأن قلوب الطير رطبًا ويابسًا[13] لدى وكرها العناب والحشف البالي

من يصنع الخير مع من ليس يعرفه كواقد الشمع في بيت لعميان[14]

(٣-١) ملخص القول في تقسيم طرفي التشبيه

أولًا: ينقسم التشبيه باعتبار طرفية إلى حسيين وعقليين ومختلفين. فالحسيان يشتركان:

(١) في صفة مبصرة، كتشبيه المرأة بالنهار في الإشراق، والشعر بالليل في الظلمة والسواد، كما في قول الشاعر:

فرعاء تسحب من قيام شعرها وتغيب فيه وهو ليل أسحم
فكأنها فيه نهار مشرق وكأنه ليل عليها مظلم[15]

(٢) أو في صفة مسموعة، نحو: «غرد تغريد الطيور»، ونحو: «سجع سجع القمري»، ونحو: «أنَّ أنين الثكلى»، ونحو: «أسمع دويًّا كدوي النحل»، وكتشبيه إنقاض الرحل بصوت الفراريج في قول الشاعر:

كأن أصوات من إيغالهن بنا أواخر الميس إنقاض الفراريج[16]

وكتشبيه الأصوات الحسنة في قراءة القرآن الكريم بالمزامير.

(٣) أو في صفة مذوقة، كتشبيه الفواكه الحلوة بالعسل، وكتشبيه الريق بالخمر في قول الشاعر:

كأن المُدام وصوب الغمام وريح الخزامى وذوب العسل
يعل به برد أنيابها إذا النجم وسط السماء اعتدل[17]

(٤) أو في صفة ملموسة، كتشبيه الجسم بالحرير في قول ذي الرُّمَّة:

لها بشر مثل الحرير ومنطق رخيم الحواشي لا هراء ولا نذر[١٨]
وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالألباب ما تفعل الخمر

(٥) أو في صفة مشمومة، كشبيه الريحان بالمسك، والنكهة بالعنبر.

والعقليان: هما اللذان لم يدركا «هما ولا مادتهما» بإحدى الحواس؛ وذلك كتشبيه السفر بالعذاب، والضلال عن الحق بالعمى، والاهتداء إلى الخير بالإبصار.

والمختلفان: إما أن يكون المشبه عقليًّا والمشبه به حسيًّا، كتشبيه الغضب بالنار من التلظي والاشتعال، وكتشبيه الرأي بالليل في قول الشاعر:

الرأي كالليل مسود جوانبه والليل لا ينجلي إلا بإصباح

وإما أن يكون المشبه حسيًّا والمشبه به عقليًّا كتشبيه الكلام بالخلق الحسن عقليًّا، وكتشبيه العطر بخلق الكريم في قول الصاحب بن عباد:

أهديت عطرًا مثل طيب ثنائه فكأنما أهدى له أخلاقه[١٩]

ثانيًا: ينقسم التشبيه باعتبار طرفيه إلى: مفردين مطلقين، أو مقيدين، أو مختلفين، وإلى مركبين أو مختلفين.

فالمفردان المطلقان كتشبيه السماء بالدهان في الحمرة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾.[٢٠]

وكتشبيه الكشح بالجديل، والساق بالأنبوب في قول امرئ القيس:

وكشح لطيف كالجديل مخصر وساق كأنبوب السقي المذلل[٢١]

والمقيدان بوصف، أو إضافة، أو حال، أو ظرف، أو نحو ذلك، كقولهم فيمن لا يحصل من سعيه على فائدة: هو «كالراقم على الماء»، فالمشبه هو الساعي على هذه

الصفة، والمشبه به هو الراقم بهذا القيد، ووجه الشبه التسوية بين الفعل والترك في الفائدة. وكقوله:

والشمس من بين الأرائك قد حكت   سيفًا صقيلًا في يد رعشاء[22]

والمختلفان والمشبه به هو المقيد، كما في قول ذي الرُّمَّة:

قف العيس في أطلال مية فاسأل   رسومًا كأخلاق الرداء المسلسل[23]

أو المشبه هو المقيد، كما في قول الشاعر:

كأن فجاج الأرض وهي عريضة   على الخائف المطلوب كفة حابل[24]

والمركبان كقول الشاعر:

البدر منتقب بغيم أبيض   هو فيه تفجر وتبلج
كتنفس الحسناء في المرآة إذ   كملت محاسنها ولم تتزوج

والمختلفان والمشبه مفرد، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾. وكقول الشاعرة:

أغر أبلج تأتم الهداة به   كأنه علم في رأسه نار

أو المشبه به مفرد، كقول أبي الطيب المتنبي:

تشرق أعراضهم وأوجههم   كأنها في نفوسهم شيم

شبه إشراق الأعراض والوجوه بإشراق الشيم (الأخلاق الطيبة)، فإشراق الوجوه ببياضها، وإشراق الأعراض بشرفها وطيبها.

ثالثًا: التشبيه ينقسم باعتبار طرفيه إلى:

(١) ملفوف، وهو ما أتى فيه بالمشبهات أولًا على طريق العطف، أو غيره، ثم بالمشبهات بها كذلك، كقول الشاعر:

ليل وبدر وغصن   شعر ووجه وقد
خمر ودر وورد   ريق وثغر وخد

شبه الليل بالشعر، والبدر بالوجه، والغصن بالقد — في البيت الأول. والخمر بالريق، والدر بالثغر، والورد بالخد — في البيت الثاني. وقد ذكر المشبهات أولًا، والمشبهات بها ثانيًا، كما ترى في نظم الشاعر.

(٢) وإلى مفروق، وهو ما أتى فيه بمشبه ومشبه به، ثم بآخر وآخر كقول أبي نواس:

تبكي فتذري الدر من نرجس   وتمسح الورد بعناب

شبه الدمع بالدر؛ لصفائه، والعين بالنرجس؛ لما فيه من اجتماع السواد بالبياض، والوجه بالورد.

رابعًا: ينقسم التشبيه أيضًا باعتبار طرفيه إلى:

(١) تشبيه التسوية: وهو ما تعدد فيه المشبه، كقول الشاعر:

صدغ الحبيب وحالي   كلاهما كالليالي
وثغره في صفاء   وأدمعي كاللآلي[٢٥]

شبه في الأول صدغ الحبيب وحاله هو بالليالي في السواد، وفي الثاني شبه ثغر الحبيب ودموعه باللآلي في القدر والإشراق.

(٢) تشبيه الجمع: وهو ما تعدد فيه المشبه به، كقول البحتري:

بات نديمًا لي حتى الصباح　　أغيد مجدول مكان الوشاح
كأنما يبسم عن لؤلؤ　　منضد أو برد أو أقاح[٢٦]

شبه ثغره بثلاثة أشياء: باللؤلؤ، والبرد، والأقاح، وقد تقدم الكلام على هذه الأقسام.

(٤) المبحث الرابع: في تقسيم التشبيه باعتبار وجه الشَّبه

وجه الشبه: هو الوصف الخاص[٢٧] الذي يُقصد اشتراك الطرفين فيه، كالكرم في نحو: «خليل كحاتم»، ونحو: «له سيرة كالمسك» و«أخلاقه كالعنبر».

واشتراك الطرفين قد يكون ادعائيًّا بتنزيل التضاد منزلة التناسب، وإبراز الخسيس في صورة الشريف تهكمًا أو تمليحًا، ويظهر ذلك من المقام، وينقسم التشبيه باعتبار وجه الشبه إلى:

(١) تشبيه تمثيل: وهو ما كان وجه الشبه فيه وصفًا منتزعًا من متعدد، حسيًّا كان أو غير حسي، كقوله:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه　　يوافي تمام الشهر ثم يغيب

فوجه الشبه سرعة الفناء، انتزعه الشاعر من أحوال القمر المتعددة؛ إذ يبدو هلالًا، فيصير بدرًا، ثم ينقص، حتى يدركه المحاق، ويُسمى تشبيه التمثيل.

(٢) وتشبيه غير تمثيل: وهو ما لم يكن وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد، نحو: «وجهه كالبدر» ومثل قول الشاعر:

لا تطلبنَّ بآلة لك رتبة　　قلم البليغ بغير حظ مغزل

فوجه الشبه قلة الفائدة، وليس منتزعًا من متعدد.

(٣) ومفصل: وهو ما ذكر فيه وجه الشبه، أو ملزومه، نحو: «طبع فريد كالنسيم رقة» و«يده كالبحر جودًا» و«كلامه كالدر حسنًا» و«ألفاظه كالعسل حلاوة»، ومثل قول ابن الرومي:

شيبه البدر حسنًا وضياءً ومنالا   وشبيه الغصن لينًا وقوامًا واعتدالا

(٤) ومجمل: وهو ما يذكر فيه وجه الشبه، ولا ما يستلزمه، نحو: «النحو في الكلام كالملح في الطعام» فوجه الشبه هو الإصلاح في كل. ومثل قوله:

إنما الدنيا كبيت   نسجه من عنكبوت

واعلم أن وجه الشبه المجمل إما أن يكون خفيًّا وإما أن يكون ظاهرًا، ومنه ما وصف فيه أحد الطرفين أو كلاهما بوصف يُشعر بوجه الشبه، ومنه ما ليس كذلك.

(٥) وقريب مبتذل: وهو ما كان ظاهر الوجه ينتقل فيه الذهن من المشبه إلى المشبه به، من غير احتياج إلى شدة نظر وتأمل؛ لظهور وجهه بادئ الرأي.

وذلك لكون وجهه لا تفصيل فيه، كتشبيه الخد بالورد في الحمرة، أو لكون وجهه قليل التفصيل، كتشبيه الوجه بالبدر في الإشراق أو الاستدارة، أو العيون بالنرجس.

وقد يتصرف في القريب بما يخرجه عن ابتذاله إلى الغرابة، كقول الشاعر:

لم تلقَ هذا الوجه شمسُ نهارنا   إلا بوجه ليس فيه حياء

فإن تشبيه الوجه الحسن بالشمس مبتذل، ولكن حديث الحياء أخرجه إلى الغرابة.

وقد يخرج وجه الشبه من الابتذال إلى الغرابة؛ وذلك بالجمع بين عدة تشبيهات كقول الشاعر:

كأنما يبسم عن لؤلؤ   منضد أو برد أو أقاح

أو باستعمال شرط، كقوله:

عزماته مثل النجوم ثواقبًا   لو لم يكن للثاقبات أفول

(٦) وبعيد غريب: وهو ما احتاج في الانتقال من المشبه إلى المشبه به إلى فكر وتدقيق نظر؛ لخفاء وجهه بادئ الرأي، كقوله:

والشمس كالمرآة في كف الأشل

«فإن الوجه فيه» هو الهيئة الحاصلة من الاستدارة مع الإشراق، والحركة السريعة المتصلة مع تموج الإشراق، حتى ترى الشعاع كأنه يهم بأن ينبسط حتى يفيض من جوانب الدائرة، ثم يبدو له فيرجع إلى الانقباض.

وحكم وجه المشبه أن يكون في المشبه به أقوى منه في المشبه، وإلا فلا فائدة في التشبيه.

تمرين

بيِّن أركان التشبيه وأقسام كل منها فيما يلي:

(١) ومكلف الأيام ضد طباعها　　متطلب في الماء جذوة نار

(٢) والدهر يقرعني طورًا وأقرعه　　كأنه جبل يهوي إلى جبل[٢٨]

(٣) فإن أغْشَ قومًا بعده أو أزورهم　　فكالوحش يدنيها من الأنس المحل[٢٩]

(٤) الشمس من مشرقها قد بدت　　مشرقة ليس لها حاجب[٣٠]
كأنها بوتقة أُحميت　　يجول فيها ذهب ذائب

(٥) قالت أعرابية تصف بنيها: «هم كالحلقة المفرغة لا يُدْرى أين طرفاها.»

(٦) عزماتهم قضب وفيض أكفهم　　سحب وبيض وجوههم أقمار[٣١]

(٧) قال علي كرم الله وجهه: «مثل الذي يعلم الخير ولا يعمل به مثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه.»

(٨) قال صاحب كليلة ودمنة: «الدنيا كالماء الملح، كلما ازددت منه شربًا ازددت عطشًا.»

(٩) فانهض بنار إلى فحم كأنهما في العين ظلم وإنصاف قد اتفقا

(١٠) فتراه في ظلم الوغى فتخاله قمرًا يكر على الرجال بكوكب[٣٢]

(١١) كأن الثريا في أواخر ليلها تفتُّح نَوْر أو لجام مفضض

(١٢) كأن الدموع على خدها بقية طل على جلنار[٣٣]

(١٣) صحو وغيم وضياء وظلم مثل سرور شابه عارض غم

(٥) المبحث الخامس: في تشبيه التمثيل

تشبيه التمثيل: أبلغ من غيره؛ لما في وجهه من التفصيل الذي يحتاج إلى إمعان فكر، وتدقيق نظر، وهو أعظم أثرًا في المعاني: يرفع قدرها، ويضاعف قواها في تحريك النفوس لها، فإن كان مدحًا كان أوقع، أو ذمًّا كان أوجع، أو برهانًا كان أسطع؛ ومن ثم يحتاج إلى كد الذهن في فهمه؛ لاستخراج الصورة المنتزعة من أمور متعددة، حسية كانت أو غير حسية؛ لتكون «وجه الشبه» كقول الشاعر:

ولاحت الشمس تحكي عند مطلعها مرآة تِبْر بدت في كفِّ مرتعش

فمثل الشمس حين تطلع حمراء لامعة مضطربة بمرآة من ذهب تضطرب في كف ترتعش.

وتشبيه التمثيل نوعان:

الأول: ما كان ظاهر الأداة، نحو: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾، فالمشبه هم الذين حملوا التوراة ولم يعقلوا ما بها، والمشبه به «الحمار» الذي يحمل الكتب النافعة، دون استفادته منها، والأداة الكاف، ووجه الشبه «الهيئة الحاصلة من التعب في حمل النافع دون فائدة».

الثاني: ما كان خفي الأداة، كقولك للذي يتردد في الشيء بين أن يفعله وألا يفعله «أراك تقدِّم رجلًا وتؤخِّر أخرى»؛ إذ الأصل: أراك في ترددك مثل من يقدم رجلًا مرة، ثم يؤخرها مرة أخرى.

فالأداة محذوفة، ووجه الشبه هيئة الإقدام والإحجام المصحوبين بالشك.

(٥-١) مواقع تشبيه التمثيل

لتشبيه التمثيل موقعان:

(١) أن يكون في مفتتح الكلام، فيكون قياسًا موضحًا، وبرهانًا مصاحبًا، وهو كثير جدًّا في القرآن، نحو: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ﴾.

(٢) ما يجيء بعد تمام المعاني؛ لإيضاحها وتقريرها، فيشبه البرهان الذي تثبت به الدعوى، نحو:

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولا بد يومًا أن تُرد الودائع

ونحو:

لا ينزل المجد إلا في منازلنا ... كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

(٥-٢) تأثير تشبيه التمثيل في النفس

إذا وقع التمثيل في صدر القول بعث المعنى إلى النفس بوضوح وجلاء مؤيد بالبرهان؛ ليقنع السامع، وإذا أتى بعد استيفاء المعاني كان:

(١) إما دليلًا على إمكانها، كقول المتنبي:

وما أنا منهم بالعيش فيهم　　ولكن معدن الذهب الرغام[٣٤]

(٢) وإما تأييدًا للمعنى الثابت، نحو:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها　　إن السفينة لا تجري على اليبس

وعلة هذا أن النفس تأنس إذا أخرجتها من خفي إلى جلي، ومما تجهله إلى ما هي به أعلم؛ ولذا تجد النفس من الأريحية ما لا تقدُر قدره، إذا سمعت قول أبي تمام:

وطول مقام المرء في الحي مخلق　　لديباجتيه فاغترب تتجدَّد[٣٥]
فإني رأيت الشمس زيدت محبة　　إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وبعدُ: فالتمثيل يُكسب القول قوة، فإن كان في المدح كان أهز للْعِطْف، وأنبل في النفس، وإن كان في الذم كان وقعه أشد، وإن كان وعظًا كان أشفى للصدر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وإن كان افتخارًا كان شأوه أبعد، كقول من وصف كأسًا علاها الحباب:

وكأنها وكأنَّ حامل كأسها　　إذ قام يجلوها على الندماء
شمس الضحى رقصت فنقط وجهها　　بدر الدُّجى بكواكب الجوزاء

(٦) المبحث السادس: في أدوات التشبيه[٣٦]

أدوات التشبيه: هي ألفاظ تدل على المماثلة: كالكاف، وكأن، ومثل، وشبه، وغيرها مما يؤدي معنى التشبيه: كيحكي، ويضاهي، ويضارع، ويماثل، ويساوي، ويشابه، وكذا أسماء فاعلها.

فأدوات التشبيه بعضها اسم، وبعضها فعل، وبعضها حرف.

وهي إما ملفوظة ملحوظة، نحو: «جمال كالبدر» و«أخلاقه في الرقة النسيم»، ونحو: «اندفع الجيش اندفاع السيل»؛ أي: كاندفاعه.

الأصل في «الكاف، ومثل، وشبه» من الأسماء المضافة لما بعدها أن يليها المشبه به لفظًا[٣٧] أو تقديرًا.

والأصل في «كأن، وشابه، وماثل، وما يرادفها» أن يليها المشبه، مثل قوله:

كأن الثريا راحة تشبر الدجى   لتنظر طال الليل أم قد تعرضا

وكأن تفيد التشبيه إذا كان خبرها جامدًا، نحو: كأن البحر مرآة صافية.

وقد تفيد الشك إذا كان خبرها مشتقًّا، نحو: «كأنك فاهم».

ومثل قوله:

كأنك من كل النفوس مركب   فأنت إلى كل النفوس حبيب

وقد يغني عن أداة التشبيه «فعل» يدل على حال التشبيه، ولا يعتبر أداة.

فإن كان «الفعل لليقين» أفاد قرب المشابهة؛ لما في فعل اليقين من الدلالة على تيقين الاتحاد وتحققه، وهذا يفيد التشبيه مبالغة، نحو: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾.

ونحو: رأيت الدنيا سرابًا غَرَّارًا.

وإن كان «الفعل للشك» أفاد بعدها؛ لما في فعل الرجحان من الإشعار بعدم التحقق، وهذ يُفيد التشبيه ضعفًا، نحو: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا﴾. وكقوله:

قوم إذا لبسوا الدروع حسبتها   سُحُبًا مزردة على أقمار

ونحو قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾.

ونحو قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾.

وكقول الشاعر:

والوجه مثل الصبح مُبْيَضٌّ والفرع مثل الليل مُسْوَدُّ
ضدان لما استجمعا حَسُنَا والضد يُظهر حُسْنَه الضِّدُّ

(٧) المبحث السابع: في تقسيم التشبيه باعتبار أداته

ينقسم التشبيه باعتبار أداته إلى:

(أ) التشبيه المرسل:[٣٨] وهو ما ذُكرت فيه الأداة، كقول الشاعر:

إنما الدنيا كبيت نسجه من عنكبوت

(ب) التشبيه المؤكد: وهو ما حُذفت منه أداته، نحو: «يسجع سجع القمري»، وكقول الشاعر:

وأنت نجم في رفعة وضياء تجتليك العيون شرقًا وغربا

ومن المؤكد ما ضيف فيه المشبه به إلى المشبه، كقول الشاعر:

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على[٣٩] لجين الماء

أي: أصيل كالذهب على ماء كاللجين.
والمؤكد أوجز، وأبلغ، وأشد وقعًا في النفس.
أما إنه أوجز فلحذف أداته، وأما إنه أبلغ فلإيهامه أن المشبه عين المشبه به.

(٧-١) التشبيه بالبليغ

(ج) التشبيه بالبليغ: ما بلغ درجة القبول لحسنه أو الطيب الحسن، فكلما كان وجه الشبه قليل الظهور، يحتاج في إدراكه إلى إعمال الفكر، كان ذلك أفعل في النفس، وأدعى إلى تأثرها واهتزازها؛ لما هو مركوز في الطبع من أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له والاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه؛ كان نيله أحلى وموقعه في النفس أجل وألطف،

وكانت به أضمن وأشغف. وما أشبه هذا الضرب من المعاني بالجوهر في الصدف، لا يبرز إلا أن تشقه عنه، وبالحبيب المتحجب لا يريك وجهه حتى تستأذن.

وسبب هذه التسمية أنَّ ذِكر «الطرفين» فقط يُوهم اتحادهما، وعدم تفاضلهما، فيعلو المشبه إلى مستوى المشبه به، وهذه هي المبالغة في قوة التشبيه.

والتشبيع البليغ: هو ما حُذفت فيه أداة التشبيه، ووجه الشبه،[٤٠] نحو:

فاقضوا مآربكم عجالًا إنما　　　أعماركم سفر من الأسفار

ونحو:

عزماتهم قضب وفيض أكفهم　　　سحب وبيض وجوههم أقمار

(٨) المبحث الثامن: في فوائد التشبيه

الغرض من التشبيه والفائدة منه هي الإيضاح والبيان «في التشبيه غير المقلوب» ويرجع ذلك الغرض إلى المشبه، وهو إما:

(١) بيان حاله؛ وذلك حينما يكون المشبه مبهمًا غير معروف الصفة التي يراد إثباتها له قبل التشبيه، فيفيده التشبيه الوصف، ويوضحه المشبه به، نحو: «شجر النارنج كشجر البرتقال». ومثل قول الشاعر:

إذا قامت لحاجتها تثنت　　　كأن عظامها من خيزران

شبه عظامها بالخيزران بيانًا لما فيها من اللين.[٤١]

(٢) أو بيان إمكان حاله، وذلك حين يسند إليه أمر مستغرب لا تزول غرابته إلا بذكر شبيه له، معروف واضح مسلم به؛ ليثبت في ذهن السامع ويقرر، مثل قوله:

ويلاه إن نظرت وإن هي أعرضت　　　وقـع الـسـهـام ونـزعـهـن ألـيـم

شبه نظرها بوقع السهام، وشبه إعراضها بنزعها؛ بيانًا لإمكان إيلامها بها جميعًا.

(٣) أو بيان مقدار حال المشبه في القوة والضعف؛ وذلك إذا كان المشبه معلومًا معروف الصفة التي يُراد إثباتها له معرفة إجمالية قبل التشبيه، بحيث يُراد من ذلك التشبيه بيان مقدار نصيب المشبه من هذه الصفة؛ وذلك بأن يعمد المتكلم لأن يبين للسامع ما يعنيه من هذا المقدار، مثل قوله:

كأنَّ مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل

وكتشبيه الماء بالثلج في شدة البرودة، ومثل قوله:

فيها اثنتان وأربعون حلوبة سودًا كخافية الغراب الأسحم

شبه النياق السود بخافية الغراب؛ بيانًا لمقدار سوادها، فالسواد صفة مشتركة بين الطرفين.

(٤) أو تقرير حال المشبه، وتمكينه في ذهن السامع، بإبرازها فيما هي فيه أظهر،[٤٢] كما إذا كان ما أُسند إلى المشبه يحتاج إلى التثبيت والإيضاح، فتأتي بمشبه حسي قريب التصور، يزيد معنى المشبه إيضاحًا؛ لما في المشبه به من قوة الظهور والتمام، نحو: «هل دولة الحسن إلا كدولة الزهر؟» و«هل عمر الصبا إلا أصيل أو سحر؟» ومثل قوله:

إن القلوب إذا تنافر وُدُّها مثل الزجاجة كسرُها لا يُجْبَر[٤٣]

شبه تنافر القلوب بكسر الزجاجة؛ تثبيتًا لتعذر عودة القلوب إلى ما كانت عليه من الأنس والمودة.

(٥) أو بيان إمكان وجود المشبه، بحيث يبدو غريبًا يستبعد حدوثه والمشبه به يزيل غرابته، ويبين أنه ممكن الحصول، مثل قوله:

فإن تَفُقِ الأنامَ وأنتَ منهم فإن المِسك بعضُ دَمِ الغزالِ[٤٤]

(٦) أو مدحه وتحسين حاله؛ ترغيبًا فيه، أو تعظيمًا له، بتصويره بصورة تهيج في النفس قوى الاستحسان، بأن يعمد المتكلم إلى ذكر مشبه به مُعجب، قد استقر في النفس حسنه وحبه، فيصوِّر المشبه بصورته، كقوله:

وزاد بك الحسن البديع نضارة   كأنك في وجه الملاحة خال

ونحو:

كأنك شمس والملوك كواكب   إذا طلعْتَ لم يَبْدُ منهن كوكب

وقوله:

سبقتْ إليك من الحدائق وردةٌ   وأتتك قبل أوانها تطفيلا
طمعت بلثمك إذ رأتك فجمعت   فمها إليك كطالب تقبيلا

وقوله:

له خال على صفحات خد   كنقطة عنبر في صحن مرمر
وألحاظ كأسياف تنادي   على عاصي الهوى الله أكبر

(٧) أو تشويه المشبه وتقبيحه؛ تنفيرًا منه أو تحقيرًا له، بأن تصوِّره بصورة تمجُّها النفس، ويشمئز منها الطبع، كقوله:

وإذا أشار محدِّثًا فكأنه   قرد يقهقه أو عجوز تلطم

وقوله:

وترى أناملها دبت على مزمارها   كخنافس دبت على أوتار

(٨) أو استطرافه — أي عدُّه طريفًا حديثًا — بحيث يجيء المشبه به طريفًا، غير مألوف للذهن؛ إما لإبرازه في صورة الممتنع عادة، كما في تشبيه «فحم فيه جمر متقد ببحر من المسك موجه الذهب» وقوله:

وكأن مُحْمَرَّ الشقيق إذا تصوَّب أو تصعَّد
أعلام ياقوت نشر ن على رماح من زبرجد

وإما لِنُدور حضور المشبه به في الذهن عند حضور المشبه، كقوله:

انظرْ إليه كزورق من فِضة قد أثقلتْه حمولةٌ من عنبر[٤٥]

(٨-١) تشبيه على غير طرقه الأصلية

التشبيه الضمني

هو تشبيه لا يُوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة من صور التشبيه المعروفة، بل يلمح المشبه والمشبه به، ويفهمان من المعنى، ويكون المشبه به دائمًا برهانًا على إمكان ما أُسند إلى المشبه، كقول المتنبي:

مَن يَهُن يَسْهُلِ الهوانُ عليه ما لجرحٍ بميِّت إيلامُ

أي: إن الذي اعتاد الهوان يسهل عليه تحمله، ولا يتألم له، وليس هذا الادعاء باطلًا؛ لأن الميت إذا جُرح لا يتألم، وفي ذلك تلميح بالتشبيه في غير صراحة، وليس على صورة من صور التشبيه المعروفة، بل إنه «تشابه» يقتضي التساوي، وأما «التشبيه» فيقتضي التفاوت.

والقبيح المردود: هو ما لم يفِ بالغرض المطلوب منه؛ لعدم وجود وجه بين المشبه والمشبه به، أو مع وجوده لكنه بعيد.

التشبيه المقلوب

قد يُعكس التشبيه، فيُجعل المشبه مشبهًا به وبالعكس،[٤٦] فتعود فائدته إلى المشبه به؛ لادِّعاء أن المشبه أتم وأظهر من المشبه به في وجه الشبه.

ويُسمى ذلك «بالتشبيه المقلوب»[٤٧] أو المعكوس، نحو: «كأن ضوء النهار جبينه»، ونحو: «كأن نشر الروض حسن سيرته»، ونحو: «كأن الماء في الصفاء طباعه»، وكقول محمد بن وهيب الحميري:[٤٨]

وبدا الصباح كأن غرَّته وجه الخليفة حين يمتدح

شبه غرَّة الصبَّاح بوجه الخليفة؛ إيهامًا أنه أتم منها في وجه الشبه. وكقول البحتري في وصف بِرْكة المتوكل:

كأنها حين لجت في تدفقها يد الخليفة لما سال واديها[٤٩]

وهذا التشبيه مظهر من مظاهر الافتتان والإبداع، كقوله تعالى حكاية عن الكفار: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ في مقام أن الربا مثل البيع، عكسوا ذلك لإيهام أن الربا عندهم أحل من البيع؛ لأن الغرض الربح، وهو أثبت وجودًا في الربا منه في البيع، فيكون أحق بالحل عندهم.

(٩) المبحث التاسع: في تقسيم التشبيه باعتبار الغرض إلى مقبول وإلى مردود

ينقسم التشبيه باعتبار الغرض إلى حسن مقبول، وإلى قبيح مردود.

فالحسن المقبول: هو ما وفَى بالأغراض السابقة: كأن يكون المشبه به أعرف من المشبه في وجه الشبه، إذا كان الغرض بيان حال المشبه، أو بيان المقدار، أو أن يكون أتم شيء في وجه الشبه إذا قُصد إلحاق الناقص بالكامل، أو أن يكون في بيان الإمكان مسلم الحكم، ومعروفًا عند المخاطب، إذا كان الغرض بيان إمكان الوجود، وهذا هو الأكثر في التشبيهات؛ إذ هي جارية على الرشاقة، سارية على الدقة والمبالغة. ثم إذا تساوى الطرفان في وجه التشبيه عند بيان المقدار كان التشبيه كاملًا في القبول، وإلا فكلما كان المشبه به أقرب في المقدار إلى المشبه كان الشبه أقرب إلى الكمال والقبول.

تنبيهات

الأول: بعض أساليب التشبيه أقوى من بعض في المبالغة، ووضوح الدلالة ولها مراتب ثلاثة:

(أ) أعلاها وأبلغها: ما حُذف فيها الوجه والأداة، نحو: «على أسد»؛ وذلك أنك ادعيت الاتحاد بينهما بحذف الأداة، وادعيت التشابه بينهما في كل شيء بحذف الوجه؛ ولذا سُمي هذا تشبيهًا بليغًا.

(ب) المتوسطة: ما تُحذف فيها الأداة وحدها، كما تقول: «علي أسد شجاعة» أو يُحذف فيها وجه الشبه، فتقول: «علي كالأسد». وبيان ذلك أنك بذكرك الوجه حصرت التشابه، فلم تدع للخيال مجالًا في الظن بأن التشابه في كثير من الصفات، كما أنك بذكر الأداة نصصت على وجود التفاوت بين المشبه والمشبه به، ولم تترك بابًا للمبالغة.

(جـ) أقلها: ما ذُكر فيها الوجه والأداة، وحينئذ فقدت المزيتين السابقتين.

الثاني: قد يكون الغرض من التشبيه حسنًا جميلًا؛ وذلك هو النمط الذي تسمو إليه نفوس البلغاء، وقد أتوا فيه بكل حسن بديع، كقول ابن نُباتة في وصف فرس أغرَّ مُحَجَّل:

وكأنما لَطَمَ الصباح جبينه فاقتص منه فخاض في أحشائه

وقد لا يوفق المتكلم إلى وجه الشبه، أو يصل إليه مع بعد، وما أخلق مثل هذا النوع بالاستكراه وأحقه بالذم! لما فيه من القبح والشناعة، بحيث ينفر منه الطبع السليم.

الثالث: عُلم مما سبق أن أقسام التشبيه من حيث الوجه والأداة كالآتي:

(١) التشبيه المرسل: هو ما ذُكرت فيه الأداة.

(٢) التشبيه المؤكد: هو ما حُذفت منه الأداة.

(٣) التشبيه المجمل: هو ما حُذف منه وجه الشبيه.

(٤) التشبيه المفصَّل: هو ما ذُكر فيه وجه الشبه.

(٥) التشبيه البليغ: هو ما حُذفت منه الأداة، ووجه الشبه،[٥٠] وهو أرقى أنواع التشبيه بلاغة، وقد تقدم الكلام عليه مستوفًى.

(٦) التشبيه الضمني: هو تشبيه لا يُوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة من صور التشبيه المعروفة، بل يلمح المشبه والمشبه به، ويُفهمان من المعنى، نحو:

علا فما يستقر المال في يده ... وكيف تمسك ماء قنة الجبل

فالمشبه الممدوح، وهو ضمير «علا»، والمشبه به «قنة الحبل»، ووجه الشبه عدم الاستقرار، والأداة محذوفة أيضًا.

وهذا النوع يُؤتى به؛ ليفيد أن الحكم الذي أُسند إلى المشبه ممكن.[٥١]

أسئلة تطلب أجوبتها

ما هو علم البيان لغة واصطلاحًا؟ ما هو التشبيه؟ ما أركان التشبيه؟ طرفا التشبيه حسيان أم عقليان؟ ما المراد بالحسي؟ ما هو التشبيه الخيالي؟ ما المراد بالعقلي؟ ما هو التشبيه الوهمي؟ ما هو وجه الشبه؟ ما هي أدوات التشبيه؟ هل الأصل في أدوات التشبيه أن يليها المشبه أو المشبه به؟ متى تفيد كأن التشبيه؟ ما هو التشبيه البليغ؟ ما هو التشبيه الضمني؟ ما هو التشبيه المرسل؟ كم قسمًا للتشبيه باعتبار طرفيه؟ كم قسمًا للتشبيه باعتبار تعدد طرفيه؟ ما هو التشبيه الملفوف؟ ما هو التشبيه المفروق؟ ما هو تشبيه التسوية؟ ما هو تشبيه الجمع؟ كم قسمًا للتشبيه باعتبار وجه الشبه؟ ما هو تشبيه التمثيل؟ ما هو تشبيه غير التمثيل؟ ما هو التشبيه المفصل؟ ما هو التشبيه المجمل؟ كما قسمًا للتشبيه باعتبار الغرض منه؟

تطبيق عام على أنواع التشبيه

«اشتريت ثوبًا أحمر كالورد» في هذه الجملة تشبيه مرسل مفصل، المشبه ثوبًا، والمشبه به هو الورد، وهما حسيان مفردان، والأداة الكاف، ووجه الشبه الحمرة في كلٍّ، والغرض منه بيان حال المشبه.

ما الدهر إلا الربيع المستنير إذا ... أتى الربيع أتاك النور والنور
فالأرض ياقوتة والجو لؤلؤة ... والنبت فيروزج والماء بلور

«الأرض ياقوتة» تشبيه بليغ مجمل، المشبه الأرض، والمشبه به ياقوتة، وهما حسيان مفردان، ووجه الشبه محذوف وهو الخضرة في كل، والأداة محذوفة، والغرض منه تحسينه.

والجو لؤلؤة، والنبت فيروزج، والماء بلور؛ كذلك.

وفي البيت كله تشبيه مفروق؛ لأنه أتى بمشبه ومشبه به، وآخر وآخر.

العمر والإنسان والدنيا همو   كالظل في الإقبال والإدبار

فيه تشبيه تسوية مرسل مفصل، المشبه العمر والإنسان والدنيا، والمشبه به الظل، والمشبه بعضه حسي، وبعضه عقلي، والمشبه به حسي، والكاف الأداة، ووجه الشبه الإقبال والإدبار، والغرض تقرير حاله في نفس السامع.

كم نعمة مرت بنا وكأنها   فرس يهرول أو نسيم ساري

في البيت تشبيه جمع مرسل مجمل، المشبه نعمة، والمشبه به فرس يهرول، أو نسيم ساري، وهما حسيان، وكأن الأداة، ووجه الشبه السرعة في كل، والغرض منه بيان مقدار حاله.

ليل وبدر وغصن   شعر وجه وقد

فيه تشبيه بليغ مجمل ملفوف، المشبه شعر وهو حسي، والمشبه به ليل، وهو عقلي، والأداة محذوفة، ووجه الشبه السواد في كل، والغرض منه بيان مقدار حاله.

وفي الثاني: المشبه وجه، والمشبه به بدر، وهما حسيان، ووجه الشبه الشبه الحسن في كل، والأداة محذوفة، والغرض تحسينه.

وفي الثالث: المشبه قَد، والمشبه به غصن، وهما حسيان، ووجه الشبه الاعتدال في كل، والأداة محذوفة، والغرض بيان مقداره، هذا هذا، وإن شئت فقل: هذا «تشبيه مقلوب» بجعل المشبه به مشبهًا، والمشبه مشبهًا به؛ لغرض المبالغة، بأن الليل مشبهًا، والشعر مشبهًا به.

وقد لاح في الصبح الثريا كما ترى   كعنقود ملاحية حين نورا

فيه تشبيه تمثيل مرسل مجمل، المشبه هيئة الثريا الحاصلة من اجتماع أجرام مشرقة مستديرة منيرة، والمشبه هيئة عنقود العنب المنور، والجامع الهيئة الحاصلة من اجتماع أجرام منيرة مستديرة في كلٍّ، والأداة الكاف، والغرض منه بيان حاله.

تمرين

بيِّن أنواع التشبيه فيما يأتي:

(١) الورد في أعلى الغصون كأنه　　ملك تَحُفُّ به سراة جنوده

(٢) إذ ارتجل الخطاب بدا خليج　　بفيه يمده بحر الكلام
كلام بل مدام بل نظام　　من الياقوت بل حبُّ الغمام

(٣) يا صاحبيَّ تيقظا من رقدة　　تُزري على عقل اللبيب الأكيس
هذى المجرة والنجوم كأنها　　نهر تدفق في حديقة نرجس

(٤) وكأن الصبح لمَّا　　لاح من تحت الثُّريَّا
ملك أقبل في التا　　ج يفدَّى ويحيَّا

(٥) إنما النفس كالزجاجة والعلم　　سراج وحكمة الله زيت
فإذا أشرقت فإنك حي　　وإذا أظلمت فإنك ميت

(٦) وغير تقي يأمر الناس بالتقى　　طبيب يداوي الناس وهو مريض

(٧) إذا امتحن الدنيا لبيب تكشَّفت　　له عن عدو في ثياب صديق

(٨) جمرة الخلد أحرقت عنبر الخا ل فـمـن ذلـك الـعـذار دخـان

(٩) كالبدر من حيث التفتَّ رأيته يـهدي إلـى عينيك نورًا كافيا

(١٠) وأشرق عن بشر هو النور في الضحا
وصافي بأخلاق هي الطَّل في الصبح

تمرين آخر

لبيان أنواع التشبيه البليغ، والضمني، والتمثيل، والمقلوب، والمؤكد، والمفصَّل، والمجمل.

(١) خلط الشجاعة بالحياء فأصبحا كـالـحـسـن شـيـب لـمـغـرم بـدلال

(٢) شقائق يحملن الندى فكأنه دموع التصابي في خدود الخرائد

(٣) عذُبَ الفراق لنا قُبيل وداعنا ثـم اجـتـرعـنـاه كـسـم نـاقـع
فـكـأنـمـا أثـر الـجـمـوع بـخـدِّهـا طـل تـنـاثـر فـوق ورد يـانـع[٥٢]

(٤) وترى الغصون تميل في أوراقها مثل الوصائف في صنوف حرير

(٥) وحديقة ينساب فيها جدول طرفي برونق حسنه مدهوش
يبدو خيال غصونها في مائه فـكـأنـمـا هـو مـعـصـم مـنـقـوش

(٦) انظر إلى حسن تكوين السماء وقد لاحـت كـواكـبـهـا والـلـيـل ديـجـور
كـأنـهـا خـيـمـة لـيـسـت عـلـى عـمـد زرقـاء قـد رُصـعـت فـيـهـا الـدنـانـيـر

(٧) وقد سفر الدجى عن ضوء فجر   منير مثلما سفر النقاب
فخلت الصبح في إثر الثريا   بشيرًا جاء في يده كتاب

(٨) ولقد ذكرتك والنجوم كأنها   درر على أرض من الفيروزج
يلمعن من خلل السحاب كأنها   شرر تطاير من دخان العرفج

(٩) ونارنجة بين الرياض نظرتها   على غصن رطب كقامة أغيد
إذا ميَّلتها الريح مالت كأكرة   بدت ذهبًا من صولجان زمرد

(١٠) وحديقة غناء ينتظم النَّدى   بفروعها كالدُّرِّ في الأسلاك
والبدر يشرق من خلال غصونها   مثل المليح يطل من شُبَّاك

(١١) لو كنت تشهد يا هذا عَشِيَّتنا   والمزن يُسْكب أحيانًا وينحدر
والأرض مصفرة بالمزن كاسية   أبصرت تبرًا عليه الدر ينتثر

(١٢) وللأقاحي قصور كلها ذهب   من حولها شُرفات كلها درر

(١٣) كأنما النار في تلهبها   والفحم من فوقها يغطيها
زنجية شبكت أناملها   من فوق نارنجة لتخفيها

(١٤) والورد في شط الخليج كأنه   رمد ألمَّ بمقلة زرقاء

(١٥) هذي المجرة والنجوم كأنها   نهر تدفق في حديقة نرجس

(١٦) أنظر إلى حُسن هلال بدا يهتك من أنواره الجندسا[٥٣]
كمنجل قد صيغ من عسجد يحصد من زهر الدجى نرجسا

(١٧) والبدر يُسْتَرُ بالغيوم وينجلي كتنفس الحسناء في مرآتها

(١٨) كأنما الأغصان لما انثنت أمام بدر التِّمِّ في غيهبه
بنت مليك خلف شُبَّاكها تفرجت منه على موكبه

(١٩) كأن شعاع الشمس في كل غدوة على ورق الأشجار أول طالع
دنانير في كف الأشلِّ يضمُّها لقبض فتهوي من فروج الأصابع

(٢٠) لئن بسط الزمان يَدَيْ لئيم فصبرًا للذي فعل الزمان
فقد تعلو على الرأس الذُّنابَى كما يعلو على النار الدخان

(٢١) دهر علا قدر الوضيع به وغدا الشريف يحطه شرفه
كالبحر يرسب فيه لؤلؤه سفلًا وتطفو فوقه جيفه

(٢٢) لو أورقت من دم الأبطال سُمْرُ قنًا لأوقت عنده سُمْرُ القنا الذُّبل
إذا توجه في أولى كتائبه لم تفرق العين بين السهل والجبل
فالجيش ينفض حوليه أسنته نفض العقاب جناحيه من البلل

(٢٣) لو كنت شاهدنا عشية أنسها والمزن يبكينا بعيني مذنب
والشمس قد مدت أديم شعاعها في الأرض تجنح غير أن لم تذهب

خلت الرذاذ برادة من فضة ... قد غربلت من فوق نطع مذهب[54]

(٢٤) لله دولاب يفيض بسلسل ... في روضة قد أينعت أفنانا
قد طارحته بها الحمائم شجوها ... فيجيبها ويرجِّع الألحانا
فكأنه دنف[55] يدور بمعهد[56] ... يبكي ويسأل فيه عمَّن بانا[57]
ضاقت مجاري طرفه عن دمعه ... فتفتحت أضلاعه أجفانا

(٢٥) أخرس ينبيك بإطراقه ... عن كل ما شئت من الأمر
يذري على قرطاسه دمعه ... يبدي لنا السر وما يدري
كعاشق أخفى هواه وقد ... نمت عليه عبرة تجري

(٢٦) الشمس من مشرقها قد بدت ... مشرقة ليس لها حاجب
كأنها بودقة أُحميت ... يجول فيها ذهب ذائب

(٢٧) قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾.

(٢٨) إذا ما تردَّى لأمة الحرب أرعدت ... حشا الأرض واستدعى الرماح الشوارع
وأسفر تحت النقع حتى كأنه ... صباح مشى في ظلمة الليل ساطع

(٢٩) وكأن أجرام السماء لوامعًا ... درر نُثِرْن على بِساط أزرق

(٣٠) قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾.

(٣١) وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾.

(٣٢) وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾.

(٣٣) حمر السيوف كأنما ضربت لهم | أيدي القيون صفائحًا من عسجد
في فتية طلبوا غبارك إنه | رهج ترفع عن طريق السؤدد
كالرمح فيه بضع عشرة فقرة | منقادة خلف السِّنان الأصيد

(٣٤) خبريني ماذا كرهت من الشيـ | ـبِ فلا علم لي بذنب المشيب
أضياء النهار أم وضح اللؤ | لؤ أم كونه كثغر الحبيب
واذكري لي فضل الشباب وما يجْـ | ـمع من منظر يروق وطيب
غدره بالخليل أم حبه للْـ | ـغيِّ أم أنه كدهر الأديب

(٣٥) والبدر أول ما بدا متلثِّما | يبدي الضياء لنا بخد مسفر
فكأنما هو خوذة من فضة | قد رُكبت في هامة من عنبر

(٣٦) خلتها في المعصفرات القواني | وردة في شقائق النعمان

(٣٧) شبهت بدر سمائنا لمَّا دنت | منه الثريا في قميص سندس
ملكًا مهيبًا قاعدًا في روضة | حيَّاه بعض الزائرين بنرجس

(٣٨) وإني على إشفاق عيني من البكا | لتجمح مني نظرة ثم أطرق
كما حلئت عن ماء بئر طريدة | تمد إليها جيدها وهي تفرق

(٣٩) أنا كالورد فيه راحة قوم | ثم فيه لآخرين زكام

(٤٠) يا حبذا يومنا ونحن على رءوسنا نعقد الأكاليلا
في جنة ذُلِّلت لقاطفها قطوفها الدانيات تذليلا
كأن أترجَّها تميل بها أغصانها حاملًا ومحمولا
سلاسل من زبرجد حملت من ذهب أصفر قناديلا

(٤١) كم والد يحرم أولاده وخيره يحظى به الأبعد
كالعين لا تنظر ما حولها ولحظها يُدرك ما يَبعُدُ

(٤٢) ريم يتيه بحسن صورته عبث الفتور بلحظ مقلته
فكأنَّ عقرب صُدغه وقفت لما دنت من نار وجنته

(٤٣) وشادن أهيف حيًّا بنرجسة كأنها إذ بدت في غاية العجب
كف من الفضة البيضاء ساعدها زبرجد حمِّلت كأسًا من الذهب

(٤٤) نثر الجو على الأرض برَد أي در لنحور لو جمد
لؤلؤ أصدافه السحب التي أنجز البارق منها ما وعد

(٤٥) أبصرت طاقة نرجس في كف من أهواه غضَّهْ
فكأنها برج الزبر جد أنبتت ذهبًا وفضَّهْ

(٤٦) كأن الأفق محفوف بنار وتحت النار آساد تزير

(٤٧) وما الناس إلا كالديار وأهلها بها يوم حلُّوها وغدوًا بلاقع

(٩-١) بلاغة التشبيه[٥٨] وبعض ما أُثِرَ منه عن العرب والمحدثين

تنشأ بلاغة التشبيه من أنه ينتقل بك من الشيء نفسه إلى شيء طريف يُشبهه، أو صورة بارعه تُمثله، وكلما كان هذا الانتقال بعيدًا، قليل الخطور بالبال، أو ممتزجًا بقليل أو كثير من الخيال — كان التشبيه أروع للنفس، وأدعى إلى إعجابها واهتزازها.

فإذا قلت: فلان يشبه فلانًا في الطول، أو أن الأرض تشبه الكرة في الشكل، لم يكن في هذه التشبيهات أثر للبلاغة؛ لظهور المشابهة، وعدم احتياج العثور عليها إلى براعة، وجهد أدبي، ولخلوِّها من الخيال.

وهذا الضرب من التشبيه يُقْصَد به البيان والإيضاح، وتقريب الشيء إلى الأفهام، وأكثر ما يُستعمل في العلوم والفنون.

ولكنك تأخذك روعة التشبيه حينما تسمع قول المعري يصف نجمًا:

يُسرع اللمح في احمرار كما　　　تسرع في اللمح مقلة الغضبان

فإن تشبيه لمحات النجم وتألقه مع احمرار ضوئه بسرعة لمحة الغضبان من التشبيهات النادرة، التي لا تنقاد إلا لأديب، ومن ذلك قول الشاعر:

وكأن النجوم بين دجاها　　　سُننٌ لاح بينهن ابتداع

فإن جمال هذا التشبيه جاء من شعورك ببراعة الشاعر، وحِذقه في عقد المشابهة بين حالتين ما كان يخطر بالبال تشابههما، وهما حالة النجوم في رقعة الليل بحال السنن الدينية الصحيحة، متفرقة بين البدع الباطلة.

ولهذا التشبيه روعة أخرى، جاءت من أن الشاعر تخيل أن السنن مضيئة لَمَّاعة، وأن البدع مظلمة قاتمة.

ومن أبدع التشبيهات قول المتنبي:

بليت بِلَى الأطلال إن لم أقف بها　　　وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

يدعو الشاعر على نفسه بالبلى والفناء إذا هو لم يقف بالأطلال؛ ليذكر عهد من كانوا بها، ثم أراد أن يصوِّر لك هيئة وقوفه، فقال: «كما يقف شحيح فقد خاتمه في التراب» من كان يوفق إلى تصوير حال الذَّاهل المتحير المحزون المطرق برأسه، المنتقل من مكان إلى مكان في اضطراب ودهشة — بحال شحيح فقد في التراب خاتمًا ثمينًا.

هذه بلاغة التشبيه من حيث مبلغ طرافته، وبُعد مرماه، ومقدار ما فيه من خيال.

أما بلاغته من حيث الصورة الكلامية التي يُوضع فيها، فمتفاوته أيضًا.

فأقل التشبيهات مرتبة في البلاغة ما ذُكرت أركانه جميعها؛ لأنَّ بلاغة التشبيه مبنية على ادعاء أنَّ المشبه عين المشبه به، ووجود الأداة، ووجه الشبه معًا — يحولان دون هذا الادعاء، فإذا حذفت الأداة وحدها، أو وجه الشبه وحده، ارتفعت درجة التشبيه في البلاغة قليلًا؛ لأن حذف أحد هذين يقوي ادعاء اتحاد المشبه والمشبه به بعض التقوية، أما أبلغ أنواع التشبيه «فالتشبيه البليغ»؛ لأنه مبني على ادعاء أن المشبه والمشبه به شيء واحد.

هذا؛ وقد جرى العرب والمحدثون على تشبيه الجواد بالبحر والمطر، والشجاع بالأسد، والوجه الحسن بالشمس والقمر، والشهم الماضي في الأمور بالأحلام، والوجه الصبيح بالدينار، والشعر الفاحم بالليل، والماء بالسيف، والعالي المنزلة بالنجم، والحليم الرزين بالجبل، والأماني الكاذبة بالعنقاء، والماء الصافي باللُّجَيْنِ، والليل بموج البحر، والجيش بالبحر الزَّاخر، والخيل بالريح والبرق، والنجوم بالدرر والأزهار، والأسنان بالبرد واللؤلؤ، والسفن بالجبال، والجداول بالحيَّات الملتوية، والشيب بالنهار، ولمع السيوف وغرَّة الفرس بالهلال. ويشبِّهون الجبان بالنَّعامة والذبابة، واللئيم بالثعلب، والطائش بالفَراش، والذليل بالوتد، والقاسي بالحديد والصخر، والبليد بالحمار، والبخيل بالأرض المجدبة.

وقد اشتهر رجال من العرب بخلال محمودة، فصاروا فيها أعلامًا، فجرى التشبيه بهم، فيشبه الوفي بالسموءل،[٥٩] والكريم بحاتم، والعادل بعمر،[٦٠] والحليم بالأحنف،[٦١] والفصيح بسحبان، والخطيب بقس،[٦٢] والشجاع بعمرو بن معد يكرب، والحليم بلقمان،[٦٣] والذكي بإياس. واشتهر آخرون بصفات ذميمة، فجرى التشبيه بهم أيضًا، فيشبه العَيِيُّ بباقل،[٦٤] والأحمق بهبَنَّقَة،[٦٥] والنادم بالكُسَعي،[٦٦] والبخيل بمادر،[٦٧] والهجَّاء بالحُطَيْئة،[٦٨] والقاسي بالحجاج الثقفي: أحد جبابرة العرب المتوفى سنة ٩٧هـ.

هوامش

(١) هو اسم لكل شيء كشف لك بيان المعنى، وهتك لك الحجب، دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله، كائنًا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع. واعلم أن المعتبر في علم البيان دقة المعاني المعتبرة فيها من الاستعارات والكنايات مع وضوح الألفاظ الدالة عليها، فالبيان هو المنطق الفصيح، المعرِب عما في الضمير.

(٢) فإذا كان معنى البيان «الإيضاح» كان متعديًا، وإن كان بمعنى «الظهور» كان لازمًا، يقال: بينت الشيء: أوضحته. وبان الشيء: ظهر واتضح. وكذلك تقول: أبنت الشيء وأبان الشيء، وكذلك: بينت الشيء: أظهرته. وبين الشيء: ظهر. وكذلك تبينت الشيء، وتباين الشيء، واستبنت الشيء، واستبان الشيء، بمعنًى واحد.

والتِّبيان — بالكسر: البيان والكشف والإيضاح.

(٣) أي يعرف من حصل تلك الأصول كيف يُعبر عن المعنى الواحد بعبارات بعضها أوضح من بعض، فعلم البيان: علم يُستطاع بمعرفته إبراز المعنى الواحد بصور متفاوتة، وتراكيب مختلفة في درجة الوضوح، مع مطابقة كل منها مقتضى الحال، فالمحيط بفن البيان، الضليع من كلام العرب منثوره ومنظومه إذا أراد التعبير عن أي معنى يدور في خلده ويجول بضميره — استطاع أن يختار من فنون القول، وطرق الكلام ما هو أقرب لمقصده، وأليق بغرضه، بطريقة تبين ما في نفس المتكلم من المقاصد، وتوصل الأثر الذي يريده به إلى نفس السامع في المقام المناسب له، فينال الكاتب والشاعر والخطيب من نفس مخاطبيه إذا جود قوله، وسحرهم ببديع بيانه.

ولا بد في علم البيان من اعتبار «المطابقة لمقتضى الحال» المعتبرة في علم المعاني.

فمنزلة «المعاني» من «البيان» منزلة الفصاحة من البلاغة.

(١) اعلم أن من الحسي ما لا تدركه الحواس الخمس التي هي «البصر والسمع والشم والذوق واللمس»، ولكن تُدرك مادته فقط، ويُسمى هذا التشبيه «بالخيالي» الذي ركبته المخيلة من أمور موجودة، كل واحد منها يُدرك بالحس، كقوله:

كأن الحباب المستدير برأسها كواكب در في سماء عقيق

فإن كواكب در، وسماء عقيق — لا يُدركها الحس؛ لأنها غير موجودة، ولكن يُدرك مادتها التي هي الدر والعقيق على انفراد، والمراد بالحباب ما يعلو الماء من الفقاقيع، والضمير للخمر، ومنه أيضًا قول الآخر:

وكان محمر الشقـ ـيق إذا تصوَّب أو تصعَّد
أعلام ياقوت نُشـ ـن على رماح من زبرجد

فإن الأعلام والياقوت والزبرجد والرماح موجودة، لكن المشبه الذي مادته هذه ليس موجودًا ولا محسوسًا، والمراد بالعقلي ما لا يُدرك هو ولا مادته بإحدى الحواس الظاهرة، بل إدراكه عقلًا، فيدخل فيه الوهمي وهو ما لا يدرك هو ما لا مادته بإحدى الحواس، ولكن لو وجد في الخارج لكان مدركًا بها، ويُسمى هذا التشبيه «بالوهمي» الذي لا وجود له ولا لأجزائه كلها أو بعضها في الخارج، ولو وجد لكان مدركًا بإحدى الحواس كقوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ وكقوله:

أيقتلني والمشرَفِيُّ مُضاجِعي ومسنونة زُرْق كأنيابِ أغوال

فإن أنياب الأغوال لم توجد هي ولا مادتها، وإنما اخترعها الوهم، لكن لو وُجدت لأُدركت بالحواس، والمشرفي السيف، والمسنونة السهام، والأغوال يزعمون أنها وحوش هائلة المنظر ولا أصل لها، والوجدانيات كالجوع والعطش ونحوهما ملحقة بالعقلي، ثم التضاد بين الطرفين قد ينزل منزلة التناسب، ويجعل وجه الشبه على وجه الطرافة أو الاستهزاء، كما في تشبيه شخص أَلْكَن «بقُسّ بن ساعدة» أو رجل بخيل «بحاتم». والفرق بين الطرافة والاستهزاء يُعرف بالقرائن، فإن كان الغرض مجرد الطرافة فطرافة، وإلا فاستهزاء.

(٢) وتقييده بالإضافة، أو الوصف، أو المفعول، أو الحال، أو الظروف، أو بغير ذلك.

ويُشترط في القيد أن يكون له تأثير وجه الشبه؛ ولهذا جُعل قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ من باب تشبيه المفرد بالمفرد بلا قيد، ونحو: «التعلم في الصغر كالنقش في الحجر».

(٣) ومنه قول الآخر:

كأن مثار النقع فوق رءوسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فإنه شبه هيئة الغبار، وفيه السيوف مضطربة بهيئة الليل، وفيه الكواكب تتساقط في جهات مختلفة، وكقول الشاعر:

كأن الدموع على خدها   بقية طل على جلنار

فالمشبه مركب من الدموع والخد، والمشبه به مركب من الطل والجلنار.
(٤) وكقوله:

وحدائق لبس الشقيق نباتها   كالأرجوان منقطًا بالعنبر

(٥) وكقوله:

لا تعجبوا من خاله في خده   كل الشقيق بنقطة سوداء

فالمشبه مركب من «الخال والخد»، والمشبه به مفرد وهو «الشقيق».
(٦) متى تعدد الطرفان معًا نتج تشبيهان أو أكثر، لا تشبيه واحد.
(٧) أي: فقد جمع ضوء الشهب والليل المشبهين مع أطراف الأسنة والدروع المشبه بهما.
(٨) ومنه قوله:

إنما النفس كالزجاجة والعلـ   ـم سراج وحكمة الله زيت
فإذا أشرقت فإنك حي   وإذا أظلمت فإنك ميت

(٩) أي كأن المحبوب يبتسم عن أسنان كاللؤلؤ المنظوم، أو كالبرد، أو كالأقاح، فشبه الشاعر ثغر المحبوب بثلاثة أشياء: اللؤلؤ (وهو الجوهر المعلوم)، والبَرَد (وهو حب الغمام)، والأقاح (جمع أقحوان بضم الهمزة وفتحها، وهو زهر نبت طيب الرائحة حوله ورق أبيض، ووسطه أصفر).

(١٠) يريد أن النبات لكثرته وتكاثفه مع شدة خضرته قارب لونه السواد، وانتقص من ضوء الشمس، حتى كأنه ليل مقمر، فشبه النهار المشمس الذي قد خالطه زهر الربا بالليل المقمر، والأول مركب، والثاني مفرد مقيد.

(١١) شُبهت هيئة السيوف الحاصلة من علوها ونزولها بسرعة في وسط الغبار بهيئة كواكب تتساقط في ليل مظلم.

(١٢) أي: إن أصابعها المعبر عنها بالبنان قد نُقش عليها بالوشم ما هو كالشبك الزبرجدي؛ أي: المحيط ببياض أصابعها التي هي كالبلور، فالمفردات كل واحد منها يُدرك بالحس، والمركب غير موجود.

(١٣) يريد الشاعر وصف العقاب بكثرة اصطياده الطيور، فشبه الطري من قلوب الطير بالعناب، واليابس منها بالحشف البالي، والعناب شجر له حب كحب الزيتون، وأحسنه الأحمر الحلو.

(١٤) ففيه التشبيه الملفوف حيث جمع في الشطر الأول صنيع الخير ومعرفته، وهما متلازمان، ثم أتى في الشطر الثاني بالمشبه بها، أعني: وقود الشمع والنظر إلى نوره.

(١٥) امرأة فرعاء: كثيرة الشعر. وأسحم: أسود، من سحم كتعب.

(١٦) الميس: الرحل. والإنقاض: قيل صوت الفراريج الضئيل، وقيل صوت الحيوان. والنقض: صوت الموتان كالرحل. والفراريج: جمع فروج وهو فرخ الدجاجة. وتقدير البيت: كأن أصوات أواخر الميس من إيغالهن بنا إنقاض الفراريج.

(١٧) المُدام: الخمر. والصوب: من صاب المطر يصوب إذا انصب بكثرة ونزل. والخزامى: نبت طيب الرائحة. والعَلل: الشرب الثاني، يقال: عَلَل بعد نَهَل.

(١٨) رخيم الحواشي: مختصر الأطراف. والهراء (بضم الهاء) المنطق الكثير، وقيل: المنطق الفاسد الذي لا نظام له.

(١٩) الثناء يشبه بالعطر، ولكنه اعتبر المعقول كأنه محسوس، وجعله كالأصل لذلك المحسوس؛ مبالغة، وتخيله شيئًا له رائحة، وشبه العطر به.

(٢٠) الدهان: الجلد الأحمر.

(٢١) الكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع «الأضلاع وآخرها» وهو من لدن السرة إلى المتن. الجديل: الزمام المجدول من أدم، وقيل: حبل من أدم أو شعر في عنق البعير. ومخصر: دقيق. السقي: البردي، واحده سقية. المذلل: الذي ذلل بالماء حتى طاوع كل

من مد إليه يده. قال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب في شرحه لديوان امرئ القيس: شبه كشح المرأة بالزمام في اللين والتثني واللطافة، وشبه ساقها ببردي قد نبت تحت نخل، والنخل تظلله من الشمس، والوجه بالبياض.

(٢٢) الأراك: شجر من الحمض يستاك بقضبانه، واحدته أراكة، وجمعها أرائك.

(٢٣) العيس: كرام الإبل، وقيل: الإبل البيض، يخالط بياضها شقرة أو ظلمة خفية. والأطلال: جمع طلل وهو الشاخص من آثار الديار. والرسم ما كان لاصقًا بالأرض من آثار الديار. وأخلاق: جمع خَلَق (بفتح اللام) وهو الثوب البالي. والمسلسل: الرقيق، من تسلسل الثوب لُبس حتى رَقَّ.

(٢٤) الفجاج: جمع فج، الطريق الواسع الواضح بين جبلين، والكفة: ما يُصاد به «الشبكة»، والحابل: الصياد.

(٢٥) الصدغ: بضم الصاد ما بين العين والأذن. والشعر المتدلي على هذا الموضع هو المراد هنا. والثغر يطلق على الفم، والأسنان في منابتها، والمراد الثاني.

(٢٦) الأغيد: الناعم البدن. والمجدول: المطوي غير المسترخي، والمراد لازمه وهو ضامر البطن والخاصرتين. والوشاح: شبه قلادة ينسج من جلد عريض يُرصع بالجواهر، تشده المرأة في وسطها أو على المنكب الأيسر معقودًا تحت الإبط الأيمن للزينة. والمنضد: المنظم. والبرد: حب الغمام. والأقاح بفتح الهمزة وضمها نبات له زهر أبيض، في وسطه كتلة صغيرة صفراء وأوراق، زهرة مفلجة صغيرة، واحدته أقحوانة (بضم القاف).

(٢٧) إما «حقيقة» كالبأس في قولك: «زيد كالأسد»، وإما «تخيلًا» كما في قوله:

يا من له شعر كحظي أسود   جسمي نحيل من فراقك أصفر

فإن وجه الشبه فيه بين الشعر والحظ هو السواد، وهما يشتركان فيه، لكنه يوجد في المشبه تحقيقًا، ولا يوجد في المشبه به إلا على سبيل التخييل؛ لأنه ليس من ذوات الألوان. ثم اعلم أن وجه الشبه: إما داخل في حقيقة الطرفين، وذلك كما في تشبيه ثوب بآخر، في جنسهما أو نوعهما أو فصلهما، كقولك: «هذا القميص مثل ذلك» في كونهما كتانًا أو قطنًا، وإما خارج عن حقيقتهما وهو ما كان صفة لهما «حقيقة» وهي قد تكون حسية كالحمرة في تشبيه الخد بالورد، وقد تكون عقلية كالشجاعة في تشبيه الرجل بالأسد، أو «إضافية» وهي ما ليست هيئة متقررة في الذات، بل هي معنًى متعلقًا بها، كالجلاء في تشبيه البينة بالصبح. ثم إن وجه التشبيه قد يكون واحدًا، وقد يكون

بمنزلة الواحد «لكونه مركبًا من متعدد» وقد يكون متعددًا، وكل من ذلك قد يكون حسيًّا وقد يكون عقليًّا.

«أما الواحد» فالحسي منه كالحمرة في تشبيه الخد بالورد، والعقلي كالنفع في تشبيه العلم بالحياة.

و«أما المركب» فالحسي منه قد يكون مفرد الطرفين، كما في قوله:

وقد لاح في الصبح الثريا كما ترى   كعنقود ملأ حببه حين نورا

فإن وجه الشبه فيه هو الهيئة الحاصلة من التئام الحبب البيض الصغيرة المستديرة المرصوص بعضها فوق بعض على الشكل المعلوم، وكلا الطرفين مفرد، وهما الثريا والعنقود، وقد يكون مركب الطرفين كما في قوله:

والبدر في كبد السماء كدرهم   ملقًى على ديباجة زرقاء

فإن وجه الشبه فيه هو الهيئة الحاصلة من طلوع صورة بيضاء مشرقة مستديرة في رقعة زرقاء مبسوطة، وكلا الطرفين مركب، أولهما من البدر والسماء، والثاني من الدرهم والديباجة، وقد يكون مختلف الطرفين كقوله:

وحدائق لبس الشقيق نباتها   كالأرجوان منقطًا بالعنبر

فإن وجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من انبساط رقعة حمراء قد نقطت بالسواد منثورًا عليها، والمشبه مفرد وهو الشقيق، والمشبه به مركب من الأرجوان والعنبر. وكقوله:

لا تعجبوا من خاله في خده   كل الشقيق بنقطة سوداء

فإن وجه الشبه فيه هو الهيئة الحاصلة من طلوع نقطة سوداء مستديرة في وسط رقعة حمراء مبسوطة، والمشبه مركب من الخال والخد، والمشبه به مفرد وهو الشقيق، والعقلي من المركب كما في قوله:

المستجير بعمرو عند كربته   كالمستجير من الرمضاء بالنار

فإن وجه الشبه فيه هو الهيئة الحاصلة من الالتجاء من الضار إلى ما هو أضر منه؛ طمعًا في الانتفاع به، ووجه الشبه مركب من هذه المتعددات في الجميع. والرمضاء: الأرض التي أسخنتها حرارة الشمس الشديدة. والمراد «بعمرو» هنا هو جساس بن مرة البكري، يقال: إنه لما رمى كليب بن ربيعة التغلبي وقف على رأسه فقال له: «يا عمرو» أغثني بشربة ماء، فأتم قتله.

وأما المتعدد فالحسي منه كما في قوله:

مهفهف وجنتاه كالخمر لونًا وطعما

والعقلي كالنفع والضرر في قوله:

طلق شديد البأس راحته كالبحر فيه النفع والضرر

فإن وجه الشبه فيهما متعدد، وهو اللون والطعم في الأول، والنفع والضرر في الثاني، وقد يجيء المتعدد مختلفًا كما في قوله:

هذا أبو الهيجاء كالسيف في الرونق والمضاء

فإن وجه الشبه فيه هو الرونق وهو حسي، والمضاء وهو عقلي. وأبو الهيجاء: لقب عبد الله بن حمدان العدوي، والهيجاء من أسماء الحرب.

واعلم أن الحسي لا يكون طرفاه إلا حسيين، وأما العقلي فلا يلزمه كونهما عقليين؛ لأن الحسي يُدرك بالفعل، خلافًا للعقلي فإنه لا يُدرك بالحس.

(٢٨) يقرع: يضرب.

(٢٩) الأنس — محركة: من تأنس به، جمعه أناس، ولغة في الإنس بالكسر. والمحل: الجدب.

(٣٠) الحاجب: المانع. والبوتقة: الوعاء الذي يذيب فيه الصائغ الذهب.

(٣١) قضب: جمع قضيب، وهو السيف القطاع.

(٣٢) الكوكب هنا السيف.

(٣٣) الطل: المطر الضعيف. والجلنار: زهر الرمان، واحدته جلنارة (فارسي معرب).

(٣٤) لما ادعى أنه ليس منهم مع إقامته بينهم، وكان ذلك يكاد يكون مستحيلًا في مجرى العادة — ضرب لذلك المثل بالذهب؛ فإن مقامه في التراب، وهو أشرف منه.

(٣٥) الديباجتان: الخدان. والسرمد: الدائم.

(٣٦) «التشبيه» يفيد التفاوت، وأما «التشابه» فيفيد التساوي بلفظ «تشابه وتماثل أو تشاكل وتساوي وتضارع». وكذا بقولك: كلاهما سواء، لا بما كان له فاعل ومفعول به، مثل «شابه وساوى» فإن في هذا إلحاق الناقص بالزائد.

(٣٧) وقد يليها غير المشبه به إذا كان التشبيه مركبًا؛ أي: هيئة منتزعة من متعدد، وذكر بعد الكاف بعض ما ننتزع منه تلك الهيئة كقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ فإن المراد تشبيه حال الدنيا في حسن نضارتها وبهجة روائها في المبدأ، وذهاب حسنها وتلاشي رونقها شيئًا فشيئًا في الغاية — بحال النبات الذي يحسن من الماء، فتزهو خضرته، ثم ييبس شيئًا فشيئًا، ثم يتحطم فتطيره الرياح، فيصير كأن لم يكن شيئًا مذكورًا، بجامع الهيئة الحاصلة في كل من حسن وإعجاب ومنفعة، يعقبها التلف والعدم.

(٣٨) وسمي مرسلًا؛ لإرساله عن التأكيد.

(٣٩) الأصيل: الوقت بين العصر إلى المغرب. واللجين: الفضة.

(٤٠) ومن التشبيه البليغ أن يكون المشبه به مصدرًا مبينًا للنوع، نحو: «أقدم الجندي إقدام الأسد — وراغ المدين روغان الثعلب»، ومنه أيضًا إضافة المشبه به للمشبه، نحو: «لبس فلان ثوب العافية»، ومنه أيضًا أن يكون المشبه به حالًا نحو: «حمل القائد على أعدائه أسدًا».

(٤١) والتشبيه لهذا الغرض يكثر في العلوم والفنون لمجرد البيان والإيضاح، فلا يكون فيه حينئذ أثر للبلاغة؛ لخلوه من الخيال وعدم احتياجه إلى التفكير، ولكنه لا يخلو من ميزة الاختصار في البيان، وتقريب الحقيقة إلى الأذهان، كقولهم: الأرض كالكرة.

(٤٢) ويكثر في تشبيه الأمور المعنوية بأخرى تدرك بالحس، نحو: التعلم في الصغر كالنقش في الحجر.

(٤٣) تنافر القلوب وتوادها من الأمور المعنوية، ولكن الشاعر نظر إلى ما في المشبه به من قوة الظهور والتمام، فانتقل بالسامع من تنافر القلوب الذي لا ينتهي إذا وقع إلى كسر الزجاجة الذي لا يُجبَر إذا حصل؛ فصور لك الأمر المعنوي بصورة حسية.

(٤٤) أي أنه لا استغراب في فوقانك للأنام مع أنك واحد منهم؛ لأن لك نظيرًا وهو «المسك» فإنه بعض دم الغزال وقد فاق على سائر الدماء، ففيه تشبيه حال الممدوح بحال المسك تشبيهًا ضمنيًّا، والتشبيه الضمني هو تشبيه لا يُوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة من صور التشبيه المعروفة، بل يُلمَحان في التركيب لإفادة أن الحكم الذي أُسند إلى المشبه ممكن، نحو: المؤمن مرآة المؤمن.

(٤٥) الحمولة ما يُحمل فيه ويوضع، والمقصد من التشبيه وجود شيء أسود داخل أبيض. واعلم أن التشبيه الذي يعود فيه الغرض إلى المشبه يكون وجه شبهه أتم وأعرف في المشبه به منه في المشبه، كما في السكاكي، وعليه جرى أبو العلاء المعري في قوله: «ظلمناك في تشبيه صدغيك بالمسك»، وقاعدة التشبيه نقصان ما يحكى، وشراح التلخيص اشترطوا الأعرفية ولم يشترطوا الأتمية، وفي المطول والأطول ما يلفت النظر؛ فارجع إليهما.

(٤٦) التشبيه المقلوب ويُسمى المنعكس: هو ما رجع فيه وجه الشبه إلى المشبه به، وذلك حين يُراد تشبيه الزائد بالناقص، ويلحق الأصل بالفرع للمبالغة، وهذا النوع جارٍ على خلاف العادة في التشبيه، ووارد على سبيل الندور.

وإنما يحسن في عكس المعنى المتعارف، كقول البحتري:

في طلعة البدر شيء من محاسنها ... وللقضيب نصيب من تثنيها

والمتعارف تشبيه الوجوه الحسنة بالبدور، والقامات بالقضيب في الاستقامة والتثني، لكنه عكس ذلك؛ مبالغة. هذا إذا أُريد إلحاق كامل بناقص في وجه الشبه، فإن تساويا حسن العدول عن «التشبيه» إلى الحكم «بالتشابه»؛ تباعدًا واحترازًا من ترجيح أحد المتساويين على الآخر، كقول أبي إسحاق الصابي:

تشابه دمعي إذ جرى ومدامتي ... فمن مثل ما في الكأس عيني تسكب
فوالله ما أدري أبالخمر أسلبت ... جفوني أم من عبرتي كنت أشرب

وكقول الصاحب بن عباد:

رق الزجاج وراقت الخمر ... فتشابها وتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

(٤٧) يقرب من هذا النوع ما ذكره الحلبي في كتاب حسن التوسل وسماه «تشبيه التفضيل» وهو أن يشبه شيء بشيء لفظًا أو تقديرًا، ثم يعدل عن التشبيه لادعاء أنه المشبه به، كقوله:

حسبت جمالها بدرًا منيرًا وأين البدر من ذاك الجمال

(٤٨) فالحميري أراد أن يوهم أن وجه الخليفة أتم من غرة الصباح إشراقًا ونورًا.
(٤٩) فالبحتري أراد أن يوهم أن يد الخليفة أقوى تدفقًا بالعطاء من البركة بالماء.
(٥٠) المراد بالبليغ هنا: ما بلغ درجة القبول لحسنه، أو المراد به اللطيف الحسن.
(٥١) كقوله:

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

أي: لا تنكري خلو الرجل الكريم من الغنى فإن ذلك ليس عجبًا؛ لأن قمم الجبال — وهي أعلى الأماكن — لا يستقر فيها ماء السيل «فها هنا يلمح الذكي تشبيهًا»، ولكنه لم يضع ذلك صريحًا، بل أتى بجملة مستقلة وضمَّنها هذا المعنى في صورة برهان، فيكون هذا التشبيه على غير طرقه الأصلية؛ بحيث يورد التشبيه ضمنًا من غير أن يصرح به، ويجعل في صورة برهان على الحكم الذي أسند إليه المشبه، كما سبق شرحه. وقد يراد إيهام أن المشبه والمشبه به متساويان في وجه الشبه، فيترك التشبيه؛ ادعاء بالتساوي دون الترجيح.
(٥٢) الطل: الندى.
(٥٣) الحندس: الظلام.
(٥٤) النطع: بساط من جلد.
(٥٥) الدنف: من برح به العشق.
(٥٦) المعهد: المنزل الذي إذا نأى عنه القوم رجعوا إليه.
(٥٧) بان: فارق.
(٥٨) التشبيه مع ما فيه من ميزة الإيجاز في اللفظ يفيد المبالغة في الوصف، ويخرج الخفي إلى الجلي، والمعقول إلى المحسوس، ويجعل التافه نفيسًا، والنفيس تافهًا،

ويدني البعيد من القريب، ويزيد المعنى وضوحًا، ويكسبه تأكيدًا، فيكون أوقع في النفس وأثبت، وله روعة الجمال والجلال.

(٥٩) هو السموءل بن عادياء اليهودي، يُضرب به المثل في الوفاء، وهو من شعراء الجاهلية، توفي سنة ٦٢ق.ه.

(٦٠) هو أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين، وأحد السابقين إلى الإسلام الأولين، اشتهر بعدله وتواضعه وزهده، وقد نصر الله به الإسلام وأعزه، وتوفي سنة ٢٣ه.

(٦١) هو الأحنف بن قيس من سادات التابعين، كان شهمًا حليمًا، عزيزًا في قومه، إذا غضب غضب له مائة ألف سيف لا يسألون لماذا غضب، توفي سنة ٦٧ه.

(٦٢) هو قس بن ساعدة الأيادي، خطيب العرب قاطبة، ويُضرب به المثل في البلاغة والحكمة.

(٦٣) حكيم مشهور آتاه الله الحكمة؛ أي: الإصابة بالقول والعمل.

(٦٤) رجل اشتهر بالعي، اشترى غزالًا مرة بأحد عشر درهمًا، فسئل عن ثمنه فمد أصابع كفيه يريد عشرة، وأخرج لسانه ليكملها أحد عشر، ففر الغزال، فضُرب به المثل في العي.

(٦٥) هو لقب أبي الودعات يزيد بن ثروان القيسي، يُضرب به المثل في الحمق.

(٦٦) هو غامد بن الحارث، خرج مرة للصيد فأصاب خمسة حمر بخمسة أسهم، وكان يظن كل مرة أنه مخطئ، فغضب وكسر قوسه، ولما أصبح رأى الحمر مصروعة والأسهم مخضبة بالدم، فندم على كسر قوسه، وعض على إبهامه فقطعها.

(٦٧) لقب رجل من بني هلال، اسمه مخارق، وكان مشهورًا بالبخل واللؤم.

(٦٨) شاعر مخضرم، كان هجاء مرًّا، ولم يكد يسلم من لسانه أحد، هجا أمه وأباه، ونفسه، وله ديوان شعر، وتُوفي سنة ٤٠ه.

الباب الثاني

في المجاز[1]

المجاز مشتق من جاز الشيء يجوزه إذا تعدَّاه، سمَّوا به اللفظ الذي نُقِلَ من معناه الأصلي واستُعْمِل؛ ليدل على معنى غيره، مناسب له.

والمجاز: من أحسن الوسائل البيانية التي تهدي إليها الطبيعة؛ لإيضاح المعنى؛ إذ به يخرج المعنى متصفًا بصفة حسية، تكاد تعرضه على عيان السامع؛ لهذا شُغفت العرب باستعمال «المجاز» لميلها إلى الاتساع في الكلام، وإلى الدلالة على كثرة معاني الألفاظ، ولما فيه من الدقة في التعبير، فيحصل للنفس به سرور وأريحيَّة، ولأمر ما كثر في كلامهم، حتى أتوا فيه بكل معنًى رائق، وزينوا به خطبهم وأشعارهم.

وفي هذا الباب مباحث:

(١) المبحث الأول: في تعريف المجاز وأنواعه

المجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وُضع له في اصطلاح التخاطب لعلاقة، مع قرينة[2] مانعة من إرادة المعنى الوضعي.

والعلاقة: هي المناسبة[3] بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، قد تكون «المشابهة» بين المعنيين، وقد تكون غيرها.

فإذا كانت العلاقة «المشابهة» فالمجاز «استعارة» وإلا فهو «مجاز مرسل».

والقرينة: وهي المانعة من إرادة المعنى الحقيقي قد تكون لفظية، وقد تكون حالية، كما سيأتي.

وينقسم المجاز إلى أربعة أقسام: مجاز مفرد مرسل، ومجاز مفرد بالاستعارة (ويجريان في الكلمة) ومجاز مركب مرسل، ومجاز مركب بالاستعارة (ويجريان في الكلام)، ومتى أطلق المجاز انصرف إلى «المجاز اللغوي».

وأنواع المجاز كثيرة: أهمها «المجاز المرسل» وهو المقصود بالذات، وسيأتي مجاز يسمَّى «المجاز العقلي» ويجري في الإسناد.

(٢) المبحث الثاني: في المجاز اللغوي المفرد المرسل[٤] وعلاقاته

المجاز المفرد المرسل: هو الكلمة المستعملة قصدًا في غير معناها الأصلي لملاحظة علاقة غير «المشابهة» مع قرينة دالة على عدم إرادة المعنى الوضعي.

وله علاقات كثيرة، أهمها:

(١) السَّببيَّة: وهي كون الشيء المنقول عنه سببًا، ومؤثرًا في غيره؛ وذلك فيما إذا ذكر لفظ السبب، وأريد منه المُسَبَّب، نحو: «رعت الماشية الغيث»؛ أي: النبات؛ لأن الغيث؛ أي «المطر»، سبب فيه.[٥]

وقرينته «لفظية» وهي «رعَتْ»؛ لأن العلاقة تعتبر من جهة المعنى المنقول عنه.

ونحو: «لفلان عليَّ يدٌ» تريد باليد النِّعمة؛ لأنها سبب فيها.

(٢) والمسببة: هي أن يكون المنقول عنه مسببًا وأثرًا لشيء آخر؛ وذلك فيما إذا ذُكِرَ لفظ المسبب، وأريد منه السَّبب، نحو: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾؛ أي: مطرًا يسبِّب الرزق.

(٣) والكلِّيَّة: هي كون الشيء متضمنًا للمقصود ولغيره؛ وذلك فيما إذا ذُكر لفظ الكل وأريد منه الجزء، نحو: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾؛ أي أناملهم والقرينة «حالية» وهي استحالة إدخال الأصبع كلِّه في الأذن.

ونحو: «شربت ماء النيل» والمراد بعضه، بقرينة شربت.

(٤) والجزئية: هي كون المذكور ضمن شيء آخر؛ وذلك فيما إذا ذُكر لفظ الجزء، وأريد منه الكل، مثل قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾.

ونحو: «نشر الحاكم عيونه في المدينة»؛ أي الجواسيس، فالعيون مجاز مرسل، علاقته «الجزئية»؛ لأن كل عين جزء من جاسوسها، والقرينة الاستمالة.

(٥) واللازميَّة: هي كون الشيء يجب وجوده، عند وجود شيء آخر، نحو: «طلع الضوء»؛ أي الشمس، فالضوء مجاز مرسل، علاقته «اللازميَّة»؛ لأنه يوجد عند وجود الشمس، والمعتبر هنا اللزوم الخاص، وهو عدم الانفكاك.

(٦) والملزومية: هي كون الشيء يجب عند وجوده وجود شيء آخر، نحو: «ملأت الشمس المكان»؛ أي الضوء، فالشمس مجاز مرسل، علاقته «الملزومية»؛ لأنها متى وُجدت وُجد الضوء، والقرينة «ملأت».

(٧) والآليَّة: هي كون الشيء واسطة لإيصال أثر شيء إلى آخر؛ وذلك فيما إذا ذُكر اسم الآلة، وأريد الأثر الذي ينتج عنه، نحو: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾؛ أي ذكرًا حسنًا «فلسان» بمعنى «ذكر حسن» مجاز مرسل، علاقته «الآليَّة»؛ لأن اللِّسان آلة في الذكر الحسن.

(٨) والتقييد ثم الإطلاق: هو كون الشيء مقيدًا بقيد أو أكثر، نحو: «مِشْفر زيد مجروح» فإن المِشْفَر لغة: شفة البعير، ثم أُريد هنا مطلق شفة، فكان في هذا منقولًا عن المقيد إلى المطلق، وكان مجازًا مرسلًا علاقته التقييد، ثم نُقِل من مطلق شفة إلى شفة الإنسان، فكان مجازًا مرسلًا بمرتبتين، وكانت علاقته «التقييد والإطلاق».

(٩) والعموم: هو كون الشيء شاملًا لكثير، نحو قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾؛ أي «النبي» ﷺ، فالناس مجاز مرسل، علاقته العموم، ومثله قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ فإن المراد من الناس واحد، وهو «نعيم بن مسعود الأشجعي».

(١٠) والخصوص: هو كون اللفظ خاصًّا بشيء واحد، كإطلاق اسم الشخص على القبيلة، نحو: ربيعة وقريش.

(١١) واعتبار ما كان: هو النظر إلى الماضي؛ أي تسمية الشيء باسم ما كان عليه، نحو: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾؛ أي الذين كانوا يتامى، ثم بلغوا، فاليتامى: مجاز مرسل علاقته «اعتبار ما كان»، وهذا إذا جرينا على أن دلالة الصفة على الحاضر حقيقته، وعلى ما عداه مجاز.

(١٢) واعتبار ما يكون: هو النظر إلى المستقبل؛ وذلك فيما إذا أُطلق اسم الشيء على ما يئول إليه، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾؛ أي عصيرًا يئول أمره إلى خمر؛ لأنه حال عصره لا يكون خمرًا، فالعلاقة هنا: «اعتبار ما يئول إليه».

ونحو: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ والمولود حين يُولد لا يكون فاجرًا ولا كافرًا، ولكنه قد يكون كذلك بعد الطفولة، فأطلق المولود الفاجر، وأريد به الرجل الفاجر، والعلاقة «اعتبار ما يكون».

(١٣) والحالية: هي كون الشيء حالًا في غيره؛ وذلك فيما إذا ذكر لفظ الحال وأريد المحل لما بينهما من الملازمة، نحو: ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فالمراد من «الرحمة» الجنة التي تحل فيها رحمة الله، ففيه مجاز مرسل، علاقته «الحالية».

وكقوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾؛ أي لباسكم؛ لحلول الزينة فيه، فالزينة حال واللباس محلها، ونحو: وأرى بياضًا يظهر ويختفي، وأرى حركة تعلو وتسفل.

(١٤) والمحلية: هي كون الشيء يحمل فيه غيره؛ وذلك فيما إذا ذكر لفظ المحل وأريد به الحال فيه، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ والمراد من يحل في النادي.

وكقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾؛ أي ألسنتهم؛ لأن القول لا يكون عادة إلا بها.

(١٥) والبدلية: هي كون الشيء بدلًا عن شيء آخر، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ والمراد: الأداء.

(١٦) والمبدلية: هي كون الشيء مبدلًا منه شيء آخر، نحو: «أكلت دم زيد»؛ أي ديته، فالدم «مجاز مرسل» علاقته «المبدلية»؛ لأن الدم مبدل عنه «الدية».

(١٧) والمجاورة: هي كون الشيء بدلًا عن شيء آخر، نحو: «كلمت الجدار والعامود»؛ أي الجالس بجوارهما، فالجدار والعامود مجازان مرسلان علاقتهما «المجاورة».

(١٨) والتعلق الاشتقاقي: هو إقامة صيغة مقام أخرى؛ وذلك:

(أ) كإطلاق المصدر على اسم المفعول في قوله تعالى: ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾؛ أي: مصنوعه.

(ب) وكإطلاق اسم الفاعل على المصدر في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾؛ أي: تكذيب.

(ج) وكإطلاق اسم الفاعل على اسم المفعول في قوله: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾؛ أي: لا معصوم.

(د) وكإطلاق اسم المفعول على اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾؛ أي: ساترًا.

والقرينة على مجازية ما تقدم هي ذكر ما يمنع إرادة المعنى الأصلي.

(٣) المبحث الثالث: في تعريف المجاز العقلي وعلاقاته[٦]

المجاز العقلي: هو إسناد الفعل أو ما في معناه «من اسم فاعل أو اسم مفعول أو مصدر» إلى غير ما هو له في الظاهر من المتكلم؛ لعلاقة مع قرينة تمنع من أن يكون الإسناد إلى ما هو له.

(٣-١) أشهر علاقات المجاز العقلي

(١) الإسناد إلى الزمان، نحو: «من سره زمن ساءته أزمان» أسند الإساءة والسرور إلى الزمن، وهو لم يفعلهما، بل كانا واقعين فيه على سبيل المجاز.

(٢) الإسناد إلى المكان، نحو: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ فقد أسند الجري إلى الأنهار، وهي أمكنة للمياه، وليست جارية بل الجاري ماؤها.

(٣) الإسناد إلى السبب، نحو:

إني لمن معشر أفنى أوائلهم قيل الكماة: ألا أين المحامونا؟

فقد نُسِب الإفناء إلى قول الشجعان: هل من مبارز؟ وليس ذلك القول بفاعل له، ومؤثر فيه، وإنما هو سبب فقط.

(٤) الإسناد إلى المصدر، كقول أبي فراس الحمداني:

سيذكرني قومي إذا جدَّ جدُّهم وفي الليلة الظلماء يُفتقَد البدر

فقد أسند الجد إلى الجد — أي الاجتهاد — وهو ليس بفاعل له، بل فاعله الجاد، فأصله جد الجاد جَدًّا؛ أي: اجتهد اجتهادًا، فحُذف الفاعل الأصلي وهو الجاد، وأُسند الفعل إلى الجد.

(٥) إسناد ما بُني للفاعل إلى المفعول، نحو: «سرني حديث الوامق» فقد استعمل اسم الفاعل، وهو الوامق؛ أي «المحب» بدل الموموق؛ أي: المحبوب، فإن المراد: سُررت بمحادثة المحبوب.

(٦) إسناد ما بُني للمفعول إلى الفاعل، نحو: «جعلت بيني وبينك حجابًا مستورا»؛ أي ساترًا، فقد جعل الحجاب مستورًا، مع أنه هو الساتر.

تنبيهات

(أ) كما يكون هذا المجاز في الإسناد يقع في النسبة الإضافية، نحو: «جري الأنهار، وغراب البين، ومكر الليل» فنسبة الجري إلى الأنهار مجاز علاقته المكانية، ونسبة البين إلى الغراب مجاز علاقته السببية، ونسبة المكر إلى الليل مجاز علاقته الزمانية.

(ب) الفعل المبني للفاعل واسم الفاعل إذا أُسندا إلى المفعول فالعلاقة المفعولية، والفعل المبني للمجهول واسم المفعول إذا أُسندا إلى الفاعل فالعلاقة الفاعلية، واسم المفعول المستعمل في موضع اسم الفاعل مجاز علاقته الفاعلية، واسم الفاعل المستعمل في موضع اسم المفعول مجاز علاقته المفعولية.

(جـ) هذا المجاز مادة الشاعر المفلق، والكاتب البليغ، وطريق من طرق البيان لا يستغني عنها واحد منهما.

تطبيق على أشهر علاقات المجاز العام

اذكر علاقات المجاز المرسل، فيما يلي:

(١) أبا المسك أرجو منك نصرًا على العدا وآمل عزًّا يَخْضِبُ البيض بالدَّم[٧]
(٢) ويومًا يغيظ الحاسدين وحالة أقيم الشقا فيها مقام التنعم[٨]

(٣) قال الله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾.
(٤) ذهبنا إلى حديقة غناء.
(٥) بنى جمال عبد الناصر كثيرًا من المدارس بمصر.

(٦) تكاد عطاياه يُجَنُّ جنونها إذا لم يعوِّذها برقية طالب[٩]

الإجابة

(١) عزًّا يخضب البيض بالدم.

إسناد خضب السيوف بالدم إلى ضمير العز غير حقيقي؛ لأن العز لا يخضب السيوف، ولكنه سبب القوة، وجمع الأبطال الذين يخضبون السيف بالدم، ففي العبارة مجاز عقلي، علاقته السببية.

(٢) ويومًا يغيظ الحاسدين.

إسناد غيظ الحاسدين إلى ضمير اليوم غير حقيقي، غير أن اليوم هو الزمان الذي يحصل فيه الغيظ، ففي الكلام مجاز عقلي، علاقته الزمانية.

(٣) ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾.

المعنى: لا معصوم[١٠] اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله، فاسم الفاعل أسند إلى المفعول، وهذا مجاز عقلي، علاقته المفعولية.

(٤) ذهبنا إلى حديقة غناء.

غناء مشتقة من الغن، والحديقة لا تغن، وإنما الذي يغن «عصافيرها» أو ذبابها، ففي الكلام مجاز عقلي، علاقته المكانية.

(٥) بنى جمال كثيرًا من المدارس.

جمال — رئيس الجمهورية العربية المتحدة — لم يبنِ بنفسه، ولكنه أمر، ففي الإسناد مجاز عقلي، علاقته السببية.

(٦) تكاد عطاياه يُجن جنونها. إسناد الفعل إلى المصدر مجاز عقلي، علاقته المصدرية.

نموذج آخر

بيِّن المجاز العقلي واذكر علاقته فيما يلي:

(١) أهلكنا الليل والنهار.
(٢) منزل عامر بنعم الله.
(٣) أنشأ وزير التربية عدة مدارس.
(٤) مشرب عذب.
(٥) هذا يوم عصيب.
(٦) ربحت تجارتهم.

(١) في قوله: «أهلكنا الليل والنهار» مجاز عقلي، علاقته السببية، فقد نسب الإهلاك إلى الليل والنهار، مع أن فاعله هو الله تعالى، وهذان سببان فيه.

(٢) في قوله: «منزل عامر بنعم الله» مجاز عقلي، علاقته المفعولية؛ إذ قد أسند اسم الفاعل إلى المفعول في المعنى.

(٣) في قوله: «أنشأ وزير التربية عدة مدارس» مجاز عقلي، علاقته السببية؛ إذ نسب الإنشاء إلى الوزير وهو السبب فقط.

(٤) في قوله: «مشرب عذب» نسب العذوبة إلى المكان، لا إلى الماء، مجاز؛ لعلاقته المكانية.

(٥) العصيبة والشديدة خطوب اليوم وحوادثه لا هو، فوصفه بذلك وصف للزمان، فهو مجاز، علاقته الزمانية.

(٦) أسند الربح إلى التجارة، والرابح هو صاحبها لا هي، فهو مجاز، علاقته المفعولية.

(٣-٢) بلاغة المجاز المرسل[١١] والمجاز العقلي

إذا تأملت أنواع المجاز المرسل والعقلي رأيت أنها في الغالب تؤدي المعنى المقصود بإيجاز، فإذا قلت: «هزم القائد الجيش» أو: «قرر المجلس كذا» كان ذلك أوجز من أن تقول: «هزم جنود القائد الجيش» أو: «قرر أهل المجلس كذا» ولا شك أن الإيجاز ضرب من ضروب البلاغة.

وهناك مظهر آخر للبلاغة في هذين المجازين، هو المهارة في تخير العلاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي، بحيث يكون المجاز مصورًا للمعنى المقصود خير تصوير، كما في إطلاق العين على الجاسوس، والأذن على سريع التأثر بالوشاية، والخف والحافر على الجمال والخيل في المجاز المراسل. وكما في إسناد الشيء: إلى سببه، أو مكانه، أو زمانه، في المجاز العقلي.

فإن البلاغة توجب أن يختار السبب القوي، والمكان والزمان المختصان.

وإذا دققت النظر رأيت أن أغلب ضروب المجاز المرسل، والمجاز العقلي لا تخلو من مبالغة بديعة، ذات أثر في جعل المجاز رائعًا خلابًا، فإن إطلاق الكل على الجزء مبالغة، ومثله إطلاق الجزء وإرادة الكل، كما إذا قلت: «فلان فم» تريد أنه شره، يلتقم كل شيء.

ونحوه: «فلان أنف» عندما تريد أن تصفه بعظم الأنف، فتبالغ فتجعله كله أنفًا!

ومما يؤثر عن بعض الأدباء في وصف رجل أنافي[١٢] قوله: «لست أدري: أهو في أنفه، أم أنفه فيه»؟

(٤) المبحث الرابع: في المجاز المفرد بالاستعارة

تمهيد

سبق أن التشبيه أول طريقة دلت عليها الطبيعة؛ لإيضاح أمر يجهله المخاطب، بذكر شيء آخر معروف عنده؛ ليقيسه عليه. وقد نتج من هذه النظرية نظرية أخرى في تراكب الكلام، ترى فيها ذكر المشبه به فقط، وتسمى هذه بالاستعارة، وقد جاءت هذه التراكب المشتملة على الاستعارة أبلغ من تراكيب التشبيه، وأشد وقعًا في نفس المخاطب؛ لأنه كلما كانت داعية إلى التحليق في سماء الخيال كان وقعها في النفس أشد، ومنزلتها في البلاغة أعلى.

وما يبتكره أمراء الكلام من أنواع صور الاستعارة البديعة، التي تأخذ بمجامع الأفئدة، وتملك على القارئ والسامع لبهما وعواطفهما «هو سر بلاغة الاستعارة».

فمن الصور المجملة التي عليها طابع الابتكار وروعة الجمال قول شاعر الحماسة:

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم　　　طاروا إليه زرافات ووحدانا

فإنه قد صور لك الشر بصورة حيوان مفترس مكشر عن أنيابه مما يملأ فؤادك رعبًا، ثم صور القوم الذين يعنيهم بصور طيور جوارح تطير إلى مصادمة الأعداء طيرانًا مما يستثير إعجابك بنجدتهم، ويدعوك إلى إكبار حميتهم وشجاعتهم.

ومنهم من يعمد إلى الصورة التي يرسمها فيفصل أجزاءها، ويبين لكل جزء مزيته الخاصة، كقول امرئ القيس في وصف الليل بالطول:

فقلت له لما تمطى بصلبه　　　وأردف أعجازًا وناء بكلكل[١٣]

فإنه لم يكتف بتمثيل الليل بصورة شخص طويل القامة، بل استوفى له جملة أركان الشخص؛ فاستعار صلبًا يتمطى به؛ إذ كان كل ذي صلب يزيد في طوله تمطيه،

وبالغ في ذلك بأن جعل له أعجازًا يردف بعضها بعضًا، ثم أراد أن يصفه بالثقل على قلب ساهره فاستعار له كلكلًا ينوء به «أي يثقل به».

ولا يخفى عليك ما يتركه هذا التفصيل البديع في قلب سامعه من الأثر العظيم، والارتياح الجميل.

ومنهم من لا يكتفي بالصورة يرسمها، بل ينظر إلى ما يترتب على الشيء فيعقب تلك الصورة بأخرى أشد وأوقع، كقول أبي الطيب المتنبي:

رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال [١٤]
فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال [١٥]

فإنه لم يكتف بتصويره المصائب سهامًا في سرعة انصبابها، وشدة إيلامها، ولا بالمبالغة في وصف كثرتها بأن جعل منها غشاءً محيطًا بفؤاده، حتى جعل ذلك الغشاء من المتانة والكثافة بحيث إن تلك النصال مع استمرار انصبابها عليه لا تجد منفذًا إلى فؤاده؛ لأنها تتكسر على النصال التي سبقتها، فانظر إلى هذا التمثيل الرائع، وقل لي: هل رأيت تصويرًا أشد منه لتراكم المصائب والآلام؟

(٤-١) تعريف الاستعارة وبيان أنواعها

الاستعارة لغة: من قولهم: استعار المال: طلبه عارية.

واصطلاحًا: هي استعمال اللفظ في غير ما وُضع له لعلاقة «المشابهة» بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه، مع «قرينة» صارفة عن إرادة المعنى الأصلي.

و«الاستعارة» ليست إلا «تشبيهًا» مختصرًا؛ ولكنها أبلغ منه[١٦] كقولك: «رأيت أسدًا في المدرسة»، فأصل هذه الاستعارة: «رأيت رجلًا شجاعًا كالأسد في المدرسة» فحذفت المشبه «لفظ رجلًا»، وحذفت الأداة الكاف، وحذفت وجه التشبيه «الشجاعة» وألحقته بقرينة «المدرسة» لتدل على أنك تريد بالأسد شجاعًا.

وأركان الاستعارة ثلاثة:

(١) مستعار منه، وهو المشبه به.
(٢) ومستعار له، وهو المشبه.
(ويقال لهما: الطرفان.)

(٣) ومستعار، وهو اللفظ المنقول.

فكل مجاز يبنى على التشبيه «يُسمى استعارة».

ولا بد فيها من عدم ذكر وجه الشبه، ولا أداة التشبيه، بل ولا بد أيضًا من «تناسب التشبيه» الذي من أجله وقعت الاستعارة فقط، مع ادعاء أن المشبه عين المشبه به، أو ادعاء أن المشبه فرد من أفراد المشبه به الكلي، بأن يكون «اسم جنس» «أو علم جنس». ولا تتأتى الاستعارة في «العلم الشخصي»[١٧] لعدم إمكان دخول شيء في الحقيقة الشخصية؛ لأن نفس تصور الجزئي يمنع من تصور الشركة فيه، إلا إذا أفاد العلم الشخصي وصفًا به يصح اعتباره كليًّا، فتجوز استعارته: كتضمن «حاتم» للجود، و«قس» للفصاحة، فيقال: «رأيت حاتمًا، وقسًّا» بدعوى كلية «حاتم، وقس» ودخول المشبه في جنس الجواد والفصيح.

وللاستعارة أجمل وقع في الكتابة؛ لأنها تجدي الكلام قوة، وتكسوه حسنًا ورونقًا، وفيها تثار الأهواء والإحساسات.

(٥) المبحث الخامس: في تقسيم الاستعارة باعتبار ما يذكر من الطرفين

إذا ذكر في الكلام لفظ المشبه فقط فاستعارة تصريحية أو مصرحة[١٨] نحو:

فأمطرت لؤلؤًا من نرجس وسقت   وردًا وعضت على العناب بالبرد

فقد استعار اللؤلؤ، والنرجس، والورد، والعناب، والبرد — للدموع، والعيون، والخدود، والأنامل، والأسنان.

وإذا ذُكر في الكلام لفظ المشبه فقط، وحُذف فيه المشبه به، وأشير إليه بذكر لازمه المسمى «تخييلًا» فاستعارة مكنية[١٩] أو بالكناية، كقوله:

وإذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمة لا تنفع

فقد شبه المنية بالسبع، بجامع الاغتيال في كل، واستعار السبع للمنية وحذفه، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو «الأظفار» على طريق الاستعارة المكنية الأصلية، وقرينتها لفظة «أظفار».

ثم أخذ الوهم في تصوير المنية بصورة السبع، فاخترع لها مثل صورة الأظفار، ثم أطلق على الصورة التي هي مثل صورة الأظفار لفظ «الأظفار».

فتكون لفظة «أظفار» استعارة «تخييلية»؛ لأن المستعار له لفظ أظفار صورة وهمية، تشبه صورة الأظفار الحقيقية، وقرينتها إضافتها إلى المنية.

ونظرًا إلى أن «الاستعارة التخييلية» قرينة المكنية فهي لازمة لا تُفارقها؛ لأنه لا استعارة بدون قرينة.

وإذًا: تكون أنواع الاستعارة ثلاثة: تصريحية، ومكنية، وتخييلية.

(٦) المبحث السادس: في الاستعارة باعتبار الطرفين

إن كان المستعار له محققًا حسًّا «بأن يكون اللفظ قد نقل إلى أمر معلوم، يمكن أن يشار إليه إشارة حسية» كقولك: «رأيت بحرًا يعطي»، أو كان المستعار له محققًا عقلًا «بأن يمكن أن يُنص عليه، ويشار إليه إشارة عقلية» كقوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ أي: الدين الحق — فالاستعارة تحقيقية.

وإن لم يكن المستعار له محققًا لا حسًّا ولا عقلًا «فالاستعارة تخييلية»؛[٢٠] وذلك: كالأظفار في نحو: أنشبت المنية أظفارها بفلان.

(٧) المبحث السابع: في الاستعارة باعتبار اللفظ المستعار

(١) إذا كان اللفظ المستعار «اسمًا جامدًا لذات» كالبدر إذا استعير للجميل «أو اسمًا جامدًا لمعنًى» كالقتل إذا استعير للضرب الشديد — سميت الاستعارة «أصلية في كل من التصريحية والمكنية» كقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.[٢١]

وكقوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾.[٢٢]

وسميت أصلية؛ لعدم بنائها على تشبيه تابع لتشبيه آخر معتبر أولًا.

كقول البحتري:

يؤدون التحية من بعيد إلى قمر من الإيوان باد

(٢) وإذا كان اللفظ المستعار «فعلًا[٢٣] أو اسم فعل، أو اسمًا مشتقًّا، أو اسمًا مبهمًا أو حرفًا» فالاستعارة «تصريحية تبعية» نحو: نامت همومي عني.

ونحو: «صه» الموضع للسكوت عن الكلام، والمستعمل مجازًا في ترك الفعل، ونحو: «الجندي قاتل اللص» بمعنى ضاربه ضربًا شديدًا، ونحو: «هذا» الموضوعة للإشارة الحسية؛ والمستعملة مجازًا في الإشارة العقلية، نحو: «هذا رأي حسن»، ونحو قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾، ونحو قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

(٣) وإذا كان اللفظ المستعار اسمًا مشتقًّا، أو اسمًا مبهمًا «دون باقي أنواع التبعية المتقدمة» فالاستعارة «تبعية مكنية».

وسُميت «تبعية»؛ لأن جريانها في المشتقات والحروف تابع؛ لجريانها أولًا في الجوامد، وفي كليات معاني الحروف.

يعني أنها سُميت تبعية لتبعيتها لاستعارة أخرى؛ لأنها في المشتقات تابعة للمصادر؛ ولأنها في معاني الحروف تابعة لمتعلق معانيها؛ إذ معاني الحروف جزئية لا تُتصور الاستعارة فيها إلا بواسطة كلي مستقل بالمفهومية؛ ليتأتى كونها مشبهًا ومشبهًا بها، أو محكومًا عليها، أو بها.

نحو: «ركب فلان كتفي غريمه»؛ [٢٤] أي: لازمه ملازمة شديدة.

وكقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ أي تمكنوا من الحصول على الهداية التامة،[٢٥] ونحو: «أذقته لباس الموت»؛[٢٦] أي ألبسته إياه.

تنبيهات عشرة

التنبيه الأول: كل تبعية قرينتها مكنية.

التنبيه الثاني: إذا أجريت الاستعارة في واحدة من الاستعارة التصريحية أو من الاستعارة المكنية، امتنع إجراؤها في الأخرى.

التنبيه الثالث: تقسيم الاستعارة إلى «أصلية وتبعية» عام في كل من الاستعارة التصريحية والمكنية.

التنبيه الرابع: تبين أن الاستعارة هي اللفظ المستعمل في غير ما وضع له؛ لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعي،[٢٧] أو هي: «مجاز لغوي» علاقته المشابهة، كقول زهير:

لدَى أسدٍ شاكي السلاحِ مُقَذَّفٍ له لِبَدٌ أظفاره لم تُقَلَّمِ

فقد استعار الأسد للرجل الشجاع؛ لتشابههما في الجراءة، والمستعار له هنا: لفظ «محقق حسًّا».

وكقوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فقد استعار الصراط المستقيم للدين الحق؛ لتشابهما في أن كلًّا يوصل إلى المطلوب.

وكقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾؛ أي من الضلال إلى الهدى، فقد استعير لفظ الظلمات للضلال؛ لتشابههما في عدم اهتداء صاحبيهما، ثم استعير لفظ الظلمات للضلال، وكذلك استعير لفظ النور للإيمان؛ لتشابههما في الهداية، والمستعارات — وهو الضلال والإيمان — كل منها «محقق عقلًا» وتُسمى هذه الاستعارات «تصريحية» وتسمى «تحقيقية».

وأما قول أبي ذؤيب الهذلي:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فشبه المنية بالسبع في اغتيال النفوس قهرًا من غير تفرقة بين نفاع وضرار، ولم يذكر لفظ المشبه، بل ذكر بعض لوازمه وهو أظفارها التي لا يكمل الاغتيال في السبع إلا بها؛ تنبيهًا على المشبه به المحذوف.

فهو استعارة «مكنية». وكقوله:

ولئن نطقت بشكر برِّك مفصحًا فلسان حالي بالشكاية أنطق

فشبه الحال بإنسان ناطق في الدلالة على المقصود، ولم يصرح بلفظ المشبه به بل ذكر لازمه وهو «اللسان» الذي لا تقوم الدلالة الكلامية إلا به؛ تنبيهًا به عليه، فهو أيضًا استعارة «مكنية».

وقد أثبت للمشبه لازم من لوازم المشبه به، لا يكون إلا به كماله أو قوامه في وجه الشبه «كالأظفار» التي لا يكمل الافتراس إلا بها كما في المثال الأول، و«اللسان» الذي لا تقوم الدلالة الكلامية في الإنسان إلا به، كما في المثال الثاني وليس «للمنية» شيء كالأظفار نقل إليه هذا اللفظ، ولا «للحال» شيء «كاللسان» نقل إليه لفظ اللسان.

وما كان هذا حاله يعتبر طبعًا «تخييلًا، أو استعارة تخييلية».

التنبيه الخامس: تقدم أن الاستعارة التصريحية أو المصرحة هي ما صُرح فيها بلفظ المشبه به، وأن المكنية هي ما حُذف فيها لفظ المشبه به؛ استغناء ببعض لوازمه التي بها كماله أو قوامه في وجه الشبه،[28] وأن إثبات ذلك اللازم تخييل أو استعارة تخييلية، غير أنهم اختلفوا في تعريف كل من المكنية والتخييلية.

فمذهب السلف أن المكنية: اسم المشبه المستعار في النفس للمشبه، وأن إثبات لازم المشبه به للمشبه «استعارة تخييلية»[29] فكل من «الأظفار» في قوله: «وإذا المنية أنشبت أظفارها»، و«اللسان» في قوله: «فلسان حالي بالشكاية أنطق» حقيقة؛ لأنه مستعمل فيما وُضع له.

ومذهب «الخطيب القزويني» أن المكنية هي التشبيه المضمر في النفس، المرموز إليه بإثبات لازم المشبه به للمشبه، وهذا الإثبات هو الاستعارة «التخييلية».[30]

ومذهب «السكاكي» أن المكنية لفظ المشبه، مرادًا به المشبه به،[31] فالمراد بـ «المنية» في قوله: «وإذا المنية أنشبت أظفارها» هو السبع بادعاء السبعية لها، وإنكار أن تكون شيئًا غير السبع، بقرينة إضافة الأظفار التي هي من خواص السبع لها.

و«التخييلية» عنده ما لا تحقق لمعناه «لا حسًّا ولا عقلًا» بل هو صورة وهمية محضة، كالأظفار في ذلك المثال، فإنه لما شبه المنية بالسبع في الاغتيال — أخذ الوهم يصورها بصورته، ويخترع لها لوازمه، فاخترع لها صورة كصورة الأظفار، ثم أطلق عليها لفظ الأظفار، فيكون لفظ الأظفار استعارة «تصريحية تخييلية».

أما أنها تصريحية؛ فلأنه صرح فيها بلفظ المشبه به، وهو اللازم الذي أطلق على صورة وهمية شبيهة بصورة الأظفار المحققة.

أما أنها «تخييلية» فلأن المستعار له غير محقق «لا حسًّا ولا عقلًا»، والقرينة على نقل الأظفار من معناها الحقيقي إلى المعنى المتخيل — إضافتها إلى المنية.[32]

هذا؛ ومذهب السكاكي في المكنية مردود عليه بأن لفظ المشبه فيها مستعمل فيما وضع له تحقيقًا، للقطع بأن المراد بالمنية «الموت» لا غير، فليس مستعارًا.

التنبيه السادس: الاستعارة صفة للفظ على المشهور، والحق أن المعنى يعار أولًا، ثم يكون اللفظ دليلًا على الاستعارة؛ وذلك:

(١) لأنه إذا لم يكن نقل الاسم تابعًا لنقل المعنى تقديرًا لم يكن ذلك استعارة مثل «الأعلام المنقولة» فأنت إذا سميت إنسانًا بـ «أسد، أو نمر، أو كلب» لا يقال: إن هذه الأسماء مستعارة؛ لأن نقلها لم يتبع نقل معانيها تقديرًا.

(٢) ولأن البلغاء جزموا بأن «الاستعارة أبلغ من الحقيقة» فإن لم يكن نقل الاسم تابعًا لنقل المعنى لم يكن فيه مبالغة؛ إذ لا مبالغة في إطلاق الاسم المجرد عن معناه.

التنبيه السابع: ظهر أن الاستعارة باعتبار اللفظ نوعًا «أصلية وتبعية».

فالأصلية: ما كان فيها المستعار اسم جنس غير مشتق، سواء أكان اسم ذات كأسد للرجل الشجاع، أم اسم معنًى كقتل للإذلال، وسواء أكان اسم جنس «حقيقة» كأسد وقتل، أم «تأويلًا» كما في الأعلام المشهورة بنوع من الوصف؛ كحاتم في قولك: «رأيت اليوم حاتمًا» تريد رجلًا كامل الجود؛ فاعتبر لفظ «حاتم» في قوة الموضوع لمفهوم كلي، حتى كاد يغلب استعماله في كل من له وصف حاتم، فكما أن أسدًا يتناول الحيوان المفترس والرجل الشجاع، كذلك حاتم يتناول الطائي وغيره ادَّعاء، ويكون استعماله في «الطائي» حقيقة، وفي غيره مجازًا؛ لأن الاستعارة مبنية على ادعاء أن المشبه فرد من أفراد المشبه به، فلا بد أن يكون المشبه به كليًّا ذا أفراد.

والمراد «باسم الجنس» غير المشتق «ما صلح لأن يصدق على كثيرين من غير اعتبار وصف من الأوصاف في الدلالة».

وليس العلم الشخصي، واسم الإشارة، والضمير، والموصول — من الكليات، فلا تصح أن تجري فيها الاستعارة الأصلية، أما المشتق فالصفة جزء من مدلوله وضعًا؛ لأنه موضوع لذات متصفة بصفة، فـ «كريم» موضوع لذات متصفة بالكرم، و«قتل» موضوع لذات متصفة بوقوع القتل عليها.

وقد اعتبرت «الأعلام» التي تتضمن معنى الوصف اسم جنس تأويلًا، ولم تعتبر من قبيل المشتق؛ لأن الوصف ليس جزءًا من معناها وضعًا، بل هو لازم له، غير داخل في مفهومه، فحاتم لم يوضع للدلالة على الجود، ولا على ذات متصفة به، ولكن الجود عرض له، ولزمه فيما بعد.

التنبيه الثامن: التبعية[٣٣] ما كان فيها المستعار مشتقًّا، ويدخل في هذا الفعل والاسم المشتق، والحرف.

فاستعارة الفعل[٣٤] نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾، ونحو قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾، ونحو قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

(١) يقال: شبه زيادة الماء زيادة مفسدة بالطغيان، بجامع مجاوزة الحد في كلٍّ، وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به، ثم استعير المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، ثم اشتق من الطغيان بمعنى الزيادة «طغى بمعنى زاد وعلا» على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

هذا؛ وقد يستعمل لفظ الماضي موضوع المضارع؛ بناءً على تشبيه المستقبل المحقق بالماضي الواقع، بجامع تحقق الوقوع في كلٍّ، ونحو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾.

وقد يعبر بالمضارع عن الماضي بناء على تشبيه غير الحاضر بالحاضر في استحضار صورته الماضية؛ لنوع غرابة فيها نحو قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾.

التنبيه التاسع: استعارة المشتق إما صفة،[٣٥] وإما اسم زمان أو مكان أو آلة، فالصفة نحو: «حُكم على قاتلك بالسجن» من القتل بمعنى الضرب الشديد مجازًا، ونحو: «إنما أصادق الأصم عن الخنى، وأجاور الأعمى عن العورات» ونحو: «فلسان حالي بالشكاية أنطق»؛ أي أدل.

ونحو قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ ونحو: «جئت بمقتالك»؛[٣٦] أي: بالآلة التي أضربك بها ضربًا شديدًا.

التنبيه العاشر: مدار قرينة التبعية في الفعل والمشتق على ما يأتي:

(١) على الفاعل، نحو: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ و«نطقت الحال بكذا».[٣٧]
(٢) أو على نائبه، نحو: ضربت عليهم الذلة والمسكنة.[٣٨]
(٣) أو على المفعول به، نحو:

جمع الحق لنا في إمام   قتل البخل وأحيا السماحا[٣٩]

(٤) أو على المفعول به الثاني، نحو:

صبحنا الخزرجية مرهفات أباد ذوي أرومتها ذووها[٤٠]

(٥) أو على الفاعل والمفعولين، كقول الشاعر:

تَقْرِي الرياحُ رياضَ الحزن مزهرةً إذا سرى النوم في الأجفان إيقاظا[٤١]

(٦) أو على المفعولين كقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾.

(٧) أو على المجرور، نحو: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٤٢] ونحو: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ ونحو: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾.

هذا؛ وقد تكون قرينة التبعية غير ذلك، نحو: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾[٤٣] إذ القرينة في هذه الآية كونه من كلام الموتى، مع قوله: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾.

التنبيه الحادي عشر: استعارة الحرف،[٤٤] نحو: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ فقد شبه مطلق ترتب علة واقعية على فعل[٤٥] بمطلق ترتب علة غائية على فعل،[٤٦] بجامع مطلق الترتب في كلٍّ،[٤٧] فسرى التشبيه من الكليين إلى الجزئيات، ثم استعمل في جزئي المشبه[٤٨] «اللام» الموضوعة لجزئي المشبه به[٤٩] على سبيل الاستعارة التبعية.

ونحو قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[٥٠] ونحو قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾[٥١] ونحو: «زيد في نعمة».[٥٢]

ومن هذه الأمثلة السابقة تتبين أنه لا يُشترط أن يكون للمشبه حرف موضوع له يدل عليه.

واختار «السكاكي» تقليلًا لأقسام الاستعارة أن يستغني عن التبعية في «الفعل، والمشتق، والحرف» بأن يجعل قرينة التبعية استعارة مكنية، وأن يجعل التبعية قرينة للمكنية.

ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ يجعل القوم الطغيان مستعارًا للكثرة المفسدة.

ويقول «السكاكي»: في لفظ «الماء» استعارة مكنية، ونسبة الطغيان إليه قرينة.

(٨) المبحث الثامن: في تقسيم الاستعارة المصرحة باعتبار الطرفين إلى عنادية ووفاقية

فالعنادية: وهي التي لا يمكن اجتماع طرفيها في شيء واحد؛ لتنافيهما كاجتماع النور والظلام.

والوفاقية: هي التي يمكن اجتماع طرفيها في شيء واحد؛ لعدم التنافي كاجتماع النور والهدى.

ومثالهما قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾؛ أي ضالًّا فهديناه.

ففي هذه الآية استعارتان:

الأولى: في قوله: «ميتًا» شبه الضلال بالموت، بجامع ترتب نفي الانتفاع في كلٍّ، واستعير الموت للضلال، واشتق من الموت بمعنى الضلال ميتًا بمعنى ضالًّا، وهي عنادية؛ لأنه لا يمكن اجتماع الموت والضلال في شيء واحد.

والثانية: استعارة الإحياء للهداية، وهي «وفاقية» لإمكان اجتماع الإحياء والهداية في الله تعالى، فهو محيي وهادٍ.

ثم العنادية قد تكون تمليحية؛ أي المقصود منها التمليح والظرافة. وقد تكون تهكمية؛ أي المقصود منها التهكم والاستهزاء، بأن يستعمل اللفظ الموضوع لمعنًى شريف على ضدِّه أو نقيضه، نحو «رأيت أسدًا» تريد جبانًا، قاصدًا التمليح والظرافة، أو التهكم والسخرية، وهما اللتان نُزِّل فيهما التضاد منزلة التناسب، نحو: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي «أنذرهم» فاستعيرت البشارة التي هي الخبر السار للإنذار الذي هو ضده بإدخال الإنذار في جنس البشارة على سبيل التهكم والاستهزاء.

وكقوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾.

(٩) المبحث التاسع: في تقسيم الاستعارة باعتبار الجامع

الاستعارة المصرحة باعتبار «الجامع» نوعان:[٥٣]

(١) عامية: وهي القريبة المبتذلة التي لاكتها الألسن، فلا تحتاج إلى بحث، ويكون الجامع فيها ظاهرًا، نحو: رأيت أسدًا يرمى.

وكقوله:

وأدهم يستمد الليل منه وتطلع بين عينيه الثريَّا

فقد استعار الثريا لغرَّة المهر، والجامع بين الطرفين ظاهر، وهو البياض، وقد يتصرَّف في العامية بما يخرجها إلى الغرابة.

(٢) وخاصية: وهي الغريبة التي يكون الجامع فيها غامضًا، لا يُدركه أصحاب المدارك «من الخواص» كقول كثِّير يمدح عبد العزيز بن مروان:

غمرُ الرِّداء إذا تبسم ضاحكًا غلقت لضحكته رقاب المال

غمرُ الرِّداء «كثير العطايا والمعروف» استعار الرداء للمعروف؛ لأنه يصون ويستر عرض صاحبه، كستر الرداء ما يلقى عليه، وأضاف إليه الغمر وهو القرينة على عدم إرادة معنى الثوب؛ لأن الغمر من صفات المال، لا من صفات الثوب.

وهذه الاستعارة لا يظفر باقتطاف ثمارها إلا ذوو الفطر السليمة والخبرة التامة.

(١٠) المبحث العاشر: في تقسيم الاستعارة باعتبار ما يتصل بها من الملائمات وعدم اتصالها

تنقسم الاستعارة باعتبار ذكر «ملائم المستعار منه»، أو باعتبار ذكر «ملائم المستعار له»، أو باعتبار عدم اقترانها بما يلائم أحدهما؛ إلى ثلاثة أقسام: مطلقة، ومرشحة، ومجردة.

(أ) فالمطلقة: هي التي لم تقترن بما يلائم المشبه والمشبه به، نحو: ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ﴾ أو ذُكر فيها ملائمها معًا، كقول زهير:

لَدَى أسدٍ شاكي السلاح مقذَّف له لبد أظفاره لم تُقَلَّمِ

استعار الأسد للرجل الشجاع، وقد ذكر ما يناسب المستعار في قوله: «شاكي السلام مقذف» وهو التجريد، ثم ذكر ما يناسب المستعار منه في قوله: «له لبد أظفاره لم تقلم» وهو الترشيح، واجتماع التجريد والترشيح يؤدي إلى تعارضهما وسقوطهما، فكأن الاستعارة لم تقترن بشيء، وتكون في رتبة «المطلقة».

(ب) والمَرشحة: هي التي قُرنت بملائم المستعار منه «أي المشبه به» نحو: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ استعير الشراء للاستبدال والاختيار، ثم فُرع عليها ما يلائم المستعار منه «من الربح والتجارة»، ونحو: «من باع دينه بدنياه لم تربح تجارته».

وسُميت مرشحة؛ لترشيحها وتقويتها بذكرى الملائم، وترشيح الاستعارة التصريحية متفق عليه.

(ج) والمجرَّدة: هي التي قُرنت بملائم المستعار له «أي المشبه» نحو: اشترِ بالمعروف عرضك من الأذى.

وسُمِّيت بذلك؛ لتجريدها عن بعض المبالغة، لبعد المشبه حينئذ عن المشبه به بعض بُعد؛ وذلك يبعد دعوى الاتحاد الذي هو مبنى الاستعارة.

ثم اعتبار الترشيح والتجريد إنما يكون بعد تمام الاستعارة بقرينتها، سواء أكانت القرينة مقالية أم حالية، فلا تعد قرينة المصرحة تجريدًا ولا قرينة المكنية ترشيحًا، بل الزائد على ما ذكر.

واعلم أن الترشيح أبلغ من غيره؛ لاشتماله على تحقيق المبالغة بتناسي التشبيه، وادعاء أن المستعار له هو نفس المستعار منه «لا شيء شبيه به» وكأن الاستعارة غير موجودة أصلًا، والإطلاق أبلغ من التجريد، فالتجريد أضعف الجميع؛ لأن به تضعف دعوى الاتحاد.

وإذا اجتمع ترشيح وتجريد فتكون الاستعارة في رتبة المطلقة؛ إذ بتعارضهما يتساقطان، كما سبق تفصيله.

وكما يجري هذا التقسيم في «التصريحية» يجري أيضًا في «المكنية».

(١١) المبحث الحادي عشر: في المجاز المرسل المرَكب

المجاز المرسل المركب: هو الكلام المستعمل في غير المعنى الذي وُضع له لعلاقة غير المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة معناه الوضعي.

ويقع أولًا في المركبات الخبرية المستعملة في الإنشاء وعكسه، لأغراض:

(١) منها: التحسُّر وإظهار التأسف، كما في قول الشاعر:

ذهب الصبا وتولت الأيام ... فعلى الصبا وعلى الزمان سلام

فإنه وإن كان خبرًا في أصل وضعه، إلا أنه في هذا المقام مستعمل في إنشاء التحسر والتحزن على ما فات من الشباب.

وكما في قول جعفر بن عُلبة الحارثي:

هواي مع الركب اليمانين مصْعَدٌ ... جنيب وجثماني بمكة موثق

فهو يشير إلى الأسف والحزن الذي ألمَّ به من فراق الأحبة، ويتحسَّرُ على ما آل إليه أمره، والقرينة على ذلك حال المتكلم، كما يُفهم من الشطر الثاني في قوله «هواي ... إلخ».

(٢) ومنها: إظهار الضعف، كما في قوله:

ربِّ: إني لا أستطيع اصطبارا ... فاعف عني يا من يقيل العثارا

(٣) ومنها: إظهار السرور، نحو: كُتِبَ اسمي بين الناجحين.

(٤) ومنها: الدعاء، نحو: نجَّح الله مقاصدنا ... أيها الوطن لك البقاء.

وثانيًا: في المركبات الإنشائية كـ «الأمر، والنهي، والاستفهام» التي خرجت عن معانيها الأصلية، واستُعملت في معانٍ أُخَر، كما في قول المصطفى عليه الصلاة والسلام: «مَنْ كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»؛ إذ المراد «يتبوأ مقعده» والعلاقة في هذا «السببية والمسببية»؛ لأن إنشاء المتكلم للعبارة سبب لإخباره بما تتضمَّنه، فظاهره أمر، ومعناه خبر.

(١٢) المبحث الثاني عشر: في المجاز المرَكب[٥٤] بالاستعارة التمثيلية

المجاز المركب بالاستعارة التمثيلية: هو تركيب استعمل في غير ما وضع له؛ لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة معناه الوضعي، بحيث يكون كل من المشبه والمشبه

به هيئة منتزعة من متعدد؛ وذلك بأن تشبه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور «بأخرى» ثم تدخل المشبه في الصورة المشبهة بها؛ مبالغة في التشبيه، ويسمَّى بالاستعارة التمثيلية،[٥٥] وهي كثيرة الورود في الأمثال السائرة، نحو: «الصيف ضيَّعت اللبن» يضرب لمن فرَّط في تحصيل أمر في زمن يمكنه الحصول عليه فيه، ثم طلبه في زمن لا يمكنه الحصول عليه[٥٦] فيه.

ونحو: «إني أراك تقدم رِجْلًا وتؤخرُ أخرى» يضرب لمن يتردد في أمر، فتارة يقدم وتارة يحجم. ونحو: «أحشفًا وسوء كيلة» يُضرب لمن يظلم من وجهين، وأصله أن رجلًا اشترى تمرًا من آخر، فإذا هو رديء، وناقص الكيل، فقال المشتري ذلك. ومثل ما تقدم جميع الأمثال السائرة «نثرًا ونظمًا».

فمن النثر قولهم لمن يحتال على حصول أمر خفي، وهو مستتر تحت أمر ظاهر: «لأمر ما جدع قصير أنفه»، وقولهم: «تجوع الحرَّة ولا تأكل بثدييها»، وقولهم لمن يريد أن يعمل عملًا وحده وهو عاجز عنه: «اليد لا تُصفق وحدها»، وقولهم لمجاهد عاد إلى وطنه بعد سفر: «عاد السيف إلى قرابه، وحل الليث منيع غابه»، وقولهم لمن يأتي بالقول الفصل: «قطعت جهيزة قول كل خطيب».[٥٧]

ومن الشعر قول الشاعر:

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر

وقول آخر:

إذا قالت حَذامِ فصِّدقوها فإن القول ما قالت حَذامِ

وقول آخر:

متى يبلغ البنيان يومًا تمامه إذا كنت تبنيه وغيرُك يهدِمُ[٥٨]

وإذا فشت وشاعت الاستعارة التمثيلية،[٥٩] وكثر استعمالها — تكون مثلًا[٦٠] لا يُغير مطلقًا، بحيث يخاطب به المفرد، والمذكر، وفروعهما بلفظ واحد من غير تغيير ولا تبديل عن مورده الأول، وإنْ لم يطابق المضروب له.

ولذا كانت هذه الاستعارة محط أنظار البلغاء، لا يعدلون بها إلى غيرها إلا عند عدم إمكانها، فهي أبلغ أنواع المجاز مفردًا أو مركبًا؛ إذ مبناها تشبيه التمثيل الذي قد عرفت أن وجه الشبه فيه هيئة منتزعة من أشياء متعددة.

ومن ثم كانت هي والتشبيه المبنية عليه غرض البلغاء الذين يتسامون إليه، ويتفاوتون في إصابته، وقد كثر ذلك في القرآن الكريم كثرة كانت إحدى الحجج على إعجازه.

والاستعارة ميدان فسيح من ميادين البلاغة، وهي أبلغ من التشبيه؛ لأنها تضع أمام المخاطب بدلًا من المشبه صورة جديدة تملك عليه مشاعره، وتذهله عما ينطوي تحتها من التشبيه، وعلى مقدار ما في تلك الصورة من الروعة، وسمو الخيال — تكون البلاغة في الاستعارة.

وأبلغ أنواع الاستعارة «المرشحة» لذكر ما يناسب المستعار منه فيها، بناء على الدعوى بأن المستعار له هو عين المستعار منه.

ثم تليها «المطلقة» لترك ما يناسب الطرفين فيها؛ بناء على دعوى التساوي بينهما.

ثم تليها «المجردة» لذكر ما يناسب المستعار له فيها؛ بناء على تشبيهه بالمستعار منه.

ولا بد في الاستعارة، وفي التمثيل على سبيل الاستعارة — من مراعاة جهات حسن التشبيه: كشمول وجه الشبه للطرفين، ومن كون التشبيه وافيًا بإفادة الغرض، ومن عدم شم رائحة التشبيه لفظًا، ويجب أن يكون وجه الشبه بين الطرفين جليًّا؛ لئلا تصير الاستعارة والتمثيل تعمية.

أسئلة على الاستعارة يطلب أجوبتها

ما هي الاستعارة؟ ما هي أركانها؟ كم قسمًا الاستعارة باعتبار ذكر الطرفين المشبه به والمشبه؟ ما أصل الاستعارة؟ ما هي الاستعارة التصريحية؟ كم قسمًا الاستعارة التصريحية؟ كم قسمًا الاستعارة باعتبار ذكر ملائم المستعار له، والمستعار منه؟ ما هي الاستعارة المرشحة؟ ما هي الاستعارة المجردة؟ ما هي الاستعارة المطلقة؟ كم قسمًا للاستعارة باعتبار إمكان اجتماع طرفيها في شيء؟ ما هي الاستعارة الوفاقية؟ ما هي الاستعارة العنادية؟ كم قسمًا للاستعارة باعتبار الجامع؟ ما هي العامية؟ ما هي الخاصية؟ ما هي التمليحية؟ ما هي التهكمية؟ ما مثال الحسيين والجامع حسي؟ ما مثال الطرفين الحسيين والجامع عقلي؟ ما مثال الطرفين العقليين والجامع عقلي؟

ما مثال المستعار منه الحسي والمستعار له العقلي؟ ما مثال المستعار منه العقلي والمستعار الحسي؟ ما هي الاستعارة بالكناية عند الجمهور؟ ما هي الاستعارة بالكناية عند السكاكي؟ ما هي الاستعارة بالكناية عند الخطيب؟ كم قسمًا للاستعارة بالكناية؟ ما هي المكنية الأصلية؟ ما هي المكنية التبعية؟ ما هي الاستعارة التخييلية عند الجمهور؟ لِمَ سميت استعارة؟ لِمَ سميت تخييلية؟ ما هي الاستعارة المكنية المرشحة؟ ما هي الاستعارة المكنية المجردة؟ ما هي الاستعارة المكنية المطلقة؟ كم قسمًا للمكنية باعتبار إمكان اجتماع طرفيها في شيء؟ ما هي العنادية؟ ما هي الوفاقية؟ ما هو المجاز المركب؟ ما هي الاستعارة التمثيلية؟ ما هو المجاز المركب بالاستعارة؟ ما هي محسنات الاستعارة؟

تمرين آخر على كيفية إجراء الاستعارات

(١) فسمونا والفجر يضحك في الشرق   إلينا مبشرًا بالصباح

(٢) عضنا الدهر بنابه   ليت ما حلَّ بنا به

(٣) لسنا وإن أحسابنا كرمت   يومًا على الأحساب نتكلُ

(٤) دقات قلب المرء قائلة له   إن الحياة دقائق وثوان

(٥) بكت لؤلؤًا رطبًا ففاضت مدامعي   عقيقًا فصار الكل في نحرها عقدا

(٦) إن التباعد لا يضر   إذا تقاربت القلوب

(٧) ذم أعرابي رجلًا فقال: يقطع نهاره بالمنى، ويتوسَّد ذراع الهمِّ إذا أمسى.

(٨) قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم   طـاروا إلـيـه زرافـات ووحـدانـا

(٩) جاء الشتاء واجثأل القُبَّرُ   وطلعت شمس عليها مغفر

(١٠) سأبكيك للدنيا وللدين إن   أبت يد المعروف بعدك شلت

(١١) ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

(١٢) سقاه الردى سيف إذا سُل أو مضت
إلـيـه ثـنـايـا الـمـوت مـن كـل مـرقـد

(١٣) ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾.

(١٤) ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

(١٥) فتًى كلما فاضت عيون قبيلة   دمًا ضحكت عنه الأحاديث والذكر

(١) شبه الفجر بإنسان يبتسم، فتظهر أسنانه مضيئة لامعة، والقدر المشترك بينهما «البريق واللمعان»، واستعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه، ثم حذف المشبه، وأشار إليه بشيء من لوازمه وهو الضحك على طريق الاستعارة بالكناية، وإثبات الضحك استعارة تخييلية.

(٢) شبه حوادث الدهر بالعض، بجامع التأثير والإيلام من كلٍّ، واستعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه، واشتق من العض وهو المصدر — عض بمعنى آلم — على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، وذكر الناب ترشيح.

(٣) في كلمة «على» استعارة تصريحية تبعية؛ فقد شبه مطلق ارتباط بين حسب وحسيب بمطلق ارتباط بين مستعلٍ ومستعلًى عليه، بجامع التمكن والاستقرار في كلٍّ، ثم استعيرت «على» من جزئي من جزئيات الأول لجزئي من جزئيات الثاني على سبيل الاستعارة التبعية التصريحية.

(٤) شبه الدلالة بالقول، بجامع إيضاح المراد في كلٍّ، واستعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه، واشتق من القول بمعنى الدلالة «قائل» بمعنى دالٍّ، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، والقرينة نسبة القول إلى الدقات.

(٥) شبه المتساقط من فيها * بـ «اللؤلؤ» بجامع البياض والتنسيق في كلٍّ، واستعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه، ثم شبه الدمع النازل من عينيه بـ «العقيق» بجامع الحمرة، واستعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه، والقرينة كل منا بكت وفاضت، وذكر العقد ترشيح.

*كذا بالأصل وهو سهو والصواب أن يقال شبه الدمع المتساقط من عينيها باللؤلؤ، إلخ.

(٦) شبه التواد بـ «التقارب» بجامع الألفة في كل منهما، ثم استعير التقارب للتواد، واشتق منه تقارب بمعنى تواد، والقرينة كلمة القلوب، وهي استعارة مطلقة.

(٧) شبه المنى بـ «سكين قاطع» بجامع الإجهاز وإنهاء المقطوع في كلٍّ، واستعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه، وحذفه، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو يقطع، على سبيل الاستعارة المكنية الأصلية المطلقة، ويقطع استعارة تخييلية.

وكذا شبَّه الهم بـ «إنسان» واستعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه، وحذفه، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الذراع على سبيل الاستعارة المكنية الأصلية المرشحة، والقرينة كلمة الذراع، ويتوسد ترشيح.

(٨) شبه الشر بـ «أسد متحفز للوثوب» فيكشر عن أنيابه، بجامع الاستعداد للهجوم في كلٍّ، واستعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه، وحذفه، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الناجذان على طريق الاستعارة المكنية المرشحة، والقرينة كلمة ناجذيه، وكلمة أبدى ترشيح، ثم شبه مشيهم بـ «الطيران» بجامع السرعة في كل منهما، واستعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه، واشتق من الطيران طار بمعنى أسرع، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية المطلقة، والقرينة إسناد الطيران إليهم.

(٩) شبه السحاب الذي يستر الشمس بالمغفر الذي يستر الرأس، بجامع التستر في كلٍّ، واستعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية المطلقة، والقرينة كلمة شمس.

(١٠) المشبه المعروف بإنسان له يد تعطي، والجامع الإعطاء في كل منهما، وحذفه، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو اليد على سبيل الاستعارة المكنية الأصلية المرشحة، والقرينة كلمة يد، وهي الاستعارة التخييلية، وشلت ترشيح.

(١١) شبه تمكنه عليه الصلاة والسلام من الهدى والأخلاق الشريفة والثبوت عليها بـ «تمكن مَن علا دابة يصرفها كيف شاء» بجامع التمكن والاستقرار في كل، فسرى التشبيه من الكليين للجزئيات التي هي معاني الحروف، فاستعير لفظ «على» الموضوع للاستعلاء الحسي للارتباط والاستعلاء المعنوي على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

(١٢) شبه لحاق الموت به بـ «السقي» بجامع الوصول في كلٍّ، واستعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه، ثم اشتق من السَّقْي سَقَى على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والقرينة على ذلك نسبة السقي إلى الردى، وأيضًا قد شبه الموت بإنسان له ثنايا يضحك منها فتلمع وتضيء، والجامع البريق

واللمعان، واستعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه، ثم حذفه، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الثنايا، على سبيل الاستعارة المكنية الأصلية المرشحة، والثنايا استعارة تخييلية، وأومض ترشيح.

(١٣) شبه القصد إلى الشيء والتوجه له بالفراغ والخلوص من الشواغل، بجامع الاهتمام في كلٍّ، واستعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه، ثم اشتق من الفراغ بمعنى الخلو «تفرغ» على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والقرينة حالية.

(١٤) في كلمة «في» استعارة تصريحية تبعية، فقد شُبهت «في» التي تدل على الارتباط «بفي» التي تدل على الظرفية، بجامع التمكن في كلٍّ، فسرى التشبيه من الكليين إلى الجزئيات، فاستعيرت في من الثاني للأول على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والقرينة على ذلك كلمة الضلال.

(١٥) شبه العيون بالنهر بجامع الصب الكثير في كل منهما، واستعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه، ثم حذفه، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو فاض، على سبيل الاستعارة الأصلية المكنية، وفاض قرينتها وهي الاستعارة التخييلية، وكذا شبه السرور والأريحية بالضحك بجامع ما تجده النفس عند كلٍّ من المسرة، واستعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه، ثم اشتق من الضحك بمعنى السرور ضَحِكَ بمعنى سُرَّ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

(١٣) بلاغة الاستعارة بجميع أنواعها

سبق لك أن بلاغة التشبيه آتية من ناحيتين:

الأولى: طريقة تأليف ألفاظه.

والثانية: ابتكار مشبه به بعيد عن الأذهان، لا يجول إلا في نفس أديب، وهب الله له استعدادًا سليمًا في تعرف وجوه الشبه الدقيقة بين الأشياء، وأودعه قدرة على ربط المعاني، وتوليد بعض إلى مدًى بعيد لا يكاد ينتهي.

و«سر بلاغة الاستعارة» لا يتعدى هاتين، فبلاغتها من ناحية اللفظ أن تركيبها يدل على تناسب التشبيه، ويحملك عمدًا على تخيل صورة جديدة تنسيك روعتها ما تضمنه الكلام من تشبيه خفي مستور.

انظر إلى قول البحتري في الفتح بن خاقان:

يسمو بكف على العافين حانية   تهمي وطرف إلى العلياء طماح

ألست ترى كفه وقد تمثلت في صورة سحابة هتانة، تصب وبلها على العافين والسائلين، وأن هذه الصورة قد تملكت عليك مشاعرك فأذهلتك عما اختبأ في الكلام من تشبيه؟!

وإذا سمعت قوله في رثاء المتوكل وقد قُتل غيلة:

صريع تقاضاه الليالي حشاشة   يجود بها والموت حمر أظافره[٦١]

فهل تستطيع أن تبعد عن خيالك هذه الصورة المخيفة للموت، وهي صورة حيوان مفترس، ضرجت أظفاره بدماء قتلاه؟!

لهذا كانت الاستعارة أبلغ من «التشبيه البليغ»؛ لأنه وإن بُني على ادعاء أن المشبه والمشبه به سواء، لا يزال فيه التشبيه منويًّا ملحوظًا، بخلاف «الاستعارة» فالتشبيه فيها منسي مجحود، ومن ذلك يظهر لك أن الاستعارة المرشحة أبلغ من الاستعارة المطلقة، وأن الاستعارة المطلقة أبلغ من الاستعارة المجردة.

أما بلاغة الاستعارة من حيث الابتكار، وروعة الخيال، وما تُحدثه من أثر في نفوس سامعيها؛ فمجال فسيح للإبداع، وميدان لتسابق المجيدين من فرسان الكلام.

انظر إلى قوله — عز شأنه — في وصف النار: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ترتسم أمامك النار في صورة مخلوق ضخم، بطاش، مكفهر الوجه، عابس، يغلي صدره حقدًا وغيظًا. (عن البلاغة الواضحة بتصرف)

هوامش

(١) أقول: إن المخلوقات كلها تفتقر إلى أسماء يُستدل بها عليها؛ ليُعرف كل منها باسمه، من أجل التفاهم بين الناس، وهذا يقع ضرورة لا بد منها، فالاسم الموضوع بإزاء المسمى هو حقيقة له، فإذا نُقل إلى غيره صار مجازًا.

واعلم أنه ليس لكل مجاز «حقيقة» يتفرع عنها، فلفظ «الرحمن» استعمل مجازًا في المنعم، ولم يُستعمل في معناه الوضعي، وهو: الرقيق القلب، ولكن الغالب أن يتفرع المجاز عن الحقيقة.

(٢) القرينة: هي الأمر الذي يجعله المتكلم دليلًا على أنه أراد باللفظ غير ما وُضع له، فهي تصرف الذهن عن المعنى الوضعي إلى المعنى المجازي، وبتقييد القرينة بمانعة

... إلخ خرجت «الكناية» فإن قرينتها لا تمنع من إرادة المعنى الأصلي. والقرينة: إما لفظية أو حالية، فاللفظية: هي التي يُلفظ بها في التركيب، والحالية: هي التي تُفهم من حال المتكلم أو من الواقع.

وأما القرينة التي تعين المراد من المجاز فليست شرطًا.

واعلم أن كلًّا من المجاز والكناية في حاجة إلى قرينة، ولكنها في المجاز مانعة، وفي الكناية غير مانعة.

(٣) العلاقة هي المناسبة بين المعنى المنقول عنه والمنقول إليه، وسميت بذلك؛ لأن بها يتعلق ويرتبط المعنى الثاني بالأول، فينتقل الذهن من الأول للثاني، وباشتراط ملاحظة العلاقة يخرج الغلط، كقولك: «خذ هذا الكتاب» مشيرًا إلى فرس مثلًا؛ إذ لا علاقة هنا ملحوظة.

(٤) سمي «مرسلًا» لإطلاقه عن التقييد بعلاقة واحدة مخصوصة، بل له علاقات كثيرة، واسم العلاقة يستفاد من وصف الكلمة التي تُذكر في الجملة، وليس المقصد من العلاقة إلا بيان الارتباط والمناسبة، فالفطن يرى ما يناسب كل مقام. وقيل: سمي «مرسلًا»؛ لأنه أُرسل عن دعوى الاتحاد المعتبرة في الاستعارة.

(٥) وكقول الشاعر:

له أيادٍ إليَّ سابغة أعد منها ولا أعددها

وكقوله:

قامت تظللني من الشمس نفس أحب إليَّ من نفسي
قامت تظللني ومن عجب شمس تظللني من الشمس

فائدة: القصد من العلاقة إنما هو تحقق الارتباط، والذكي يعرف مقال كل مقام. ثم إن «العلاقة» قيل: تعتبر من جهة المعنى المنقول عنه، الذي هو الحقيقي، وقيل: تعتبر من جهة المعنى المنقول إليه؛ لأنه المدار، وقيل: تعتبر من جهتهما؛ رعاية لحقيهما.

واعلم أن اللفظ الواحد قد يكون صالحًا بالنسبة إلى معنًى واحد لأنْ يكون مجازًا مرسلًا واستعارة باعتبارين.

(٦) سُمي عقليًّا؛ لأن التجوز فهم من «العقل» لا من «اللغة» كما في المجاز اللغوي.

(٧) أبا المسك: كنية كافور الإخشيدي، والبيض: السيوف، يقول: أرجو منك أن تنصرني على أعدائي، وأن توليني عزًّا أتمكن به منهم، وأخضب سيوفي بدمائهم.

(٨) يقول: وأرجو أن أبلغ بك يومًا يغتاظ فيه حسادي؛ لما يرون من إعظامك لقدري، وكذلك أرجو أن أبلغ بك حالة تساعدني على الانتقام منهم، فأتنعم بشقائي في حربهم.

(٩) يعوذها: يحصنها، ورقية: ما يُرقى بها الإنسان من عين حاسد.

(١٠) يجوز أن تكون «عاصم» مستعملة في حقيقتها، ويكون المعنى لا شيء يعصم الناس من قضاء الله إلا من رحمه الله منهم، فإنه تعالى هو الذي يعصمه.

(١١) المجاز المرسل: يوسع اللغة، ويعين على الافتتان في التعبير، ويساعد الكاتب والخطيب على إيراد المعنى الواحد بصور مختلفة، وقد تدعو إليه كما في «الطراز» حلية لفظية: من تقفية، أو ضرورة شعرية، أو مشاكلة، أو اختصار، أو خفة في لفظه، وكثيرًا ما يكون الداعي إليه راجعًا إلى المعنى.

(١٢) الأنافي: عظيم الأنف، عن البلاغة الواضحة.

(١٣) تمطى: تمدد، والصلب: عظم في الظهر من لدن الكاهل إلى العجب، والعجز: مؤخر الجسم، والكلكل: الصدر أو ما بين الترقوتين.

(١٤) الأرزاء: المصائب. والغشاء: الغِلاف. والنبال: السهام.

(١٥) النصال: حدائد السهام.

(١٦) فأصل الاستعارة: تشبيه حذف أحد طرفيه ووجه شبهه وأداته، ولكنها أبلغ منه؛ لأن التشبيه مهما تناهى في المبالغة فلا بد فيه من ذكر المشبه والمشبه به، وهذا اعتراف بتباينهما، وأن العلاقة ليست إلا التشابه والتداني، فلا تصل إلى حد الاتحاد، بخلاف الاستعارة ففيها دعوى الاتحاد والامتزاج، وأن المشبه والمشبه به صارا معنًى واحدًا، يصدق عليهما لفظ واحد، فالاستعارة «مجاز لغوي» لا عقلي، علاقته المشابهة.

واعلم أن حسن الاستعارة «غير التخييلية» لا يكون إلا برعاية جهات التشبيه؛ وذلك بأن يكون وافيًا بإفادة الغرض منه؛ لأنها مبنية عليه، فهي تابعة له حسنًا وقبحًا.

(١٧) يعني أن الاستعارة تقتضي إدخال المشبه في جنس المشبه به؛ ولذلك لا تكون علمًا؛ لأن الجنس يقتضي العموم، والعلم ينافي ذلك بما فيه من التشخص، إلا إذا كان العلم يتضمن وصفية قد اشتهر بها «كسحبان» المشهور بالفصاحة، فيجوز فيه ذلك؛ لأنه يستفيد الجنسية من الصفة، نحو: «سمعت اليوم سحبان»؛ أي: خطيبًا فصيحًا، وهلم جرًّا.

(١٨) «معنى تصريحية»؛ أي: مصرح فيها باللفظ الدال على المشبه به المراد به المشبه، وتُسمى أيضًا تحقيقية، و«معنى مكنية»؛ أي: مخفي فيه لفظ المشبه به؛ استغناء بذكر شيء من لوازمه، فلم يذكر فيها من أركان التشبيه سوى المشبه.

(١٩) أي: وهذا مذهب السلف، وكذا «الزمخشري» صاحب الكشاف، وأما مذهب «السكاكي» فظاهر كلامه يُشعر بأن الاستعارة بالكناية لفظ المشبه.

أي: كلفظ المنية في نحو: «أظفار المنية نشبت بفلان» المستعمل في المشبه به بادعاء أنه عينه عين المشبه به، وحينئذ يصير للمشبه به «فردان» أحدهما حقيقي، والآخر ادعائي، فالمنية مراد بها السبع، بادعاء السبعية لها، وإنكار أن تكون شيئًا آخر غير السبع بقرينة إضافة الأظفار التي هي من خواصر المشبه به وهو السبع.

وأنكر «السكاكي» «التبعية» بمعنى أنها مرجوحة عنده، واختار ردها إلى قرينة المكنية، ورد قرينتها إلى نفس المكنية، ففي: «نطقت الحال» مثلًا: يقدر القوم أن «نطقت» استعارة تبعية، والحال قرينة لها، وهو يقول: إن الحال استعارة بالكناية، ونطقت قرينتها، وفي كلامه نظر من وجهين:

الأول: أن لفظ المشبه لم يُستعمل إلا في معناه الحقيقي، فلا يكون استعارة.

الثاني: أنه صرح بأن «نطقت» مستعارة للأمر الوهمي؛ أي: المتوهم إثباته للحال؛ تشبيهًا بالنطق الحقيقي، فيكون استعارة، والاستعارة في الفعل لا تكون إلا تبعية، فيلزمه القول بالتبعية، وأجيب عنه بأجوبة تطلب من المطولات.

وأما مذهب «الخطيب» فإنه يقول: إن الاستعارة بالكناية هي التشبيه المضمر أركانه سوى المشبه المدلول عليه بإثبات لازم المشبه به للمشبه، ويلزم على مذهبه أنه لا وجه لتسميتها استعارة؛ لأن الاستعارة هي اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة، أو استعمال اللفظ المذكور، والتشبيه غير ذلك، بل هو فعل من أفعال النفس.

«تنبيه»: المشبه في مواد الاستعارة بالكناية لا يجب أن يكون مذكورًا بلفظ المشبه به، فيجوز ذكره بغير لفظه، كأن يشَبَّه شيء كالنحافة واصفرار اللون بأمرين كاللباس والطعم المر البشع، ويستعمل لفظ أحد الأمرين فيه، ويثبت له شيء من لوازم الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ فإنه شبه ما غشي الإنسان عند الجوع والخوف من النحافة واصفرار اللون باللباس؛ لاشتماله على اللابس، واشتمال أثر الضرر على من به ذلك، فاستعير له اسمه، وشبه ما غشي الإنسان عند الجوع «أي ما يدرك من أثر الضرر والألم باعتبار أنه مدرك من حيث الكراهية» بما يدرك من

الطعم المر البشع، حتى أوقع عليه الإذاقة، فتكون الآية مشتملة على الاستعارة المصرحة نظرًا إلى الأول، والمكنية نظرًا إلى الثاني، وتكون الإذاقة تخييلًا بالنسبة للمكنية، وتكون تجريدًا بالنسبة إلى المصرحة؛ لأنها تلائم المشبه، وهو النحافة والاصفرار؛ لأنها مستعارة للإصابة، وكثرت فيها حتى جرت مجرى الحقيقة.

ويقال: شبه ما غشي الإنسان عند الجوع والخوف من أثر الضرر باللباس بجامع الاشتمال في كل، واستعير اسم المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية، وطريق إجراء الاستعارة الثانية أن يقال: شبه ما غشي الإنسان عند الجوع والخوف من أثر الضرر بالطعم المر البشع، بجامع الكراهة في كل، واستعير لفظ المشبه به للمشبه، ثم حذف، وأثبت له شيء من لوازمه، وهو «الإذاقة» على سبيل الاستعارة المكنية، وإثبات الإذاقة تخييل.

وطريق إجراء الاستعارة الثالثة أن يقال: شبهت الإذاقة المتخيلة بالإذاقة المتحققة، واستعيرت المتحققة، للمتخيلة على سبيل التخييلية على مذهب «السكاكي».

(٢٠) اعلم أن المذاهب في التخييلية أربعة:

الأول: مذهب السلف والخطيب: هو أن جميع أفراد قرينة المكنية مستعملة في حقيقتها، والتجوز إنما هو في «الإثبات لغير ما هو له» المسمى استعارة تخييلية، فهما متلازمان، وهي من المجاز العقلي.

الثاني: مذهب السكاكي: وهو أن قرينة المكنية، تارة تكون تخييلية؛ أي مستعارة لأمر وهمي، كأظفار المنية، وتارة تكون تحقيقية؛ أي مستعارة لأمر محقق «كابلعي ماءك»، وتارة تكون حقيقية «كأنبت الربيع البقل» فلا تلازم بين التخييلية والمكنية، بل يوجد كل منهما بدون الآخر. وقد استدل السكاكي على انفراد التخييلية عن المكنية بقوله:

لا تسقني ماء الملام فإنني   صب قد استعذبت ماء بكائي

فإنه قد توهم أن للملام شيئًا شبيهًا بالماء، واستعارة اسمه له استعارة تخييلية غير تابعة للمكنية، ورده العلامة «الخطيب» بأنه لا دليل له فيه؛ لجواز أن يكون فيه استعارة بالكناية، فيكون قد شبه الملام بشيء مكروه له ماء، وطوى لفظ المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الماء على طريق التخيل.

وأن يكون من باب إضافة المشبه به إلى المشبه، والأصل: «لا تسقني الملام» التشبيه بالماء، وأيضًا لا يخفى ما في مذهب السكاكي من التعسف؛ أي الخروج عن طريق الجادة؛ لما فيه من كثرة الاعتبارات؛ وذلك أن المستعير يحتاج إلى اعتبار أمر وهمي، واعتبار علاقة بينه وبين الأمر الحقيقي، واعتبار قرينة دالة على أن المراد من اللفظ الأمر الوهمي، فهذه اعتبارات ثلاثة لا يدل لها دليل، ولا تمس إليها حاجة.

الثالث: مذهب صاحب الكشاف: وهو أنها تكون تارة مصرحة تحقيقية، وتارة تكون تخييلية؛ أي مجازًا في الإثبات.

الرابع: مذهب صاحب السمرقندية: وهو مثل مذهب صاحب الكشاف، غير أن الفرق بينهما أن مدار الأقسام عند صاحب الكشاف على الشيوع وعدمه، وعند صاحب «السمرقندية» على الإمكان وعدمه.

«تنبيه»: الفرق بين ما يُجعل قرينة للمكنية وبين ما يُجعل نفسه تخييلًا على مذهب السكاكي، أو استعارة تحقيقية على مذهب صاحب الكشاف في بعض المواد، وعلى مختار صاحب السمرقندية كذلك أو إثباته تخييلًا على مذهب «السلف وصاحب الكشاف» في بعض المواد، وعلى مختار «صاحب السمرقندية» كذلك، وبين ما يجعل زائدًا عليها «قوة الاختصاص»؛ أي: الارتباط بالمشبه به، فأيهما أقوى ارتباطًا به فهو «القرينة» وما سواه «ترشيح» وذلك كالنشب في قولك: «مخالب المنية نشبت بفلان» فإن «المخالب» أقوى اختصاصًا وتعلقًا بالسبع من «النشب»؛ لأنها ملازمة له دائمًا، بخلاف النشب.

(٢١) يقال في إجراء الاستعارة في الآية الأولى: شبهت الضلالة بالظلمة بجامع عدم الاهتداء في كلٍّ، واستعير اللفظ الدال على المشبه به — وهو الظلمة — للمشبه وهو الضلالة على الاستعارة التصريحية الأصلية.

(٢٢) ويقال في إجراء الاستعارة في الآية الثانية: شبه الذل بطائر، واستعير لفظ المشبه به وهو الطائر للمشبه وهو الذل على طريق الاستعارة المكنية الأصلية، ثم حذف الطائر، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الجناح.

(٢٣) مثال الاستعارة التصريحية في الفعل: «نطقت الحال بكذا» وتقريرها أن يقال: شبهت الدلالة الواضحة بالنطق بجامع إيضاح المعنى في كل، واستعير النطق للدلالة الواضحة، واشتق من النطق بمعنى الدلالة الواضحة «نطقت» بمعنى «دلت» على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ونحو: «يحيي الأرض بعد موتها» يقدر تشبيه تزيينها بالنبات ذي الخضرة والنضرة بالإحياء، بجامع الحسن أو النفع في كلٍّ، ويستعار الإحياء للتزيين، ويشتق من الإحياء بمعنى التزيين يحيي بمعنى يزين، استعارة تبعية لجريانها في الفعل تبعًا لجريانها في المصدر. هذا إذا كانت استعارة في الفعل باعتبار مدلول صيغته؛ أي «مادته وهو الحدث» وأما إذا كانت باعتبار مدلول «هيئته وهو الزمن» كما في قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ﴾ فتقريرها أن يقال: شبه الإتيان في المستقبل بالإتيان في الماضي، بجامع تحقق الوقوع في كلٍّ، واستعير الإتيان في الماضي للإتيان في المستقبل، واشتق منه أتى بمعنى يأتي على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ونحو ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾؛ أي ينادي، شبه النداء في المستقبل بالنداء في الماضي بجامع تحقق الوقوع في كل، واستعير لفظ النداء في الماضي للنداء في المستقبل، ثم اشتق منه نادى بمعنى ينادي، ونحو قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا﴾ إن قُدر المرقد مستعارًا للموت فالاستعارة أصلية، وإن قُدر لمكان الرقاد مستعارًا للقبر فالاستعارة تبعية؛ لأنها في اسم المكان، فلا يُستعار المرقد للقبر إلا بعد استعارة الرقاد للموت.

ومثال الاستعارة في اسم الفاعل: «لزيد قاتل عمرًا» إذا كان عمرو مضروبًا ضربًا شديدًا.

ومثالها في اسم المفعول: «عمرو مقتول لزيد» إذا كان زيد ضاربًا لعمرو ضربًا شديدًا، وإجراء الاستعارة فيهما أن يقال: شبه الضرب الشديد بالقتل بجامع شدة الإيذاء في كلٍّ، واستعير اسم المشبه به للمشبه، واشتق من القتل بمعنى الضرب الشديد قاتل أو مقتول، بمعنى ضارب أو مضروب على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ومثالها في الصفة المشبهة: «هذا حسن الوجه» مشيرًا إلى قبيحه، وإجراء الاستعارة فيه أن يقال: شبه القبح بالحسن بجامع تأثر النفس في كل، واستعير الحسن للقبح تقديرًا، واشتق من أحسن بمعنى القبح حسن بمعنى قبيح، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية التهكمية.

ومثال الاستعارة في أفعل التفضيل: «وهذا أقتل لعبيده من زيد»؛ أي: أشد ضربًا لهم منه.

ومثال اسم الزمان والمكان: «هذا مقتل زيد» مشيرًا إلى مكان ضربه أو زمانه.

ومثال اسم الآلة: «هذا مفتاح الملك» مشيرًا إلى وزيره، وإجراؤها أن يقال: شبهت الوزارة بالفتح للأبواب المغلقة، بجامع التوسل إلى المقصود في كلٍّ، واستعير الفتح للوزارة، واشتُق منه مفتاح بمعنى وزير.

ومثال اسم الفعل المشتق: «نَزالِ» بمعنى انزل، تريد به ابعد، فتقول: شبهه معنى البعد بمعنى النزول بجامع مطلق المفارقة في كلٍّ، واستعير لفظ النزول لمعنى البعد، واشتق منه نزال بمعنى ابعد.

ومثال اسم الفعل غير المشتق: «صه» بمعنى اسكت عن الكلام، تريد به اترك فعل كذا، فتقول: شبه ترك الفعل بمعنى السكوت، واستعير لفظ السكوت لمعنى ترك الفعل، واشتق منه اسكت بمعنى اترك الفعل، وعبر بدل اسكت بصه.

ومثال المصغر: «رُجَيل» لمتعاطي ما لا يليق.

ومثال المنسوب: «قرشِي» للمتخلق بأخلاق قريش، وليس منهم.

ومثال الاستعارة في الحرف قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ وإجراؤها أن يقال: شُبهت المحبة والتبني بالعداوة والحزن اللذين هما العلة الغائبة للالتقاط بجامع مطلق الترتيب، واستعيرت اللام من المشبه به للمشبه على طريق الاستعارة التصريحية التبعية. واعلم أن اللام لم تستعمل في معناها الأصلي وهو العلة؛ لأن علة التقاطهم له أن يكون لهم ابنًا، وإنما استعملت مجازًا «لعاقبة الالتقاط» وهي كونه لهم عدوًّا، فاستعيرت العلة للعاقبة بجامع أن كلًّا منهما مترتب على الالتقاط، ثم استعيرت اللام تبعًا لاستعارتها، فالمستعار منه العلة والمستعار له العاقبة، والترتب على الالتقاط هو الجامع، والقرينة على المجاز استحالة التقاط الطفل ليكون عدوًّا.

وكقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ وإجراؤها أن يقال: شبه مطلق استعلاء بمطلق ظرفية بجامع التمكن في كلٍّ، فسرى التشبيه من الكليين للجزئيات التي هي معاني الحروف فاستعير لفظ «في» الموضوع لكل جزئي من جزئيات الظرفية لمعنى «على» على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ومثال المكنية التبعية في الاسم المشتق: «يعجبني إراقة الضارب دم الباغي» وإجراء الاستعارة أن يقال: شبه الضرب الشديد بالقتل بجامع الإيذاء في كلٍّ، واستعير القتل للضرب الشديد، واشتق من القتل القاتل بمعنى ضارب ضربًا شديدًا، ثم حُذف وأُثبت له شيء من لوازمه وهو الإراقة على سبيل الاستعارة المكنية التبعية.

ومثالها في الاسم المبهم قولك لجليسك المشغول عنك: «أنت مطلوب منك أن تسير إلينا الآن» شبه مطلقًا مخاطبًا بمطلق غائب فسرى التشبيه للجزئيات، واستعير الثاني للأول، ثم استعير بناء على ذلك ضمير الغائب للمخاطب، وحذف وذكر المخاطب، ورمز إلى المحذوف بذكر لازمه، وهو طلب السير منه إليك، وإثباته له تخييل.

واعلم أن استعارة الأسماء المبهمة — أعني الضمائر وأسماء الإشارة والموصولات — تبعية؛ لأنها ليست باسم جنس لا تحقيقًا ولا تأويلًا، ولأنها لا تستقل بالمفهومية؛ لأن معانيها لا تتم ولا تصلح لأن يُحكم عليها بشيء ما لم تصحب تلك الألفاظ في الدلالة عليها ضمنية تتم بها، كالإشارة الحسية والصلة والمرجع، فلا بد أن تعتبر التشبيه أولًا في كليات تلك المعاني الجزئية، ثم سريانه فيها؛ لتبني عليه الاستعارة.

مثلًا في استعارة لفظ «هذا» لأمر معقول: يشبه المعقول المطلق في قول التمييز بالمحسوس المطلق، فيسري التشبيه إلى الجزئيات، فيستعار لفظ هذا المحسوس الجزئي للمعقول الجزئي الذي سرى إليه التشبيه، فهي استعارة تبعية، والاستعارة في الضمير والموصول المؤنث أو بموصولها عنه لشبهه بها أو عكسه، فتشبه المذكر المطلق بالمؤنث، كالتعبير عن المذكر بضمير المطلق، فيسري التشبيه، فتستعير الضمير أو الموصول للجزء الخاص.

(٢٤) يقال في إجرائها: شبه اللزوم الشديد بالركوب، بجامع السلطة والقهر، واستعير لفظ المشبه به وهو الركوب للمشبه وهو اللزوم، ثم اشتق من الركوب بمعنى اللزوم ركب بمعنى لزم، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

(٢٥) يقال في إجرائها: شبه مطلق ارتباط بين مهدي وهدًى بمطلق ارتباط بين مستعلٍ ومستعلًى عليه بجامع التمكن في كلٍّ، فسرى التشبيه من الكليين إلى الجزئيات ثم استعيرت «على» من جزئي من جزئيات المشبه به لجزئي من جزئيات المشبه على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

(٢٦) يقال في إجرائها: شُبهت الإذاقة بالإلباس، واستعير الإلباس للإذاقة بجامع الاشتمال في كلٍّ، واشتق منه ألبس بمعنى أذاق، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، ثم حذف لفظ المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو اللباس، على طريق الاستعارة المكنية.

(٢٧) قد يراد بالاستعارة المعنى المصدري؛ أي: استعمال اللفظ في غير ما وضع له، فيكون اللفظ مستعارًا، والمشبه به مستعارًا منه، والمشبه مستعارًا له.

(٢٨) إذا لم يكن اللازم كذلك اعتُبر ترشيحًا، فالفرق بين الترشيح والتخييل:

(أ) أن الترشيح يكون في المصرحة والمكنية، والتخييل إنما يكون في المكنية.
(ب) أن التخييل به كمال المشبه به، أو قوامه في وجه الشبه، ولا يكون إلا كذلك.

(٢٩) وعلى مذهبهم لا تكون التخييلية «مجازًا لغويًّا»؛ لأنها فعل من أفعال النفس وهو الإثبات، والمجاز اللغوي من عوارض الألفاظ، وعلى مذهبهم أيضًا تتلازم المكنية والتخييلية، إلا أن أحدهم وهو «الزمخشري» انفرد من بينهم بأن قال: إن قرينة المكنية قد تكون تحقيقية إذا كان للمشبه لازم يشبه لازم المشبه به، نحو: ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ﴾ فقد شبه العهد بالحبل، بجامع أن كلًّا يصل بين شيئين ويربطهما، فالعهد يربط المتعاهدين كما يُربط الشيئان بالحبل، ثم حذف لفظ المشبه به وهو الحبل، واستعير النقض وهو فك طاقات الحبل لإبطال العهد، بجامع الإفساد في كل «استعارة أصلية تحقيقية» ثم اشتق من النقض ينقضون بمعنى يبطلون، على سبيل الاستعارة «التحقيقية التبعية».

فالزمخشري يجمع بين المكنية والتحقيقية أحيانًا، على أن التحقيقية ليست مقصودة لذاتها، وإنما جاءت تبعًا للمكنية؛ للدلالة عليها، فلا تلازم عنده بين المكنية والتخييلية، إلا أن يدعي أن القرينة «تصريحية» باعتبار المعنى المقصود في الحالة الراهنة «تخييلية» باعتبار الإشعار بالأصل. أما غيره من السلف فتقول: شبه العهد بالحبل، وحذف لفظ الحبل، ورمز إليه بلازمه، وهو النقض وإثبات النقض للعهد تخييل.

(٣٠) من هذا التعريف نفهم أولًا أن «القزويني» يخالف السلف في تعريف المكنية، ويتفق معهم في قرينتها، ونفهم ثانيًا أن المكنية والتخييلية عند القزويني فعلان من أفعال النفس هما التشبيه والإثبات، فليسا من المجازي اللغوي؛ لأنه من عوارض الألفاظ، وتكون التخييلية عند القزويني والقوم «مجازًا عقليًّا»، لما فيها من إثبات الشيء لغير ما هو له. وإنما سموها «استعارة» لما فيها من نقل اللام من ملائمه الأصلي، وهو المشبه به إلى المشبه. وسموها تخييلية؛ لأن اللازم لما نقل من المشبه به إلى المشبه صار السامع يخيل إليه أن المشبه من جنس المشبه به. ونفهم ثالثًا أن لفظ اللازم في المكنية حقيقة عند «القزويني».

(٣١) تقرير الاستعارة على مذهب «السكاكي» أن يقال: شبهنا المنية التي هي الموت المجرد عن ادعاء السبعية بالسبع الحقيقي، وادعينا أنها فرد من أفراده، وأن للسبع

فردين: فردًا متعارفًا وهو الحيوان المفترس، وفردًا غير متعارف وهو الموت الذي ادعيت له السبعية. واستعير اسم المشبه وهو المنية بمعنى ذلك الفرد غير المتعارف؛ أعني الموت الذي ادعيت له السبعية، فصح بهذا أنه قد أطلق اسم المشبه وهو المنية، وأريد به المشبه به وهو السبع.

(٣٢) يرى «السكاكي» أن التخييلية قد توجد من غير المكنية كقولهم: «أظفار المنية التي كالسبع نشبت بفلان»، ففي أظفار «استعارة تخييلية» وجدت مع تشبيه صريح، ولكن هذا بعيد؛ إذ لم يوجد له نظير في الكلام العربي، فالفرق بين السكاكي وغيره أن السكاكي يرى أن كل مكنية معها تخييلية ولا عكس، وغيره «إلا الزمخشري» يقول: إنهما متلازمان.

(٣٣) كذلك يدخل فيه الاسم المبهم، فقد جعل بعضهم استعارة الإشارة والضمير والموصول من التبعية؛ لأن كلًّا من هذه المبهمات ليس من اسم الجنس لا تحقيقًا ولا تأويلًا؛ إذ إن معانيها جزئية، والأصلية مختصة باسم الجنس، فإذا قلت: «هذا رأي حسن» فقد استعرت اسم الإشارة من المحسوس للمعقول، ويقال: شبه المعقول مطلقًا بالمحسوس مطلقًا في قبول التميز والتعبير، فسرى التشبيه من الكليات إلى الجزئيات، فاستعير لفظ «هذا» من جزئي المشبه به لجزئي المشبه استعارة تبعية؛ لقصد المبالغة في بيان تعيين المعقول، وإذا قلت لنسوة: «إني منتظركم» فقد شبهت مطلق مخاطبة فيها عظمة بمطلق مخاطب فيه عظمة، بجامع العظمة في كل، فسرى التشبيه من الكليين إلى الجزئيات، فاستعير ضمير جماعة الذكور من جزئي المشبه به لجزئي المشبه استعارة تبعية، وكذا إذا استعملت في المؤنث ما وضع من أسماء الموصول في المذكر.

وإذا عاد الضمير أو اسم الإشارة على مجاز نحو: «زارني هذا الأسد فأكرمته» فليس فيهما تجوز بناء على أن وضعهما أن يعودا على ما يراد بهما من حقيقة أو مجاز، وقيل: فيهما تجوز تبعًا لما يرجعان إليه، ويكونان مستعارين بناء على التشبيه والاستعارة في مرجعهما، فيدخلان في التبعية.

(٣٤) لو دخلت أن المصدرية على فعل مستعار نحو: «يسوءني أن يطغى الماء على قريتي» فالحق أنها تبعية، وأن المستعار هو الفعل وحده، وهو الذي حل محل يكثر أو يعلو، والعبرة باللفظ، والمصدر غير ملفوظ به، و«أن» إنما هي آلة في السبك أُتي بها لغرض هو تأويل مدخولها بمصدر، فإذا أدى بها هذا الغرض طُرحت كما تُطرح الآلة إثر إتمام العمل الذي يُؤدى بها. وقال بعضهم: إنها أصلية نظرًا للمصدر المؤول.

(٣٥) يراد بالصفة: اسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة، واسم التفضيل، ويلحق بها المصغر والمنسوب: «كرُجَيل» إذا أريد به رجل كبير يتعاطى ما لا يليق به، وكقرشي لمصري يتخلق بأخلاق القرشيين؛ فإن استعارتهما تابعة لاستعارة مصدرين لمشتقين، يؤدي هذان اللفظان معناهما «وهما صغير ومنتسب إلى قريش» شبه فعل ما لا يليق بالصغر، بجامع أن كلًّا يسقط الهيبة، واستعير لفظ الصغر لفعل ما لا يليق، ثم اشتق منه صغير بمعنى فاعل ما لا يليق، ثم عبر عن فاعل ما لا يليق بلفظ رجيل، أو شبه رجيل أو شبه مطلق فعل ما لا يليق بمطلق الصغر، فسرى التشبيه إلى فردي المشبه والمشبه به، وهما فاعل ما لا يليق ورجيل، ثم استعير بناء على التشبيه الحاصل بالسريان رجيل للكبير الذي يفعل فعل الصغير، وشبه التخلق بأخلاق قريش بالانتساب إليهم، واستعير الانتساب للتخلق، واشتق منه المنتسب بمعنى المتخلق بأخلاقهم، ثم عبر عن هذا بلفظ يؤديه وهو «قرشي» على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

(٣٦) شبه الضرب بالقتل بجامع شدة الإيذاء في كلٍّ، ثم استعير للضرب الشديد على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، ثم اشتق منه «مقتال» بمعنى آلة الضرب على سبيل الاستعارة التبعية، وشبه الإعراض عن سوء القول وعدم سمعه بالصمم بجامع عدم تأثر النفس بالقول في كلٍّ، وكذلك شبه الإغضاء عن العورات بالعمى، بجامع عدم تأثر النفس بالمرئي في كلٍّ.

(٣٧) لأن كلًّا من الطغيان والنطق من شأن الإنسان.

(٣٨) لأن الضرب من شأن الخيام، لا من شأن الذلة التي هي أمر معنوي.

(٣٩) لأن القتل والإحياء لا يقعان إلا على ذي روح، والبخل والسماح معنويان لا روح فيهما؛ فدل هذا على أن المراد بالقتل الإزالة، وبالإحياء الإكثار، شبه الإزالة بالقتل بجامع ما يترتب على كل من العدم، والإكثار بالإحياء بجامع إظهار المتعلق في كلٍّ.

(٤٠) القرينة تعلق الفعل «صبح» بمرهفات وهي مفعول به ثانٍ، يقال: صبحه كقطع سقاه الصبوح، وهو شراب الغداة. ومرهفات؛ أي: سيوفًا مرهفات، يقال: أرهف السيف إذا حدده ورققه. وأباده: أهلكه. والأرومة الأصل. والضمير في أرومتها للخزرجية، وفي «ذووها» للمرهفات. يقول: أبدنا أصول هذه القبيلة بسيوفنا المرهفات. ونزل التضاد منزلة التناسب، فشبه الإساءة إلى الخزرجية صباحًا بالإحسان إليهم، وتقديم الصبوح لهم بجامع إدخال السرور على النفس في كلٍّ، وإن كان ادعائيًّا في المشبه، ثم استعار لفظ المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية العنادية التهكمية، ثم اشتُق

من الصبوح بمعنى الضرب بالمرهفات «صبح» بمعنى ضرب بها على سبيل الاستعارة التبعية.

(٤١) الجفن غطاء العين وغلاف السيف، استعير لأكمام الزهر بجامع التغطية في كلٍّ، وكنى بسريان النوم فيها عن ذبولها، وإيقاظ مصدر أيقظ، مصدر مستعار لتفتيح الزهر، وإيجاد النضرة والبهجة فيه. وقد حسن التعبير بالإيقاظ مجيئه بعد النوم والأجفان. والمعنى: تهب الرياح على بساتين الحزن فتكسوها تفتيحًا وحسنًا ونضارة.

(٤٢) قوله: «بعذاب» قرينة على أن «بشر» مستعار؛ لأن التبشير بما يسر فلا يناسب تعلقه بالعذاب. وقوله: ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾ كذلك؛ لأنه معنوي والصدع للمحسوس، كما أن الحق معنوي أيضًا، فكل منها كان صارفًا عن المعنى الأصلي للفعل إلى المعنى المجازي.

(٤٣) هذا على أن مرقد اسم مكان، وإلا فالاستعارة أصلية كما تقدم.

(٤٤) إيضاح: مثل الابتداء والظرفية والاستعارة معانٍ كلية، يصح أن تكون مستقلة بالفهم، يُحكم بها وعليها، وتكون مقصودة لذاتها، ولكن الابتداء المفهوم من لفظ «من» ابتداء مخصوص لم يقصد لذاته، بل الغرض منه الربط بين معنيين مستقلين بالفهم، هما السير والبصرة في قولك: «سرت من البصرة»؛ ولذا كان جزئيًّا بالنسبة للابتداء الأول، وما قيل في الابتداء يقال نظيره في الظرفية، والعلة الغائية والاستعلاء، وغيرها من المعاني التي تستفاد من الحروف نحو: «في، واللام، وعلى».

فأي معنًى يستفاد من الحرف في جملة ما يعتبر جزئيًّا من كلية، غير مقصود لذاته، بل للربط بين معنيين مستقلين، وتعتبر الحروف حينئذ روابط بين المعاني المقصودة.

(٤٥) العداوة والحزن علة واقعية للالتقاط.

(٤٦) العلة الغائية لفعل هي التي تحمل على تحصيله لتحصل بعد حصوله، كتبني فرعون لموسى، ومحبة موسى إياه؛ لأن فرعون وآله إنما كفلوه بعد التقاطه لذلك.

(٤٧) إلا أن الترتب في الغائية «رجائي أو تقديري»، وفي العداوة والحزن «واقعي».

(٤٨) جزءا المشبه هنا هو ترتب العداوة والحزن الخاصين المتعلقين بـ «موسى».

(٤٩) جزءا المشبه به هنا هو ترتب علة الالتقاط الخاصة، وهي تبني موسى والمحبة؛ لأنهما متقدمان على كفالته بعد الالتقاط، ومرتبان عليه في الخارج.

(٥٠) شبه مطلق ارتباط بين مستعلٍ ومستعلًى عليه بمطلق ارتباط بين ظرف ومظروف بجامع التمكن، أو مطلق الارتباط في كلٍّ، فسرى التشبيه من الكليين إلى

الجزئيات، فاستعير لفظ «في» من جزئيات المشبه به لجزئي من جزئيات المشبه استعارة تبعية.

(٥١) شبه مطلق ارتباط بين مهدي وهدًى بمطلق ارتباط بين مستعلٍ ومستعلًى عليه، بجامع مطلق الارتباط في كل، فسرى التشبيه من الكليين إلى الجزئيات، فاستعير لفظ «على» من جزئيات المشبه به لجزئي المشبه استعارة تبعية.

(٥٢) شبه مطلق ملابسة الإنسان للنعمة بمطلق ملابسة بين ظرف ومظروف بجامع مطلق الملابسة في كلٍّ، فسرى التشبيه من الكليين إلى الجزئيات، فاستعير لفظ «في» من جزئيات المشبه به لجزئي من جزئيات المشبه استعارة تبعية.

(٥٣) الجامع في الاستعارة بمثابة «وجه الشبه» في التشبيه، وهو ما قُصد اشتراك الطرفين فيه، وسُمي جامعًا؛ لأنه جمع المشبه في أفراد المشبه به تحت مفهومه، وأدخله في جنسه ادعاء. ولا بد أن يكون في المستعار منه أقوى؛ لأن الاستعارة مبنية على المبالغة في التشبيه، والمبالغة فيه توجب إبلاغ المشبه لما هو أكمل.

وينقسم الجامع إلى داخل وخارج:

فالأول: ما كان داخلًا في مفهوم الطرفين، نحو قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ فاستعير التقطيع الموضوع لإزالة الاتصال بين الأجسام الملتصق بعضها ببعض لتفريق الجماعة وإبعاد بعضها عن بعض، والجامع إزالة الاجتماع، وهي داخلة في مفهومها، وهي في القطع أشد.

والثاني: وهو ما كان خارجًا عن مفهوم الطرفين، نحو: «رأيت أسدًا»؛ أي: رجلًا شجاعًا، فالجامع وهي الشجاعة أمر عارض للأسد، لا داخل في مفهومه.

وينقسم الجامع أيضًا باعتباره وباعتبار الطرفين إلى ستة أقسام؛ لأن الطرفين إما حسيان، وإما عقليان «أو المستعار منه حسي والمستعار له عقلي أو بالعكس» والجامع في الأول من الصور الأربع تارة يكون حسيًّا وتارة يكون عقليًّا وأخرى مختلفًا، وفي الثلاث الأخيرة لا يكون إلا عقليًّا.

مثال ما إذا كان الطرفان حسيين والجامع كذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾ فإن المستعار منه ولد البقرة، والمستعار له الحيوان المصوغ من «حلي القبط» بعد سبكها بنار السامري، وإلقاء التراب المأخوذ من أثر فرس جبريل عليه السلام، والجامع لهما الشكل والخوار، فإنه كان على شكل ولد البقر، مما يدرك بحاسة البصر «وبحث بعضهم بأن إبدال جسدًا من عجلًا يمنع الاستعارة».

ومثال ما إذا كان الطرفان حسيين والجامع عقلي قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾؛ أي: نكشف ونزيل الضوء من مكان الليل، وموضع ظلمته، فإن المستعار منه — أعني السلخ — وهو كشط الجلد وإزالته عن الشاة ونحوها، والمستعار إزالة الضوء عن مكان الليل وموضع ظلمته، وهما حسيان.

والجامع لهما ما يعقل من ترتب أمر على آخر بحصوله عقبه، كترتب ظهور اللحم على السلخ والكشط، وترتب حصول الظلمة على إزالة ضوء النهار عن مكان ظلمة الليل، والترتب عقلي، وإجراء الاستعارة شبه كشف الضوء عن الليل بكشط الجلد عن نحو الشاة، بجامع ترتب ظهور شيء على شيء في كلٍّ، واستعير لفظ المشبه به وهو «السلخ» للمشبه، وهو كشف الضوء، واشتق منه «نسلخ» بمعنى نكشف، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

ومثال ما إذا كان الطرفان حسيين، والجامع بعضه حسي وبعضه عقلي قولك: «رأيت بدرًا يضحك» تريد شخصًا مثل «البدر» في حسن الطلعة وعلو القدر، فحسن الطلعة حسي، وعلو القدر عقلي.

ومثال ما إذا كان الطرفان عقليين — ولا يكون الجامع فيهما إلا عقليًّا كباقي الأقسام — قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾، فإن المستعار منه «الرقاد»؛ أي النوم، والمستعار له الموت، والجامع بينهما عدم ظهور الأفعال الاختيارية «والجميع عقلي» وإجراء الاستعارة: شبه الموت بالنوم بجامع عدم ظهور الفعل في كلٍّ، واستعير لفظ المشبه به للمشبه على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية.

وقال بعضهم: عدم ظهور الفعل في الموت أقوى، وشرط الجامع أن يكون في المستعار منه أقوى، فليجعل الجامع هو «البعث» الذي هو في النوم أظهر، وقرينة الاستعارة أن هذا الكلام كلام الموتى مع قوله: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾، وعلى هذا يقال: شبه الموت بالرقاد، بجامع عدم ظهور الفعل في كلٍّ، واستعير الرقاد للموت، واشتق منه «مرقد» اسم مكان الرقاد، بمعنى قبر؛ اسم مكان الموت، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

ومثال ما إذا كان المستعار منه حسيًّا والمستعار له عقليًّا قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، فإن المستعار منه كسر الزجاجة، وهو أمر حسي، باعتبار متعلقه، والمستعار له التبليغ جهرًا، والجامع التأثير الذي لا يمكن معه رد كل منهما إلى ما كان عليه؛ أي: أُظهر الأمر إظهارًا لا ينمحي، كما أن صدع الزجاجة لا يلتئم.

وإجراء الاستعارة: شبه التبليغ جهرًا بكسر الزجاجة، بجامع التأثير الشديد في كلٍّ، واستعير المشبه به وهو «الصدع» للمشبه وهو التبليغ جهرًا، واشتق منه «اصدع» بمعنى «بلغ جهرًا» على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

ومثال ما إذ كان المستعار منه عقليًّا والمستعار له حسيًّا قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ فإن المستعار له كثرة الماء كثرة مفسدة وهي حسية، والمستعار منه التكبر، والجامع الاستعلاء المفرط، وهما عقليان.

وإجراء الاستعارة: شبهت كثرة الماء المفرطة بمعنى الطغيان وهو مجاوزة الحد، بجامع الاستعلاء المفرط في كلٍّ، واستعير لفظ المشبه به وهو الطغيان للمشبه وهو الكثرة المفرطة، واشتق منه «طغى» بمعنى «كثر كثرة مفرطة» على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

«تنبيه»: الاستعارة المكنية تنقسم أيضًا «إلى أصلية ... وإلى تبعية» و«إلى مرشحة ... وإلى مجردة ... وإلى مطلقة» كما انقسمت التصريحية إلى مثل ذلك.

فالمكنية الأصلية: هي ما كان المستعار فيهما اسمًا غير مشتق، كالسبع المتقدم، والتبعية هي ما كان المستعار فيها اسمًا مشتقًّا، فلا تكون في الفعل ولا في الحرف، ومثالها في الاسم المشتق: «يعجبني إراقة الضارب دم الظالم» فقد شبه الضرب الشديد بالقتل بجامع الإيذاء في كلٍّ، واستعير القتل للضرب الشديد، ثم حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الإراقة، على طريق الاستعارة المكنية التبعية.

فالاستعارة التخييلية عند الجمهور: هي نفس إثبات اللازم المستعمل في حقيقته، وهي من المجاز العقلي، وإنما سميت استعارة؛ لأنه استعير ذلك الإثبات من المشبه به للمشبه، وسميت تخييلية؛ لأن إثباته للمشبه خيل اتحاده مع المشبه به، فقولنا: «أظفار المنية نشبت بفلان» فلفظ «أظفار» في هذا التركيب مستعمل في حقيقته «وإنما التجوز في إثباته للمنية»؛ أي أن ذلك الإثبات إثبات للشيء إلى غير ما هو له، فعند الجمهور: التخييلية لا تفارق المكنية؛ لأنها قرينتها.

والاستعارة المكنية المرشحة: هي ما قُرنت بما يلائم المشبه فقط، نحو: «نطق لسان الحال بكذا» شبهت «الحال» بمعنى الإنسان، واستعير لفظ المشبه به للمشبه، وحذف ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو «لسان» وإثبات اللسان للحال تخييل، وهو القرينة، والنطق ترشيح؛ لأنه يلائم المشبه به فقط، وترشيح المكنية فيه خلاف مبسوط في المطولات.

والمكنية المجردة: هي ما قُرنت بما يلائم المشبه فقط، نحو: «نطقت الحال الواضحة بكذا» فالوضوح تجريد؛ لأنه يلائم المشبه لا المشبه به، أو قُرنت بما يلائهما معًا، نحو: «نطقت الحال بكذا» ونطق لسان الحال الواضحة بكذا، ففي الأول شبهت الحال بإنسان واستعير لها اسمه، وحُذف ورُمز إليه بشيء من لوازمه وهو النطق، وإثبات النطق للحال تخييل، وهي مجردة؛ لأنها لم تقترن بشيء يلائمها.

وفي الثاني شبهت الحال بإنسان واستعير له اسمه، وحذف ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو «لسان» وإثباته للحال تخييل، وهو القرينة، والنطق ترشيح؛ لأنه يلائم المشبه به، والوضوح تجريد؛ لأنه يلائم المشبه، ولما تعارضا سقطا.

وتنقسم المكنية أيضًا إلى: عنادية، نحو: «أنشبت المنية أظفارها بفلان»؛ لأنه لا يمكن اجتماع طرفيها في شيء واحد «يكون منية وسبعًا».

ووفاقية، نحو: «نطقت الحال بكذا»؛ لأنه يمكن اجتماع طرفيها في شيء واحد كالحال مع الإنسان.

(٥٤) المجاز المركب: هو تركيب استُعمل في ما يشبه بمعناه الأصلي «تشبيه التمثيل».

(٥٥) سميت تمثيلية مع أن التمثيل عام في كل استعارة؛ للإشارة إلى عظم شأنها، كأن غيرها ليس فيه تمثيل أصلًا؛ إذ الاستعارة التمثيلية مبينة على تشبيه التمثيل، ووجه الشبه فيه هيئة منتزعة من متعدد، لهذا كان أدق أنواع التشبيه، وكانت الاستعارة المبنية عليه أبلغ أنواع الاستعارات،؛ ولذلك كان كل من تشبيه التمثيل والاستعارة التمثيلية غرض البلغاء.

(٥٦) أصل المثل: أن امرأة كانت متزوجة بشيخ غني، فطلبت طلاقها منه في زمن الصيف لضعفه، فطلقها وتزوجت بشاب فقير، ثم طلبت من مطلقها لبنًا وقت الشتاء، فقال لها ذلك المثل.

وإجراء الاستعارة في المثل الأول أن يقال: شُبهت هيئة من فرط في أمر زمن إمكان تحصيله بهيئة المرأة التي طلقت من الشيخ للابن، ثم رجعت إليه تطلب منه اللبن شتاء، بجامع التفريط في كلٍّ، واستعير الكلام الموضوع للمشبه به للمشبه على طريق الاستعارة التمثيلية.

وإجراء الاستعارة في المثل الثاني أن يقال: شبهت هيئة من يتردد في أمر بين أن يفعله وألا يفعله بهيئة من يتردد في الدخول، فتارة يقدم رجله، وتارة يؤخرها بجامع الحيرة في كلٍّ، واستعير الكلام الموضوع للمشبه به للمشبه على طريق الاستعارة التمثيلية.

وإجراء الاستعارة في المثل الثالث: شبهت هيئة من يظلم من وجهين بهيئة رجل باع آخر تمرًا رديئًا وناقص الكيل، بجامع الظلم من وجهين في كل، واستعير الكلام الموضوع للمشبه به للمشبه على طريق الاستعارة التمثيلية.

وإجراء الاستعارة في المثل الرابع: شبهت هيئة الرجل المتستر تحت أمر ليحصل على أمر خفي يريده بهيئة الرجل المسمى «قصيرًا» حين جدع أنفه ليأخذ بثأر «جذيمة» من «الزباء» بجامع الاحتيال في كلٍّ، واستعير الكلام الموضوع للمشبه به للمشبه على طريق الاستعارة التمثيلية.

وإجراء الاستعارة في المثل الخامس أن يقال: شبهت هيئة الرجل الكريم الأصل العزيز النفس — الذي لا يفضل الدنايا على الرزايا عندما تزل به القدم — بهيئة المرأة التي تفضل جوعها على إجارتها للإرضاع عند فقرها، بجامع ترجيح الضرر على النفع في كلٍّ، واستعير الكلام الموضوع للمشبه به للمشبه على طريق الاستعارة التمثيلية.

وإجراء الاستعارة في المثل السادس: شبهت هيئة من يريد أن يعمل عملًا وحده وهو عاجز عنه بهيئة من يريد أن يصفق بيد واحدة، بجامع العجز في كلٍّ، واستعير الكلام الموضوع للمشبه به وللمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية.

وإجراء الاستعارة في المثل السابع: شبهت هيئة الرجل الذي يحصل بوجوه فصل المشكلات بهيئة نبي الله موسى عليه السلام مع سحرة فرعون، بجامع حسم النزاع في كلٍّ، واستمر الكلام الموضوع للمشبه على طريق الاستعارة التمثيلية.

وإجراء الاستعارة في المثل الثامن: شبهت هيئة الرجل الذي لا يقول إلا الحق ولا يخبر إلا بالصدق بهيئة المرأة المسماة «حذامِ» بجامع الصدق في كلٍّ، واستعير الكلام الموضوع للمشبه به للمشبه، على طريق الاستعارة التمثيلية.

(٥٧) أصل هذا المثل أن قومًا اجتمعوا للتشاور في الصلح بين حيين من العرب، قتل رجل من أحدهما رجلًا من الآخر، وبينما خطباؤهم يتكلمون إذا بجارية تُدعى «جهيزة» أقبلت فأخبرتهم أن أولياء المقتول ظفروا بالقاتل، فقتلوه، فقال أحدهم: «قطعت جهيزة قول كل خطيب» فذهب قوله مثلًا.

(٥٨) وإجراء الاستعارة في المثل التاسع: شبهت حال المصلح يبدأ الإصلاح ثم يأتي غيره فيبطل عمله بحال البنيان ينهض به حتى إذا أوشك أن يتم جاء من يهدمه، والجامع هو الحالة الحاصلة من عدم الوصول إلى الغاية؛ لوجود ما يفسد على المصلح إصلاحه، ثم حذف المشبه، واستعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه.

(٥٩) الأمثال:* هي عبارات موجزة مأثورة، تشبه الناس بها جديد أحوالهم بقديمها، وهي نوعان: حقيقة، وفرضية.

فالحقيقية: هي ما حدث موردها في الوجود.

والفرضية: ما لم يحدث موردها في الوجود، وإنما اخترعت على لسان حيوان أو غيره.

ولكل مثل «مورد» وهو الحالة القديمة التي قيل فيها لأول مرة.

ولكل مثل «مضرب» وهو الحالة الجديدة التي استعير لها.

وكما تكون الأمثال نثرًا تكون شعرًا، وتضرب كما وردت دون تغيير في لفظها.

*«للأمثال الحقيقية أسباب ونتائج تفيد المجتمع الإنساني:

منها: كونها مرآة صقيلة للمواعظ والعبر.

ومنها: كونها مقياسًا لرقي الأمة ولسان أخلاقها.

ومنها: كونها مجموعة نفيسة من السلف إلى الخلف.

أما الأمثال الفرضية فهي عظة للعاقل ومسلاة للجاهل.

وأشهر الكتب الجامعة للأمثال:

- «كتاب مجمع الأمثال» للميداني.
- «جمهرة الأمثال» لأبي هلال العسكري.
- «العقد الفريد» لابن عبد ربه.
- «كتاب كليلة ودمنة» لابن المقفع؛ وغيرهم.

ولا يُسمى القول مثلًا إلا إذا سار وذاع بين الناس جميعًا.

ومما تقدم شرحه في تشبيه التمثيل، والاستعارة التمثيلية — يُعلم الفرق بين كل منهما في الجدول الآتي للموازنة بينهما.»

تشبيه التمثيل	الاستعارة التمثيلية
(١) تشبيه التمثيل: يذكر فيه المشبه والأداة.	(١) الاستعارة التمثيلية: لا تكون إلا في التراكيب.
(٢) تشبيه التمثيل: يجوز أن يكون بين مفردين، مثل: المنافق كالحرباء.	(٢) الاستعارة التمثيلية: نوع من المجاز فهي لذلك أبلغ منه.

تشبيه التمثيل	الاستعارة التمثيلية
(٣) تشبيه التمثيل: لا يصلح استعارة دون حذف.	(٣) الاستعارة التمثيلية: تحتاج إلى قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلي.
(٤) تشبيه التمثيل: لا يحتاج إلى قرينة معه تدل على حقيقته.	(٤) الاستعارة التمثيلية: يحذف منها المشبه والأداة، ولا يبقى فيها من أركان التشبيه إلا ما كان مشبهًا به فقط.
(٥) تشبيه التمثيل: نوع من الحقيقة.	(٥) الاستعارة التمثيلية: تصلح مشبهًا به دون حذف، والتشبيه معها أكثر ما يكون غير تمثيل.

(٦٠) وتنقسم التمثيلية إلى قسمين: تحقيقية وتخييلية:

فالتحقيقية: هي المنتزعة من عدة أمور متحققة موجودة خارجًا، كما في الأمثلة السابقة.

والتخييلية: هي المنتزعة من عدة أمور متخيلة مفروضة لا تحقق لها في الخارج ولا في الذهن.

وتُسمى الأولى «تمثيلية حقيقية» والثانية «تخييلية» كقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ الآية على احتمال فيها، فإنه لم يحصل عرض وإباء وإشفاق منها حقيقة، بل هذا تصوير وتمثيل، بأن يفرض تشبيه حال التكاليف في ثقل حملها وصعوبة الوفاء بها بحال أنها عرضت على هذه الأشياء — مع كبر أجرامها، وقوة متانتها — فامتنعن وخفن من حملها، بجامع عدم تحقق الحمل في كلٍّ، ثم استعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه استعارة تمثيلية.

ونحو قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ فإن معنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما أنه أراد تكوينهما فكانتنا كما أراد، فالغرض تصوير تأثير قدرته فيهما وتأثرهما عنها، وتمثيل ذلك بحالة الآمر المطاع لهما، وإجابتهما له بالطاعة فرضًا وتخييلًا من غير أن يتحقق شيء من الخطاب والجواب. هذا أحد وجهين في الآيتين كما في «الكشاف» فارجع إليه.

(٦١) الصريع: المطروح على الأرض. وتقاضاه: أصله تتقاضاه بحذف إحدى التاءين، وهو من قولهم: «تقاضى الدائن دينه إذا قبضه». والحُشاشة: بقية الروح في المريض والجريح. يصفه بأنه ملقًى على الأرض يلفظ النفس الأخير من حياته.

الباب الثالث

في الكناية وتعريفها وأنواعها

الكناية[1] لغة: ما يتكلم به الإنسان، ويريد به غيره، وهي مصدر كنيت، أو كنوت بكذا، إذا تركت التصريح به.

واصطلاحًا: لفظ أريد به غير معناه الذي وُضع له، مع جواز إرادة المعنى الأصلي لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته، نحو: «زيد طويل النجاد» تريد بهذا التركيب أنه شجاع عظيم، فعدلت عن التصريح بهذه الصفة إلى الإشارة إليها بشيء تترتب عليه وتلزمه؛ لأنه يلزم من طول حمالة السيف طول صاحبه، ويلزم من طول الجسم الشجاعة عادة، فإذًا المراد طول قامته، وإن لم يكن له نجاد، ومع ذلك يصح أن يراد المعنى الحقيقي. ومن هنا يُعلم أن الفرق بين الكناية والمجاز صحة إرادة المعنى الأصلي في الكناية دون المجاز، فإنه ينافي ذلك.

نعم، قد تمتنع إرادة المعنى الأصلي في الكناية؛ لخصوص الموضوع كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كناية عن تمام القدرة، وقوة التمكن والاستيلاء.

وتنقسم الكناية بحسب المعنى الذي تُشير إليه إلى ثلاثة أقسام:

(١) كناية عن صفة، كما تقول: «هو ربيب أبي الهول» تكني عن شدة كتمانه لسره، وتعرف كناية الصفة بذكر الموصوف — ملفوظًا أو ملحوظًا — من سياق الكلام.

(٢) كناية عن موصوف، كما تقول: «أبناء النيل» تكني عن المصريين و«مدينة النور» تكني عن باريس، وتُعرف بذكر الصفة مباشرة أو ملازمة. ومنها قولهم: «تستغني مصر عن مصب النيل ولا تستغني عن منبعه» كنَّوا بمنبع النيل عن أرض السودان.

ومنها قولهم: «هو حارس على ماله» كنوا به عن البخيل الذي يجمع ماله، ولا ينتفع به.

ومنها قولهم: «هو فتًى رياضي» يكنون عن القوة؛ وهلم جرًّا.

(٣) كناية عن نسبه، وسيأتي الكلام عليها فيما بعد.

فالقسم الأول: وهو الكناية التي يطلب بها «صفة» هي ما كان المكنى عنه فيها صفة ملازمة لموصوف مذكور في الكلام.

وهي نوعان:

(أ) كناية قريبة: وهي ما يكون الانتقال فيها إلى المطلوب بغير واسطة بين المعنى المنتقل عنه والمعنى المنتقل إليه، نحو قول الخنساء في رثاء أخيها صخر:

رفيع العماد طويل النجا　　د ساد عشيرته أمردا[٢]

(ب) وكناية بعيدة: وهي ما يكون الانتقال فيها إلى المطلوب بواسطة أو بوسائط، نحو: «فلان كثير الرماد» كناية عن المضياف. والوسائط: هي الانتقال من كثرة الرماد إلى كثرة الإحراق، ومنها إلى كثرة الطبخ والخبز، ومنها إلى كثرة الضيوف، ومنها إلى المطلوب وهو المِضياف الكريم.

القسم الثاني: الكناية التي يكون المكني عنه موصوفًا بحيث يكون إما معنًى واحدًا «كموطن الأسرار» كناية عن القلب، وكما في قول الشاعر:

فلما شربناها ودب دبيبها　　إلى موطن الأسرار قلت لها قفي

وإما مجموع معانٍ، كقولك: «جاءني حيٌّ مستوي القامة، عريض الأظفار» (كناية عن الإنسان) لاختصاص مجموع هذه الأوصاف الثلاثة به. ونحو:

الضاربين[٣] بكلِّ أبيض مخذم　　والطاعنين مجامع الأضغان[٤]

ويشترط في هذه الكناية أن تكون الصفة أو الصفات مختصة بالموصوف، ولا تتعداه؛ ليحصل الانتقال منها إليه.

القسم الثالث: الكناية التي يراد بها نسبة أمر لآخر – إثباتًا أو نفيًا – فيكون المكني عنه نسبة، أُسندت إلى ما له اتصال به، نحو قول الشاعر:

إن السماحة والمروءة والندى   في قبة ضُربت على ابن الحشرج

فإن جعل هذه الأشياء الثلاثة في مكانه المختص به يستلزم إثباتها له.
والكناية المطلوب بها نسبة:

(أ) إما أن يكون ذو النسبة مذكورًا فيها، كقول الشاعر:

اليمن يتبع ظله   والمجد يمشي في ركابه

(ب) وإما أن يكون ذو النسبة غير مذكور فيها، كقولك: «خير الناس من ينفع الناس» كناية عن نفي الخيرية عمن لا ينفعهم.

وتنقسم الكناية أيضًا باعتبار الوسائط «اللوازم» والسياق إلى أربعة أقسام: تعريض، وتلويح، ورمز، وإيماء.

(١) فالتعريض لغة: خلاف التصريح.
واصطلاحًا: هو أن يطلق الكلام، ويُشار به إلى معنًى آخر يفهم من السياق، نحو: قولك للمؤذي: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» تعريضًا بنفي صفة الإسلام عن المؤذي. وكقول الشاعر:

إذا الجود لم يرزق خلاصًا من الأذى   فلا الحمد مكسوبًا ولا المال باقيا

(٢) والتلويح لغة: أن تشير إلى غيرك من بعد.
واصطلاحًا: هو الذي كثرت وسائطه بلا تعريض، نحو:

وما يك فيَّ من عيب فإني   جبان الكلب مهزول الفصيل

كنى عن كرم الممدوح بكونه جبان الكلب، مهزول الفصيل، فإنَّ الفكر ينتقل إلى جملة وسائط.

(٣) والرمز لغة: أن تشير إلى قريب منك خفية بنحو شفة أو حاجب.

واصطلاحًا: هو الذي قلَّت وسائطه، مع خفاء في اللزوم بلا تعريض، نحو: «فلان عريض القفا، أو عريض الوسادة» كناية عن بلادته وبلاهته، ونحو: «هو مكتنز اللحم» كناية عن شجاعته، و«متناسب الأعضاء» كناية عن ذكائه، ونحو: «غليظ الكبد» كناية عن القسوة؛ وهلم جرًّا.

والإيماء أو الإشارة: هو الذي قلَّت وسائطه، مع وضوح اللزوم بلا تعريض، كقول الشاعر:

أَوَما رأيت المجد ألقى رحله   في آل طلحة ثمَّ لم يتحول

كناية عن كونهم أمجادًا أجوادًا بغاية الوضوح.

ومن لطيف ذلك قول بعضهم:

سألت الندى والجود ما لي أراكما   تبدَّلْتُما ذلًّا بعِزٍّ مُؤبَّدِ
وما بال ركن المجد أمسى مهدَّما   فقالا: أُصبنا بابن يحيى محمدِ
فقلت: فهلَّا مِتُّما عند موته   فقد كنتما عبدَيْه في كل مَشْهدِ
فقالا: أقمنا كي نعزَّى بفقده   مسافة يوم ثم نتلوه في غَدِ

والكناية من ألطف أساليب البلاغة وأدقها، وهي أبلغ من الحقيقة والتصريح؛ لأن الانتقال فيها يكون من الملزوم إلى اللازم، فهو كالدعوى ببينة، فكأنك تقول في: «زيد كثير الرماد» زيد كريم؛ لأنه كثير الرماد، وكثرته تستلزم كذا ... إلخ.

كيف لا وأنها تمكن الإنسان من التعبير عن أمور كثيرة، يتحاشى الإفصاح بذكرها، إما احترامًا للمخاطب أو للإبهام على السامعين، أو للنيل من خصمه، دون أن يدع له سبيلًا عليه، أو لتنزيه الأذن عما تنبو عن سماعه، ونحو ذلك من الأغراض واللطائف البلاغية.

تمرين

بيِّن أنواع الكنايات الآتية، وعيِّن لازم معنى كل منها:

(١) قال البحتري يصف قتله ذئبًا:

فأتبعتها أخرى فأضللت نصلها بحيث يكون اللب والرعب والحقد

(٢) وقال آخر في رثاء من مات بعلة في صدره:

ودبت له في موطن الحلم علة لها كالصلال الرقش شر دبيب

(٣) ووصف أعرابي امرأة، فقال: «ترخي ذيلها على عرقوبَيْ نعامة.»

ونحو:

ضربت سرادقها المهابة فوقه فـإذا بـدا بـادت بـه الأعـداء

ونحو:

إن الذي ملأ اللغات محاسنًا جعل الجمال وسره في الضاد

ونحو:

بنى المجد بيتًا فاستقر عماده علينا فأعيا الناس أن يتحولا

إن ثوبك الذي المجد فيه لضياء يزري بكل ضياء

(١) ضمير أتبعتها يعود على الطعنة. وأضللت: أخفيت. والنصل: حديدة السيف. واللب والرعب: الفزع والخوف.

واعلم أن الكناية: إما حسنة: وهي ما جمعت بين الفائدة ولطف الإشارة، كما في الأمثلة السابقة. وإما قبيحة: وهي ما خلت عن الفائدة المرادة، وهي معيبة لدى أرباب البيان، كقول المتنبي:

إني على شغفي بما في خمرها لأعف عما في سراويلاتها

كناية عن النزاهة والعفة، إلا أنها قبيحة؛ لسوء تأليفها، وقبح تركيبها.

(٢) الصلالي: جمع صل بالكسر، ضرب من الحيات صغير أسود، لا نجاة من لدغته. والرقش: جمع رقشاء، وهي التي فيها نقط سوداء في بياض، والحية الرقشاء من أشد الحيات إيذاء.

تمرين آخر

بيِّن أنواع الكنايات الآتية، وبيِّن منها ما يصح فيه إرادة المعنى المفهوم من صريح اللفظ، وما لا يصح:

(١) وصف أعرابي رجلًا بسوء العشرة فقال: كان إذا رآني قرب من حاجب حاجبًا.
(٢) وقال أبو نواس في المديح:

فما جازه جود ولا حل دونه ولكن يسير الجود حيث يسير

(٣) وتكني العرب عمن يجاهر غيره بالعداوة بقولهم: «لبس له جلد النمر، وجلد الأرقم،[٥] وقلب له ظهر المجن.»[٦]

(٤) فلان عريض الوساد[٧] أغمُّ القفا.[٨]

(٥) تجول خلاخيل النساء ولا أرى لرملة خلخالًا يجول ولا قُلْبَا[٩]

(٦) وتقول العرب في المديح: الكرم في أثناء حلته، ويقولون: «فلان نفخ شدقيه»؛ أي: تكبر، و«ورم أنفه» إذا غضب.

(٧) قالت أعرابية لبعض الولاة: أشكو إليك قلة الجرذان.[١٠]

(٨) بيض المطابخ لا تشكو إماؤهم طبخ القدور ولا غسل المناديل

(٩) مطبخ داود في نظافته أشبه شيء بعرش بلقيس[١١]

ثياب طبَّاخه إذا اتسخت   أنقى بياضًا من القراطيس

(١٠) فتًى مختصر المأكو   ل والمشروب والعطر
نقي الكأس والقصـ   ـة والمنديل والقدر

(١١) اليمن يتبع ظله   والمجد يمشي في ركابه

(١٢) أصبح في قيدك السماحة والمجد   وفضل الصلاح والحسب

(١٣) فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا   ولكن على أقدامنا تقطر الدما[١٢]

المجد بين ثوبيك، والكرم ملء برديك.

(١) بلاغة الكناية

الكناية مظهر من مظاهر البلاغة، وغاية لا يصل إليها إلا من لطف طبعه، وصفت قريحته، و«السر في بلاغتها» أنها في صور كثيرة تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها، والقضية وفي طيها بُرهانُها، كقول البحتري في المديح:

يغضون فضل اللحظ من حيث ما بدا   لهم عن مهيب في الصدور محبب

فإنه كنى عن إكبار الناس للممدوح، وهيبتهم إياه — بغض الأبصار الذي هو في الحقيقة برهان على الهيبة والإجلال، وتظهر هذه الخاصة جلية في الكنايات عن الصفة والنسبة.

ومن أسباب بلاغة الكنايات أنها تضع لك المعاني في صورة المحسوسات، ولا شك أن هذه خاصة الفنون، فإن المصور إذا رسم لك صورة للأمل أو لليأس بهرَك، وجعلك ترى ما كنت تعجز عن التعبير عنه واضحًا ملموسًا.

فمثل: «كثير الرماد» في الكناية عن الكرم، و«رسول الشر» في الكناية عن المزاح.

وقول البحتري:

أَوَما رأيت المجد ألقى رحله　　　في آل طلحة ثم لم يتحوَّل

وذلك في الكناية عن نسبة الشرف إلى آل طلحة.

كل أولئك يبرز لك المعاني في صورة تشاهدها، وترتاح نفسك إليها.

ومن خواص الكناية أنها تمكنك من أن تشفي غلتك من خصمك من غير أن تجعل له إليك سبيلًا، ودون أن تخدش وجه الأدب، وهذا النوع يُسمى بالتعريض.

ومثاله قول المتنبي في قصيدة يمدح بها كافورًا، ويعرِّض بسيف الدولة:

رحلتُ فكم باكٍ بأجفان شادن　　　عليَّ وكم باكٍ بأجفان ضيغم[١٣]

وما ربة القُرط المليح مكانه　　　بأجزع من رب الحسام المصمم[١٤]

فلو كان ما بي من حبيب مقنع　　　عذرت ولكن من حبيب معمَّم

رمى واتقى رميي ومن دون ما اتقى　　　هوى كاسر كفي وقوسي وأسهمي

إذا ساء فعلُ المرء ساءت ظنونه　　　وصَدَّقَ ما يعتاده من توهم

فإنه كنى عن سيف الدولة أولًا بالحبيب المعمم، ثم وصفه بالغدر الذي يدعي أنه من شيمة النساء، ثم لامه على مبادهته بالعدوان، ثم رماه بالجبن؛ لأنه يرمي ويتقي الرمي بالاستتار خلف غيره. على أن المتنبي لا يُجازيه على الشر بمثله؛ لأنه لا يزال يحمل له بين جوانحه هوًى قديمًا، يكسر كفه وقوسه وأسهمه إذا حاول النضال.

ثم وصفه بأنه سيئ الظن بأصدقائه؛ لأنه سيئ الفعل، كثير الأوهام والظنون، حتى ليظن أن الناس جميعًا مثله في سوء الفعل، وضعف الوفاء، فانظر كيف نال المتنبي من سيف الدولة هذا النيل كله، من غير أن يذكر من اسمه حرفًا.

هذا؛ ومن أوضح مميزات الكناية التعبير عن القبيح بما تسيغ الآذان سماعه، وأمثلة ذلك كثيرة جدًّا في القرآن الكريم وكلام العرب؛ فقد كانوا لا يعبرون عما لا يحسن ذكره إلا بالكناية، وكانوا لشدة نخوتهم يكنون عن المرأة بـ «البيضة، والشاة».

ومن بدائع الكنايات قول بعض العرب:

ألا يا نخلة من ذات عرق　　　عليك ورحمة الله السلام[١٥]

فإننه كنى بالنخلة عن المرأة التي يحبها. (عن البلاغة الواضحة بتصرف)

(١-١) أثر علم البيان في تأدية المعاني

ظهر لك من دراسة علم البيان أن معنًى واحدًا يستطاع أداؤه بأساليب عدة، وطرائق مختلفة، وأنه قد يُوضع في صورة رائعة من صور التشبيه أو الاستعارة، أو المجاز المرسل، أو المجاز العقلي، أو الكناية؛ فقد يصف الشاعر إنسانًا بالكرم، فيقول:

يريد الملوك مدى جعفر ولا يصنعون كما يصنع
وليس بأوسعهم في الغنى ولـكـنَّ مـعـروفـه أوسـع

وهذا كلام بليغ جدًّا، مع أنه لم يقصد فيه إلى تشبيه أو مجاز، وقد وصف الشاعر فيه ممدوحه بالكرم، وأن الملوك يريدون أن يبلغوا منزلته، ولكنهم لا يشترون الحمد بالمال كما يفعل، مع أنه ليس بأغنى منهم، ولا بأكثر مالًا.

وقد يعتمد الشاعر عند الوصف بالكريم إلى أسلوب آخر، فيقول:

كالبحر يقذف للقريب جواهرًا جودًا ويبعث للبعيد سحائبا

فيشبه الممدوح بالبحر، ويدفع بخيالك إلى أن يضاهي بين الممدوح والبحر الذي يقذف الدرر للقريب، ويرسل السحائب للبعيد.

أو يقول:

هو البحر من أي النواحي أتيته فلجته المعروف والجود ساحله

فيدعي أنه البحر نفسه، وينكر التشبيه نكرانًا يدل على المبالغة، وادعاء المماثلة الكاملة.

أو يقول:

علا فما يستقر المال في يده وكيف تمسك ماء قنة الجبل؟

فيرسل إليك التشبيه من طريق خفي؛ ليرتفع الكلام إلى مرتبة أعلى في البلاغة، وليجعل لك من «التشبيه الضمني» دليلًا على دعواه، فإنه ادعى أنه لعلو منزلته ينحدر المال من يديه، وأقام على ذلك برهانًا.

فقال: «وكيف تمسك ماء قنة الجبل؟»

أو يقول:

جرى النهر حتى خلته منك أنعُمًا　　　تُساق بلا ضنٍّ وتُعطَى بلا منٍّ[١٦]

فيقلب التشبيه؛ زيادة في المبالغة، وافتتانًا في أساليب الإجادة، ويشبه ماء النهر بنعم الممدوح بعد أن كان المألوف أن تُشبه النعم بالنهر الفياض.

أو يقول:

كأنه حين يعطي المال مبتسمًا　　　صوب الغمامة تهمي وهي تأتلق[١٧]

فيعمد إلى التشبيه المركب، ويعطيك صورة رائعة، تمثل لك حالة الممدح وهو يجود، وابتسامة السرور تعلو شفتيه.

أو يقول:

جادت يد الفتح والأنداء باخلة　　　وذاب نائله والغيث قد جمدا

فيضاهي بين جود الممدوح والمطر، ويدعي أنَّ كرم ممدوحه لا ينقطع إذا انقطعت الأنواء، أو جمد القطر.

أو يقول:

قد قلت للغيم الركام ولَجَّ في　　　إبراقه وألَحَّ في إرعاده[١٨]

لا تعرضن لجعفر متشبهًا　　　بندى يديه فلست من أنداده

فيصرح لك في جلاء، وفي غير خشية — بتفضيل جود صاحبه على جود الغيم، ولا يكتفي بهذا، بل تراه ينهى السحاب في صورة تهديد أن يحاول التشبه بممدوحه؛ لأنه ليس من أمثاله ونظرائه.

أو يقول:

وأقبل يمشي في البساط فما درى   إلى البحر يسعى أم إلى البدر يرتقي

يصف حال رسول الروم داخلًا على سيف الدولة، فينزع في وصف الممدوح بالكرم، إلى الاستعارة التصريحية، والاستعارة كما علمت مبنية على تناسي التشبيه، والمبالغة فيها أعظم، وأثرها في النفوس أبلغ.

أو يقول:

دعوت نداه دعوة فأجابني   وعلَّمني إحسانه كيف آمله

فيشبِّه ندى ممدوحه وإحسانه «بإنسان» ثم يحذف المشبه به، ويرمز إليه بشيء من لوازمه، وهذا ضرب آخر من ضروب المبالغة التي تُساق الاستعارة لأجلها.

أو يقول:

ومن قصد البحر استقل السواقيا

فيرسل العبارة كأنها مثل، ويصوِّر لك أنَّ من قصد ممدوحه استغنى عمَّن هو دونه، كما أنَّ قاصد البحر لا يأبه للجداول، فيعطيك استعارة تمثيلية لها روعة، وفيها جمال، وهي فوق ذلك تحمل برهانًا على صدق دعواه، وتؤيِّد الحال الذي يدَّعيها.

أو يقول:

ما زلت تتبع ما تُولي يدًا بيد   حتى ظننت حياتي من أياديكا

فيعدل عن التشبيه والاستعارة إلى «المجاز المرسل» ويطلق كلمة «يد» ويريد بها النعمة؛ لأن اليد آلة النعم وسببها.

أو يقول:

أعاد يومك أيامي لنضرتها   واقتصَّ جودك من فقري وإعساري

فيسند الفعل إلى اليوم وإلى الجود على طريقة المجاز العقلي.

أو يقول:

ما جازَه جود ولا حلَّ دونه ولكن يسير الجود حيث يسير

فيأتي بكناية عن نسبة الكرم إليه، بادِّعاء أن الجود يسير معه دائمًا؛ لأنه بدل أن يحكم بأنه كريم ادعى أن الكرم يسير معه أينما سار.

ولهذه الكناية من البلاغة، والتأثير في النفس، وحسن تصوير المعنى — فوق ما يجده السامع في غيرها من بعض ضروب الكلام.

فأنت ترى أنه من المستطاع التعبير عن وصف إنسان بالكرم بأربعة عشر أسلوبًا، كلٌّ له جماله، وحسنه، وبراعته، ولو نشاء لأتينا بأساليب كثيرة أخرى في هذا المعنى؛ فإن للشعراء ورجال الأدب افتتانًا وتوليدًا للأساليب والمعاني لا يكاد ينتهي إلى حد، ولو أردنا لأوردنا لك ما يقال من الأساليب المختلفة المناحي في صفات أخرى: كالشجاعة، والإباء، والحزم وغيرها، ولكنَّا لم نقصد إلى الإطالة، ونعتقد أنك عند قراءتك الشعر العربي والآثار الأدبية ستجد بنفسك هذا ظاهرًا، وستدهش للمدى البعيد الذي وصل إليه العقل الإنساني في التصوير البلاغي، والإبداع في صوغ الأساليب. (عن البلاغة الواضحة بتصرف)

هوامش

(١) توضيح المقام أنه إذا أُطلق اللفظ، وكان المراد منه غير معناه، فلا يخلو:

إما أن يكون معناه الأصلي مقصودًا أيضًا؛ ليكون وسيلة إلى المراد.

وإما ألا يكون مقصودًا، فالأول الكناية، والثاني المجاز.

فالكناية: هي أن يريد المتكلم إثبات معنًى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له، ولكن يجيء إلى معنًى هو مرادفه، فيومئ به إلى المعنى الأول، ويجعله دليلًا عليه.

أو الكناية: هي اللفظ الدال على ما له صلة بمعناه الوضعي؛ لقرينة لا تمنع من إرادة الحقيقة «كفلان نقي الثوب»؛ أي: مبرأ من العيب، وكلفظ «طويل النجاد» المراد به طول القامة، فإنه يجوز أن يراد منه طول النجاد؛ أي علاقة السيف أيضًا، فهي تخالف المجاز من جهة إمكان إرادة المعنى الحقيقي مع إرادة لازمة، بخلاف المجاز فإنه لا يجوز فيه إرادة المعنى الحقيقي لوجود القرينة المانعة من إرادته.

ومثل ذلك قولهم: «كثير الرماد» يعنون به أنه كثير القرى والكرم.
وقول الحضرمي:

قد كان تعجب بعضهن براعتي   حتى رأين تنحنحي وسعالي

كنى عن كبر السن بتوابعه، وهي التنحنح والسعال.
وقولهم: «المجد بين ثوبيه والكرم بين برديه».
وقوله:

إن السماحة والمروءة والندى   في قبة ضربت على ابن الحشرج

وقوله:

وما بك فيَّ من عيب فإني   جبان الكلب مهزول الفصيل

فإن «جبان الكلب» كناية، وكذا «مهزول الفصيل»، والمراد منها ثبوت الكرم، وكل واحدة على حدتها تؤدي هذا المعنى.
وقد جاء عن العرب كنايات كثيرة؛ كقوله:

بيض المطابخ لا تشكو إماؤهمو   طبخ القدور ولا غسل المناديل

ويروى أن خلافًا وقع بين بعض الخلفاء ونديم له في مسألة، فاتفقا على تحكيم بعض أهل العلم، فأُحضر، فوجد الخليفة مخطئًا، فقال: القائلون بقول أمير المؤمنين أكثر (يريد الجهال)، وإذا كان الرجل أحمق قيل: نعته لا ينصرف.

ونظر البديع الهمذاني إلى رجل طويل بارد فقال: قد أقبل ليل الشتاء. ودخل رجل على مريض يعوده وقد اقشعر من البرد فقال: ما تجد «فديتك؟» قال: أجدك (يعني البرد). وإذا كان الرجل ملولًا قيل: هو من بقية قوم موسى. وإذا كان ملحدًا قيل: قد عبر (يريدون جسر الإيمان). وإن كان يسيء الأدب في المؤاكلة قيل: «تسافر يده على الخوان ويرعى أرض الجيران.» ويقال عمن يُكثر الأسفار: «فلان لا يضع العصا عن عاتقه.»

وجاء في القرآن الكريم: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ فإنه كنى الغيبة بأكل الإنسان لحم الإنسان، وهذا شديد المناسبة؛ لأن الغيبة إنما هي ذكر مثالب الناس، وتمزيق أعراضهم، وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه.

ومن أمثال العرب قولهم: «ليست لفلان جلد النمر وجلد الأرقم» كناية عن العداوة. وكذلك قولهم: «قلبت له ظَهْر الْمِجَنِّ» كناية عن تغيير المودة. ويقول القوم: «فلان بريء الساحة» إذا برءوه من تهمة، و«رحب الذراع» إذا كان كثير المعروف، و«طويل الباع في الأمر» إذا كان مقتدرًا فيه، و«قوي الظهر» إذا كثر ناصروه.

ومن ذلك أن «المنصور» كان في بستان له أيام محاربته «إبراهيم بن عبد الله بن الحسن» فنظر إلى شجرة خلاف فقال للربيع: ما هذه الشجرة؟ فقال: طاعة يا أمير المؤمنين. فتفاءل المنصور به، وعجب من ذكائه. ومثل ذلك أن رجلًا مر في صحن دار «الرشيد» ومعه حزمة خيزران، فقال الرشيد للفضل بن الربيع: ما ذاك؟ فقال: «عروق الرماح» يا أمير المؤمنين. وكره أن يقول «الخيزران» لموافقته اسم «والدة الرشيد». ومن كلامهم: «فلان طويل الذيل» يريدون أنه غني حسن الحال.

وعليه قول الحريري:

إن الغريب الطويل الذيل ممتهن　　　فكيف حال غريب ما له قوت

وكذلك قولهم: «فلان طاهر الثوب»؛ أي: منزه عن السيئات، و«فلان دنس الثوب»؛ أي: متلوث بها.

قال امرؤ القيس:

ثياب بني عوف طهارى نقية　　　وأوجبهم عند المشاهد غرات

ويقولون: «فلان غمر الرداء» إذا كان كثير المعروف عظيم العطايا. قال كثير:

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكًا　　　غلقت لضحكته رقاب المال

ومن الكنايات اللطيفة مما ذكرها الأدباء في الشيب والكبر، فقالوا: «عَرَضَتْ لفلان فترة» و«عرض له ما يمحو ذنوبه» و«أقمر ليله» و«نور غصن شبابه» و«فضض الزمان أبنوسه» و«جاءه النذير» و«قرع ناجذ الحلم» و«ارتاض بلجام الدهر» و«أدرك زمان الحنكة» و«رفض غرة الصبا» و«لبى دواعي الحجى».

ومن كناياتهم عن الموت: «استأثر الله به» و«أسعده بجواره» و«نقله إلى دار رضوانه ومحل غفرانه» و«اختار له النُّقْلة من دار البَوَار إلى دار الأبرار».

ومن الكنايات أيضًا أن يقام وصف الشيء مقام اسمه، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ يعني السفينة، فوضع صفتها موضع تسميتها. كما ورد ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ يعني الخيل.

وقال بعض المتقدمين:

سألت قتيبة عن أبيها صحبه   في الروح هل ركب الأغر الأشقرا

يعني: هل قتل؛ لأن الأغر الأشقر وصف الدم، فأقامه مقام اسمه.

(٢) قصدت الخنساء وصف صخر بطول القامة والشجاعة، فعدلت عن التصريح بما أرادت إلى الإشارة إليه بطول النجاد؛ لأنه يلزم من طول حمالة السيف طول قامة صاحبه، أو طول القامة يلزم الشجاعة غالبًا. كما أرادت وصفه بالعزة والسيادة فلم تصرح بقصدها، وصرحت بما يستدعي ما أرادت فقالت: «رفيع العماد» فرفعة العماد تستلزم أنه عظيم المكانة في قومه، عالي الشأن بين عشيرته؛ لجريان العادة بذلك. وعمدت إلى وصفه بالجود والكرم فقالت: «كثير الرماد» تُشير إلى كثرة الإيقاد للإطعام، وهذا يلزم الكرم.

(٣) الضاربين: منصوب بأمدح المحذوف. والأبيض: السيف. والمخذم: بكسر الميم وسكون الخاء وفتح الذال المعجمتين. والأضغان: جمع ضغن، وهو ما انطوى عليه الصدر من الحقد. كنى الشاعر بمجامع الأضغان عن القلوب، وهي لا كناية صفة، ولا كناية نسبة، بل هي كناية موصوف.

(٤) أي يكون المكني عنه فيها ذاتًا ملازمة للمعنى المفهوم من الكلام.

(٥) الأرقم: الحية فيها سواد وبياض.

(٦) المجن: الترس، وقلب له ظهر المجن مثل يُضرب لمن كان لصاحبه على مودة ورعاية، ثم حال عن العهد وتغيرت أحواله.

(٧) عريض الوساد؛ أي: طويل العنق إلى درجة الإفراط، وهذا مما يستدل به على البلاهة وقلة العقل.

(٨) الغمم: غزارة الشعر، حتى تضيق منه الجبهة أو القفا، وكان يزعم العرب أن ذلك دليل على الغباوة.

(٩) رملة: اسم امرأة، والقُلب — بالضم: السِّوار.

(١٠) الجرذان: جمع جرذ، وهو ضرب من الفأر.

(١١) بلقيس — بكسر الباء: ملكة سبأ. وسبأ: عاصمة قديمة لبلاد اليمن.

(١٢) الأعقاب: جمع عقب، وهو مؤخَّر القدم. والكلوم: الجراح. يقول: نحن لا نولي فنجرح في ظهورنا فتقطر دماء كلومنا على أعقابنا، ولكنا نستقبل السيوف بوجوهنا، فإن جرحنا قطرت الدماء على أقدامنا.

(١٣) الشادن: ولد الغزال. والضيغم: الأسد. أراد بالباكي بأجفان الشادن المرأة الحسناء، وبالباكي بأجفان الضيغم الرجل الشجاع، يقول: كم من نساء ورجال بكوا على فراقي وجزعوا لارتحالي!

(١٤) القرط: ما يعلق في شحمة الأذن. والحسام: السيف القاطع. والمصمم: الذي يصيب المفاصل ويقطعها. يقول: لم تكن المرأة الحسناء بأجزع على فراقي من الرجل الشجاع.

(١٥) ذات عرق: موضع بالبادية، وهو مكان إحرام أهل العراق.

(١٦) الضن: البخل، والمن: الامتنان بتعداد الصنائع.

(١٧) تهمي: تسيل، وتأتلق: تلمع.

(١٨) الغيم: الركام المتراكم. ولجَّ وألحَّ كلاهما بمعنى استمر.

علم البديع

البديع لغة: المخترع الموجد على غير مثال سابق.

وهو مأخوذ ومشتق من قولهم: بدع الشيء وأبدعه، اخترعه لا على مثال.[١]

واصطلاحًا: هو علم يُعْرف به الوجوه[٢] والمزايا التي تزيد الكلام حُسنًا وطلاوة، وتكسوه بهاء ورونقًا، بعد مطابقته لمقتضى الحال، مع وضوح دلالته على المراد لفظًا ومعنًى.

وواضعه «عبد الله بن المعتز العبَّاسي» المتوفى سنة ٢٧٤ هجرية.

ثم اقتفى أثره في عصره «قدامة بن جعفر الكاتب» فزاد عليها.

ثم ألف فيه كثيرون «كأبي هلال العسكري، وابن رشيق القيرواني، وصفي الدين الحلي، وابن حجَّة الحموي» وغيرهم ممَّن زادوا في أنواعه، ونظموا فيها قصائد تُعرف «بالبديعيَّات».

وفي هذا العلم بابان وخاتمة.

الباب الأول

في المحسنات المعنوية

(١) التورية

التَّورية[١] لغة: مصدر ورَّيت الخبر تورية إذا سترته، وأظهرت غيره.

واصطلاحًا: هي أن يذكر المتكلم لفظًا مفردًا له معنيان، أحدهما قريب غير مقصود ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد مقصود، ودلالة اللفظ عليه خَفِيَّة، فيتوهَّم السَّامع أنه يريد المعنى القريب، وهو إنَّما يريد المعنى البعيد بقرينة تشير إليه ولا تُظهره، وتستره عن غير المتيقظ الفطِن، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ أراد بقوله: «جرحتم» معناه البعيد، وهو ارتكاب الذنوب، ولأجل هذا سُمِّيت التَّورية «إيهامًا وتخييلًا».

وكقول سراج الدين الورَّاق:

أصون أديم وجهي عن أناس	لقاء الموت عندهم الأديب
ورب الشِّعر عندهم بغيض	ولو وافى به لهم «حبيب»

وكقوله:

أبيات شعرك كالقصور	ولا قصور بها يعوق
ومن العجائب لفظها	حرٌّ ومعناها «رقيق»

وكقوله:

برغم شبيبٍ فارق السيفُ كفَّه   وكانا على العِلات يصطحبان
كأنَّ رقابَ الناس قالت لسيفه   رفيقك قَيْسِيٌّ وأنت يَمَاني[٢]

(٢) الاستخدام

الاستخدام: هو ذكر لفظ مشترك بين معنيين، يُراد به أحدهما، ثم يُعاد عليه ضمير أو إشارة بمعناه الآخر، أو يُعاد عليه ضميران يُراد بثانيهما غير ما يُراد بأولهما.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أريد أولًا بالشهر «الهلال» ثم أُعيد عليه الضمير أخيرًا بمعنى أيام رمضان.

وكقوله معاوية بن مالك:

إذا نزل السماء بأرض قوم   رعيناه وإن كانوا غضابا

أراد بالسماء «المطر»، وبضميره في «رعيناه» «النَّبات»[٣] وكلاهما معنًى مجازي للسماء.

والثاني: كقول البحتري:

فسقى الغضا والسَّاكنيه وإن هُمو   شبُّوه بين جوانحي وضلوعي

الغضا: شجر بالبادية، وضمير ساكنيه أولًا راجع إلى الغضا باعتبار «المكان»، وضمير شبوه عائد ثانيًا إلى الغضا «بمعنى النار الحاصلة من شجر الغضا» وكلاهما مجاز للغضا.

(٣) الاستطراد

الاستطراد: هو أن يخرج المتكلم من الغرض الذي هو فيه إلى غرض آخر لمناسبة بينهما، ثم يرجع فينتقل إلى إتمام الكلام الأول، كقول السموءل:

وإنا لقوم لا نرى القتل سبة   إذا ما رأته عامر وسلولُ
يقرب حب الموت آجالنا لنا   وتكرهه آجالهم فتطول

فسياق القصيدة للفخر بقومه، وانتقل منه إلى هجو قبيلتي «عامر وسلول»، ثم عاد إلى مقامه الأول وهو الفخر بقومه، وكقوله:

لنا نفوس لنيل المجد عاشقة   فإن تسلت أسلناها على الأسل
لا ينزل المجد إلا في منازلنا   كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

(٤) الافتنان

الافتنان: هو الجمع بين فنَّين مختلفين: «كالغزل، والحماسة» و«المدح، والهجاء» و«التعزية والتهنئة» كقول عبد الله بن همام السلولي — جامعًا بين التعزية والتهنئة — حين دخل على يزيد، وقد مات أبوه معاوية، وخلفه هو في الملك: «آجرك الله على الرَّزية، وبارك لك في العطية، وأعانك على الرعية؛ فقد رُزئتَ عظيمًا، وأُعطيت جسيمًا، فاشكر الله على ما أُعطيت، واصبر على ما رُزيت، فقد فَقدت الخليفة، وأُعطيت الخلافة، ففارقت خليلًا ووُهِبْتَ جليلًا.

اصبر يزيد فقد فارقت ذا ثقة   واشكر حباء الذي بالملك أصفاك
لا رُزء أصبح في الأقوام نعلمُه   كما رُزئت ولا عُقبى كعقباك»

وكقول عنترة يُخاطب عبلة:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل   مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها   لمعت كبارق ثغرك المتبسم

(٥) الطباق [٤]

الطباق: هو الجمع بين لفظين متقابلين في المعنى، وهما قد يكونان اسمين، نحو قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾.

أو فعلين، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾، وكقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾.

أو حرفين، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.
أو مختلفين، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾. ٥
ونحو قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾.
فيكون تقابل المعنيين وتخالفهما مما يزيد الكلام حسنًا وطرافة.

(٦) المقابلة

المقابلة: هي أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ وكقوله تعالى: ﴿يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾.

وقال عليه الصلاة والسلام للأنصار: «إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلُّون عند الطمع.» وقال خالد بن صفوان يصف رجلًا: ليس له صديق في السر ولا عدو في العلانية.
وكقوله:

فتًى كان فيه ما يسر صديقه ولكن فيه ما يسوء الأعاديا

وكقوله:

وباسط خير فيكم بيمينه وقابض شر عنكم بشماله

وكقوله:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

وكقوله:

يا أُمَّة كان قُبح الجور بسخطها دهرًا فأصبح حُسن العدل يرضيها

(٧) مراعاة النظير[٦]

مراعاة النظير: هي الجمع بين أمرين أو أمور متناسبة، لا على جهة التضاد، وذلك إما بين اثنين، نحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وإما بين أكثر، نحو قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾.

ويلحق بمراعاة النظير ما بُني على المناسبة في «المعنى» بين طرفي الكلام، يعني: أن يُختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى، نحو قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

فإن «اللطيف» يناسب عدم إدراك الأبصار له، و«الخبير» يناسب إدراكه سبحانه وتعالى للأبصار.

وما بُني على المناسبة في «اللفظ» باعتبار معنًى له غير المعنى المقصود في العبارة، نحو قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾، فإن المراد «بالنجم» هنا النبات، فلا يناسب «الشمس» و«القمر» ولكن لفظه يناسبهما باعتبار دلالته على الكواكب، وهذا يقال له: «إيهام التناسب» كقوله:

كأن الثريا عُلقت في جبينها ... وفي نحرها الشعرى وفي خدِّها القمر

والطل في سلك الغضون كلؤلؤ ... رطب يصافحه النسيم فيسقط
والطير يقرأ والغدير صحيفة ... والريح تكتب والغمام ينقط

(٨) الإرصاد

الإرصاد: هو أن يذكر قبل الفاصلة «من الفقرة، أو القافية من البيت» ما يدل عليها إذا عرف الروي، نحو قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾.

ونحو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٧]

وكقول الشاعر:

أحلت دمي من غير جُرم وحرَّمت بلا سبب عند اللقاء كلامي
فليس الذي حللته بمحللٍ وليس الذي حرَّمته بمحرم

ونحو:
إذا لم تستطع شيئًا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وقد يُستغنى عن معرفة الرويِّ، نحو قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

(٩) الإدماج

الإدماج: هو أن يُضمَّن كلام قد سيق لمعنًى، معنًى آخر لم يصرح به كقول المتنبي:

أقلِّب فيه أجفاني كأني أعد بها على الدهر الذنوبا

ساق الشاعر هذا الكلام «أصالة» لبيان طول الليل و«أدمج» الشكوى من الدهر في وصف الليل بالطول.

(١٠) المذهب الكلامي

المذهب الكلامي: هو أن يورد المتكلم على صحة دعواه حُجَّة قاطعة مسلمة عند المخاطب، بأن تكون المقدمات بعد تسليمها مستلزمة للمطلوب، كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ واللازم وهو الفساد باطل، فكذا الملزوم وهو تعدد الآلهة باطل، وليس أدل على ذلك من الحقيقة والواقع.

وكقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾، ونحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: وكل ما هو أهون عليه فهو أدخل تحت الإمكان، فالإعادة ممكنة.

وسمِّي هذا النوع «بالمذهب الكلامي»؛ لأنه جاء على طريقة «علم الكلام والتوحيد» وهو عبارة عن إثبات «أصول الدين» بالبراهين العقلية القاطعة.

(١١) حسن التعليل

حُسن التعليل:[٨] هو أن ينكر الأديب — صراحة أو ضمنًا — علة الشيء المعروفة، ويأتي بعلة أخرى أدبية طريفة، لها اعتبار لطيف، ومشتملة على دقة النظر، بحيث تُناسب الغرض الذي يرمي إليه.

يعني أن الأديب يدعي لوصف علة مناسبة غير حقيقية، ولكن فيها حسن وطرافة، فيزداد بها المعنى المراد الذي يرمي إليه جمالًا وشرفًا، كقول المعري في الرثاء:

وما كلفة البدر المنير قديمة ولكنها في وجهه أثر اللطم

يقصد أن الحزن على «المرثي» شمل كثيرًا من مظاهر الكون؛ فهو لذلك يدَّعي أن كلفة البدر (وهي ما يظهر على وجهه من كدرة) ليست ناشئة عن سبب طبيعي، وإنما هي حادثة من «أثر اللطم على فراق المرثي». ومثله قول الشاعر الآخر:

أما ذكاء فلم تصفَرَّ إذا جنحت إلا لفرقة ذاك المنظر الحسن

يقصد أن الشمس لم تصفر عند الجنوح إلى المغيب للسبب المعروف، ولكنها «اصفرت مخافة أن تفارق وجه الممدوح». ومثله قول الشاعر الآخر:

ما قصر الغيث عن مصر وتربتها طبعًا ولكن تعداكم من الخجل
ولا جرى النيل إلا وهو معترف بسبقكم فلذا يجري على مهل

يُنكر هذا الشاعر الأسباب الطبيعية لقلة المطر بمصر، ويلتمس لذلك سببًا آخر، وهو «أن المطر يخجل أن ينزل بأرض يعمها فضل الممدوح وجوده»؛ لأنه لا يستطيع مباراته في الجود والعطاء، ولا بد في العلة أن تكون ادعائية، ثم إن الوصف أعم من أن يكون ثابتًا فيقصد بيان علته، أو غير ثابت فيراد إثباته.

فالأول: (أ) وصف ثابت غير ظاهر العلة، كقوله:

بين السيوف وعينيها مشاركة من أجلها قيل للأجفان أجفان

وقوله:

لم يحك نائلك السحاب وإنما حُمَّتْ به فصبيبها الرُّحْضَاء[٩]

وقوله:

زعم البنفسج أنه كعذاره حُسْنًا، فسلوا من قفاه لسانه

فخروج ورقة البنفسج إلى الخلف لا علة له، لكنه ادعى أن علته الافتراء على المحبوب.

(ب) أو وصف ثابت، ظاهر العلة، غير التي تذكر، كقول المتنبي:

ما به قتلُ أعاديه ولكن يتقي إخلاف ما ترجو الذِّئاب

فإن قتل الأعادي عادة للملوك؛ لأجل أن يسلموا من أذاهم وضرهم، ولكن «المتنبي» اخترع لذلك سببًا غريبًا، فتخيل أن الباعث له على قتل أعاديه لم يكن إلا ما اشتهر وعُرف به، حتى لدى الحيوان الأعجم من «الكرم الغريزي، ومحبته إجابة طالب الإحسان» ومن ثم فتك بهم؛ لأنه علم أنه إذا غدا للحرب رجت الذئاب أن يتسع عليها رزقها، وتنال من لحوم أعدائه القتلى، وما أراد أن يخيب لها مطلبًا.

والثاني: وصف غير ثابت، وهو:

(أ) إما ممكن، كقول مسلم بن الوليد:

يا واشيًا حسنت فينا إساءته نجَّى حذارك إنساني من الغرق

فاستحسان إساءة الواشي ممكن، ولكنه لما خالف الناس فيه عقبه بذكر سببه، وهو أن حذاره من الواشي منعه من البكاء، فسلم إنسان عينه من الغرق في الدموع.

(ب) وإما غير ممكن، كقول الخطيب القزويني:

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

فقد ادعى الشاعر أن الجوزاء تريد خدمة الممدوح، وهذه صفة غير ممكنة، ولكنه عللها بعلة طريفة ادعاها أيضًا ادعاءً أدبيًّا مقبولًا؛ إذ تصور أن «النجوم التي تحيط بالجوزاء إنما هي نطاق شدته حولها على نحو ما يفعل الخدم؛ ليقوموا بخدمة الممدوح».[١٠]

(١٢) التجريد

التجريد لغة: إزالة الشيء عن غيره.

واصطلاحًا: أن ينتزع المتكلم من أمر ذي صفة أمرًا آخر مثله في تلك الصفة؛ مبالغة في كمالها في المنتزع منه، حتى إنه قد صار منها بحيث يمكن أن ينتزع منه موصوف آخر بها. وأقسام التجريد كثيرة:

(أ) منها: ما يكون بواسطة مِن «التجريدية» كقولك: «لي من فلان صديق حميم»؛ أي: بلغ فلان من الصداقة حدًّا صح معه أن يستخلص منه آخر مثله فيها.

ونحو:

ترى منهمو الأسد الغضاب إذا سطوا وتنظر منهم في اللقاء بدورًا

(ب) ومنها: ما يكون بواسطة الباء «التجريدية» الداخلة على المنتزع منه، نحو قولهم: «لئن سألت فلانًا لتسألن به البحر» بالغ في اتصافه بالسماحة، حتى انتزع منه بحرًا فيها.

(ج) ومنها: ما لا يكون بواسطة، نحو: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾.

(د) ومنها: ما يكون بطريق الكناية، كقول الأعشي:

يا خير من ركب المطي ولا يشرب كأسًا بكف من بخلا[١١]

(١٣) المشاكلة

المشاكلة: هي أن يذكر الشيء بلفظ غيره؛ لوقوعه في صحبته كقوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ المراد: ولا أعلم ما عندك، وعبر بالنفس «للمشاكلة».

ونحو قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾؛ أي أهملهم، ذكر الإعمال هنا بلفظ النسيان لوقوعه في صحبته.

ومن ذلك ما حكي عن أبي الرقمع أن أصحابًا له أرسلوا يدعونه إلى الصبوح في يوم بارد، ويقولون له: ماذا تريد أن نصنع لك طعامًا؟ وكان فقيرًا ليس له كسوة تقيه البرد، فكتب إليهم يقول:

أصحابنا قصدوا الصبوح بسحرة وأتى رسولهم إليَّ خصيصا
قالوا اقترح شيئًا نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبة وقميصا[١٢]

وكقوله:

مَنْ مُبلغ أفناء يعرب كلها أني بنيت الجار قبل المنزل

وكقوله:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

(١٤) المزاوجة

المزاوجة: هي أن يُزاوج المتكلم بين معنيين في الشرط والجزاء، بأن يرتب على كل منهما معنًى رُتب على الآخر، كقوله:

إذا ما نهى الناهي فلج بي الهوى أصاخت إلى الواشي فلج بها الهجر

زاوج بين النهي والإصاخة في الشرط والجزاء بترتيب اللجاج عليهما.
وكقوله:

إذا احتربت يومًا ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

زاوج[١٣] بين الاحتراب — أي التحارب — وبين تذكر القربى في الشرط والجزاء، بترتيب الفيض عليهما.

(١٥) الطي والنشر

الطي والنشر: أن يذكر متعدد، ثم يذكر ما لكل من أفراده شائعًا من غير تعيين؛ اعتمادًا على تصرف السامع في تمييز ما لكل واحد منها، ورده إلى ما هو له، وهو نوعان:

(أ) إما أن يكون النشر فيه على ترتيب الطي، نحو قوله تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾، فقد جمع بين الليل والنهار، ثم ذكر: «السكون لليل، وابتغاء الرزق للنهار» على الترتيب.

وكقوله:

عيون وأصداغ وفرع وقامة   وخال ووجنات وفرق ومرشف
سيوف وريحان وليل وبانة   ومسك وياقوت وصبح وقرقف

وكقوله:

فعل المدام ولونها ومذاقها   في مقلتيه ووجنتيه وريقه

(ب) وإما أن يكون النشر على خلاف ترتيب الطي، نحو: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ ذكر ابتغاء الفضل للثاني، وعلم الحساب للأول، على خلاف الترتيب.

وكقوله:

ولحظه ومحياه وقامته   بدر الدُّجا وقضيب البان والرَّاح

فبدر الدجا راجع إلى «المحيا» الذي هو الوجه، و«قضيب البان» راجع إلى «القامة»، والراح راجع إلى «اللحظ»؛ ويسمى اللف والنشر أيضًا.

(١٦) الجمع

الجمعُ: هو أن يجمع المتكلم بين متعدد، تحت حكم واحد، وذلك:

(أ) إما في اثنين، نحو قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، ونحو قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.

(ب) وإما في أكثر، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾.

وكقوله:

إن الشباب والفراغ والجدهْ　　　مفسدة للمرء أي مفسدهْ

وكقوله:

آراؤه وعطاياه ونعمته　　　وعفوه رحمة للناس كلهم

وكقوله:

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم　　　في الحادثات إذا دجون نجوم

(١٧) التفريق

التفريق: أن يفرق بين أمرين من نوع واحد في اختلاف حكمهما، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾.

وكقول الشاعر:

ما نوال الغمام وقت ربيع　　　كنوال الأمير يوم سخاء
فنوال الأمير بدرة عين　　　ونوال الغمام قطرة ماء

وكقوله:

من قاس جدواك يومًا　　　بالسحب أخطأ مدحك
السحب تُعطي وتبكي　　　وأنت تُعطي وتضحك

وكقوله:

من قاس جدواك بالغمام فما　　　أنصف في الحكم بين شكلين
أنت إذا جدت ضاحك أبدا　　　وهو إذا جاد دامع العين

وكقوله:

ورد الخدود أرق من	ورد الرياض وأنعمُ
هذاك تنشقه الأنو	ف وذا يُقبله الفمُ

(١٨) التقسيم

التقسيم: هو أن يُذكر متعدد، ثم يضاف إلى كل من أفراده ما له على جهة التعيين، نحو: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾.

وقد يطلق التقسيم على أمرين آخرين:

أولهما: أن تستوفى أقسام الشيء، نحو قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾.

وثانيهما: أن تُذكر أحوال الشيء، مضافًا إلى كل منها ما يليق به، كقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾.

وكقوله:

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ	كأنهمو من طول ما التثموا مرد
ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دُعوا	كثير إذا شدُّوا قليل إذا عُدُّوا

وكقوله:

ولا يقيم على ضيم يُراد به	إلا الأذلان عيرُ الحيِّ والوتدُ
هذا على الخسف مربوط برمته	وذا يشج فلا يرثي له أحدُ

(١٩) الجمع مع التفريق

الجمعُ مع التفريق: أن يجمع المتكلم بين شيئين في حكم واحد، ثم يفرقُ بين جهتي إدخالهما، كقوله تعالى: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

وكقوله:

فوجهك كالنار في ضوئها وقلبي كالنار في حرها

(٢٠) الجمع مع التقسيم

الجمع مع التقسيم: أن يجمع المتكلم بين شيئين أو أكثر تحت حكم واحد، ثم يُقسم ما جمع، أو يقسم أولًا، ثم يجمع.

فالأول: نحو: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾.

وكقول المتنبي:

حتى أقام على أرباض خرشنة[١٤] تشقى به الروم والصلبان والبيع
للرق ما نسلوا والقتل ما ولدوا والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا

ونحو:

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ[١٥] كأنهم من طول ما التثموا مردُ

ونحو:

ثقال إذا لاقوا، خفاف إذا دعوا كثير إذا شدوا قليل إذ عُدوا

والثاني: كقول سيدنا حسان:

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع

(٢١) المبالغة

المبالغة: هي أن يدعي المتكلم لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حدًّا مستبعدًا، أو مستحيلًا. وتنحصر في ثلاثة أنواع:

(١) تبليغ: إن كان ذلك الادعاء للوصف من الشدة أو الضعف ممكنًا عقلًا وعادة، نحو قوله تعالى: ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾.
وكقوله في وصف فرس:

إذا ما سابقتها الريح فرت وألقت في يد الريح الترابا

(٢) وإغراق: إن كان الادعاء للوصف من الشدة أو الضعف ممكنًا عقلًا، لا عادة، كقوله:

ونكرم جارنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا

(٣) وغلو:[١٦] إن كان الادعاء للوصف من الشدة أو الضعف مستحيلًا عقلًا وعادة، كقوله:

تكاد قَسِيُّه من غير رامٍ تمكن في قلوبهم النبالا

(٢٢) المغايرة

المغايرة: هي مدح الشيء بعد ذمه أو عكسه، كقول الحريري في مدح الدينار: «أكرم به أصفر راقت صفرته» بعد ذمه في قوله: «تبًّا له من خادع ممارق».

(٢٣) تأكيد المدح بما يشبه الذم

تأكيد المدح بما يشبه الذم نوعان:

الأول: أن يُستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها فيها، كقوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب[١٧]

الثاني: أن يُثبت لشيء صفة مدح، ثم يؤتى بعدها بأداة استثناء[18] تليها صفة مدح أخرى «والنوع الأول أبلغ» كقوله:

ولا عيب فيه غير أني قصدته   فأنستني الأيام أهلًا وموطنا

وكقوله:

فتًى كملت أوصافه غير أنه   جواد فما يُبقي من المال باقيا

وقد تقوم «لكن» مقام أداة الاستثناء في هذا النوع.

(٢٤) تأكيد الذم بما يشبه المدح

تأكيد الذم بما يشبه المدح[19] ضربان أيضًا:

الأول: أن يُستثنى من صفة مدح منفية عن الشيء، صفة ذم بتقدير دخولها فيها، كقوله:

خلا من الفضل غير أني   أراه في الحمق لا يُجارَى

ونحو: لا فضل للقوم إلا أنهم لا يعرفون للجار حقه.
ونحو: الجاهل عدو نفسه إلا أنه صديق السفهاء.
ونحو: فلان ليس أهلًا للمعروف، إلا أنه يسيء إلى من يُحسن إليه.

الثاني: أن يثبت لشيء صفة ذم، ثم يؤتى بعدها بأداة استثناء[20] تليها صفة ذم أخرى، نحو: «فلان حسود إلا أنه نمام». وكقوله:

هو الكلب إلا أن فيه ملالة   وسوء مراعاة وما ذاك في الكلب

وكقوله:

لئيم الطباع سوى أنه   جبان يهوي عليه الهوان

(٢٥) التوجيه

التوجيه: هو أن يؤتى بكلام يحتمل معنيين متضادين على السواء «كهجاء ومديح» و«دعاء للمخاطب أم دعاء عليه» ليبلغ القائل غرضه بما لا يُمسك عليه، كقول بشار في خياطٍ أعور «اسمه عمرو»:

خاط لي عمرو قباء   ليت عينيه سواء

فإنَّ دعاءه لا يُعلم هل له أم عليه؟
وقوله:

كلما لاح وجهه بمكان   كثرت زحمة العيون إلى رؤيته

ويُحكى أن محمدَ بن حزم هنأ «الحسن بن سهل» باتصال بنته «بوران» التي تنسب إليها الأطبخة البورانية «بالخليفة المأمون العباسي» مع من هنأه، فأثابهم، وحرمه، فكتب إليه: إن أنت تماديت على حرماني قلتُ فيك «بيتًا لا يُعرف أهو مدح أم ذم». فاستحضره وسأله؟ فأقرَّ، فقال الحسن: لا أُعطيك أو تفعل. فقال:

بارك الله للحسن   ولبورن في الختَنْ
يا إمام الهدى ظفر   ت ولكن ببنت مَنْ؟!

فلم يدر: بـ «بنت مَنْ؟» أفي العظمة وعلوِّ الشأن ورفعة المنزلة أم في الدناءة والخِسَّة؟ فاستحسن الحسن منه ذلك.

والخلاصة أن التوجيه نوعان:

الأول: أن يكون الكلام بحيث يصلح لأن يراد به معنيان متضادان على السواء.

والثاني: أن يكون الكلام بحيث يشتمل على مجموعة، أو مجموعات من مصطلحات العلوم، أو الفنون، أو الأسماء المتلائمة.

(٢٥-١) الفرق بين التورية والتوجيه

(أ) التورية: تكون في لفظ واحد.
وأمَّا التوجيه: فيكون في تركيب، أو جملة أسماء متلائمة.
(ب) التورية: يقصد المتكلم بها معنًى واحدًا، هو البعيد.
والنوع الأول من التوجيه لا يترجح فيه أحد المعنيين على الآخر.
(ج) لفظ التورية: له معنيان بأصل الوضع.

وألفاظ النوع الثاني من التوجيه ليس لها إلا معنًى واحد بأصل الوضع، ويكون هو المقصود من الكلام.

(٢٦) نفي الشيء بإيجابه

نفي الشيء بإيجابه: هو أن ينفي متعلق أمر عن أمر، فيوهم إثباته له، والمراد نفيه عنه أيضًا، نحو قوله تعالى: ﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾[٢١] فإن نفي إلهاء التجارة منهم إثباتها لهم، والمراد نفيها أيضًا.

(٢٧) القول بالموجب

القول بالموجب نوعان:

الأول: أن يقع في كلام الغير إثبات صفة لشيء وترتيب حكم عليها، فينقلُ السامع تلك الصفة إلى غير ذلك الشيء من غير تعرض لثبوت ذلك الحكم له أو انتقائه عنه، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢٢] فالمنافقون أرادوا بالأعز أنفسهم، وبالأذل المؤمنين، ورتبوا على ذلك الإخراج من المدينة، فنقلت صفة العزة للمؤمنين، وأبقيت صفة الأذلية للمنافقين، من غير تعرض لثبوت حكم الإخراج للمتصفين بصفة العزة ولا لنفيه عنهم.

والثاني: حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده بذكر متعلق له كقوله:

وقالوا قد صفت منا قلوب   لقد صدقوا ولكن عن ودادي

أراد بصفو قلوبهم «الخلوص» فحمله على الخلو بذكر متعلقه، وهو قوله: «عن ودادي».

(٢٨) ائتلاف اللفظ مع المعنى

ائتلاف اللفظ مع المعنى: هو أن تكون الألفاظ موافقة للمعاني، فتختار الألفاظ الجزلة والعبارات الشديدة للفخر والحماسة، وتختار الكلمات الرقيقة والعبارات اللينة للغزل والمدح، كقوله:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
إذا ما أعرنا سيدًا من قبيلة ذرا منبر صلَّى علينا وسلَّما

وكقوله:

ولست بنظار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء في جانب الفقر

وكقوله:

لم يطل ليلي ولكن لم أنم ونفى عني الكرى طيف ألم

(٢٩) التفريع

التفريع: هو أن يثبت حكم لمتعلق أمر بعد إثباته لمتعلق له آخر، كقول الشاعر:

فاضت يداه بالنضار كما فاضت ظباه في الوغى بدمي

وكقوله:

أحلامكم لسقام الجهل صافية كما دماؤكم تشفي من الكلب

(٣٠) الاستتباع

الاستتباع:[٢٣] هو الوصف بشيء على وجه يستتبع الوصف بشيء آخر، مدحًا أو ذمًّا، يعني أن الاستتباع هو المدح على وجه يستتبع المدح بأمر آخر، كقوله:

ألا أيها المال الذي قد أباده   تسل فهذا فعله بالكتائب

وكقوله:

سمح البديهة ليس يمسك لفظه   فكأن ألفاظه من ماله

وكقوله:

الحرب نزهته والبأس همته   والسيف عزمته والله ناصره

وقيل: إنه يكون أيضًا في الذم، كقول بعضهم في «قاضٍ» لم يقبل شهادته برؤية هلال الفطر:

أترى القاضي أعمى   أم تراه يتعامى
سرق العيد كأن الـ   ـعيد أموال اليتامى

(٣١) السلب والإيجاب

السلب والإيجاب: هو أن يقصد المتكلم تخصيص شيء بصفة فينفيها عن جميع الناس، ثم يثبتها له مدحًا أو ذمًّا، فالمدح كقول الخنساء:

وما بلغت كفُّ امرئ متناولا   من المجد إلا والذي نلت أطول
ولا بلغ المهدون للناس مدحة   وإن أطنبوا إلا الذي فيك أفضل

والذم كقول بعضهم:

خُلقوا وما خُلقوا لمكرُمة فكأنهم خُلقوا وما خُلقوا
رُزقوا وما رُزقوا سماحَ يد فكأنهم رُزقوا وما رُزقوا

(٣٢) الإبداع

الإبداع: هو أن يكون الكلام مشتملًا على عدة أنواع من البديع، كقول الشاعر:

فضحت الحيا والبحر جودًا فقد بكى الحيا من حياء منك والتطم البحر [٢٤]

(٣٣) الأسلوب الحكيم

الأسلوب الحكيم: هو تلقي المخاطب بغير ما يترقبه:

(١) إما بترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله.
(٢) وإما بحمل كلام المتكلم على غير ما كان يقصد ويريد؛ تنبيهًا على أنه كان ينبغي له أن يسأل هذا السؤال، أو يقصد هذا المعنى.

فمثال الأول: ما فعل القبعثري بالحجَّاج؛[٢٥] إذ قال له الحجاج متوعدًا: «لأحملنك على الأدهم.» يريد الحجاجُ: القيد الحديد الأسود، فقال القبعثري: «مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب.» يعني الفرس الأسود والفرس الأبيض، فقال له الحجاج: أردت «الحديد»؟ فقال القبعثري: لأن يكون حديدًا خير من أن يكون بليدًا. ومراده تخطئة الحجاج بأن الأليق به الوعد «لا الوعيد».[٢٦]

ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ سألوا النبي — عليه الصلاة والسلام — عن حقيقة ما ينفقون مالهم، فأجيبوا ببيان طرق إنفاق المال؛ تنبيهًا على أن هذا هو الأولى والأجدر بالسؤال عنه.

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾.[٢٧]

وقال ابن حجاج البغدادي:

قلتُ: ثقلتُ؛ إذ أتيت مرارًا قال: ثقلت كاهلي بالأيادي
قلتُ: طولتُ! قال: أوليت طوْلا قلت: أبرمت! قال: حبل ودادي[٢٨]

فصاحب ابن حجاج يقول له: قد ثقلت عليك بكثرة زياراتي، فيصرفه عن رأيه في أدب وظرف، وينقل كله من معنًى إلى معنًى آخر.

وقول الشاعر:

ولما نعى الناعي سألناه خشية وللعين خوف البين تسكاب أمطار
أجاب: قضى، قلنا: قضى حاجة العلا فقال: مضى، قلنا: بكلِّ فخار

ويُحكى أنه لما توجه «خالد بن الوليد» لفتح الحيرة، أتى إليه من قبل أهلها رجل ذو تجربة، فقال له «خالد»: فيمَ أنت؟ قال: في ثيابي. فقال: علامَ أنت؟ فأجاب: على الأرض. فقال: كم سِنك؟ قال: اثنتان وثلاثون. فقال: أسألك عن شيء وتجيبني بغيره؟ فقال: إنما أجبتك عما سألت.

(٣٤) تشابه الأطراف

تشابه الأطراف قسمان: معنوي ولفظي.

فالمعنوي: هو أن يختم المتكلم كلامه بما يناسب ابتداءه في المعنى، كقوله:

ألذ من السحر الحلال حديثه وأعذب من ماء الغمامة ريقه

فالريق يناسب اللذة في أول البيت.

واللفظي: نوعان:

الأول: أن ينظر الناظم أو الناثر إلى لفظة وقعت في آخر المصراع الأول أو الجملة، فيبدأ بها المصراع الثاني أو الجملة التالية، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾.

وكقول أبي تمام:

هوًى كان خلسًا إن من أبرد الهوى   هوى جلتُ في أفيائه وهو خامل

الثاني: أن يعيد الناظم لفظة القافية من كل بيت في أول البيت الذي يليه، كقوله:

رمتني وستر الله بيني وبينها   عشية آرام الكناس رميم
رميم التي قالت لجيران بيتها   ضمنت لكم ألا يزال يهيم

وقوله:

إذا نزل الحجاج أرضًا مريضة   تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها   غلام إذا هزَّ القناة سقاها
سقاها فروَّاها بشرب سجالها   دماء رجال حيث مال حشاها

(٣٥) العكس

العكس هو أن تقدم في الكلام جزءًا، ثم تعكس بأن تقدم ما أخرتَ، وتؤخِّر ما قدمت. ويأتي على أنواع:

(أ) أن يقع العكس بين أحد طرفي جملة، وما أضيف إليه ذلك الطرف، نحو: «كلام الملوك ملوك الكلام».

وكقول المتنبي:

إذا أمطرت منهم ومنك سحابة   فوابلهم طلٌّ وطلك وابل

(ب) أن يقع العكس بين متعلقي فعلين في جملتين، كقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾.

(جـ) أن يقع العكس بين لفظين في طرفي الجملتين، كقوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

(د) أن يقع العكس بين طرفي الجملتين، نحو قول الشاعر:

طويت بإحراز الفنون ونيلها ... رداء شباب والجنون فنون
فحين تعاطيت الفنون وحظها ... تبين لي أن الفنون جنون

(هـ) أن يكون العكس بترديد مصراع البيت معكوسًا، نحو قول الشاعر:

إن للوجد في فؤادي تراكم ... ليت عيني قبل الممات تراكم
في هواكم يا سادتي مت وجدًا ... مت وجدًا يا سادتي في هواكم

(٣٦) تجاهل العارف

تجاهل العارف: هو سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة تجاهلًا؛ لنكتة «كالتوبيخ»، في قوله:

أيا شجر الخابور ما لك مورقًا ... كأنك لم تجزع على ابن طريف؟!

أو المبالغة في المدح، كقول البحتري:

ألمع برق سرَى أم ضوء مصباح؟ ... أم ابتسامتها بالمنظر الضاحي

أو المبالغة في الذم، كقول زهير:

وما أدري وسوف إخال أدري ... أقوم آل حصن أم نساء

أو التعجب، نحو: ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾.
إلى غير ذلك من الأغراض البديعية التي لا تُحصَى.

تمرين

بيِّن الأنواع البديعية فيما يلي:

(١) قال بعضهم في وصف إبل:

صلب العصا بالضرب قد أدماها تـودُّ أن الـلـه قـد أفـنـاهـا

(٢) وقيل في وصف إبل هزيلة:

كالقسيِّ المعطفات بل الأسـ ـهم مبرية بل الأوتـار

(٣) وللغزالة شيء من تلفته ونورها من ضيا خديه مكتسب

(٤) أفنى جيوش العدا غزوًا فلست ترى سـوى قـتـيـل ومـأسـور ومـنـهـزم

(٥) ولا عيب فيهم غير أن ذوي الندى خِـسـاس إذا قـيـسـوا بـهـم ولـئـامُ

(٦) على رأس عبد تاج عز يزينه وفـي رجل حر قيدُ ذل يشينه

(٧) إذا لم تفض عينيَّ العقيق فلا رأت مـنـازلـه بـالـقـرب تـبـهـى وتـبـهـر

(١) الضرب لفظ مشترك بين الضرب بالعصا — وهو المعنى القريب الذي لم يُقصد — والسير في الأرض وهو المعنى البعيد المقصود، والمراد بالتورية.

(٢) فيه مراعاة النظير؛ إذ وصف البحتري الإبل بالتحول، فشبهها بأشياء متناسبة، وهي: القسي، والأسهم المبرية، والأوتار.

(٣) فيه استخدام؛ إذ أراد بالغزالة الحيوان المعروف، وبضمير «نورها» الغزالة بمعنى الشمس.

(٤) فيه تقسيم؛ إذ هو قد استوفى جميع أقسام جيش العدو بحصرها في الأقسام الثلاثة.

(٥) فيه تأكيد المدح بما يشبه الذم؛ فإنه استثنى من صفة ذم منفية صفة مدح.

(٦) فيه مقابلة بين ستة وستة؛ فقد قابل بين على وفي، رأس ورجل، حر وعبد، تاج وقيد، عز وذل، يزين ويشين.

(٧) فيه استخدام؛ إذ العقيق هنا الدم الشبيه بالعقيق في الحمرة، والضمير في «منازله» يعود إليه باعتباره الوادي المعروف بظاهر المدينة ببلاد الحجاز.

تمرين آخر

(١) فلا الجود يفني المال والجد مقبل ... ولا البخل يبقي المال والجدُّ مدبر

(٢) رحم الله من تصدَّق من فضل أو آسى من كفاف، أو آثر من قوت.

(٣) رأى العقيق فأجرى ذاك ناظره ... متيم لجَّ في الأشواق خاطره

(٤) آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم ... في الحادثات إذا دجون نجوم

(٥) ما زلزلت مصر من كيد ألمَّ بها ... لكنها رقصت من عدلكم طربا

(٦) أراعي النجم في سيري إليكم ... ويرعاه من البيدا جوادي

جاءني ابني يومًا وكنت أراه ... لي ريحانة ومصدر أنس
قال: ما الروح؟ قلت: إنك روحي ... قال: ما النفس؟ قلت: إنك نفسي

(١) فيه مقابلة بين: الجود والبخل، يفنى ويبقى، مقبل ومدبر.

(٢) فيه تقسيم باستيفاء أقسام الشيء؛ لأن طبقات الناس هذه الثلاثة ليس غير.

(٣) فيه استخدام؛ فالعقيق أولًا معناه المكان المعلوم في بلاد الحجاز، والضمير يعود إليه بمعنى الحجر المعروف، وقد شبه دموعه به.

(٤) فيه الجمع؛ فقد جمع بين ثلاثة أشياء في حكم واحد.

(٥) فيه حسن التعليل؛ فقد جعل علة زلزال مصر طربًا من عدل الممدوح لا لمكروه نزل بها، وهي لا شك غير العلة التي يتعارفها الناس فيما بينهم.

(٦) فيه استخدام؛ إذ النجم الأول الكوكب، وأعاد عليه الضمير بمعنى النبات الذي لا ساق له.

تطبيق عام على البديع المعنوي

يا سيدًا حاز لطفًا له البرايا عبيد
أنت الحسين ولكن جفاك فينا يزيد

في هذا الكلام تورية، مهيأة بلفظ قبلها، فإن ذكر «الحسين» لازم لكون «يزيد» اسمًا بعد احتمال الفعل المضارع المورى عنه.

حُماة في بهجتها جَنة وهي من الغم لنا جُنة
لا تيأسوا من رحمة الله فقد رأيتم العاصي في الجنة

في هذا الكلام تورية مرشحة، فإن ذكر الرحمة ترشيح للفظ العاصي المورى به الذي هو من العصيان، والمورى عنه النهر المعروف الذي عبر حماة.

فإن ضيعت فيه جميع مالي فكم من لحية حلقت بموسى

فيه التورية المرشحة، بذكر اللحية والحلق، وهما يناسبان المورى به وهو «موسى الحديد» والمورى عنه الاسم المذكور.

يا عذولي في مغنٍّ مطرب   حرك الأوتار لما سفرا
لم تهز العطف منها طربا   عندما تسمع منه وترا

فيه تورية في لفظ «وترًا»؛ فإن معناه البعيد المراد هو الرؤية، والقريب أحد الأوتار، ولفظ «تسمع» هيأ قوله: «وترًا» للتورية.

سألته عن قومه فانثنى   يعجب من إفراط دمعي السخي
وأبصر المسك وبدر الدجى   فقال ذا خالي وهذا أخي

فيه تورية في لفظ «خالي» فمعناه البعيد المراد النقطة السوداء في الخد، والقريب أخ الأم، ولفظة «أخي» هي التي هيأت خالي للتورية، وهي بعيدة.

وساقية تدور على الندامى   وتنهرهم لسرعة شرب خمر
سنشكر يوم لهو قد تقضى   بساقية تقابلنا بنهر

«الساقية» امرأة تسقي الراح، وهذا المعنى القريب، أو ساقية الماء وهو المعنى البعيد، وكل منهما مذكور للتورية في صاحبه، ومهيئ لها فيه.

هوامش

(١) البديع: فعيل بمعنى مفعل أو بمعنى مفعول، ويأتي البديع بمعنى اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي مبدعها.

(٢) وجوه التحسين: أساليب وطرق معلومة وُضعت لتزيين الكلام وتنميقه، وتحسين الكلام بعلمي المعاني والبيان «ذاتي»، وتحسين الكلام بعلم البديع «عرضي».

ووجوه التحسين: إما معنوية وإما لفظية، وأدخل المتأخرون فيهما أنواعًا كثيرة، فالبديع المعنوي هو الذي وجبت فيه رعاية المعنى دون اللفظ، فيبقى مع تغيير الألفاظ، كقوله:

أتطلب صاحبًا لا عيب فيه   وأنت لكل ما تهوى ركوب

ففي هذا القول ضربان من البديع «هما الاستفهام والمقابلة» لا يتغيران بتبدل الألفاظ، كما لو قلت مثلًا: كيف تطلب صديقًا منزهًا عن كل نقص مع أنك أنت نفسك ساعٍ وراء شهواتك؟!

والبديع اللفظي: هو ما رجعت وجوه تحسينه إلى اللفظ دون المعنى، فلا يبقى الشكل إذا تغير اللفظ، كقوله:

إذا ملك لم يكن ذا هبة   فدعه فدولته ذاهبه

فإنك إذا أبدلت لفظه «ذا هبة» بغيرها ولو بمعناها يسقط الشكل البديعي بسقوطها.

وملخص القول أن: «المحسنات المعنوية» هي ما كان التحسين بها راجعًا إلى المعنى أولًا وبالذات، وإن حسنت اللفظ تبعًا. و«المحسنات اللفظية» هي ما كان التحسين بها راجعًا إلى اللفظ بالأصالة، وإن حسنت المعنى تبعًا.

وقد أجمع العلماء على أن هذه المحسنات — خصوصًا اللفظية منها — لا تقع موقعها من الحسن إلا إذا طلبها المعنى، فجاءت عفوًا بدون تكلف، وإلا فهي مبتذلة.

(١) التورية أن يطلق لفظ له معنيان: أحدهما قريب غير مراد، والآخر بعيد هو المراد، ويدل عليه بقرينة يغلب أن تكون خفية لا يُدركها إلا الفطن.

وتنقسم التورية إلى أربعة أقسام: مجردة، ومرشحة، ومبينة، ومهيأة.

(أ) فالمجردة: هي التي لم تقترن بما يلائم المعنيين، كقول الخليل لما سأله الجبار عن زوجته فقال: «هذه أختي» أراد أخوة الدين، وكقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾.

(ب) المرشحة: هي التي اقترنت بما يلائم المعنى القريب، وسميت بذلك؛ لتقويتها به؛ لأن القريب غير مراد، فكأنه ضعيف، فإذا ذُكر لازِمُه تَقَوَّى به، نحو: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ فإنه يحتمل «الجارحة» وهو القريب، وقد ذكر من لوازمه البنيان على وجه الترشيح، ويحتمل «القدرة» وهو البعيد المقصود. وهي قسمان باعتبار ذكر اللازم قبلها أو بعدها.

(ج) والمبينة: هي ما ذكر فيها لازم المعنى البعيد، سميت بذلك؛ لتبيين المورَّى عنه بذكر لازمه؛ إذ كان قبل ذلك خفيًّا، فلما ذكر لازمه تبين، نحو:

يا من رآني بالهموم مطوقًا وظللت من فقدي غصونًا في شجون
أتلومني في عظم نوحي والبكا شأن المطوق أن ينوح على غصون

وهي أيضًا قسمان باعتبار ذكر اللازم قبل أو بعد.

(د) والمهيأة: هي التي لا تقطع التورية فيها إلا بلفظ قبلها أو بعدها، فهي قسمان أيضًا.

فالأول: وهو ما تتهيأ بلفظ قبل، نحو قوله:

وأظهرت فينا من سماتك سنة فأظهرت ذاك الفرض من ذلك الندب

فالفرض والندب معناهما القريب: الحكمان الشرعيان.

والبعيد: الفرض معناه العطاء، والندب معناه الرجل السريع في قضاء الحوائج، ولولا ذكر السنة لما تهيأت التورية، ولا فهم الحكمان.

والثاني: وهو ما تهيأت بلفظ بعد، كقول الإمام علي — رضي الله تعالى عنه — في الأشعث بن قيس: إنه كان يحرك الشمال باليمين. فالشمال معناها القريب: ضد اليمين، والبعيد: جمع شَمْلة، ولو ذكر اليمين بعده لما فهم السامع معنى اليد الذي به التورية.

ومن المجردة قوله:

حملناهمو طرًّا على الدهم بعدما خلعنا عليهم بالطعان ملابسا

فإن الدهم له معنيان: قريب، وهو الخيل الدهم، وهو ليس مرادًا، وبعيد، وهو القيود الحديد السود، وهو المراد.

ومن المرشحة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ فإن المراد من اليد الذلة، وقد اقترنت بالإعطاء الذي يناسب المعنى القريب، وهو العضو.

(٢) يريد أن كف شبيب وسيفه متنافران لا يجتمعان؛ لأن شبيبًا كان قيسيًّا والسيف يُقال له: «يماني» فورى به عن الرجل المنسوب إلى اليمن، ومعلوم ما بين قيس واليمن من التنافر، فظاهر قوله: «يماني» أنه رجل منسوب إلى اليمن، ومراده البعيد: الدلالة على السيف؛ لأن كلمة يماني من أسمائه.

(٣) ملخص الاستخدام: هو أن يُؤتى بلفظ له معنيان، فيراد به أحدهما، ثم يراد بضميره المعنى الآخر، كقول الشاعر:

وللغزالة شيء من تلفته ونورها من ضيا خديه مكتسب

أراد الشاعر بالغزالة الحيوان المعروف، وبضمير «نورها» الغزالة بمعنى الشمس.
وكقوله:

رأى العقيق فأجرى ذاك ناظره متيم لج في الأشواق خاطره

وكقوله:

إذا لم أبرقع بالحيا وجه عفتي فلا أشبهته راحتي بالتكرم
ولا كنت ممن يكسر الجفن بالوغى إذا أنا لم أغضضه عن رأي مخرم

وقال الآخر في الدعاء: «أقر الله عين الأمير وكفاه شرها، وأجرى له عذبها، وأكثر لديه تبرها.»
وكقول الشاعر:

رحلتم بالغداة فبت شوقًا أسائل عنكم في كل ناد
أراعي النجم في سيري إليكم ويرعاه من البيدا جوادي

(٤) ويسمى بالمطابقة، وبالتضاد، وبالتطبيق، وبالتكافؤ، وبالتطابق. وهو أن يجمع المتكلم في كلامه بين لفظين، يتنافى وجود معناهما معًا في شيء واحد، في وقت واحد، بحيث يجمع المتكلم في الكلام بين معنيين متقابلين، سواء أكان ذلك التقابل: تقاضل الضدين، أو النقيضين، أو الإيجاب والسلب، أو التضايف.

(٥) والطباق ضربان:

أحدهما طباق الإيجاب: وهو ما لم يختلف فيه الضدان إيجابًا وسلبًا، نحو: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾.

وكقوله:

حلو الشمائل وهو مر باسل   يحمي الذمار صبيحة الإرهاق

وثانيهما طباق السلب: وهو ما اختلف فيه الضدان إيجابًا وسلبًا، بحيث يجمع بين فعلين من مصدر واحد، أحدهما مثبت مرة، والآخر منفي تارة أخرى في كلام واحد، نحو: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ﴾، ونحو: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، و﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أو أحدهما أمر والآخر نهي، نحو: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، ونحو: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾.

وملخص الطباق الذي هو الجمع بين معنيين متقابلين في كلام واحد، وهو نوعان:

طباق سلب: وهو أن يجمع بين فعلين، من مصدر واحد، أحدهما مثبت والآخر منفي، أو أحدهما أمر والآخر نهي.

طباق الإيجاب: وهو ما كان تقابل المعنيين فيه بالتضاد.

ويلحق بالطباق ما بُني على المضادة تأويلًا في المعنى، نحو: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ فإن التعذيب لا يُقابل المغفرة صريحًا، لكن على تأويل كونه صادرًا عن المؤاخذة التي هي ضد المغفرة، أو تخييلًا في اللفظ باعتبار أصل معناه، نحو: ﴿مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾؛ أي يقوده فلا يقابل الضلالة بهذا الاعتبار، ولكن لفظه يقابلها في أصل معناه، وهذا يقال له: «إيهام التضاد».

(٦) وتُسمى بالتناسب، والتوافق، والائتلاف.

(٧) فالسامع إذا وقف على قوله تعالى: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ بعد الإحاطة بما تقدم علم أنه ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾، وكذا البصير بمعاني الشعر وتأليفه إذا سمع المصرع الأول «أحلت دمي ... إلخ»، علم أن العجز «وحرمت ... إلخ» ليس إلا ما قاله الشاعر.

(٨) من الأشياء ما له صفة ثابتة، ذات علة معروفة، أو غير معروفة: كزلزلة الأرض، وسقوط المطر من السحب، ومقاتلة الأعداء، وبزوغ القمر وأفوله، ونحو ذلك، فيلتمس الأدباء لها عللًا أخرى، فيها طرافة وحسن، يزداد بها المعنى الذي يريدون تقريرًا وجمالًا وشرفًا، فحسن التعليل هو استنباط علة مناسبة للشيء غير حقيقة، بحيث تكون على وجه لطيف بليغ، يحصل بها زيادة في المقصود.

(٩) أي أن السحائب لا تقصد محاكاة جودك بمطرها؛ لأن عطاءك المتتابع أكثر من مائها وأغزر، ولكنها حمت حسدًا لك، فالماء الذي ينصب منها هو عرق تلك الحمى، فالرحضاء عرق الحمى.

وكقوله:

لم يطلع البدر إلا من تشوقه   إليك حتى يوافى وجهك النضرا
ولا تغيب إلا عند خجلته   لما رآك فولى عنك واستترا

وكقوله:

سألت الأرض لِمَ كانت مصلى   ولِمَ جُعلت لنا طهرًا وطيبا
فقالت غير ناطقة لأني   حويت لكل إنسان حبيبا

وكقوله:

عيون تبر كأنها سرقت   سواد أحداقها من الغسق
فإن دجا ليلها بظلمته   تضمها خيفة من السرق

وكقوله:

ما زلزلت مصر من كيد يراد   بها وإنما رقصت من عدله طربا

وكقوله:

لا تنكروا خفقان قلـ   ـبي والحبيب لدي حاضر
ما القلب إلا داره   دقت له فيها البشائر

وكقوله:

أرى بدر السماء يلوح حينًا ويبدو ثم يلتحف السحابا
وذاك لأنــه لـمــا تــبـدى وأبصر وجهك استحيا وغابا

وكقوله:

لم تؤذن الدنيا به في صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وكقوله:

ولـم تكن ساخطًا لـم أكن أذم الزمان وأشكو الخطوبا

وكقوله:

قـد طـيـب الأفـواه ثـنـاءه من أجل ذا تجد الثغور عذابا

(١٠) ومثله قول ابن المعتز:

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم من كثرة القتل نالها الوصب
حمرتها من دماء من قتلت والدم في السيف شاهد عجب

وكقوله:

فلئن بقيت لأرحلن بغزوة تحوي الغنائم أو يموت كريم

وكقوله:

عداتي لهم فضل عليَّ ومنة فلا أذهب الرحمن عني الأعاديا
همو بحثوا عن زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

وكقوله:

لو لم يكن أقحوانًا ثغر مبسمها ما كان يزداد طيبًا ساعة السحر

(١١) أي يشرب الكأس بكف الجواد، انتزع منه جوادًا يشرب هو بكفه عن طريق الكناية؛ لأن الشرب بكف غير البخيل يستلزم الشرب بكف الكريم، وهو لا يشرب إلا بكف نفسه، فإذًا هو ذلك الكريم.

ومن التجريد خطاب المرء نفسه، كقول المتنبي:

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

أي: الغنى، فقد انتزع من نفسه شخصًا آخر وخاطبه، وهذا كثير في كلام الشعراء، وإنما سمي هذا النوع تجريدًا؛ لأن العرب تعتقد أن في الإنسان معنًى كامنًا فيه كأنه حقيقته، فتخرج ذلك إلى ألفاظها مجردًا عن الإنسان، كأنه غيره. وفائدة هذا النوع «مع التوسع» أن يثبت الإنسان لنفسه ما لا يليق التصريح بثبوته له.

(١٢) أي: خيطوا لي جبة وقميصًا، فذكر الخياطة بلفظ الطبخ؛ لوقوعه في صحبة طبخ الطعام.

(١٣) المزاوجة يقال: زاوج؛ أي خالط، وأشبه بعضه بعضًا في السجع أو الوزن.

(١٤) الأرباض: جمع ربض، وهو ما حول المدينة، وخرشنة: بلد بالروم.

(١٥) القنا: الرماح، والمشايخ: أصحابه؛ أي: يطلب حقه بنفسه ومستعينًا بأصحابه المجربين المحنكين، ولذلك جعلهم مشايخ.

(١٦) أما الغلو فمنه مقبول، ومنه مردود، فالمقبول ثلاثة أنواع: أحدهما ما اقترن به ما يقربه للصحة «كفعل مقاربة» نحو قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾.

(١٧) أو أداة فرض، نحو قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾.

ومنه ما تضمن حسن تخييل، كقول المتنبي:

عقدت سنابكها عليها عثيرًا لو تبتغي عنقًا عليه لأمكنا

(السنابك: جمع سنبك وهو طرف مقدم الحافر. والعثير: الغبار. والعنق: ضرب من السير سريع، فسيح الخطو. يقول: إن حوافر هذه الخيل عقدت فوقها غبارًا كثيفًا، حتى لو أرادت السير عليه لكان يحملها كالأرض؛ لشدة كثافته.)

وقول المعري:

يذيب الرعب منه كل عضب   فلولا الغمد يمسكه لسالا

ومنه ما أخرج مخرج الهزل والخلاعة، كقول النظام:

توهمه طرفي فآلم طرفه   فصار مكان الوهم في خده أثر
ومر بفكري خاطرًا فجرحته   ولم أر خلقًا قط يجرحه الفكر

وقول الآخر:

لك أنف يا بن حرب   أنفت منه الأنوف
أنت في القدس تصلي   وهو في البيت يطوف

(١٨) أي: إن كان تكسر حد سيوفهم من مقارعة الجيوش عيبًا فلا عيب فيهم غيره، ومن المعلوم أنه ليس بعيبٍ. وكقول الآخر:

ولا عيب فيهم سوى أن النزيل بهم   يسلوا عن الأهل والأوطان والحشم

وقوله:

ولا عيب فيه غير أن خدوده   بهن احمرار من عيون المتيم

وقوله:

ليس به عيب سوى أنه   لا تقع العين على شبهه

وقوله:

ولا عيب في معروفهم غير أنه يبين عجز الشاكرين عن الشكر

وقوله:

ولا عيب فيكم غير أن ضيو فكم تعاب بنسيان الأحبة والوطن

(١٩) وهنا نوع آخر يُسمى «الهجاء في معرض المدح»، وهو أن يؤتى بكلام ظاهره مدح وباطنه ذم، كقوله:

أبو جعفر رجل عالم بما يصلح المعدة الفاسده
تخوف تخمة أضيافه فعودهم أكلة واحده

(٢٠) ومثل أداة الاستثناء في ذلك أداة الاستدراك في قول الشاعر:

وجوه كأظهار الرياض نضارة ولكنها يوم الهياج صخور

وكقوله:

هو البدر إلا أنه البحر زاخرًا سوى أنه الضرغام لكنه الوبل

أدرك أهل البيان «التدبيج» في الطباق، وأفرده أهل البديع، وهو الأولى؛ لجواز أن لا يقع «التقابل» بين الألوان، فيفوت «الطباق».

(٢١) مقتطع من الآية التي مرت في مبحث ترك المسند، حيث يقول: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ فإن قوله: ﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾ يوهم أن لهم تجارة، غير أنهم لا يلتهون بها، ولكن المراد أنهم ليس لهم تجارة حتى يلتهوا بها؛ لأن رجال الجنة لا يتعاطون التجارة.

(٢٢) تلخيص العبارة: أن الكافرين حكموا لأنفسهم بالعزة، وللمؤمنين بالذلة، وقالوا: إن رجعنا إلى المدينة نخرجهم منها، فحكم بالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ولم يقل: إنهم يخرجون أولئك منها، ولا أنهم لا يخرجونهم.

(٢٣) ويُسمى الرجوع، وهو العود على الكلام السابق بالنقض لنكتة، كقول زهير:

قف بالديار التي لم يعفها القِدَم   بلى وغيرها الأرواح والدِّيَم

وكقوله:

وما ضاع شعري عندكم حين   قلته بلى وأبيكم ضاع فهو يضوع

(٢٤) فإن فيه حسن التعليل في قوله: «بكى الحيا من حياء منك»، وفيه التقسيم في قوله: «فضحت الحيا والبحر» حيث أرجع ما لكلٍّ إليه على التعيين بقوله: «بكى الحيا» و«التطم البحر»، وفيه المبالغة في جعله بكاء الحيا والتطام البحر حياء من الممدوح، وفيه الجمع في قوله: «فضحت الحيا والبحر»، وفيه رد العجز على الصدر في ذكر البحر والبحر، وفيه الجناس التام: بين «الحيا والحياء». وللقرآن الكريم اليد البيضاء في هذا النوع؛ فقد وجد اثنان وعشرون نوعًا في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ مع كون الآية سبع عشرة لفظة، ولا بد لي من ذكرها؛ تبركًا بها، وإلجامًا لبعض المعاصرين الذين يتفوهون بما لا يليق ذكره، بالنسبة لكلام رب العالمين. (١) ففيها «المناسبة التامة» بين ابلعي واقلعي. (٢) الاستعارة فيهما. (٣) الطباق بين الأرض والسماء. (٤) المجاز في قوله: «يا سماء» فإن الحقيقة يا مطر. (٥) الإشارة في: «وغيض الماء» فإنه عبر به عن معانٍ كثيرة، فإن الماء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء، وتبلع الأرض ما يخرج منها من عيون الماء. (٦) الإرداف في قوله: «واستوت على الجودي» فإنه عبر عن استقرارها في المكان بلفظ قريب من لفظ المعنى. (٧) التمثيل في قوله: «وقُضي الأمر» فإنه عبر عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بلفظ بعيد عن الموضوع. (٨) التعليل؛ فإن غيض الماء علة الاستواء. (٩) التقسيم؛ فإنه استوفى أقسام الماء حال نقصه. (١٠) الاحتراس في قوله: «وقيل بعدًا للقوم الظالمين»؛ إذ الدعاء يُشعر بأنهم مستحقوا الهلاك؛ احتراسًا من ضعيف يتوهم أن الغرق لعمومه ربما يشمل غير المستحق. (١١) الانسجام؛ فإن الآية منسجمة كالماء الجاري في سلاسته. (١٢) حسن التنسيق؛ فإنه تعالى قص القصة، وعطف بعضها على بعض بحسن الترتيب. (١٣) ائتلاف اللفظ مع المعنى؛ لأن كل لفظة لا يصلح لمعناها غيرها. (١٤) الإيجاز؛ فإنه

سبحانه وتعالى أمر فيها، ونهى، وأخبر، ونادى، ونعت، وسمى، وأهلك، وأبقى، وأسعد وأشقى، وقص من الأنباء ما لو شُرح لجفت الأقلام. (١٥) التسهيم؛ إذ أول الآية يدل على آخرها. (١٦) التهذيب؛ لأن مفرداتها موصوفة بصفات الحسن؛ لأن كل لفظة سهلة مخارج الحروف، عليها رونق الفصاحة، سليمة من التنافر، بعيدة من عقادة التراكيب. (١٧) حسن البيان؛ لأن السامع لا يشكل عليه في فهم معانيها بشيء. (١٨) الاعتراض وهو قوله: «وغيض الماء واستوت على الجودي». (١٩) الكناية؛ فإنه لم يصرح بمن أغاض الماء، ولا بمن قضى الأمر وسوى السفينة، ولا بمن قال: «وقيل بعدًا»، كما لم يصرح بقائل: «يا أرض ابلعي ماء و يا سماء أقلعي» في صدر الآية؛ سلوكًا في كل واحد من ذلك سبيل الكناية. (٢٠) التعريض؛ فإنه تعالى عرض بسالكي مسالكهم في تكذيب الرسل ظلمًا، وأن الطوفان وتلك الصورة الهائلة ما كانت إلا بظلمهم. (٢١) التمكين؛ لأن الفاصلة قارة متمكنة في موضعها. (٢٢) الإبداع الذي نحن بصدد الاستشهاد له. وفيها غير ذلك، وقد أفردت هذه الآية الشريفة بتآليف عديدة؛ لما اشتملت عليه من البلاغة، حتى عدَّ بعضهم فيها مائة وخمسين نوعًا، وقد أجمع المعاندون على أن طوق البشر عاجز عن الإتيان بمثلها.

(٢٥) هو الحجاج بن يوسف الثقفي، كان عاملًا على العراق وخراسان لعبد الملك بن مروان، ثم الوليد من بعده، وكان شديد البطش، قاسيًا، حتى ضُرب المثل بجوره وظلمه، توفي سنة ٩٥هـ.

(٢٦) سبب ذلك أن الحجاج بلغه أن القبعثري لما ذُكر الحجاج بينه وبين أصحابه في بستان قال: اللهم سوِّد وجهه، واقطع عنقه، واسقني من دمه. فوُشي به إلى الحجاج، فلما مثل بين يديه، وسأله عن ذلك، قال: إنما أردت «العنب». فقال له الحجاج ما ذُكر.

ومثل ذلك قول الشاعر:

ولقد أتيت لصاحبي وسألته ... في قرض دينار لأمر كانا
فأجابني والله داري ما حوت ... عينًا فقلت له ولا إنسانا

وسئل تاجر: كم رأس مالك؟ فقال: إني أمين، وثقة الناس بي عظيمة.

وقال الشاعر:

طلبت منه درهمًا يومًا فأظهر العجب
وقال ذا من فضة يُصنع لا من الذهب

وسئل أحد العمال: ماذا ادخرت من المال؟ فقال: لا شيء يُعادل الصحة.

(٢٧) بيان ذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ سألوه عن الأهلة لِمَ تبدو صغيرة، ثم تزداد حتى يتكامل نورها، ثم تتضاءل حتى لا تُرى؟ «وهذه مسألة دقيقة من علم الفلك» تحتاج إلى فلسفة عالية وثقافة عامة، فصرفهم عنها ببيان أن الأهلة وسائل للتوقيت في المعاملات والعبادات؛ إشارة إلى أن الأولى بهم أن يسألوا عن هذا.

(٢٨) فقد وقع لفظ «ثقلت» في كلام المتكلم بمعنى «حملتك المئونة» فحمله المخاطب على الإكثار من المنن والأيادي، و«أبرمت» وقع في كلامه بمعنى «أمللت» فحمله المخاطب على إبرام حبل الوداد وإحكامه، وليس في «طولت» الأولى التي هي من طول الإقامة، وتطولت من التطول (وهو التفضل) شاهد.

الباب الثاني

في المحسنات اللفظية

(١) الجناس

الجناس:[1] هو تشابه لفظين في النطق، واختلافهما في المعنى.

وهو ينقسم إلى نوعين: لفظي ومعنوي.

(١-١) أنواع الجناس اللفظي

(١) منها الجناس التام: وهو ما اتفق فيه اللفظان المتجانسان في أربعة أشياء: «نوع الحروف، وعددها، وهيئآتها الحاصلة من الحركات والسكنات، وترتيبها» مع اختلاف المعنى.

فإن كان اللفظان المتجانسان من نوع واحد: «كاسمين، أو فعلين، أو حرفين» سُمِّي الجناس «مماثلًا[2] ومستوفيًا» نحو: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ فالمراد بالساعة الأولى يوم القيامة، وبالساعة الثانية المدة من الزمان.

ونحو: رَحَبة رَحْبة. فرحبة الأولى: فناء الدار، ورحبة الثانية: بمعنى واسعة.

وإن كانا من نوعين: «كفعل واسم» سمي الجناس مستوفيًا، نحو: «ارعَ الجار ولو جار».

وكقول الشاعر:

ما مات من كرم الزمان فإنه ... يحيا لدى يحيى بن عبد الله

فيحيا الأول فعل مضارع، ويحيى الثاني اسم الممدوح.

ونحو:

إذا رماك الدهر في معشر　　　قد أجمع الناس على بغضهم
فدارِهِمْ ما دامت في دارِهِمْ　　　وأرضِهِمْ ما دمت في أرضِهِمْ

والجناس التام: مما لا يتفق للبليغ إلا على ندور وقلة، فهو لا يقع موقعه من الحسن حتى يكون المعنى هو الذي استدعاه وساقه، وحتى تكون كلمته مما لا يبتغي الكاتب منها بدلًا، ولا يجد منها حولًا.

ومنها الجناس غير التام: وهو ما اختلف فيه اللفظان في واحد أو أكثر من الأربعة السابقة، ويجب ألا يكون بأكثر من حرف. واختلافهما يكون إما بزيادة حرف:

«في الأول» نحو: دوام الحال من المحال.

أو «في الوسط» نحو: جَدِّي جَهْدي.

أو «في الآخر»: الهوى مطية الهوان.

والأول يُسمى «مردوفًا»، والثاني يُسمى «مكتنفًا»، والثالث «مطرفًا»، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾.

وكقول الشاعر:

فإن حلوا فليس لهم مقرٌّ　　　وإن رحلوا فليس لهم مقر

وكقوله عليه السلام: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة.»

ومن اختلاف أعدادها قولك: هذا بناء ناءٍ.

ومن اختلاف ترتيب الحروف قوله: «في حسامه فتح لأوليائه وحتف لأعدائه.» ومن هذا قول الأحنف:

حسامك فيه للأحباب فتح　　　ورمحك فيه للأعداء حتف

ومن اختلاف الهيئة قول الشاعر:

الجد في الجد والحرمان في الكسل　　　فانْصَب تُصِب عن قريب غاية الأمل

(٢) ومنها الجناس المطلق: وهو توافق ركنيه في الحروف وترتيبها بدون أن يجمعهما اشتقاق، كقوله ﷺ: «أَسْلَمُ» سالَمها اللهُ، و«غِفَارٌ» غَفَرَ اللهُ لها، و«عُصَيَّةُ» عَصَتِ اللهَ ورسولَه.

فإن جمعهما اشتقاق، نحو ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾. فقيل: يُسمى جناس الاشتقاق.[٣]

(٣) ومنها: «الجناس المذيل» و«الجناس المطرف».

فالأول: يكون الاختلاف بأكثر من حرفين في آخره.

والثاني: يكون الاختلاف بزيادة حرفين في أوله.

فالجناس المذيل كقول أبي تمام:

يمدون من أيد عواص عواصم　　تصول بأسياف قواض قواضب

والجناس المطرف كقول الشيخ عبد القاهر:

وكم سبقت منه إليَّ عوارف　　ثنائي على تلك العوارف وارف
وكم غرر من بره ولطائف　　لشكري على تلك اللطائف طائف

(٤) ومنها: «الجناس المضارع» و«الجناس اللاحق».

فالجناس المضارع: يكون باختلاف ركنيه في حرفين لم يتباعدا مخرجًا، إما في الأول، نحو: «ليل دامس وطريق طامس».

وإما في الوسط، نحو: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾.

وإما في الآخر، نحو قوله ﷺ: «الخيل معقود في نواصيها الخير يوم القيامة.»

والجناس اللاحق: يكون في متباعدين.

إما في الأول، نحو: ﴿هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾.

وإما في الوسط، نحو: ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.

وإما في الآخرة، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾.

(٥) ومنها: «الجناس اللفظي» وهو ما تماثل ركناه لفظًا، واختلف أحد «ركنيه» عن الآخر خطًّا.

إما الاختلاف في الكتابة بـ «النون والتنوين».

وإما الاختلاف في الكتابة بـ «الضاد والظاء» أو «الهاء والتاء».

فالأول: «وهو ما تماثل ركناه لفظًا، واختلف أحد ركنيه عن الآخر خطًّا في الكتابة بالنون والتنوين» قوله:

أعذبُ خلق الله نطقًا «وفمًا» إن لم يكن أحق بالحسن «فمَنْ»
مثل الغزال نظرةً ولفتة من ذا رآه مقبلًا ولا افتتن

والثاني: وهو اختلاف أحد «ركنيه» في الضاد والظاء، نحو قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

وكقول أبي فراس:

ما كنتَ تصبر في القديم فلِمَ صبرتَ الآن عنَّا؟
ولقد ظننتُ بكِ الظنو نَ لأنه مَنْ «ضنَّ ظنَّا»

والثالث: وهو اختلاف أحد ركنيه في الهاء والتاء، كقوله:

إذا جلست إلى قوم لتُؤنسهم بما تحدث من ماضٍ ومن آتِ
فلا تُعيدن حديثًا إنَّ طبعهمو موكل «بمعاداة المعاداتِ»

(٦) ومنها: الجناس المحرَّف و«الجناس المصحَّف».

فالأول: ما اختلف ركناه في هيآت الحروف الحاصلة من حركاتها وسكناتها، نحو: «جُبة البُرد جُنَّة البَرد».

والثاني: ما تماثل ركناه وضعًا، واختلفا نقطًا، بحيث لو زال إعجام أحدهما لم يتميز عن الآخر، كقول بعضهم: «غرَّك عزُّك فصار قصارى ذلك ذُلُّكَ فاخش فاحش فعلك؛ فعلك بهذا تهتدي».

ونحو: «إذا زلَّ العالِم زلَّ بزلته العالم».

ومثل قول أبي فراس:

من بحر شِعرك أغترف   وبفضل علمك أعترف

(٧) ومنها: «الجناس المركب» و«الجناس الملفق».

فالأول: ما اختلف «ركناه» إفرادًا وتركيبًا.

فإن كان من كلمة وبعض أخرى سُمِّي «مَرفُوًّا» مثل قول الحريري:

ولا تَلهُ عن تذكار ذنبك وابكه   بدمع يضاهي المزن حال «مُصابه»
ومثِّل لعينيك الحِمام ووقعه   وروعة ملقاه ومطعم «صابه»

وإن كان من كلمتين، فإن اتفق الركنان خطًّا سُمِّي «مقرونًا» مثل قوله:

إذا مَلِك لم يكن «ذا هِبَهْ»   فدعه فدولته «ذاهبهْ»

وإلا سُمِّي «مفروقًا» مثل قوله:

لا تعرضَنَّ على الرُّواة قصيدة   ما لم تكن بالغت في «تهذيبها»
فإذا عرضت الشِّعر غير مهذب   عدُّوه منك وساوسًا «تهذي بها»

والثاني: وهو الجناس الملفق يكون بتركيب الركنين جميعًا، مثل قوله:

وليت الحكم خمسًا وهي خمس   لعمري والصبا في العنفوان
فلم تضع الأعادي قدر «شاني»   ولا قالوا فلان قد «رشاني»

(٨) ومنها: «جناس القلب»، وهو ما اختلف فيه اللفظان في ترتيب الحروف، نحو: «حسامه فتحٌ لأوليائه وحتفٌ لأعدائه» ويُسمى «قلب كلٍّ» لانعكاس الترتيب.

ونحو: «اللهم استر عوارتنا وآمن روعاتنا»، ويُسمى «قلب بعض».

ونحو: «رحم الله امرأ أمسك ما بين فكيه، وأطلق ما بين كفيه».

وإذا وقع أحد المتجانسين في أول البيتِ والآخر في آخره سُمِّي «مقلوبًا مجنحًا» كأنه ذو جناحين مثل قوله:

«لاح» أنـوار الـهـدى   من كفه في كل «حال»

وإذا وَلِيَ أحد المتجانسين الآخر قيل له: «المزدوج».

وإن كان التركيب بحيث لو عكس حصل بعينه «فالمستوي» وهو أخص من «المقلوب المجنح» ويُسمى أيضًا «ما لا يستحيل بالانعكاس» نحو: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ ونحو: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.

وبعدُ: فلا يخفى على الأديب ما في الجناس من الاستدعاء لميل السامع؛ لأن النفس ترى حسن الإفادة، والصورة صورة تكرار وإعادة؛ ومن ثم تأخذها الدهشة والاستغراب، ولأمر ما عدَّ الجناس من حُلى الشعر.

(١-٢) أنواع الجناس المعنوي

الجناس المعنوي نوعان: جناس إضمار وجناس إشارة.

(أ) فـ «جناس الإضمار» أن يأتي بلفظ يُحْضِرُ في ذهنك لفظًا آخر، وذلك اللفظ المحضر يراد به غير معناه، بدلالة السِّياق، مثل قوله:

«مُنعَّم» الجسم تحكي الماء رقته   وقلبه «قسوة» يحكي أبا أوس

و«أوس» شاعر مشهور من شعراء العرب، واسم أبيه حجر، فلفظ أبي «أوس» يحضر في الذِّهن اسمه، وهو «حجر» وهو غير مراد، وإنما المراد الحجر المعلوم. وكان هذا النوع في مبدئه مستنكرًا، ولكنَّ المتأخرين ولعوا به، وقالوا منه كثيرًا، فمن ذلك قول البهاء زهير:

وجاهل طال به عنائي   لازمني وذاك من شقائي
أبغض للعين من الأقذاء   أثقل من شماتة الأعداء
فهو إذا رأته عين الرائي   أبو معاذ أو أخو الخنساء

(ب) و«جناس الإشارة» هو ما ذُكر فيه أحد الركنين، وأُشير للآخر بما يدل عليه؛ وذلك إذا لم يساعد الشعر على التصريح به، نحو:

يا «حمزة» اسمح بوصل وامنن علينا بقرب
في ثغرك اسمك أضحى مصحَّفًا وبقلبي

فقد ذكر الشاعر أحد المتجانسين وهو «حمزة»، وأشار إلى الجناس فيه بأن مصحفه في ثغره؛ أي: «خمرة» وفي قلبه أي: «جمرة».

وبعدُ: فاعلم أنه لا يُستحسن الجناس، ولا يعد من أسباب الحسن — إلا إذا جاء عفوًا، وسمح به الطبع من غير تكلف؛ حتى لا يكون من أسباب ضعف القول وانحطاطه، وتعرض قائله للسخرية والاستهزاء.

(٢) التصحيف

التصحيف: هو التشابه في الخط بين كلمتين فأكثر، بحيث لو أُزيل أو غُيرت نُقط كلمة كانت عين الثانية، نحو: «التخلي، ثم التحلي، ثم التجلي».

(٣) الازدواج

الازدواج: هو تجانس اللفظين المجاورين، نحو: «مَنْ جَدَّ وَجَدَ، ومن لَجَّ ولج».

(٤) السجع

السجع: هو توافق الفاصلتين[٤] في الحرف الأخير من «النثر»، وأفضله ما تساوت فِقَرُهُ، وهو ثلاثة أقسام:

أولها: «السجع المطرَّف»؛ وهو ما اختلفت فاصلتاه في الوزن، واتفقتا في التقفية، نحو قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾. ونحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾.

ثانيها: «السجع المرصَّع»؛ وهو ما اتفقت فيه ألفاظ إحدى الفقرتين أو أكثرها في الوزن والتقفية، مثل قول الحريري: «هو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه.»[٥] ومثل قول الهمذاني: «إن بعد الكدر صفوًا، وبعد المطر صحوًا.»

ثالثها: «السجع المتوازي»؛ وهو ما اتفقت فيه الفقرتان في الوزن والتقفية، نحو قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ لاختلاف سرر وأكواب وزنًا وتقفية.

ونحو قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ لاختلاف المرسلات والعاصفات وزنًا فقط، ونحو: «حسد الناطق والصامت، وهلك الحاسد والشامت» لاختلاف ما عدا الصامت والشامت تقفيةً فقط.

والأسجاع مبنية على سكون أواخرها، وأحسن السجع ما تساوت فقره، نحو قوله تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾، ثم ما طالت فقرته الثانية، نحو قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾، ثم ما طالت ثالثته، نحو قوله تعالى: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ ولا يحسن عكسه؛ لأن السامع ينتظر إلى مقدار الأول، فإذا انقطع دونه أشبه العِثار.[٦] ولا يحسن السجع إلا إذا كانت المفردات رشيقة، والألفاظ خدم المعاني، ودلت كل من القرينتين على معنًى غير ما دلت عليه الأخرى، وحينئذ يكون حلية ظاهرة في الكلام.

والسجع موطنه النثر، وقد يجيء في الشعر نادرًا، مثل قوله:

فنحن في جزل　　والروم في وجل
والبر في شُغل　　والبحر في خجل

ولا يُستحسن السجع أيضًا إلا إذا جاء عفوًا، خاليًا من التكلف والتصنع؛ ومن ثم لا تجد لبليغ كلامًا يخلو منه، كما لا تخلو منه سورة وإن قصرت.

(٥) الموازنة

الموازنة: هي تساوي الفاصلتين في الوزن دون التقفية، نحو قوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ فإن مصفوفة ومبثوثة متَّفقتان في الوزن دون التقفية.

ونحو قول الشاعر:

أفاد فساد وقاد فزاد　　وساد فجاد وعاد فأفضل

(٦) الترصيع

التَّرصيع: هو توازن الألفاظ مع توافق الأعجاز أو تقاربها.

مثال التوافق: نحو قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾.

ومثال التقارب نحو قوله سبحانه: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

(٧) التشريع

التشريع: هو بناء البيت على قافيين، يصح المعنى عند الوقوف على كلٍّ منها كقول الشاعر:

يا خاطب الدنيا الدنيَّة إنها	شرَكُ الرَّدى وقرارة الأقذار
دارٌ متى ما أضحكت في يومها	أبكت غدًا تبًّا لها من دار
وإذا أظلَّ سحابها لم ينتفع	منه صدًى لجهامه الغرَّار
غاراتها لا تنقضي وأسيرها	لا يُفتدَى بجلائل الأخطار

فتكون هذه الأبيات من «بحر الكامل»، ويصح أيضًا الوقوف على «الرَّدَى وغدَا وصدَى، ويفتدى» وتكون إذًا من «مجزوء الكامل» وتُقرأ هكذا:

يا خاطب الدنيا الدَّنيَّـ	ـة إنها شرك الرَّدَى
دار متى ما أضحكت	في يومها أبكت غدَا
وإذا أظل سحابها	لم ينتفع منه صدى
غاراتها لا تنقضي	وأسيرُها لا يُفتدى

وكقوله:

يا أيها الملك الذي عمَّ الورى	ما في الكرام له نظير يُنظر
لو كان مثلك آخر في عصرنا	ما كان في الدنيا فقير مُعسر

إذ يمكن أن يقال أيضًا في هذين البيتين:

يا أيها الملك الذي ما في الكرام له نظير
لو كان مثلك آخر ما كان في الدنيا فقير

(٨) لزوم ما لا يلزم

لزوم ما لا يلزم: هو أن يجيء قبل حرف الرَّويِّ أو ما في معناه من الفاصلة بما ليس بلازم في التقفية، ويُلتزم في بيتين أو أكثر من «النظم» أو في فاصلتين أو أكثر من «النثر»، نحو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.
وكقول الطُّغرائي في أول لاميته المشهورة:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل وحلية الفضل زانتني لدى العطل

وكقوله:

يا محرقًا بالنَّار وجه محبِّه مهلًا فإنَّ مدامعي تطفيه
احرق بها جسدي وكل جوارحي واحرص على قلبي فإنَّك فيه

وقد يُلتزم أكثر من حرف، مثل قوله:

كُلْ واشرب الناس على خِبرة فهم يمرُّون ولا يُعذَّبون
ولا تُصدِّقهم إذا حدثوا فإنهم من عهدهم يكذبون

(٩) رد العجز على الصدر

(أ) ردُّ العجز على الصدر «في النثر»: هو أن يُجعل أحد اللفظين المكررين، أو المتجانسين، أو الملحقين بهما (بأن جمعهما اشتقاق أو شبهه) في أول الفقرة، ثم تُعاد في آخرها، مثل قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾، وقولك: «سائلُ» اللئيم يرجع ودمعه «سائل».
فسائل الأول من السؤال، وسائل الثاني من السَّيلان.

ونحو قوله سبحانه: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾.

واللذان يجمعهما شبه اشتقاق، نحو قوله عز وجل: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾.

(ب) رد العجز على الصدر «في النظم»: هو أن يكون أحدهما في آخر البيت، والآخر يكون:

إما في صدر المصراع الأول، أو في حشوه، أو في آخره.[٧]

وإما في صدر المصراع الثاني، نحو قوله:

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه وليس إلى داعي النَّدى بسريعِ

وقوله:

تمتع من شميم عرار نجدٍ فما بعد العشيَّة من عرار

وقوله:

ذوائب سود كالعناقد أُرسلت فمن أجلها منَّا النفوس ذوائب

(١٠) ما لا يستحيل بالانعكاس

ما لا يستحيل بالانعكاس: هو كون اللفظ يُقرأ طردًا وعكسًا، نحو: كن كما أمكنك، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.

وكقوله:

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم

(١١) المواربة

المواربة: هي أن يجعل المتكلم كلامه بحيث يمكنه أن يُغيِّر معناه بتحريف أو تصحيف، أو غيرهما؛ ليسلم من المؤاخذة، كقول أبي نواس:

لقد ضاع شعري على بابكم كما ضاع عِقدٌ على خالصه

فلما أنكر عليه «الرشيد» ذلك قال «أبو نواس»: لم أقل إلا:

لقد ضاء شعري على بابكم   كما ضاء عقدٌ على خالصه

(١٢) ائتلاف اللفظ مع اللفظ

ائتلاف اللفظ مع اللفظ: هو كون ألفاظ العبارة من وادٍ واحد في الغرابة والتأمل، مثل قوله سبحانه: ﴿تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾.

لما أتى «بالتاء» التي هي أغرب حروف القسم أتى «بتفتأ» التي هي أغرب أفعال الاستمرار.

(١٣) التسميط

التسميط: هو أن يجعل الشاعر بيته على أربعة أقسام، ثلاثة منها على سجع واحد، بخلاف قافية البيت كقول جنوب الهذلية:

وحربٍ وردْتَ وثغرٍ سَدَدْتَ   وعِلْجٍ شَدَدْتَ عليه الحِبالا

وقوله:

في ثغوه لَعَسٌ في خده قَبَسٌ   في قده مَيَسٌ في جسمه ترف

(١٤) الانسجام أو السهولة

الانسجام أو السهولة: هو سلامة الألفاظ، وسهولة المعاني، مع جزالتهما وتناسبهما، مثل قول الشاعر:

ما وهب الله لامرئ هبة   أفضل من عقله ومن أدبهْ
هما كمال الفتى فإن فُقدا   ففقده للحياة أليقُ بهْ

(١٥) الاكتفاء

الاكتفاء: هو أن يحذف الشاعر من البيت شيئًا يُستغنى عن ذكره بدلالة العقل عليه، مثل قول الشاعر:

فإنَّ المنيَّة من يخشها   فسوف تُصادمه أينما

أي أينما توجَّهَ.[٨]

(١٦) التطريز

التطريز: هو أن يكون صدر النثر أو الشِّعر مشتملًا على ثلاثة أسماء مختلفة المعاني، ويكون العجز صفة متكررة بلفظ واحد، كقول القائل:

وتسقيني وتشرب من رحيق   خليق أن يُلقب بالخلوق
كأنَّ الكأس في يدها وفيها   عقيق في عقيق في عقيق

نموذج

بيِّن ما في الأبيات الآتية من المحسِّنات اللفظية:

(١) عضنا الدهر بنابه   ليت ما حل بنا به

(٢) إلى حتفي سعى قدمي   أرى قدمي أراق دمي

(٣) لئن أخطأتُ في مدحيـ   ـك ما أخطأتَ في منعي
لقد أنزلت حاجاتي   بوادٍ غير ذي زرع

(٤) وفي الحديث: «اللهم أعطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وأَعْطِ مُمْسِكًا تلفًا.»

(٥) قد بُلينا في عصرنا بأناسٍ يظلمون الأنام ظلمًا عمًّا
يأكلون التُّراث أكلًا لمًّا ويحبون المال حبًّا جمًّا

(٦) وإن أقرَّ على رقٍّ أنامله أقر بالرق كُتَّاب الأنام له

(١) فيه جناس تام بين «بنابه» الأولى أحد أنياب الأسنان و«بنا به» الثانية المركبة من «بنا» و«به».

(٢) فيه جناس تام بين «أرى قدمي»؛ أي: أنظر قدمي، و«أراق دمي»؛ أي صب وأهدر دمي؛ أي قتلني بلا دية.

(٣) في الشطر الأخير من البيت الثاني اقتباس من الآية الكريمة: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾.

(٤) فيه سجع مرصع؛ لأن إحدى الفقرتين كالثانية في الوزن والتقفية.

(٥) في البيت الثاني اقتباس من القرآن الكريم من سورة الفجر: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾.

(٦) فيه جناس تام بين أنامله والأنام له.

هوامش

(١) ويقال له التجنيس، والتجانس، والمجانسة، ولا يستحسن إلا إذا ساعد اللفظ المعنى، ووازى مصنوعه مطبوعه، مع مراعاة النظير، وتمكن القرائن، فينبغي أن ترسل المعاني على سجيتها؛ ليكتسي من الألفاظ ما يزينها؛ حتى لا يكون التكلف في الجناس — مع مراعاة الالتئام — موقعًا صاحبه في قول من قال:

طبع المجنس فيه نوع قيادة أَوَما ترى تأليفه للأحرف

وبملاحظة ما قدمنا يكون فيه استدعاء لميل السامع والإصغاء إليه؛ لأن النفس تستحسن المكرر مع اختلاف معناه، ويأخذها نوع من الاستغراب.

وتلخيص القول في الجناس أنه نوعان: تام وغير تام.

فالتام: هو ما اتفق فيه اللفظان المتجانسان في أمور أربعة: نوع الحروف، وشكلها من الهيئة الحاصلة من الحركات والسكنات، وعددها، وترتيبها.

وغير التام: وهو ما اختلف فيه اللفظان في واحد من الأمور الأربعة، كقول الله **تعالى:** ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾.

وكقول الشاعر:

وسميَّته يَحيى ليَحيا فلم يكن ... إلى رد أمر الله فيه سبيل

وكقوله:

أشكو وأشكر فعله ... فاعجبْ لشاكٍ منه شاكر
طرْفي وطرْف النجم فيـ ... ـه كلاهما ساهٍ وساهر

وكقول ابن الفارض:

هلا نهاك عن لوم امرئ ... لم يلف غير منعم بشقاء

وكقوله:

لو زارنا طيف ذات الخيال أحيانا ... ونحن في حفر الأجداث أحيانا

وقول الخنساء:

إن البكاء هو الشفا ... ء من الجوى بين الجوانح

وقول المعري:

لم نلقَ غيرك إنسانًا يلاذ به ... فلا برحت لعين الدهر إنسانا

وقول الحريري:

لا أعطي زماني من يخفر ذمامي ولا أغرس الأيادي في أرض الأعادي

(٢) اعلم أن العبرة في المماثلة تكون بالنطق لا بالكتابة.
(٣) كقوله:

فيا دمع أنجِدني على ساكني نجد

وكقوله:

وإذا ما رياح جودك هبت صار قول العذول فيه هباء

وقول النابغة:

فيا لك من حزم وعز طواهما جديد الردى بين الصفا والصفائح

وقول البحتري:

نسيم الروض في ريح شمال وصوب المزن في راح شمول

وكقوله:

أراك فيمتلي قلبي سرورًا وأخشى أن تشط بك الديار
فجُرْ واهجُرْ، وصُدَّ ولا تَصِلْنِي رضيتُ بأن تجورَ وأنت جار

وكقوله:

من بحر جودك أغترف وبفضل علمك أعترف

وكقولهم: «خُلف الوعد خُلق الوَغْد.»

وكقول الحريري:

لهم في السَّير جَرْي السَّيْل وإلى الخير جَرْي الخيل

وكقول البستي:

بسيف الدولة اتسقت أمور رأيناها مبددة النظام

وكقول السُّبكي:

كن كيف شئت عن الهوى لا أنتهي حتى تعود لي الحياة وأنت هي

وكقوله:

خليلي إن قالت بثينة: ما له أتانا بلا وعد؟ فقولا لها: لها
أتى وهو مشغول لعظم الذي به ومن بات طول الليل يرعى السها، سها
بثينة تزري بالغزالة في الضحى إذا برزت لم تبق يومًا بها، بها

وكقوله:

سما وحمى بني سام وحام فليس كمثله سام حام

وقول أبي نواس:

عباس عباس إذا احتدم الوغى والفضل فضل والربيع ربيع

(٤) «الفاصلة» في النثر «كالقافية» في الشعر، والسجع خاص بالنثر.

(٥) ولو أبدل الأسماع بالآذان كان مثالًا للأكثر، وسُمي السجع سجعًا؛ تشبيهًا له بسجع الحمام، وفواصل الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز، موقوفًا عليها؛ لأن الغرض أن يزاوج بينها، ولا يتم ذلك إلا بالوقف.

(٦) يعني أنه لا يحسن أن يؤتى في السجع بفقرة أقصر مما قبلها كثيرًا؛ لأن السجع إذا استوفى أمده من الأولى لطولها، ثم جاءت الثانية أقصر منها، يكون كالشيء المبتور.

(٧) كقوله:

ومن كان بالبيض الكواعب مغرما　　فما زلت بالبيض القواضب مغرما

(٨) وكقوله:

ما للنوى ذنب ومن أهوى معي　　إن غاب عن إنسان عيني فهو في

وكقوله:

يا لائمي في هواها　　أفرطتَ في اللَّوْم جهلَا
ما يعلم الشوق إلا　　ولا الصبابة إلا

وكقوله:

ضلُّوا عن الماء لما أن سَرَوْا سَحَرًا　　قومي فظلوا حيارى يلهثون ظما
والله أكرمني بالماء بعدهمو　　فقلت يا ليت قومي يعلمون بما

وكقوله:

الدمع قاضٍ بافتضاحي في هوى　　ظبي يغار الغصن منه إذا مشى
وغدا بوجدي شاهد وأوشى بما　　أخفى فيالله من قاضٍ وشا

وكقوله:

لا أنتهي لا أنثني لا أرعوي　　ما دمت في قيد الحياة ولا إذا

خاتمة

في السرقات الشعرية وما يتبعها

السرقة: هي أن يأخذ الشخص كلام الغير، وينسبه لنفسه.

وهي ثلاثة أنواع: نسخ، ومسخ، وسلخ.

(أ) النسخ ويُسمى انتحالًا أيضًا: هو أن يأخذ السارق اللفظ والمعنى معًا، بلا تغيير ولا تبديل، أو بتبديل الألفاظ كلها أو بعضها بمرادفها، وهذا مذموم، وسرقة محضة، كما فعل عبد الله بن الزبير بقول معن بن أوس:[1]

إذا أنت لم تُنصف أخاك وجدته	على طرف الهجران إن كان يعقل
ويكب حد السيف من أن تُضيمه	إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل

وأما تبديل الألفاظ بمرادفها كما فُعِل بقول الحُطْيئَةَ:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها	واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فقال الآخر:

ذر المآثر لا تذهب لمطلبها	واجلس فإنك أنت الآكل اللابس

وقريب منه تبدل الألفاظ بضدها، مع رعاية النظم والترتيب، كما فُعِل بقول حسان رضي الله عنه:

بيض الوجوه كريمة أحسابهم　　　شم الأنوف من الطراز الأول

فقال غيره:

سود الوجوه لئيمة أحسابهم　　　فطس الأنوف من الطراز الآخر

(ب) والمسخ أو الإغارة: هو أن يأخذ بعض اللفظ، أو يُغَير بعض النظم، فإن امتاز الثاني بحسن السبك فممدوح، نحو قول الآخر:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته　　　وفاز بالطيِّبات الفاتك اللهج

مع قول غيره:

من راقب الناس مات همًّا　　　وفاز باللذات الجسور

فإن الثاني أعذب وأخصر، وإن امتاز الأول فقط فالثاني مذموم. وإن تساويا فالثاني لا يذم ولا يمدح، والفضل للسابق.

(ج) والسَّلخ ويُسَمَّى إلمامًا: وهو أن يأخذ السَّارق المعنى وحده، فإن امتاز الثاني فهو أبلغ، نحو قول الشاعر:

هو الصُّنْع إن يعمل فخير وإن يرث　　　فللريث في بعض المواضع أنفع

مع قول غيره:

ومن الخير بطء سيبك عنِّي　　　أسرع السحب في المسير الجهام

وإن امتاز الأول فالثاني مذموم، وإن تماثلا فهو أبعد عن الذم، كقوله:

ولم يكُ أكثر الفتيان مالًا　　　ولكن كان أرحبهم ذراعا

مع قول الآخر:

وليس بأوسعهم في الغنى ولكن معروفه أوسع

ويتَّصل بالسرقات الشعرية ثمانية أمور: الاقتباس، والتضمين، والعقد، والحل، والتلميح، والابتداء، والتَّخلص، والانتهاء.

(١) الاقتباس: هو أن يُضمِّن المتكلم منثوره أو منظومه شيئًا من القرآن، أو الحديث، على وجه لا يُشعر بأنه منهما، فمثاله من «النثر»: «فلم يكن إلا كلمح البصر أو هو أقرب حتى أنشد فأغرب.»

ونحو قول الحريري: «أنا أنبئكم بتأويله، وأميز صحيح القول من عليله.»

وكقول عبد المؤمن الأصفهاني: لا تغُرَّنك من الظلَمةِ كثرة الجيوش والأنصار ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾.

ومثاله من الشعر قوله:[٢]

وثغر تنضد من لؤلؤ بألباب أهل الهوى يلعبُ
إذا ما ادلهمت خطوب الهوى يكاد سنا برقه يذهب

وكقول الشاعر الآخر:

إن كنت أزمعت على هجرنا من غير ما جُرْم فصبر جميل
وإن تبدلت بنا غيرنا فحسبنا الله ونعم الوكيل

وكقول القائل الآخر:

لا تكن ظالمًا ولا ترضَ بالظلم وأنِكر بكل ما يُستطاع
يوم يأتي الحساب ما لظلوم من حميم ولا شفيع يُطاع

وكقول بعضهم:

إن كانت العشاق من أشواقهم جعلوا النسيم إلى الحبيب رسولا
فأنا الذي أتلو لهم يا ليتني كنت اتخذت مع الرسول سبيلا

وكقول الشاعر:

ارحلوا فلست مسائلًا عن دارهم «أنا باخع نفسي على آثارهم»

وكقول الآخر:

ولاح بحكمتي نور الهدى في ليالٍ للضلالة مدلهمه
يريد الجاهلون ليطفئون ويأبى الله إلا أن يتمه

ومثاله من الحديث في «النثر» قول الحريري: «شاهت الوجوه، وقبح اللكع ومن يرجوه.»

وكقول الحريري أيضًا: وكتمان الفقر زهادة، و«انتظار الفرج بالصبر» عبادة.

ومثاله من الحديث في «الشعر» قول الشاعر:

قال لي: إن رقيبي سيئ الخلق فداره
قلت: دعني وجهك «الجنة حُفَّت بالمكاره»

وكقول الشاعر:

فلو كانت الأخلاق تُحْوَى وراثة ولو كانت الآراء لا تتشعبُ
لأصبح كل الناس قد ضمَّهم هوى كما أن كل الناس قد ضمَّهم أب
ولكنها الأقدار «كل مُيَسَّر لما هو مخلوق له» ومُقَرَّبُ

وكقول القائل:

لا تُعَادِ الناس في أوطانهم قلما يرعى غريب الوطن
وإذا ما شئت عيشًا بينهم خالق الناس بخلق حسن[٣]

(٢) والتضمين: هو أن يضمِّن الشاعر كلامه «شيئًا من مشهور شعر الغير» مع التنبيه عليه[٤] إن لم يكن مشهورًا لدى نقاد الشعر، وذوي اللسن؛ وبذلك يزداد شعره حُسْنًا، كقول الصاحب بن عبَّاد:

أشكو إليك زمانًا ظل يعركني   عرك الأديم ومن يعدو على الزمن
وصاحبًا كنت مغبوطًا بصحبته   دهرًا فغادرني فردًا بلا سكن
وباع صفو وداد كنت أقصره   عليه مجتهدًا في السر والعلن
كأنه كان مطويًا على إحَن   ولم يكن في قديم الدهر أنشدني
«إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا   من كان يألفهم في المنزل الخشن»

وكقوله:

إذا ضاق صدري وخفت العدا   تمثلت بيتًا بحالي يليق
فبالله أبلغ ما أرتجي   وبالله أدفع ما لا أطيق

وكقول الحريري يحكي ما قاله الغلام الذي عرضه «أبو زيد» للبيع:

على أني سأنشد عند بيعي   أضاعوني وأي فتًى أضاعوا[٥]

فالمصراع الأخير «للعرجي» وهو محبوس، وأصله:

أضاعوني وأي فتًى أضاعوا   ليوم كريهة وسداد ثغر
وصبر عند معترك المنايا   وقد شُرِعت أسنتها بنحري

(٣) والعقد: هو «نظم النثر» مطلقًا لا على وجه الاقتباس، ومن شروطه أن يؤخذ «المنثور» بجملة لفظه أو بمعظمه، فيزيد الناظم فيه وينقص؛ ليدخل في وزن الشعر. فعقد القرآن الكريم كقوله:

أنلني بالذي استقرضت خطا   وأشهد معشرًا قد شاهدوه
فإن الله خلَّاق البرايا   عنت لجلال هيبته الوجوه
يقول: «إذا تداينتم بدَيْن   إلى أجل مسمًّى فاكتبوه»

وعقد الحديث الشريف كقوله:

إن القلوب لأجناد مجندة بالأذن من ربها تهوى وتأتلف
فما تعارف منها فهو مؤتلف وما تناكر منها فهو مختلف

وكقوله:

واستعمل الحلم واحفظ قول بارئنا سبحانه خلق الإنسان من عَجل

(٤) والحل: هو «نثر النظم» وإنما يُقبل إذا كان جيد السبك، حسن الموقع، كقوله:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهُّم[٦]

(٥) والتلميح: هو الإشارة إلى قصة معلومة، أو شعر مشهور، أو مثل سائر، من غير ذكره.

فالأول: وهو الإشارة إلى قصة معلومة، نحو:

يا بدر أهلك جاروا وعلموك التجري
وقبحوا لك وصلي وحسنَّوا لك هجري
فليفعلوا ما أرادوا فإنهم أهل بدر

وكقوله تعالى: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أشار «يعقوب» في كلام هنا لأولاده بالنسبة إلى خيانتهم السابقة في أمر أخيهم «يوسف».
ونحو قول الشاعر:

فوالله أدري أأحلام نائم ألمت بنا أم كان في الركب «يوشع»[٧]

والثاني: وهو الإشارة إلى شعر مشهور، نحو قول الشاعر:

لعمرو مع الرمضاء والنار تلتظي أرق وأحفى منك في ساعة الكرب

إشارة إلى قول الآخر:

المستجير بعمرو عند كربته   كالمستجير من الرمضاء بالنار

والثالث: وهو الإشارة إلى مثل سائر من غير ذكره، نحو قول الشاعر:

من غاب عنكم نسيتموه   وقلبه عندكم رهينهْ
أظنكم في الوفاء ممن   صحبته صحبة السفينهْ

(٦) وحسن الابتداء أو براعة المطلع: هو أن يجعل أول الكلام رقيقًا سهلًا، واضح المعاني، مستقلًّا عما بعده، مناسبًا للمقام، بحيث يجذب السامع إلى الإصغاء بكليته؛ لأنه أول ما يقرع السمع، وبه يعرف مما عنده. قال ابن رشيق: إن حسن الافتتاح داعية الانشراح، ومطية النجاح، وذلك مثل قول الشاعر:

المجد عُوفي إذ عُوفيت والكرم   وزال عنك إلى أعدائك السقم

وتزداد براعة المطلع حسنًا إذا دلت على المقصود بإشارة لطيفة، وتسمى براعة استهلال،[٨] وهي أن يأتي الناظم أو الناثر في ابتداء كلامه بما يدل على مقصوده منه، بالإشارة لا بالتصريح.

كقول «أبي محمد الخازن» مهنأ «الصاحب ابن عباد» بمولود:

بشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا   وكوكب المجد في أفق العلا صعدا

وقول غيره في التهنئة ببناء قصر:

قصر عليه تحية وسلام   خلعت عليه جمالها الأيام

وقول المرحوم «أحمد شوقي بك» في الرثاء:

أجل وإن طال الزمان موافي   أخلى يديك من الخليل الوافي

وقول آخر في الاعتذار:

لنار الهم في قلبي لهيب فعفوًا أيها الملك المهيب

وقد جاء في الأخبار أن الشعر قفل وأوله مفتاحه.

(٧) والتخلص: هو الخروج والانتقال مما ابتدئ به الكلام إلى الغرض المقصود، برابطة تجعل المعاني آخذًا بعضها برقاب بعض، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من نسيب إلى مدح أو غيره؛ لشدة الالتئام والانسجام.

ومنه قول الشاعر:

وإذا جلست إلى المدام وشربها فاجعل حديثك كله في الكاس
وإذا نزعت عن الغواية فليكن «لله» ذاك النزع لا للناس
وإذا أردت مديح قوم لم تلم في مدحهم فامدح «بني العباس»

وقوله:

دعت النوى بفراقهم فتشتتوا وقضى الزمان بينهم فتبددوا

وقد ينتقل مما افتتح به الكلام إلى الغرض المقصود مباشرة، بدون رابطة بينهما، ويسمى ذلك «اقتضابًا» كقول أبي تمام:

لو رأى الله أن في الشيب خيرًا جاورته الأبرار في الخلد شيبا
كل يوم تبدي صروف الليالي خلقًا من أبي سعيد غريبا

(٨) و«حسن الانتهاء» ويقال له: «حسن الختام»: هو أن يجعل المتكلم آخر كلامه عذب اللفظ، حسن السبك، صحيح المعنى، مشعرًا بالتمام؛ حتى تتحقق «براعة المقطع» بحسن الختام؛ إذ هو آخر ما يبقى منه في الأسماع، وربما حُفظ من بين سائر الكلام؛ لقرب العهد به.

يعني أن يكون آخر الكلام مستعذبًا حسنًا؛ لتبقى لذته في الأسماع، مؤذنًا بالانتهاء، بحيث لا يبقى تشوقًا إلى ما وراءه، كقول أبي نواس:

وإني جدير إذ بلغتك بالمنى وأنت بما أملت فيك جدير
فإن تولني منك الجميل فأهله وإلا فإني عاذر وشكور

وقول غيره:

بقيت بقاء الدهر يا كهف أهله وهذا دعاء للبرية شامل

وقال ابن حجة:

عليك سلام نشره كلما بدى به يتغالى الطيب والمسك يختم

وقال غيره:

ما أسأل الله إلا أن يدوم لنا لا أن تزيد معاليه فقد كملت

هوامش

(١) الزبير بفتح فكسر في هذا — ويوجد اسم آخر بضم ففتح — ومعن بضم وفتح، ومعن بن زائدة بفتح فسكون.

(٢) ولا بأس بتغيير يسير في اللفظ المقتبس للوزن أو غيره، نحو:

قد كان ما خفت أن يكونا إنَّا إلى الله راجعونا

وفي القرآن: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.
ويكون الاقتباس مذمومًا في الهزل كقوله:

أوحى إلى عشاقه طرفه هيهات هيهات لما توعدون

وردف ينطق من خلفه　　　لمثل هذا فليعمل العاملون

(٣) وينقسم الاقتباس إلى ضربين:

الأول: ضرب منه لا ينقل فيه اللفظ المقتبس عن معناه الأصلي إلى معنًى آخر كما تقدم.

الثاني: ما ينقل إلى معنًى آخر، كقول ابن الرومي:

لئن أخطأت في مديحك　　　ما أخطأت في منعي
لقد أنزلت حاجاتي　　　بوادٍ غير ذي زرع

فقد كنى بلفظ «وادٍ» عن رجل لا يُرجى نفعه ولا خير فيه، وهو في الآية الكريمة بمعنى «وادٍ» لا ماء فيه ولا نبات.

وقد أجازوا تغيير اللفظ المقتبس بزيادة فيه أو نقص أو تقديم أو تأخير كما سبق.

واعلم أن الاقتباس ثلاثة أقسام:

(أ) مقبول: وهو ما كان في الخطب والمواعظ.
(ب) ومباح: وهو ما يكون في الغزل والرسائل والقصص.
(جـ) ومردود: وهو ما كان في الهزل، كما تقدم ذكره.

(٤) أما تضمينه بلا تنبيه عليه لشهرته فكقوله:

أولى البرية طرًّا أن تواسيه　　　عند السرور الذي واسك في الحزن
«إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا　　　من كان يألفهم في المنزل الخشن»

وكقوله:

قد قلت لما اطلعت وجناته　　　حول الشقيق الغض روضة آس
أعذاره الساري العجول ترفقًا　　　ما في وقوفك ساعة من باس

فالمصراع الأخير مطلع قصيدة مشهورة لأبي تمام:

ما في وقوفك ساعة من باس   تقضي حقوق الأربع الأدراس

وأحسن التضمين أن يزيد المضمِّن في كلامه نكتة لا توجد في الأصل كالتورية والتشبيه، كما في قول ابن أبي الأصبع مضمنًا:

إذ الوهم أبدى لي لماها وثغرها   «تذكرت ما بين العذيب ربارق»
ويذكرني من قدها ومدامعي   «مجرى عوالينا ومجرى السوابق»

فالمصراعان الأخيران مطلع قصيدة لأبي الطيب المتنبي:

تذكرت ما بين العذيب وبارق   مجرى عوالينا ومجرى السوابق

يريد المتنبي أنهم كانوا نزولًا بين هذين الموضوعين، يجرون الرماح عند مطاردة الفرسان، ويسابقون على الخيل. أما الشاعر الآخر فأراد بالعذاب تصغير العذب، وعنى به شفة الحبيبة، وأراد ببرق ثغرها التشبيه بالبرق، وبما بينهما ريقًا، وهذه تورية بديعة نادرة في بابها، وشبه تبختر قدها بتمايل الرماح، وتتابع دموعه بجريان الخيل السوابق.
(٥) ولا بأس من التغيير اليسير، كقوله:

أقول لمعشر غلطوا وغضوا   من الشيخ الرشيد وأنكروه
هو ابن جلا وطلاع الثنايا   متى يضع العمامة تعرفوه

وكقوله:

طول حياة ما لها طائل   تغص عندي كل ما يُشتهَى
أصبحت مثل الطفل في ضعفه   تشابه المبدأ والمنتهى
فلم تَلُم سمعي إذا خانني   إن الثمانين وبُلِّغتها

(٦) نقول في نثر هذا البيت: لما قبحت فعلاته، وحنظلت نحلاته؛ لم يزل سوء يقتاده، ويصدق توهمه الذي يعتاده.

(٧) إشارة إلى استيقاف «يوشع» للشمس، يروى أنه عليه السلام قاتل الجبارين يوم الجمعة، فلما أدبرت الشمس خاف أن تغرب قبل أن يفرغ من قتالهم، ويدخل يوم السبت، فلا يحل له قتالهم فيه، فدعا الله، فأبقى له الشمس حتى فرغ من قتالهم.

(٨) وبراعة الطلب: هي أن يشير الطالب إلى ما في نفسه، دون أن يصرح بالطلب، نحو: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ إشارة إلى طلب النجاة لابنه. وكقوله:

وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتي بيان عندها وخطاب

أقوال أئمة العلماء الأعلام وآراء الأساتذة الكبار في تقدير كتاب جواهر البلاغة

كتب أستاذي المرحوم صاحب الفضيلة حسونة النواوي شيخ الجامع الأزهر:

الحمد لله العلي القدير، والصلاة والسلام على النبي البشير النذير، وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا طريقه المنير.

«أما بعدُ»؛ فقد اطلعت على كتاب «جواهر البلاغة»، الذي حاز كمال الصياغة، لحضرة مؤلفه الأستاذ الفاضل «السيد أحمد الهاشمي» الحائز لكمال الفضائل — فوجدته كتابًا نفيسًا، قد اشتمل على بيان بديع المعاني بأفصح عبارة، وأبلغ إشارة، وسلك فيه حضرة مؤلفه طريق التحقيق لصعاب الشوارد، مع كثرة التمارين والأمثلة والشواهد، فجاء فريدًا في بابه، مرغوبًا ونافعًا لطلابه.

أسأل الله تعالى أن يرزق مؤلفه الحسنى وزيادة، ويمنحه السعادة في الدارين والسيادة، ويُوفقه للتعلم والتعليم، ويهديه إلى الصراط المستقيم؛ إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

وكتب المغفور له سماحة السيد علي الببلاوي شيخ الجامع الأزهر:

أحمد من رصع تاج اللغة العربية «بجواهر البلاغة» فشرفها على سائر اللغات بكمال الصياغة، وأصلي وأسلِّم على أفصح ناطق بالضاد، وأجَّل داعٍ إلى الله وهادٍ، سيدنا محمد القائل: «إن من البيان لسحرًا، وإن من الشعر لحكمة»

وعلى آله وصحبه الذين بذلوا أرواحهم في صون كتاب الله الكريم، ونشر دينه القويم.

هذا؛ وقد تصفحت جملة من كتاب «جواهر البلاغة» — الذي أحكم صنعه، وأبدع تصنيفه ووضعه، حضرة الفاضل، المجد الكامل، الأستاذ «السيد أحمد الهاشمي» — فرأيته جعل فرائد فوائد الفنون الأدبية على طرف التمام، بحيث لا يُكلف طالبها أكثر من الاطلاع على كتابه؛ حتى يعود مسرور الفؤاد، قرير العين، بما وجده فيه من ضالته المنشودة، التي طالما أبعدته عنها صعوبة المؤلفات السابقة في مثل فنون البلاغة، وطولها بدون طائل.

فجزى الله حضرة هذا الأستاذ الجليل عن طالبي الاستفادة خير الجزاء، ووفقه لما فيه الخير والنفع؛ إنه سميع الدعاء.

وكتب المرحوم أستاذنا الحكيم الإمام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية:

اطلعت على كتاب «جواهر البلاغة» في علوم المعاني والبيان والبديع والسرقات الشعرية — فوجدته كتابًا عظيمًا، وأسلوبًا حكيمًا، يشهد لحضرة مؤلفه الفاضل بملاك الذوق السليم، والعقل الحكيم، هداه الله إلى الصراط المستقيم «صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين». آمين.

وكتب أخونا الأستاذ الشيخ أحمد الكناني المدرس في المدرسة التوفيقية سابقًا:

الحمد لله البديع صنعه، الحكيم وضعه، الواهب من شاء ما شاء من نعمه، المفيض على من اصطفاهم من عباده وابل فضله وكرمه، نشكره هدانا بفضله الصراط المستقيم، صراط الذين حازوا أفضل العلم والتعليم، ونصلي ونسلِّم على أبي إبراهيم، المبعوث بملة أبيه إبراهيم، سيدنا محمد ذي المقام الأسمى، الذي أنزل عليه في محكم كتابه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، الذين اجتمعت قلوبهم وقوالبهم على حبه واتباعه.

«أما بعدُ»: فإن خير الكتب ما عم نفعه، وحَسُنَ لدى العقلاء وضعه، وكان متقن البيان، واضح الحجة، قوي البرهان، وإن كتاب «جواهر البلاغة» لمن خير الكتب وضعًا، وأحسنها اختيارًا وصنعًا، لمؤلفه الفاضل الأستاذ «السيد أحمد الهاشمي» فإن لحضرته من التآليف العديدة، والتصانيف المفيدة — ما تقر

به أعين الناطقين بالضاد، ويفحم بمعجزاته كل مضاد، لا سيما هذا السِّفْر الجليل، الذي جاء دليلًا على إخلاصه في النية لأبناء أمته، وبرهانًا ساطعًا على وفائه وحسن طويته، فقد جمع فيه ما تفرق بعد أن حقق ودقق، فلا غرابة إذا احتاج إليه كل إنسان؛ لما فيه من مراعاة النظير، وحسن البيان.

فاللهَ أسأل أن ينفع بالمؤلف العباد، ويجعله بفضله كنزًا وذخرًا إلى المعاد، آمين.


هنداوي